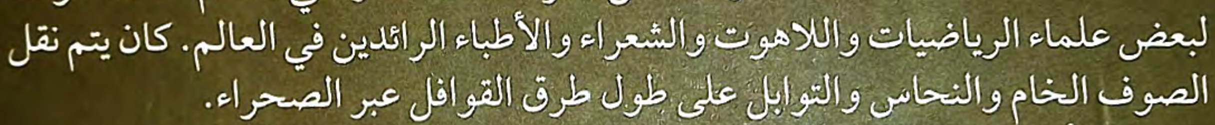

دراسة
جوناثان كوفمان
آخر ملوك شانغهاي
قصة العائلتين اليهوديتين المتنافستين اللتين
أسهمتا في نشوء الصين الجديدة
ترجمة: أحمد الزبيدي

عبر الشوارع المظلمة، هرب أغنى رجل في بغداد لينجو بحياته. قبل ذلك بساعات فقط، قام والد ديفيد ساسون بدفع فدية لإخراجه من السجن حيث قام الحاكم التركي والي بغداد بإيداعه هناك، وهدَّد بشنقه إذا لم تدفع الأسرة فاتورة ضريبية باهظة. وهناك الآن قارب يرسو في انتظار أن يأخذ ديفيد البالغ من العمر 37 عاماً إلى برِّ الأمان. ربط حزام نقود حول خصره وارتدى عباءة، وقام الخدم بوضع اللؤلؤ داخل بطانة العباءة وشرعوا بخياطتها. كتب مؤرخ العائلة واصفاً الموقف: «لم تظهر سوى عينيه اللتين كانتا تفصلان بين العمامة والعباءة الملفوفة حول جسمه وهو يتسلل عبر بوابات المدينة التي عاش فيها أجيال من أقاربه وكانت محط تقدير واحترام. كان ذلك عام 1829 حيث عاشت عائلته في بغداد مثل الملوك لأكثر من ثمانمائة عام».

كان فرار اليهود من الحكام القمعيين حدثاً تاريخياً شمل اليهود في مناطق متعددة من العالم حتى حلول القرن التاسع عشر. فقد طُردوا من بريطانيا عام1290، ومن إسبانيا عام1492. وكانت مدينة البندقية قد أمرت باحتجازهم في الأحياء اليهودية ابتداء من العام 1516. علماً أن أهوال الإبادة الجماعية (الهولوكوست) لم تكن قد حدثت بعد.

كانت رحلة ديفيد ساسون مختلفة. عاش اليهود دائماً على هامش المجتمع في أوروبا. ولكن لأكثر من ألف عام، ازدهرت حياة اليهود في بغداد، المعروفة في الكتاب المقدس باسم بابل. وكانت بغداد تُعدّ أكثر من أي مدينة في أوروبا، بل وأكثر من القدس مفترق طرق للثقافات منذ سنة 70 إلى 1400 . عندما كانت أوروبا غارقة في ظلام العصور الوسطى، كانت بغداد واحدة من أكثر المدن حضارةً في العالم. كانت موطناً



لبعض علماء الرياضيات واللاهوت والشعراء والأطباء الرائدين في العالم. كان يتم نقل الصوف الخام والنحاس والتوابل على طول طرق القوافل عبر الصحراء.

وكانت الأسواق مليئة باللآلئ والفضيات. وكان يجتمع التجار والأطباء والفنانون في مقاهي بغداد. كان قصر الحاكم محاطاً بثلاثة أميال مربعة من الحدائق المشجرة، مع نوافير وبحيرات مليئة بالأسماك.



9 789933 676261

آخر ملوك شانغهاي

قصة العائلتين اليهوديتين
المتنافستين اللتين أسهمتا
في نشوء الصين الجديدة



اسم المؤلف: جوناثان كوفمان

Author: **Jonathan Kaufman**

عنوان الكتاب: آخر ملوك شانغهاي: قصة العائلتين اليهوديتين المتنافستين اللتين أسهمتا في نشوء الصين الجديدة

Title: **The Last Kings of Shanghai: The Rival Jewish Dynasties That Helped Create Modern China**

ترجمة: أحمد الزبيدي

Translated by: **Ahmed Al-Zubaidi**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2023**

First Edition: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289 — ص.ب: 8272

جوناثان كوفمان

آخر ملوك شانغهاي

قصة العائلتين اليهوديتين المتنافستين اللتين أسهمتا في نشوء الصين الجديدة

ترجمة : أحمد الزبيدي



إهداء المؤلف:

إلى باربرا وموليّ وبن ونيك
الذين شاركوني مغامرة تأليف
هذا الكتاب بكل حب ومودة

شخصيات الكتاب

عائلة ساسون

ديفيد ساسون (1792–1864). البطريرك. سليل عائلة يهودية بارزة من بغداد، بنى هو وأبناؤه الثمانية إمبراطورية تجارية عبر آسيا. على الرغم من أنه لم يتعلم اللغة الصينية أو الإنجليزية قط، فقد قاد عائلته للسيطرة على تجارة الصين، وإخضاع شانغهاي وتشكيلها، والسيطرة على تجارة الأفيون، وتمويل العائلة المالكة، وتقديم المشورة لرؤساء الوزراء.

إلياس ساسون (1820–1880). كان إلياس شخصاً منعزلاً ونحيفًا ويرتدي نظارة طبية، وقد أسس الأعمال التجارية لآل ساسون في شانغهاي وفي نهاية المطاف في جميع أنحاء الصين. حتى الخلاف المرير مع شقيقه الأكبر الذي أدى إلى تقسيم الأسرة لم يبطئ من وتيرة نجاح أعماله.

فلورا ساسون (1859–1936). زوجة أحد أبناء داود الثمانية. استلمت فلورا، وهي باحثة وسيدة أعمال رائعة، إدارة شركة ساسون في بومباي وشنغهاي عندما توفي زوجها، حيث كانت تعمل من منزلها لأن النساء في الهند في ذلك الوقت لم يكن مسموحًا لهن حتى بزيارة المكاتب التجارية. وقد فاق نجاحها كل التوقعات حتى طردها أشقاء زوجها في انقلاب عائلي.

راشيل ساسون بير (1858–1927). واحدة من سلسلة من نساء ساسون الموهوبات، كانت ذات أفكار تقدمية اجتماعيًا ومن أوائل الناشطات النسويات وناضلت ضد معاداة السامية وترقت في عملها لتصبح أقوى صحفية في إنجلترا، وأشرفت على تحرير صحيفتي الأوبزرفر وصنداي

تايمز. ومع ذلك فقد تعرضت للنبذ من قبل عائلتها وماتت وحيدة بسبب الاكتئاب بعد أن صُنفت على أنها مجنونة.

فيكتور ساسون (1881–1961). الملياردير المستهتر، الذي أصيب بالشلل وهو في سن الثلاثين، حول فيكتور شانغهاي إلى مدينة عالمية الطراز، ومول الحكومة القومية في الصين، وتحدى اليابانيين، وأنقذ الآلاف من اللاجئين اليهود الفارين من النازية. ومع ذلك، قال عنه أحد الأصدقاء «كان فيكتور دائمًا يتخذ القرار الخاطئ في الوقت الخطأ في المكان الخطأ».

إميلي هان (1905–1997). كاتبة أمريكية في صحيفة نيويوركر ومقرها شانغهاي. أصبحت عشيقة ورفيقة لفيكتور ساسون وعاشرته قبل صعود نجم الشيوعيين وتفاقم عدم المساواة في شانغهاي الاستعمارية. كان فيكتور يشعر بالغيرة من العلاقة التي أقامتها هان مع كاتب صيني، فتركها.

عائلة خضوري

إيلي خضوري (1865–1944). بدأ حياته كطالب وموظف في شركات آل ساسون، لكنه سرعان ما شرع في البحث عن ثروته الخاصة. ولأنه كان مغترباً، فقد أقام تحالفات مع ثوريين صينيين مثل صن يات سن، ومهاجرين مثله، وصينيين محليين، وتراكمت ثرواته التي جعلته أحد أغنى وأقوى الرجال في آسيا.

لورا خضوري (1859–1919). وُلدت لورا في عائلة بريطانية غنية وقوية، وتركت كل شيء وراءها لتتزوج إيلي وتنتقل إلى الصين. في شانغهاي، نجت من الحروب، وشهدت على الفقر الذي عاشته شانغهاي والتحولات التي مرت بها، وأصبحت المرأة الأكثر تحررًا في المدينة. حطم موتها الأسرة وحولها إلى شخصية محبوبة ومقدسة لدى الصينيين.

لورانس خضوري (1899–1993). الابن الأكبر لإيلي ولورا. كان ضخم الجسم، مع كتفين قويتين وحب للسيارات السريعة، كان لورانس يحلم بأن يصبح محامياً ولكن والده أجبره على العمل في أعمال العائلة. رفض الابتعاد عن الصين بعد أن استولى الشيوعيون على شانغهاي، وأعاد

بناء ثروة الأسرة في هونغ كونغ واحتضنه دينغ شياو بينغ والحزب الشيوعي الصيني عندما خرجت الصين من العزلة في السبعينيات.

هوراس خضوري (1902–1995). الأخ الأصغر للورانس. كان شخصاً خجولاً في حين كان شقيقه اجتماعيًا؛ طويل القامة ونحيف حيث كان طول أخيه يبلغ خمسة أقدام وتسعة إنشات وبنية تشبه أجسام الملاكمين. عاش هوراس طوال حياته مع والده في أكبر قصر في شانغهاي ثم في منزل ريفي بعيدًا عن وسط هونغ كونغ. كانت تجمعه مع شقيقه روابط غير عادية، وأنقذوا معًا 18000 لاجئ يهودي فروا من النازية وساعدوا فيما بعد 360.000 صيني ممن فروا من الشيوعية في إعادة بناء حياتهم في هونغ كونغ.

شخصيات من الصين

جاردين، ماثيسون وشركاه (1832–). قام بإنشاء شركة تجارية بريطانية كبرى لتجارة الأفيون مع الصين. أقنع رؤساؤها قادة بريطانيا العظمى بغزو الصين وفتح شانغهاي أمام الأجانب. بعد أن هيمنت عليها أساليب العمل والتقنيات التي برعت بها عائلة ساسون، تخلت الشركة عن تجارة الأفيون في سبعينيات القرن التاسع عشر وعلى مدار نصف القرن التالي كان أصحابها يشعرون بالامتعاض من عائلة ساسون.

روبرت هوتونغ (1862–1956). أغنى رجل في هونغ كونغ أوائل القرن العشرين. أصبح شريكًا تجاريًا وصديقًا لإيلي خضوري. وشن هذان الغريبان سلسلة من الغارات[1] على الشركة البريطانية في شانغهاي الأمر الذي منحهما السيطرة على أجزاء شاسعة من المدينة.

سيلاس هردون (1851–1931). مغترب من بغداد مثل عائلة ساسون، استخدمته عائلة ساسون للعمل في شركة ساسون في شانغهاي. استقال في عام 1920 وأصبح من تجار العقارات الناجحين.

1- غارة الشركات هي عملية شراء حصة كبيرة في إحدى الشركات ثم استخدام حقوق تصويت المساهمين لمطالبة الشركة باتخاذ تدابير جديدة تهدف إلى زيادة قيمة الأسهم–م

مستأجرًا لدى سيلاس هـاردون. أحب ماو تسي تونغ شانغهاي بسبب راديكاليتها وكرهها بسبب رأسمالييها، ولعبت المدينة دورًا محوريًا في حياته وحياة زوجته جيانغ تشينغ عندما تغير وجه الصين. مهدت وفاته الطريق لعودة عائلة خضوري إلى شانغهاي وإعادة المدينة الاعتبار لعائلة ساسون.

دينغ شياو بينغ (1904–1997). زعيم الصين من 1978 إلى 1992، كان مصمماً على تحديث الصين. وأمر المسؤولين بالتواصل مع لورانس خضوري لبناء أول محطة نووية في الصين وأعاد عائلة خضوري إلى دائرة السلطة.

المقدمة

كان يومًا رطبًا وحاراً في أواخر صيف عام 1979 عندما هربت من حرارة مدينة شانغهاي نحو البهو الرخامي البارد في فندق السلام.

كنت حينها في الثالثة والعشرين من عمري، أعمل مراسلاً خارجياً ناشئًا وكنت مكلفاً بمهمة. كانت الولايات المتحدة قد أقامت للتو علاقات دبلوماسية مع الصين بعد ثلاثين عامًا من الحرب الباردة. بدأت الصين في الانفتاح على العالم. كان الفندق يطل على منحنى، أقيم عليه ممر للمشاة يمتد على طول الواجهة البحرية لنهر هوانغبو الصاخب بأمواجه. كانت واجهته، مثل مقدمة سفينة جبارة، تتجه نحو البحر، وترسو عند ظل مبان من طراز آرت ديكو[1] تطل على النهر أسفلها. كانت الصين تعيش في سبات عميق، في حوالي عام 1949، وهو العام الذي استولى فيه الشيوعيون على السلطة و«حرروا» البلاد من الرأسمالية والغزوات الأجنبية. كان كل شيء متلوناً بالأبيض والأسود. لا توجد لوحات ضوئية أو إعلانات أو واجهات ملونة لمتاجر تبث الحيوية في الشوارع. كانت هناك دراجات هوائية قوية وسميكة بهياكل سوداء تتكدس على الطرقات، تمر من جانبها من حين لآخر سيارات من ماركة رودستر (roadsters) سوداء اللون تشبه الصندوق. وكانت ستائر نوافذ سيارات الليموزين المصنوعة من الدانتيل الأبيض تخفي وراءها مسؤولي الحزب الشيوعي. كان جميع الرجال والنساء الصينيون على حد سواء يرتدون قمصانًا بيضاء وبدلات كانت تعرف ببدلة

1- أسلوب معماري حديث ازدهر في منتصف عشرينيات القرن الماضي وحتى أوائل الثلاثينيات. يتميز بحوافه الحادة المميزة وتفاصيله الهندسية والزخرفية-م

ماو ذات اللون الأزرق الداكن والفضفاضة على أجسامهم. بدت جميع ملابسهم بحجم واحد أكبر من اللازم. ظلت الصين معزولة عن العالم لمدة ثلاثين عامًا، وبالتأكيد عن معظم الأمريكيين. لقد قاتلت «الصين الشيوعية» الولايات المتحدة في الحرب الكورية، وانحازت إلى فيتنام الشمالية في حرب فيتنام، وكانت تندد بالولايات المتحدة وتصفها «بالكلب المسعور» و«الدولة الإمبريالية»، التي تهدد بشن حرب نووية عليها. كان ريتشارد نيكسون قد كسر عزلة الصين قبل ذلك بسبع سنوات حينما قام بزيارتها، لكن البلاد ظلت تشعر بأنها معزولة ومهددة. كان الزعيم الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ قد توفي قبل ذلك بثلاث سنوات، وفي العقد الأخير قادت سياساته إلى الفوضى بانتهاجه ما عرف بالثورة الثقافية التي جعلت البلاد على حافة الحرب. قام خلفاؤه بقيادة دينغ شياو بينغ، وعلى وجه السرعة باعتقال وسجن أفراد «عصابة الأربعة» المتطرفة التي كانت ترأسها جيانغ تشينغ أرملة ماو وأتباعها اليساريون من مناصري الثورة الثقافية، وكان كثير منهم من شانغهاي.

كانت كل محادثة -يجريها المسؤولون الحكوميون مع المزارعين «العاديين» وعمال المصانع، ومع بيروقراطيي الحزب الشيوعي، وحتى مع سائقي سيارات الأجرة- تتضمن إدانة ممنهجة لعصابة الأربعة المنهارة من قبيل:

(في ظل حكم عصابة الأربعة كانت الأبقار لا تصل أبداً إلى مستواها الطبيعي في إنتاج الحليب، ولكن منذ القبض على عصابة الأربعة، ارتفع إنتاج الحليب بنسبة 30 في المائة).

(في ظل عصابة الأربعة، فشلت مصانعنا في الوصول إلى معدلات إنتاجية عادية في تصنيع المنسوجات. ولكن منذ الإطاحة بعصابة الأربعة، أصبح عمالنا أكثر كفاءة، وقد ضاعفنا الإنتاج ثلاث مرات).

كان ما يتداول في الاجتماعات محفوظاً عن ظهر قلب لدرجة أنني في وقت من الأوقات ارتديت أنا وزملائي الصحفيين سترات وقبعات ماو وقمنا بتنظيم عروض مسرحية هزلية في غرفنا بالفندق، بعيدًا عن أعين حراسنا

الحكوميين الصينيين: وقد قالت لي إحدى الصينيات «في ظل حكم عصابة الأربعة، لم يمارس زوجي الجنس مطلقًا معي ولكن منذ الإطاحة بعصابة الأربعة، بتنا نمارس الجنس ثلاث مرات، أو أربع مرات في الأسبوع!» بعد أكثر من عشرين عامًا، عندما عدت للعيش في الصين كمدير مكتب صحيفة وول ستريت جورنال، تحدثت إلى سائق سيارة أجرة في بكين حول ذلك الزمن الغريب. في ظل حكم عصابة الأربعة حينها ضحك قائلا. «كنت أقود سيارة أجرة في ذلك الوقت، وكانوا يملون علينا ماذا نقول للأجانب:» كان كل ما نقوله، هراء وأكاذيب وترهات.

إذا كانت الحياة في شانغهاي عام 1979 عبارة عن فيلم أبيض وأسود يصاحبه حوار متشنج، فإن الدخول إلى فندق السلام كان بمنزلة الدخول إلى فيلم بالألوان يعود إلى أربعينيات القرن الماضي تصاحبه ترجمة فرنسية.

كانت الثريات تتدلى من الأسقف المقببة. وكانت الشمعدانات الجدارية متراصفة على طول الممرات المؤدية إلى البهو، لتضيء المسار المؤدي إلى السلالم الرخامية والمغطاة بالسجاد. وفي الزاوية، كان ملصق إعلاني لفرقة جاز ليلية.

مشيت باتجاه مكان المصاعد. توجه نحوي رجل عجوز يرتدي سروالًا أبيض وسترة بيضاء قصيرة وقبعة بيضاء صغيرة قائلاً:

أيمكنني مساعدتك؟ ماذا تحب أن ترى؟

بالفرنسية في الأصل–م، Puis–je vous aider? Que voulez–vous voir

تلعثمت مرة أخرى بالكلام، فقد مر زمن طويل منذ أن تركت المدرسة الثانوية الفرنسية ونسيت ما تعلمته فيها: أنا لا أتكلم الفرنسية.

بالفرنسية في الأصل. «Je ne parle pas français»

قال مبتسمًا: يا للأسف

بالفرنسية في الأصل. Quel dommage

ماذا كان ذلك المكان؟ وماذا تبقى فيه من بقايا الفخامة الأوروبية –حتى

من وجهة نظر مذهب المتعة- في مدينة، وبلد، حوّلته ثلاثون عامًا من الشمولية الشيوعية إلى مكان كئيب، بناياته متشابهة، وخاضعة لنسق واحد، وغريبة بعض الشيء؟

مر عقد من الزمان قبل أن أزور شانغهاي مرة أخرى. كان ذلك في عام 1989، بعد أيام قليلة من مذبحة ميدان تيانانمين في بكين التي قتل فيها مئات الطلاب وجعلت الصين تعيش حالة من الصدمة والإغلاق التام. قضيت الكثير من وقتي في التحدث بشكل خفي إلى طلاب وأشخاص صينيين آخرين. تضمنت إحدى الزيارات الرسمية القليلة التي سُمح لي بها القيام بجولة في «قصر الأطفال». كنت أعلم أنني سأشاهد فعالية عادية ومن الواضح أن تنظيمها جاء رداً على الغضب الذي كان يغلي في نفوس الناس في الخارج: أطفال صينيون يعزفون على البيانو ويأخذون دروساً في الباليه - كان واضحاً أن الغاية إظهار أن الأمور تسير بشكل طبيعي حتى لو كان بالإجبار.

كنت محقًا بشأن الهدف الدعائي من تلك الفعالية، لكن «القصر» غمرني بجماله. كان قصرًا مبنيًا على الطراز الأوروبي، كأنه «منزل رائع» لا يوجد مثيله إلا في ضواحي باريس أو لندن. كان الرخام في كل مكان. سقوفه عالية تتدلى منها ثريات متقنة الصنع، ويحوي غرفًا فخمة واحدة بجوار الأخرى أرضياتها مرصعة بالخشب، وكانت نوافذه ومدافئه أنيقة. وكان هناك سلم يثير الإعجاب يقودك إلى الطابق الثاني. بدا كأنه منزل عائلة بريطانية نبيلة. وهذا ليس مفاجئًا، كما أخبرني دليلي الصيني بجدية. فهذا المنزل كان مسكنًا لعائلة رأسمالية بريطانية ثرية لمدة خمسة وعشرين عامًا، امتدت من عام 1924 حتى استيلاء الشيوعيين على السلطة في عام 1949، وهي عائلة خضوري. عندها توقفت. وسألت نفسي خضوري؟ كنت أعرف خلال الفترة التي قضيتها في هونغ كونغ أن عائلة خضوري -التي يرأسها السير لورانس خضوري- كانت واحدة من أغنى وأقوى العائلات في المدينة، وأنهم مالكو فندق Peninsula الأسطوري الذي يحوي على بهو أنيق، ويقدم وجبة باذخة لشاي ما بعد الظهيرة، وغرفه رائعة وباهظة الثمن. كما امتلك آل خضوري أكبر شركة كهربائية في هونغ كونغ. وحصة في نفقها

العابر للميناء. وتراممًا يصل إلى أعلى نقطة في الجزيرة. كانوا رجال أعمال بارزين أو ما يعرف بالتايبان «taipans» - وهو مصطلح يعود إلى عصر الاستعمار يشير إلى الأفراد الذين تعود جذور نفوذهم وسطوتهم المالية إلى أيام حروب الأفيون.

كنت أعرف أنهم لم يكونوا صينيين. فهم في الواقع يهود. ساعدت عائلة خضوري في تمويل النشاطات التي يقيمها الكنيس (المجمع اليهودي) الذي كنت أذهب إليه عندما كنت أعمل مراسلًا في هونغ كونغ.

لم تتح لي الفرصة لمعرفة المزيد عن عائلة خضوري حينها. فقد أجبرتني طبيعة عملي على السفر إلى برلين، لتغطية أحداث سقوط جدار برلين وانهيار الشيوعية في روسيا وأوروبا الشرقية. لم أعد إلى الصين منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا، حتى عندما نهضت من جديد وعادت إلى الحياة.

في عام 2002، وجدت نفسي أعود إلى شانغهاي لتغطية صعود الصين كقوة اقتصادية عالمية لمصلحة صحيفة وول ستريت جورنال. تطلب الأمر مني الذهاب إلى حي بعيد عن الواجهة البحرية وبعيد عن صخب وضجيج الأحياء التجارية. بدأت الصين في فهم فضائل السياحة وأعادت فتح الكنيس اليهودي الذي بنته عائلة يهودية أخرى، وهي عائلة ساسون، في عشرينيات القرن الماضي. حولت الحكومة الشيوعية الكنيس إلى متحف. كانت الحروف العبرية منقوشة على المدخل، لكن في داخله محيت أي علامة تشير للأشياء التي كانت فيه في الماضي. كانت توجد في الطابق الثاني مكتبة صغيرة يديرها موظف صيني طاعن في السن. جلسنا وتحدثنا عن ذكرياته. فذكر لي أن العائلات اليهودية كانت تعيش في شانغهاي عام 1949، قبل الثورة. وكان يعمل لدى البعض منهم، وكان يتولى إشعال مواقدهم، لأنه كما قال، كانوا لا يتمكنون من فعل ذلك لسبب ما في أيام السبت. أدركت أنه ممن يطلق عليهم «غوي السبت»، وهو شخص غير يهودي يستأجره اليهود المتدينون للقيام ببعض المهام التي يمنعهم القانون اليهودي من القيام بها يوم السبت.

سألته إذا كان قد سمع باسم ساسون. كانوا، كما علمت، العائلة الغنية التي بنت وتملك فندق السلام قبل استيلاء الشيوعيين على السلطة.

قال: «بالطبع». إنهم مالكو «فندق كاثي». كان يستخدم الاسم الذي أطلق على الفندق عند افتتاحه لأول مرة، في ثلاثينيات القرن الماضي، قبل أن يغير الشيوعيون تسميته. قال، وهو يومئ برأسه بشكل قاطع: «الجميع يعرف عائلة ساسون».

كان الحزب الشيوعي الصيني قد تأسس في شانغهاي، وكانت الثروة التي يتمتع بها آل ساسون تمثل تناقضًا صارخًا مع حالة الفقر والجوع واليأس التي يعيشها أبناء الشعب وهي التي غذت انتصار الحزب الشيوعي.

سألته (هل كرهتهم، بسبب ثروتهم؟). أومأ برأسه. لم يكن ذلك مفاجئًا.

كانت ذكريات الأحاديث التي أجريتها مع رجال كبار السن من الألمان والتشيك والبولنديين الذين كانت عقولهم تسممها أفكار معاداة السامية ما زالت طرية في ذهني، سألت بحذر، «هل كرهتهم لأنهم يهود؟»

توقف ليمعن التفكير.

قال «لا». «لقد كرهناهم لأنهم كانوا بريطانيين يحتلون بلادنا».

عندما غادرت المبنى، رأيت في الخارج، امرأتين صينيتين عجوزين تنتقيان الفاكهة في سوق قريب. لقد بدتا طاعنتين في السن لدرجة يمكن لهما أن يتذكرا، مثل البواب كيف كانت شانغهاي قبل أن يحتلها الشيوعيون في عام 1949.

توجهت إليهما، وبمساعدة دليلي الصيني، أوضحت أنني كنت أزور مبنى الكنيس القديم. قبل «التحرير»، كما أطلق الصينيون على انتصار الشيوعيين في عام 1949، ويبدو أنه كان هناك يهود يعيشون في هذا الحي. هل تتذكران ذلك؟

هل عدت من أجل الأثاث؟ سألتني إحداهما بشيء من البهجة.

«ماذا تقصدين؟» سألتها وقد غلبتني الحيرة.

حملت كيسين من البقالة بين ذراعيها، ورفضت عرضي للمساعدة في حملهما، وأشارت إلينا بفظاظة إلى أن نعبر الشارع ثم صعدنا درجًا إلى الغرفة التي تسكن فيها. من الواضح أنها كانت جزءًا من شقة أكبر في وقت

من الأوقات. وقد تم تقسيم الشقة الأصلية إلى سلسلة من الغرف مع فواصل من الخشب الرقيق والقماش القديم لاستيعاب نصف دزينة من العائلات. احتل سرير مزدوج من خشب الماهوجني يعود إلى سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية إحدى زوايا الغرفة، وكانت بجانبه خزانة ذات أدراج.

ثم قالت: «كان هناك يهود يسكنون هنا. ثم غادروا المكان وتركوا الأثاث». سرعان ما شاورت دليلي الصيني طالبًا أن يستوضح منها هل تقصد أن الصينيين أو اليابانيين اعتقلوا اليهود وقاموا بترحيلهم؟ وقاموا بنقلهم إلى معسكرات الاعتقال أو أجبروا على الاختفاء أو قتلوا؟

فأجابت: كلا، كلا، ثم بدأت تشرح الأمر. لقد عاشوا هنا خلال الحرب. وبعد التحرير مكثوا لفترة قصيرة ثم غادروا إلى إسرائيل وفلسطين. أشارت مرة أخرى إلى سرير الماهوجني والخزانة.

هل عدت من أجل الأثاث؟

بمعنى ما، أعتقد أنني كنت أنوي ذلك.

على مدار عقود من الزمان، سخر حكام الصين الشيوعيون من القصص التي تتحدث عن عائلتي ساسون وخضوري، وهما عائلتان أجنبيتان متنافستان سافرتا إلى الصين في القرن التاسع عشر وأصبحتا ذواتي نفوذ. ووصفوا قرناً من الزمان تعاظم فيه نفوذ هاتين العائلتين -امتد من نهاية حرب الأفيون الأولى في عام 1842 التي انفتحت من خلالها الصين على الغرب إلى استيلاء الشيوعيين على السلطة عام 1949- بأسلوب دعائي مبالغ به. لقد قاموا بمحو التاريخ، ومثل السياسيين في جميع أنحاء العالم، حشدوا الدعم لأفكارهم من خلال استذكار الأساطير والملاحم الوطنية. في الفصول الدراسية في المدارس الابتدائية في جميع أنحاء الصين يوجد ملصق مكتوبة فيه عبارة لن ننسى الإذلال الوطني أبدًا. كانت القيادة الشيوعية تريد من تلاميذ المدارس أن يتذكروا كيف عاش الأجانب مثل عائلتي خضوري وساسون حياة من البذخ والرفاهية، مستغلين الطبقة العاملة الصينية وتاركين المواطنين الصينيين يعيشون وسط القذارة والجهل وضباب الأفيون. ولم تقف الصين على قدميها مرة أخرى إلا عندما أطاح ماو وجيشه المتفاني

بمقاتليه الشيوعيين المخلصين بهؤلاء الرأسماليين الجشعين. مع نمو قوة الصين واشتداد تنافسها مع الولايات المتحدة، فإن فهم القصص التي ترويها عن نفسها أمر مهم. ويمكنها مساعدتنا في فهم ما الذي جعل الصين تحوز على كل ذلك. وقد يؤدي اكتشاف الحقيقة التي تختفي وراءها أيضًا إلى استنباط طرق مختلفة للتعامل مع الصين، وتعامل الصين مع العالم.

هناك الكثير من الحقيقة في رواية الحزب الشيوعي الصيني للتاريخ. لكن هناك حقائق أخرى أيضًا. كانت شانغهاي بوتقة انصهار الصين، البوتقة التي اجتمعت فيها جميع القوى التي شكلت الصين-الرأسمالية والشيوعية والإمبريالية والأجنبية والقومية. بحلول عام 1895، كان لشنغهاي نظام ترام حديث ومعامل غاز مثل تلك الموجودة في لندن. بحلول الثلاثينيات، وبفضل رجل الأعمال فيكتور ساسون، أصبحت فيها ناطحات سحاب تنافس مثيلاتها في شيكاغو. وكانت رابع أكبر مدينة في العالم. وبينما كانت بقية دول العالم تغرق وسط كارثة الكساد الكبير، عملت حكومة شيانغ كاي تشيك مع آل ساسون لتحقيق الاستقرار في العملة وخلق طفرة في التصدير. أصبحت شانغهاي بمنزلة نيويورك الصين، فباتت عاصمة المال والتجارة والصناعة. كما أصبحت لوس أنجلوس الصين، لتكون عاصمة الثقافة الشعبية. في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، أصدرت دور النشر في شانغهاي أكثر من عشرة آلاف كتاب وصحيفة ومجلة. وأنتجت استوديوهات الأفلام التابعة لها مئات الأفلام، تم تصوير العديد منها في المدينة الغربية. وازدهرت الكليات. وكذلك فعلت السياسة. كان الاتحاد الدولي لتسوية شانغهاي[1] يحكمها مثل جمهورية لرجال الأعمال. كان المجلس الحاكم يتألف من سبعة أعضاء من رجال الأعمال، بمن فيهم ممثلو آل ساسون، يديرون المدينة بشكل مستقل عن القانون الصيني. ومن

1- ظهرت تسوية شانغهاي الدولية من اتحاد حصل عام 1863 بين الأماكن المحصورة البريطانية والأمريكية في شانغهاي، حيث يتمتع الرعايا البريطانيون والمواطنون الأمريكيون بحصانة محلية وسلطة قنصلية بموجب شروط المعاهدات غير المتكافئة الموقعة في القرن التاسع عشر مع سلالة تشينغ الحاكمة-م

ناحية أخرى، كان ذلك يعني وجود جو سياسي ليبرالي نسبيًا - يؤمن حماية النشطاء والإصلاحيين والراديكاليين الصينيين من قيود الحكومة الصينية القومية القاسية المفروضة على حرية التعبير والترويج للشيوعية والقيام بالاحتجاجات. مما سيمكن الحزب الشيوعي بقيادة ماو تسي تونغ من عقد أول اجتماع له في شانغهاي، على بعد أميال قليلة من مقرات الشركات التجارية وقصور عائلتي ساسون وخضوري.

ساعد آل ساسون وخضوري معًا في تشكيل مدينة جعلتهم من أصحاب المليارات - وألهموا ومكّنوا جيلًا من رجال الأعمال الصينيين ليصبحوا رأسماليين ناجحين ورواد أعمال. لقد ساعدوا في خلق ثقافة ريادية مزدهرة، قضى عليها الشيوعيون في عام 1949. جعل فيكتور ساسون من شانغهاي جزءًا من «الجولة الكبرى» (تقليد في القرنين السابع عشر والثامن عشر يتمحور حول القيام بـرحلة عبر أوروبا. كان يقوم بهذه الرحلة رجال أوروبيون من الطبقة العليا يتمتعون بوسائل ورواتب كافية (عادة برفقة مرافق، مثل أحد أفراد الأسرة) عندما يبلغون سن الرشد[1] التي فتحت الصين أمام النخبة في العالم. جذبت الحفلات التنكرية التي كان يقيمها في قاعة الرقص التابعة لفندقه كاثي شخصيات مثل الكاتب المسرحي نويل كوارد، والممثل تشارلي شابلن، والشخصية الاجتماعية الأمريكية البارزة واليس سيمبسون، التي قيل إنها تعلمت في شانغهاي الحيل والأساليب الجنسية التي جعلتها تتمكن من أن تغري الملك ليتنازل عن عرشه بعد بضع سنوات لغرض الزواج منها.

في العشرينيات من القرن الماضي وثلاثينيات القرن الماضي، توافد الصينيون من الطبقة المتوسطة والأثرياء على شانغهاي، جذبتهم إليها فرصها الاقتصادية والحياة غير المتوفرة في أي مكان آخر في الصين: المتاجر الفخمة والفنادق والنوادي الليلية وكازينوهات القمار. بعد عقود من الركود والتراجع أمام البريطانيين والأمريكيين والفرنسيين وغيرهم، اعتقد العديد من الصينيين أن شانغهاي كانت تصوغ نظامًا ديناميكيًا

1- حوالي 21 سنة-م

جديدًا للثقافة الصينية -منفتحًا على الخارج، يضم شخصيات من مختلف الجنسيات، ومستعدة للالتحاق بركب القرن العشرين. ساعد آل ساسون وآل خضوري على فتح أبواب العالم أمام الصين- وفتح أبواب الصين على العالم.

عندما غزا اليابانيون الصين وانضموا إلى ألمانيا باعتبارهم من دول المحور، وحّد آل ساسون وآل خضوري قواهم وحققوا إحدى معجزات الحرب العالمية الثانية. عندما سافر 18000 يهودي أوروبي مسافة 5000 ميل من برلين وفيينا وتدفقوا إلى شانغهاي هاربين من النازية، تفاوض فيكتور ساسون سراً مع اليابانيين بينما كان ممثلو الحكومة النازية يحثون المحتلين اليابانيين على تكديس اللاجئين اليهود على ظهور المراكب وإغراقهم في وسط نهر هوانغبو. لقد فعل آل ساسون وآل خضوري بجهودهم المشتركة شيئًا لم يستطع اليهود في أوروبا وفلسطين وحتى الولايات المتحدة فعله: لقد قاموا بحماية كل لاجئ يهودي وطئت قدماه مدينتهم، ومن بينهم آلاف الأطفال - بمن فيهم مايكل بلومنثال، الذي سيكبر ليصبح وزير الخزانة الأمريكية؛ والفنان بيتر ماكس ومايك ميدافوي منتج الأفلام في هوليوود؛ ولورانس ترايب الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة هارفارد.

عندما غزا الشيوعيون شانغهاي واستولوا على الفنادق والقصور والمصانع المملوكة لعائلتي ساسون وخضوري، انسحب آل خضوري إلى مستعمرة هونغ كونغ البريطانية في الطرف الجنوبي للصين. وفر آل ساسون إلى لندن وجزر الباهاما وحتى دالاس في تكساس. لكنهم لم يتوقفوا عن التفكير بشنغهاي.

إن العالم الذي يتناوله هذا الكتاب، يشبه عالمنا اليوم، حيث كان يضج بالاختراعات والابتكارات ومظاهر العولمة، وتزايد عدم المساواة والاضطراب السياسي. قبل وقت طويل من معاناة مارك زوكربيرغ، وستيف جوبز، وشركتي مايكروسوفت، وغوغل في كيفية التعامل مع الصين والضغوط السياسية في الولايات المتحدة، أتقن آل ساسون وخضوري، من خلال مكاتبهم في شانغهاي وهونغ كونغ وبومباي ولندن كيفية التحكم بمفاصل الاقتصاد العالمي وكافحوا سيلًا من المعضلات

الأخلاقية والسياسية التي تواجههم في طريق عملهم مع الصين. كشفت كل من عائلتي ساسون وخضوري الأشياء العظيمة التي يمكن أن تفعلها الأعمال التجارية، وخاصة الأعمال المستنيرة منها. لقد ذهبوا إلى حيث لا تريد الحكومات الذهاب أو لا تستطيع. غيرت قراراتهم حياة مئات الملايين من الناس. لقد ساعد آل ساسون في ترسيخ قواعد الاقتصاد الصيني في الثلاثينيات من القرن الماضي بينما كانت باقي بلدان العالم قد سقطت في قاع الركود الاقتصادي. لقد دربوا جيلًا من الصينيين على طرق الرأسمالية العالمية، مما مهد الطريق لنجاح الصين المذهل الذي نشهده اليوم. جلبت خضوري الكهرباء لملايين الأشخاص في هونغ كونغ، مما أدى إلى تغيير المناطق التي لم تتغير فيها وتيرة الحياة منذ مئات السنين. أدى قرار خضوري بعد عام 1949 بالشراكة في هونغ كونغ مع مالكي المصانع الصينيين من شانغهاي الذين فروا من الحكم الشيوعي إلى فتح الأسواق العالمية، وضاعف معدلات النمو الاقتصادي في هونغ كونغ، وساعد في تمهيد الطريق لازدهار الصادرات الذي سيجعل الصين في القرن الحادي والعشرين القاعدة الصناعية للعالم.

ومع ذلك، على الرغم من كل فطنتهم السياسية والاقتصادية، فقد أخطأ آل ساسون وخضوري في تقدير مديات الثورة الشيوعية التي كانت تختمر خارج مكاتبهم وغرف المعيشة الجذابة في شانغهاي. عندما انتصر الشيوعيون، في عام 1949، أصيبوا بالدهشة وفقدوا كل شيء تقريبًا. لقد تركوا وراءهم إرثًا لا يزال يطارد علاقات الصين مع الولايات المتحدة وبقية العالم حتى يومنا هذا. لا تنتهي زيارة إلى متحف أو جولة في الصين أو اجتماع عمل أو مفاوضات دبلوماسية دون الإشارة إلى تاريخ الاستغلال الأجنبي والإمبريالية في الصين، والإذلال الذي تحملته الصين، والتصميم على أن ذلك لن يحدث مرة أخرى أبدًا. ويمتد ذلك من مشاعر الغضب من تجارة الأفيون إلى البنايات العالية المثيرة التي تطل على الواجهة البحرية لشنغهاي وانتهاء بالتوترات حول مستقبل هونغ كونغ.

قد يلاحظ القراء أنه بينما يجدون الصين في قلب هذا السرد، فإن الأحرف الصينية غالبًا ما تقف في الهامش. وهذا يعكس العالم الاستعماري

جديدًا للثقافة الصينية -منفتحًا على الخارج، يضم شخصيات من مختلف الجنسيات، ومستعدة للالتحاق بركب القرن العشرين. ساعد آل ساسون وآل خضوري على فتح أبواب العالم أمام الصين- وفتح أبواب الصين على العالم.

عندما غزا اليابانيون الصين وانضموا إلى ألمانيا باعتبارهم من دول المحور، وحّد آل ساسون وآل خضوري قواهم وحققوا إحدى معجزات الحرب العالمية الثانية. عندما سافر 18000 يهودي أوروبي مسافة 5000 ميل من برلين وفيينا وتدفقوا إلى شانغهاي هاربين من النازية، تفاوض فيكتور ساسون سراً مع اليابانيين بينما كان ممثلو الحكومة النازية يحثون المحتلين اليابانيين على تكديس اللاجئين اليهود على ظهور المراكب وإغراقهم في وسط نهر هوانغبو. لقد فعل آل ساسون وآل خضوري بجهودهم المشتركة شيئًا لم يستطع اليهود في أوروبا وفلسطين وحتى الولايات المتحدة فعله: لقد قاموا بحماية كل لاجئ يهودي وطئت قدماه مدينتهم، ومن بينهم آلاف الأطفال - بمن فيهم مايكل بلومنثال، الذي سيكبر ليصبح وزير الخزانة الأمريكية؛ والفنان بيتر ماكس ومايك ميدافوي منتج الأفلام في هوليوود؛ ولورانس ترايب الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة هارفارد.

عندما غزا الشيوعيون شانغهاي واستولوا على الفنادق والقصور والمصانع المملوكة لعائلتي ساسون وخضوري، انسحب آل خضوري إلى مستعمرة هونغ كونغ البريطانية في الطرف الجنوبي للصين. وفر آل ساسون إلى لندن وجزر الباهاما وحتى دالاس في تكساس. لكنهم لم يتوقفوا عن التفكير بشنغهاي.

إن العالم الذي يتناوله هذا الكتاب، يشبه عالمنا اليوم، حيث كان يضج بالاختراعات والابتكارات ومظاهر العولمة، وتزايد عدم المساواة والاضطراب السياسي. قبل وقت طويل من معاناة مارك زوكربيرغ، وستيف جوبز، وشركتي مايكروسوفت، وغوغل في كيفية التعامل مع الصين والضغوط السياسية في الولايات المتحدة، أتقن آل ساسون وخضوري، من خلال مكاتبهم في شانغهاي وهونغ كونغ وبومباي ولندن كيفية التحكم بمفاصل الاقتصاد العالمي وكافحوا سيلًا من المعضلات

الأخلاقية والسياسية التي تواجههم في طريق عملهم مع الصين. كشفت كل من عائلتي ساسون وخضوري الأشياء العظيمة التي يمكن أن تفعلها الأعمال التجارية، وخاصة الأعمال المستنيرة منها. لقد ذهبوا إلى حيث لا تريد الحكومات الذهاب أو لا تستطيع. غيرت قراراتهم حياة مئات الملايين من الناس. لقد ساعد آل ساسون في ترسيخ قواعد الاقتصاد الصيني في الثلاثينيات من القرن الماضي بينما كانت باقي بلدان العالم قد سقطت في قاع الركود الاقتصادي. لقد دربوا جيلًا من الصينيين على طرق الرأسمالية العالمية، مما مهد الطريق لنجاح الصين المذهل الذي نشهده اليوم. جلبت خضوري الكهرباء لملايين الأشخاص في هونغ كونغ، مما أدى إلى تغيير المناطق التي لم تتغير فيها وتيرة الحياة منذ مئات السنين. أدى قرار خضوري بعد عام 1949 بالشراكة في هونغ كونغ مع مالكي المصانع الصينيين من شانغهاي الذين فروا من الحكم الشيوعي إلى فتح الأسواق العالمية، وضاعف معدلات النمو الاقتصادي في هونغ كونغ، وساعد في تمهيد الطريق لازدهار الصادرات الذي سيجعل الصين في القرن الحادي والعشرين القاعدة الصناعية للعالم.

ومع ذلك، على الرغم من كل فطنتهم السياسية والاقتصادية، فقد أخطأ آل ساسون وخضوري في تقدير مديات الثورة الشيوعية التي كانت تختمر خارج مكاتبهم وغرف المعيشة الجذابة في شانغهاي. عندما انتصر الشيوعيون، في عام 1949، أصيبوا بالدهشة وفقدوا كل شيء تقريبًا. لقد تركوا وراءهم إرثًا لا يزال يطارد علاقات الصين مع الولايات المتحدة وبقية العالم حتى يومنا هذا. لا تنتهي زيارة إلى متحف أو جولة في الصين أو اجتماع عمل أو مفاوضات دبلوماسية دون الإشارة إلى تاريخ الاستغلال الأجنبي والإمبريالية في الصين، والإذلال الذي تحملته الصين، والتصميم على أن ذلك لن يحدث مرة أخرى أبدًا. ويمتد ذلك من مشاعر الغضب من تجارة الأفيون إلى البنايات العالية المثيرة التي تطل على الواجهة البحرية لشنغهاي وانتهاء بالتوترات حول مستقبل هونغ كونغ.

قد يلاحظ القراء أنه بينما يجدون الصين في قلب هذا السرد، فإن الأحرف الصينية غالبًا ما تقف في الهامش. وهذا يعكس العالم الاستعماري

الغريب الذي سكنته هذه العائلات. فهم حتى أثناء إقامتهم في شانغهاي، كانوا يتعاملون مع الصينيين عن بعد، تفصلهم حواجز اللغة والثروة والصور النمطية الاستعمارية. إنه يكشف أنه لم يسبق لأي صيني اختراق الدائرة الداخلية لأي من العائلتين، وخلال مائتي عام تقريبًا من العيش في الصين، لم يكلف أي فرد من آل ساسون أو خضوري نفسه غناء تعلم اللغة الصينية. وفي نفس الوقت، فإن ابتعادهم عن معظم الصينيين سهّل على الصين وخاصة القادة والمؤرخين الشيوعيين نبذ هاتين العائلتين أو تصويرهما بشكل كاريكاتوري والتقليل من شأنهما وتأثيرهما. أحد أهداف هذا الكتاب هو تناول هذه العلاقة المعقدة، ومساعدتنا على فهم الخيارات التي اتخذها آل ساسون أو خضوري وكيف كانت العديد من أفعالهم تتماشى مع العصر، أو كانت أكثر تقدمية منه، حتى عندما كانت مدفوعة بدافع الربح أو العناية الأبوية. في حالات أخرى، كانوا كذلك غافلين عن عواقب قبول السياسات الاستعمارية في ذلك الوقت. وعقدت خلفيتهم اليهودية طريقة تنقلهم بين هذه العوالم المختلفة. القصة التالية ليست قصة الصين منذ عام 1840؛ بل هي بدلاً من ذلك، إعادة قراءة لجزء من فسيفساء التاريخ الصيني.

بينما تشرع الصين في دخول ما يعتبره الكثيرون القرن الصيني، حيث ترسل الطلاب والشركات والزوار إلى الخارج، يتجنب قادتها تعقيد التاريخ. إنهم يحبون تصوير الصين، حتى وهي تنهض، كضحية تاريخية. لو ظلت الصين فقيرة وضعيفة ومعزولة، فإن قصة شانغهاي وآل ساسون وخضوري قد تكون مثيرة للفضول، وتاريخًا بديلًا لما كان يمكن أن يكون. لكن القضايا التي تواجهها الصين اليوم –مثل العمل مع الأجانب؛ واللامساواة والفساد؛ وإيجاد مكان لها في العالم؛ والموازنة بين القومية والانفتاح، والديمقراطية والسيطرة السياسية، والتنوع والتغيير– كانت هي القضايا التي شكلت شانغهاي وواجهت آل ساسون وخضوري في كل يوم. وبقدر ما كان آل ساسون وخضوري يمثّلون شخصيات هذا الكتاب، فإن شانغهاي بنموها وتطورها وصراعاتها وتناقضاتها – تمثل محور هذا الكتاب.

قلة من الدول تحصل على فرصة ثانية. قصة الصين في القرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين، هي قصة قوة عظمى سقطت، مدفوعة بالفساد الداخلي، والاستعمار الغربي، والإمبريالية اليابانية، ثم قاتلت من أجل النهوض من جديد. إذا نجحت الصين، فلن يكون ذلك لمجرد أنها تحاكي روح بكين، مركز القوة السياسية في الصين، مع قيادة تتبنى دولة قمعية وتقمع المعارضة. سيكون ذلك بسبب أنها تحاكي أيضًا شانغهاي، المدينة الأنيقة، والكادحة، والمتطورة، والمنفتحة على الخارج، والمدينة العالمية، والأمراء التجار -المنسيين الآن- الذين ساعدوا في دخول الصين إلى العصر الحديث. لأكثر من ستين عامًا، أخفت شانغهاي -والصين- هذا التاريخ بعيدًا في الخزائن والصناديق، وفي الأوراق الصفراء في خزائن المكاتب القديمة، وفي القصص التي تتناثر على موائد الشاي في الغرف المغلقة وعلى طاولات المطبخ.

في عام 2014، استأجرت شركة فنادق صينية سلسلة فنادق فيرمونت لاستعادة فندق كاثي الأنيق الذي كانت تعود ملكيته في السابق لفيكتور ساسون وكان يطل على الواجهة البحرية لشنغهاي. بعد عودتي إلى هناك بعد فترة وجيزة، تم اصطحابي في رحلة قصيرة عبر سلالم بهو الفندق إلى غرفة مليئة بالخزائن الزجاجية وصالات العرض. بعد فترة وجيزة من شراء الفندق، وضع الملاك الجدد إعلانًا صغيرًا في إحدى الصحف الصينية المحلية بحثًا عن التحف والأعمال الحرفية التي تعود إلى أيام مجد الفندق في الثلاثينيات.

لقد توقعوا أن يحصلوا على قائمتي طعام قديمتين، ربما، أو منفضة سجائر تذكارية. رد على الإعلان المئات من سكان شانغهاي. غمروا الفندق بأطباق منقوشة وكؤوس كريستالية وقوائم طعام مطبوعة بأناقة. لقد أرسلوا صورًا لنساء صينيات يرتدين ملابس طويلة تصل إلى الأرض، وهي فساتين صينية مطابقة لشكل الجسم، ولرجال صينيين يرتدون بدلات غربية يحتفلون بحفلات الزفاف وأعياد الميلاد في غرفة الطعام بالفندق -وصورًا للسير فيكتور ساسون، الذي يشبه الأرستقراطيين البريطانيين تمامًا، وهو يلوح بعصاه مع نظارته ذات الزجاجة الأحادية ويتمشى في خلفية الفندق.

لقد جعلت خمسون عامًا من الشيوعية الصين تعيش ثورة وحالات مجاعة وثورة ثقافية. ومع ذلك، فإن هناك مثل المرأة التي التقيتها في كشك الطعام والتي كانت تنام على سرير غربي كل ليلة، مئات العائلات الصينية التي أنقذت هذه القطع والتحف الأثرية التي تعود إلى الماضي وخبأتها في وحدات سكنية منتشرة في جميع أنحاء شانغهاي- وهي تمثل ذكرى، أو حلمًا كان يراودهم بأن يتحقق الوعد الذي قطعته لهم شانغهاي بأن يعيشوا في صين مختلفة.

ولكن تلك القطع كانت هي أثاثهم أيضًا.

القسم الأول

نداء شانغهاي

الفصل الأول

إمبراطورية الأب

عبر الشوارع المظلمة، هرب أغنى رجل في بغداد لينجو بحياته. قبل ذلك بساعات فقط، قام والد ديفيد ساسون بدفع فدية لإخراجه من السجن حيث قام الحاكم التركي والي بغداد بإيداعه السجن، وهدد بشنقه إذا لم تدفع الأسرة فاتورة ضريبية باهظة. وهناك الآن قارب يرسو في انتظار أن يأخذ ديفيد البالغ من العمر 37 عامًا إلى بر الأمان. ربط حزام نقود حول خصره وارتدى عباءة. وقام الخدم بوضع اللؤلؤ داخل بطانة العباءة وشرعوا بخياطتها. كتب مؤرخ العائلة واصفًا الموقف: «لم تظهر سوى عينيه اللتين كانتا تفصلان بين العمامة والعباءة الملفوفة حول جسمه وهو يتسلل عبر بوابات المدينة التي عاشت فيها أجيال من أقاربه وكانت محط تقدير واحترام. كان ذلك عام 1829. حيث عاشت عائلته في بغداد مثل الملوك لأكثر من ثمانمائة عام.

كان فرار اليهود من الحكام القمعيين حدثًا تاريخيًا شمل اليهود في مناطق متعددة من العالم حتى حلول القرن التاسع عشر. فقد تم طردهم من بريطانيا عام 1290، ومن إسبانيا عام 1492. وكانت مدينة البندقية قد أمرت باحتجازهم في الأحياء اليهودية ابتداء من عام 1516.علمًا أن أهوال الإبادة الجماعية (الهولوكوست) لم تكن قد حدثت بعد.

كانت رحلة ديفيد ساسون مختلفة. عاش اليهود دائمًا على هامش المجتمع في أوروبا. ولكن لأكثر من ألف عام، ازدهرت حياة اليهود في بغداد، المعروفة في الكتاب المقدس باسم بابل. وكانت بغداد تعد أكثر من

أي مدينة في أوروبا، بل وأكثر من القدس مفترق طرق للثقافات منذ سنة 70 إلى 1400. عندما كانت أوروبا غارقة في ظلام العصور الوسطى، كانت بغداد واحدة من أكثر المدن عالمية في العالم. كانت موطنًا لبعض علماء الرياضيات واللاهوت والشعراء والأطباء الرائدين في العالم. كان يتم نقل الصوف الخام والنحاس والتوابل على طول طرق القوافل عبر الصحراء. وكانت الأسواق مليئة باللآلئ والفضيات. وكان يجتمع التجار والأطباء والفنانون في مقاهي بغداد. كان قصر الحاكم محاطًا بثلاثة أميال مربعة من الحدائق المشجرة، مع نوافير وبحيرات مليئة بالأسماك.

في مثل هذا العالم، ازدهرت حياة اليهود. وصلوا لأول مرة في عام 587 قبل الميلاد، عندما فرض ملك بابل نبوخذ نصر حصارًا على القدس، وبعد النصر، نقل 10000 من الحرفيين والعلماء والقادة اليهود -من أفضل وألمع اليهود- إلى بغداد وهو ما أطلق عليه الكتاب المقدس «السبي البابلي». هناك مقطع شهير في كتاب سفر المزامير يوثق يأس هؤلاء اليهود المهجرين:

هناك عند النهر في بابل جلسنا
نعم.. وبدأنا بالبكاء عندما تذكرنا صهيون.

في الواقع، فإن «السبي البابلي» غيّر مجرى التاريخ اليهودي. فاتسع وازدهر تعلم الشرائع اليهودية والتجديد الديني، مما منح اليهود الأدوات الدينية والسياسية والاقتصادية -وطريقة في التفكير- سيستخدمونها للبقاء والازدهار في جميع أنحاء العالم على مدى آلاف السنين القادمة وإلى يومنا هذا. لقد كانت تلك بداية الشتات اليهودي: تشتت وتفرق اليهود في جميع أنحاء العالم، حتى ولو كانوا يشكلون مجرد شريحة صغيرة من السكان. قام الحاخامات بتعديل ممارسات الطقوس اليهودية لكي يجعلوا الدين اليهودي متوائمًا مع أساليب الحياة الحديثة وليتمكن اليهود من المشاركة في الأعمال التجارية. على الرغم من أن نبوخذ نصر اختطف اليهود ووضعهم في الأسر، إلا أنه لم يعاملهم كعبيد. فاستعان بهم لتقوية اقتصاد بغداد. وشجعهم على

أن يصبحوا تجارًا ويتاجرون بين مختلف أجزاء مملكته المترامية الأطراف. كان اليهود مهمين جدًا للحياة التجارية في بغداد لدرجة أن العديد من غير اليهود العاملين في التجارة والتمويل لم يكونوا يذهبون إلى أعمالهم في يوم السبت، يوم عطلة اليهود. عندما احتل الفرس بغداد وعرضوا على اليهود فرصة العودة إلى القدس، لم يقبلها سوى عدد قليل. قرر معظمهم البقاء. يعتبر يهود بغداد أنفسهم ممثلي الأرستقراطية اليهودية. ومثل اليهود في لندن ونيويورك بعد قرون، ربما كان يهود بغداد يتوقون للعودة إلى القدس في صلاة السبت في كنيسهم المحلي، لكن في الأيام الستة الأخرى في الأسبوع، كانوا يستغلون الفرص من حولهم وقاموا ببناء مدينة مزدهرة.

وكان آل ساسون على رأس هذا المجتمع الديناميكي الواثق من نفسه فقاموا بقيادته ورعاية شؤونه. ومن خلال التجارة بالذهب والحرير والتوابل والصوف في جميع أنحاء الشرق الأوسط، أصبح آل ساسون أغنى تجار في بغداد. ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، عيّن الأتراك العثمانيون زعيم عائلة ساسون «الناصي» وتعني بالعربية «أمير اليهود» – وسيطًا لهم في التعامل مع السكان اليهود ذوي النفوذ في بغداد. وتوجد بين أوراق عائلة ساسون، مذكرات باللغتين التركية والعربية تشهد على تعاظم نفوذ أمير اليهود «الناصي». فكان زعيم عائلة ساسون يبارك الزيجات ويحل الخلافات الدينية. لعب «الناصي» أيضًا دورًا رئيسيًا في تقديم المشورة للحاكم العثماني، خاصة في الأمور الاقتصادية. وكان يتفاوض في قضايا منح القروض، ويخطط الميزانيات، ويضع الضرائب الجديدة وطرق تحصيلها. كان بحكم الأمر الواقع وزير الخزانة، المكلف ببناء نظام مالي حديث. عندما سافر الناصي للقاء الحاكم التركي لبغداد في القصر الملكي، تم حمله على العرش في الشوارع. وكان اليهود وغير اليهود على حد سواء يحنون رؤوسهم له باحترام.

شيد آل ساسون مدعومين بهذه الروابط، إمبراطورية اقتصادية متعددة الجنسيات امتدت من بغداد عبر الخليج الفارسي وآسيا. وزودت أسرة ساسون أسواق بغداد بكميات وفيرة من المنتجات، وأرسلت أفراد أسرتها الممتدة للسفر بين القبائل البدوية لشراء صوفهم مقابل الملابس القطنية

والأحذية والتوابل. سافر هؤلاء التجار إلى جميع أنحاء الشرق الأوسط وتنقلوا بين الهند والصين عبر منازل وقصور (الناصي) الفخمة. كانوا يستريحون في فناء منازله المحاطة بالأسوار، والتي تظللها أشجار البرتقال، هربًا من الحرارة التي كانت تصل إلى 50 درجة مئوية. وكانت هناك مخازن تحت الأرض تحتوي على ذهب العائلة.

في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومع اتساع ثروات آل ساسون ونفوذهم، اعتاد شركاؤهم ومنافسوهم التجاريون أن يطلقوا عليهم اسم «روتشيلد آسيا» بسبب الطريقة السريعة التي انتشرت بها ثرواتهم ونفوذهم عبر الصين والهند وأوروبا. لكنهم اعتبروا في السر أن المقارنة مضللة -ومهينة بعض الشيء. فباعتقاد آل ساسون، أن عائلة روتشيلد كانت من المهاجرين الجدد- وأنها عائلة فقيرة قفزت خلال جيل واحد من أحياء أوروبا إلى مكانة بارزة في مجال الأعمال التجارية والتأثير السياسي. ربما لم يكن آل ساسون مجهولين للإمبراطور الصيني أو للحاكم الهندي أو العائلة المالكة البريطانية، لكنهم كانوا أغنياء وبارزين وذوي نفوذ منذ عدة قرون.

ولد ديفيد ساسون عام 1792 وتدرب منذ الطفولة ليصبح (الناصي) أمير اليهود في المستقبل. لقد كان يمتلك قدرات هائلة في مجال الأعمال التجارية وموهبة غير عادية في تعلم اللغات. بدأ وهو في سن الثالثة عشرة، في مرافقة والده إلى «بيوت العد» -وهي مكاتب حساب صغيرة تحولت فيما بعد إلى البنوك وشركات المحاسبة- حيث كان يتم فيها حساب عائدات شركات آل ساسون. عندما كانت الأسواق تفتح أبوابها في الصباح، كان والده يرسله لتعلم كيفية الحساب بعملات مختلفة وإتقان أنظمة متباينة للأوزان والمقاييس. تلقى تعليمه في المنزل فأتقن اللغة العبرية (لغة ديانته) والتركية (لغة الحكومة) والعربية (لغة أهل بغداد) والفارسية (لغة التجارة في الشرق الأوسط). كان يحضر الزيارات المسائية لممثلي شركة الهند الشرقية البريطانية الذين وصلوا حديثًا من بومباي لآل ساسون، والذين شجعوهم على توسيع تجارتهم إلى الهند - على الرغم من أنه لم يكلف نفسه عناء تعلم اللغة الإنجليزية. يبلغ طوله ستة أقدام، وكان رأس ديفيد وكتفاه ترتفع فوق رؤوس وأكتاف أفراد عائلته والأشخاص الذين سيقودهم يومًا ما. كان

أفراد أسرته لا يعترضون على خططه لتوسيع أعمالهم التجارية؛ وكان يشع بالثقة بالنفس والقوة، وكما هي العادة، رتب له الزواج من ابنة تاجر ثري عندما كان في سن الخامسة عشرة. وسرعان ما أنجبت زوجته أربعة أبناء.

بينما كان ديفيد يستعد لتولي المنصب الذي سيتفاخر به وهو أمير اليهود، انهارت المكانة المميزة التي كان يتمتع بها آل ساسون ويهود بغداد على مدى قرون. فقد أدى الصراع على السلطة بين حكام بغداد العثمانيين إلى وصول فصيل معاد لليهود إلى السلطة. وفي محاولة يائسة للحصول على المال لتعزيز الاقتصاد المنهار، بدأ الأتراك في مضايقة وسجن آل ساسون وغيرهم من اليهود الأثرياء، مطالبينهم بدفع مبالغ كبيرة من الفدية. وقد تعرض تاجر يهودي ثري للخنق حتى الموت خارج زنزانته. ومع تدهور الظروف المحيطة بهم، فر بعض التجار اليهود إلى الهند، طالبين الحماية الاستعمارية البريطانية.

خوفًا من الوضع السياسي المتقلب، اتخذ والد ديفيد قرارًا غير عادي بالتنحي عن منصب أمير اليهود وتسليم السلطة إلى ديفيد، الذي كان يتعين عليه تقليديًا الانتظار حتى وفاة والده. لكن ديفيد رفض، مستشعرًا بشكل صحيح أن المنصب لم يعد يحمل الكثير من القوة. بدلاً من ذلك، وخلافًا لنصيحة والده، طلب ديفيد مساعدة السلطان التركي في القسطنطينية نيابة عن اليهود وآل ساسون في بغداد، متهمًا حكام المدينة بالفساد. لكنه كان مخطئًا في وضع ثقته في الحكومة الإمبراطورية، وسرعان ما وصل أمر خيانته إلى بغداد. تم القبض عليه. وأمر الباشا التركي بشنقه ما لم تدفع الأسرة فدية مقابل إطلاق سراحه. أخذ والده العجوز زمام الأمور على عاتقه، وقام بدفع رشوة لإخراج ابنه من السجن، ونقله بسرعة عبر شوارع المدينة متخفيًا، واستأجر قاربًا لإيصاله إلى بر الأمان.

غادر ديفيد بغداد وهو في حالة من الغضب والعجز. كان قد تزوج للتو بعد وفاة زوجته الأولى. وتخلى عن عروسه الجديدة وأطفاله. وكل مجد آل ساسون، وثروتهم ومكانتهم، التي كان موعودًا أن تؤول إليه باتت بعيدة المنال الآن. وبينما كانت السفينة تبحر بعيدًا، التفت إلى الشاطىء وشرع في البكاء.

والأحذية والتوابل. سافر هؤلاء التجار إلى جميع أنحاء الشرق الأوسط وتنقلوا بين الهند والصين عبر منازل وقصور (الناصي) الفخمة. كانوا يستريحون في فناء منازله المحاطة بالأسوار، والتي تظللها أشجار البرتقال، هربًا من الحرارة التي كانت تصل إلى 50 درجة مئوية. وكانت هناك مخازن تحت الأرض تحتوي على ذهب العائلة.

في القرنين التاسع عشر والعشرين، ومع اتساع ثروات آل ساسون ونفوذهم، اعتاد شركاؤهم ومنافسوهم التجاريون أن يطلقوا عليهم اسم «روتشيلد آسيا» بسبب الطريقة السريعة التي انتشرت بها ثرواتهم ونفوذهم عبر الصين والهند وأوروبا. لكنهم اعتبروا في السر أن المقارنة مضللة –ومهينة بعض الشيء. فباعتقاد آل ساسون، أن عائلة روتشيلد كانت من المهاجرين الجدد– وأنها عائلة فقيرة قفزت خلال جيل واحد من أحياء أوروبا إلى مكانة بارزة في مجال الأعمال التجارية والتأثير السياسي. ربما لم يكن آل ساسون مجهولين للإمبراطور الصيني أو للحاكم الهندي أو العائلة المالكة البريطانية، لكنهم كانوا أغنياء وبارزين وذوي نفوذ منذ عدة قرون.

ولد ديفيد ساسون عام 1792 وتدرب منذ الطفولة ليصبح (الناصي) أمير اليهود في المستقبل. لقد كان يمتلك قدرات هائلة في مجال الأعمال التجارية وموهبة غير عادية في تعلم اللغات. بدأ وهو في سن الثالثة عشرة، في مرافقة والده إلى «بيوت العد» –وهي مكاتب حساب صغيرة تحولت فيما بعد إلى البنوك وشركات المحاسبة– حيث كان يتم فيها حساب عائدات شركات آل ساسون. عندما كانت الأسواق تفتح أبوابها في الصباح، كان والده يرسله لتعلم كيفية الحساب بعملات مختلفة وإتقان أنظمة متباينة للأوزان والمقاييس. تلقى تعليمه في المنزل فأتقن اللغة العبرية (لغة ديانته) والتركية (لغة الحكومة) والعربية (لغة أهل بغداد) والفارسية (لغة التجارة في الشرق الأوسط). كان يحضر الزيارات المسائية لممثلي شركة الهند الشرقية البريطانية الذين وصلوا حديثًا من بومباي لآل ساسون، والذين شجعوهم على توسيع تجارتهم إلى الهند – على الرغم من أنه لم يكلف نفسه عناء تعلم اللغة الإنجليزية. يبلغ طوله ستة أقدام، وكان رأس ديفيد وكتفاه ترتفع فوق رؤوس وأكتاف أفراد عائلته والأشخاص الذين سيقودهم يومًا ما. كان

أفراد أسرته لا يعترضون على خططه لتوسيع أعمالهم التجارية؛ وكان يشع بالثقة بالنفس والقوة، وكما هي العادة، رتب له الزواج من ابنة تاجر ثري عندما كان في سن الخامسة عشرة. وسرعان ما أنجبت زوجته أربعة أبناء.

بينما كان ديفيد يستعد لتولي المنصب الذي سيتفاخر به وهو أمير اليهود، انهارت المكانة المميزة التي كان يتمتع بها آل ساسون ويهود بغداد على مدى قرون. فقد أدى الصراع على السلطة بين حكام بغداد العثمانيين إلى وصول فصيل معاد لليهود إلى السلطة. وفي محاولة يائسة للحصول على المال لتعزيز الاقتصاد المنهار، بدأ الأتراك في مضايقة وسجن آل ساسون وغيرهم من اليهود الأثرياء، مطالبينهم بدفع مبالغ كبيرة من الفدية. وقد تعرض تاجر يهودي ثري للخنق حتى الموت خارج زنزانته. ومع تدهور الظروف المحيطة بهم، فر بعض التجار اليهود إلى الهند، طالبين الحماية الاستعمارية البريطانية.

خوفًا من الوضع السياسي المتقلب، اتخذ والد ديفيد قرارًا غير عادي بالتنحي عن منصب أمير اليهود وتسليم السلطة إلى ديفيد، الذي كان يتعين عليه تقليديًا الانتظار حتى وفاة والده. لكن ديفيد رفض، مستشعرًا بشكل صحيح أن المنصب لم يعد يحمل الكثير من القوة. بدلاً من ذلك، وخلافًا لنصيحة والده، طلب ديفيد مساعدة السلطان التركي في القسطنطينية نيابة عن اليهود وآل ساسون في بغداد، متهمًا حكام المدينة بالفساد. لكنه كان مخطئًا في وضع ثقته في الحكومة الإمبراطورية، وسرعان ما وصل أمر خيانته إلى بغداد. تم القبض عليه. وأمر الباشا التركي بشنقه ما لم تدفع الأسرة فدية مقابل إطلاق سراحه. أخذ والده العجوز زمام الأمور على عاتقه، وقام بدفع رشوة لإخراج ابنه من السجن، ونقله بسرعة عبر شوارع المدينة متخفيًا، واستأجر قاربًا لإيصاله إلى بر الأمان.

غادر ديفيد بغداد وهو في حالة من الغضب والعجز. كان قد تزوج للتو بعد وفاة زوجته الأولى. وتخلى عن عروسه الجديدة وأطفاله. وكل مجد آل ساسون، وثروتهم ومكانتهم، التي كان موعودًا أن تؤول إليه باتت بعيدة المنال الآن. وبينما كانت السفينة تبحر بعيدًا، التفت إلى الشاطىء وشرع في البكاء.

نزل ديفيد في مدينة بوشهر، وهي مدينة ساحلية تسيطر عليها إيران بعيدًا عن متناول الأتراك. وكان العديد من اللاجئين الذين غادروا بغداد مع تدهور الأوضاع قد استقروا هناك. ومع أن الحكايات التي أرسلوها إلى الوطن كانت غنية بأحاديث عن الثراء والنجاح الذي أحرزوه، فإنهم في الواقع كانوا يكافحون، محشورين في الأحياء الفقيرة، باحثين عن مكان عيش صغير. قضى ديفيد ليلته الأولى بعيدًا عن بغداد مرتبكًا ويائسًا ونائمًا على أرضية مستودع على الواجهة البحرية، منحه له أحد البحارة. احتفظ بمسدس بجانبه ليطلق النار على الفئران التي كانت تتحرك بخفة ورشاقة فوق الأرض.

بعد أن هدأ روعه في الأسابيع القليلة الأولى، تحسن مزاجه. كان جميع التجار في بوشهر يعرفون اسم آل ساسون وسمعوا عن الحملة التي كانت تشن ضد اليهود. والعديد منهم كانت عائلة ساسون قد سبق أن أقرضته مالًا ليتمكن من تأسيس مشروع تجاري. رتب والده، الذي كان لا يزال في بغداد، تهيئة قوافل من البضائع والعملات ليتم تهريبها إلى خارج المدينة وتسليمها إلى ابنه. ومثل العديد من المهاجرين الذين أُجبروا على الفرار، واجه ديفيد خيارين: إما الاستسلام للغضب والاكتئاب اللذين أهلكاه بالتأكيد أو، إعادة بناء نفسه وقد كان حينها في السابعة والثلاثين من العمر. في تلك الأشهر القليلة الأولى، تلقى أخبارًا من بغداد شجعته. كانت الحملة ضد اليهود في بغداد تتراجع وبدأ والده في دفع رشى لتمكين الأسرة من الانضمام إليه في بوشهر. أصبح الرجل الذي خطط يومًا ما ليصبح أمير يهود بغداد بائعًا متجولًا في بوشهر. وقد خدمه تحدثه العديد من اللغات بطلاقة في العمل، فكان يتحدث باللغة العربية مع قباطنة البحر العرب وبالعبرية مع زملائه اللاجئين اليهود. وبدأ بتصدير خيول عربية وآسيوية وتمور، وأنواع من السجاد واللآلئ. وحرص على ارتداء الجلباب والعمامة العربية باهظة الثمن، وبدأ يلتقي بالممثلين البريطانيين لشركة الهند الشرقية، ويذكر لهم كيف التقى زملاؤهم بآل ساسون في بغداد. كتب البريطانيون أنهم معجبون بـ «مظهره الذي يدل على شعور عال بالكرامة «وحثوه على التفكير في الانتقال إلى بومباي لتأسيس شركة هناك». عرض عليه صديق له وزميل تاجر من الشرق الأوسط، يدعى صموئيل زكريا، قرضًا بدون فوائد ليبدأ أعماله في بومباي.

ما رآه زكريا –ورآه البريطانيون أيضًا– كان رجلاً مختلفًا تمامًا عن المهاجرين واللاجئين الآخرين الذين يغسلون الأطباق في بوشهر. كان حائزًا لتعليم أفضل من معظم التجار –ويمتلك معرفة وخبرة أكثر حتى من معظم المسؤولين الحكوميين والمسؤولين البريطانيين. كان مدفوعًا بشيء يجعله يشبه أحد أبطال مسرحيات شكسبير تقريبًا– فلم يكن لاجئًا فقيرًا يكافح من أجل الحصول على حياة أفضل ولكن سليل عائلة ملكية انتزعت منه امتيازاته وهو مصمم الآن على استعادتها، إن لم يكن في بغداد فيمكن أن يقوم بذلك في أي مكان آخر. لقد نشأ على قيادة إمبراطورية تجارية وتقديم المشورة للعائلة المالكة. لم يكن يسعى إلى الصعود من حال الفقر وعدم الشهرة إلى الثروة والنفوذ؛ كان يسعى إلى استعادتهما.

في عام 1830، بعد عام من هروب ديفيد من بغداد، انضم إليه باقي أفراد عائلته في بوشهر. أثبتت الرحلة الطويلة أنها مرهقة للغاية بالنسبة لوالده المسن، الذي مات بين ذراعي ديفيد بعد وصوله بوقت قصير. تم لمّ شمله مع زوجته وأطفاله، فكر ديفيد أكثر في الفرص المتاحة في بومباي. بعد بضع سنوات، ولم تكن قد مضت فترة طويلة حين أصبحت زوجته حاملًا، قرر ديفيد أخيرًا أن يقوم بخطوة معينة، طالبًا الحماية من الحكم البريطاني وإتاحة الفرصة له للعمل.

بعد نزوله في بومباي، انضم ديفيد ساسون إلى الإمبراطورية البريطانية التي كانت في ذروة قوتها السياسية والاقتصادية. كان ثلث العالم تقريبًا تحت السيطرة البريطانية، بما في ذلك أجزاء من الهند وأستراليا وماليزيا وسوريا ومصر. كان البريطانيون قد سحقوا نابليون في أوروبا وقادوا أكبر قوة بحرية في العالم. تدفقت القوة والمال عبر لندن، أكبر مدينة في العالم. قامت بعض الدول ببناء الإمبراطوريات وكان السبب في المقام الأول هو الاستيلاء على العبيد أو الموارد الطبيعية، أو لبناء حاجز بينها وبين أعدائها. في حين شيدت بريطانيا العظمى إمبراطورية لتغذية التجارة والتمويل والأعمال. قال رئيس الوزراء البريطاني، اللورد بالمرستون، أمام البرلمان في عام 1839، «إن الهدف الأعظم للحكومة في كل زاوية من زوايا من العالم» هو «توسيع تجارة البلاد». وعلى مدى عقود، احتكرت شركة الهند الشرقية البريطانية

التجارة داخل الهند وآسيا بموافقة الدولة. وفي عام 1832 –وهو العام الذي وصل فيه ديفيد إلى بومباي– أنهت الحكومة البريطانية ذلك الاحتكار، وفتحت التجارة في جميع أنحاء آسيا أمام الشركات الخاصة والأفراد. وبدأت حقبة جديدة من التجارة الحرة.

منذ اللحظة التي وصل فيها ديفيد وعائلته إلى بومباي، قطع عهدًا مع نفسه أن يتحالف مع البريطانيين ويساهم في توسع الإمبراطورية البريطانية. على الرغم من أن بشرته السمراء وكونه من المهاجرين، فقد اختار أن يدعم الإمبراطورية البريطانية. لم يكن ذلك مفاجئًا. كان ديفيد يعتبر نفسه جزءًا من النخبة؛ وقد علا شأن آل ساسون في بغداد جزئياً من خلال تقديم المشورة وخدمة حكامهم الأتراك. إن القضية الحاسمة في حياته –فراره من بغداد– قد نشأت بسبب سوء قراءته لسياسة حكام بغداد واعتقاده أن السلطان سوف يقف إلى جانبه ضد حكام بغداد. كان مصمماً على أنه وعائلته لن يرتكبوا هذا الخطأ مرة أخرى.

وصل ديفيد إلى الهند في وقت مناسب تمامًا. لم تكن الإمبراطورية البريطانية المتوسعة تفتح طرق التجارة فقط، بل كانت تفتح أذهان البريطانيين. ظلت بريطانيا نفسها مجتمعًا طبقيًا، حيث كان الأرستقراطيون من ملاك الأراضي والنبلاء ينظرون باستخفاف إلى «الغرباء». لكن الأعمال والسياسة أظهرت المزيد من التسامح. في الهند، احتاج البريطانيون إلى رجال أعمال طموحين لتوسيع التجارة إلى حدود إمبراطورية متنامية. قبل مغادرة لندن متوجهاً إلى الهند، اقترح الحاكم العام البريطاني الجديد لبومباي، السير روبرت غرانت، مرتين على البرلمان مشاريع قوانين لإنهاء جميع أشكال التمييز ضد يهود بريطانيا العظمى. هُزمت مشاريع القوانين في البداية، ولكن سرعان ما انتهى التمييز الرسمي ضد اليهود البريطانيين. لم يتم قبول اليهود قط في نوادي بومباي البريطانية، لكن ممتلكاتهم وأعمالهم أصبحت الآن محمية قانونًا – أكثر من أي وقت مضى، حتى في بغداد. وكان الحاكم البريطاني الجديد للمدينة صديقًا مؤكدًا لليهود.

تأثر ديفيد حقًا بالبريطانيين. لقد أطلق على الحكومة البريطانية، وصفًا

بالعبرية Malka chased، وتعني حكومة عادلة ولطيفة. قال ديفيد لعائلته: «أنا أؤمن بالبريطانيين لأنهم على الجانب الصحيح من التاريخ». لم تكن هناك رشوة. كانت بريطانيا دولة القانون. على العكس من ذلك، كانت الرشوة في بغداد هي الطريقة التي تتم بها الأعمال. رحبت السلطات الاستعمارية البريطانية برجل اعتبروه ذكيًا ومثقفًا وحليفًا مفيدًا. ومن خلال الحديث بحضور مترجم بدأ ديفيد الاجتماع بالحاكم العام البريطاني لبومباي ومع عالم آثار بريطاني لمناقشة العهد القديم.

أصبح ديفيد من عشاق اللغة الإنكليزية. كلف أحد العلماء بترجمة كلمات أغنية «حفظ الله الملكة» إلى لغته الأم واللهجة اليهودية-العربية، كما عين معلمين لتعليم أبنائه اللغة الإنجليزية والتاريخ البريطاني. بعد ظهر أحد أيام الصيف بعد خمس سنوات من إقامته في بومباي، اصطحب ولديه الأكبر، عبد الله، تسعة عشر عامًا، وإلياس، سبعة عشر عامًا، للانضمام إلى تجمع على الواجهة البحرية للمدينة للاستماع إلى إعلان تنصيب الملكة فيكتوريا في لندن. أراد أبناؤه ارتداء سترات وربطات عنق بريطانية. منعهم ديفيد من ذلك. ارتدى أبناء آل ساسون الثلاثة الملابس التي كان أسلافهم يرتدونها في بغداد – قمصان موسلين بيضاء وبنطلون أبيض عريض مربوط عند الكاحل. كان ديفيد يرتدي عمامة مطرزة وعباءة داكنة.

وبينما بدأت فرقة عسكرية بريطانية بالعزف، انضم الثلاثة إلى الحشد وحناجرهم تصدح بالإنكليزية، «فليحفظ الله الملكة!»[1]

لم يفقد ديفيد قط إحساسه بأنه مهاجر، وأنه غريب. حتى في بومباي المدينة العالمية، حيث يتزاحم العديد من الناس على طول أرصفة المدينة والأزقة الضيقة للمدينة، بدا ديفيد غريبًا بشكل مذهل ومخيفًا للكثيرين الذين التقوا به – وكما وصفه كاتب سيرة حياة العائلة «طويل القامة، ونحيف، ومتصلب العضلات، ووجه يشبه وجه الرسام الإسباني إل غريكو: ولحية غزاها الشيب بدلا من وتهذبه لحية منقطة باللون الرمادي». على الرغم من صداقته الحميمة مع الحاكم، فإن كونه غريبًا يعني أنه لا يستطيع التعامل مع

1- النشيد الوطني الإنكليزي-م

الشركات والبنوك البريطانية التي هيمنت على تجارة الهند، والممنوعة من التعامل مع أي شخص بغدادي أو يهودي.

احتاج ديفيد إلى أن يفكر بشكل خلاق. كان الأمر يستغرق خمسة أشهر، على سبيل المثال، حتى تبحر السفن من إنكلترا إلى الهند. سمع ديفيد عن ابتكار جديد يسمى -البواخر- من شأنه أن يقلل وقت السفر إلى أسابيع. فقرر أن يستثمر أرباحه في شراء المزيد من مساحات رصيف الميناء، وراهن على أن سفنًا كثيرة ستصل قريبًا إلى بومباي بوتيرة أكبر. وهذا يعني أنه عندما يتم تسجيل السفينة في الرصيف الذي يملكه ديفيد ساسون، فإنه سيحصل على أول مجموعة من البضائع قبل وصولها إلى أسواق المدينة. عندما كانت تبحر السفن بعيداً، كانت نصف حمولتها مملوءة ببضائع تحمل علامة ساسون ومتجهة إلى إنكلترا. منحه الاختلاط مع قباطنة البحر على أرصفة الميناء، والتحدث معهم باللغات العربية والفارسية والتركية، قدرًا مهمًا من المعلومات التجارية. ومن خلال قباطنة البحر، علم ديفيد أن نمو مصانع القطن الصناعية في إنكلترا من المرجح أن يعزز الطلب على القطن الهندي الخام. وإدراكًا لقيمة القدرة على التفاوض مع رجال الأعمال المحليين، تعلم الهندوستانية وأصبح صديقًا مقربًا لأحد أكبر تجار القطن في الهند. ومنه، علم ديفيد أن السماسرة البريطانيين كانوا يشكون من أن البالات المشتراة من الهند تحتوي على الكثير من الأحجار. وباستخدام هذه المعلومات، استورد ديفيد محالج قطن جديدة حلت هذه المشكلة وأنتجت قطنًا أكثر قابلية للتسويق. عندما لم تقدم له مجموعة البنوك البريطانية يد المساعدة، وجد ضالته في بنك بومباي، الذي مكنه من تمويل إنشاء خطوط سكك حديدية جديدة -لشحن القطن من الريف بسرعة أكبر. بعد عقدين من الزمان، عندما حاصرت قوات الشمال مناطق الجنوب في الحرب الأهلية الأمريكية، وتوقف أكبر مورد للقطن إلى بريطانيا، كان ديفيد في وضع مثالي لملء ذلك الفراغ- وكسب من جراء ذلك الملايين.

أصبح ديفيد يمثل جسراً بين الممارسات التجارية التقليدية في الشرق الأوسط والنظام العالمي الجديد الذي تطور في ظل الإمبراطورية البريطانية. إن ممارسة الأعمال التجارية في آسيا يعني التعامل مع خليط من الأوزان

والمقاييس المختلفة، والعملات المختلفة، واللغات المختلفة. فرض ديفيد استخدام معايير موحدة داخل شركته، كان موظفو شركات ساسون يديرون أعمالهم باللغة اليهودية -العربية- الكلمات العربية المكتوبة بأحرف عبرية - وهي اللغة التي جلبوها معهم من بغداد. ولكن عندما يتعلق الأمر بالمراسلات التجارية، فقد أمر ديفيد بأن تتم كتابة الرسائل إلى الزبائن والموردين والشركات الأخرى بلغة إنكليزية دقيقة، على الرغم من أنه كان بالكاد يستطيع أن يقرأ تلك اللغة أو يتحدث بها. وأمر بأن تطبع علامة ساسون التجارية على قرطاسية المكتب وأن تُطبع شيكات الشركة بالحروف العبرية والإنكليزية. وتحول إلى استخدام نظام المحاسبة الأكثر شيوعًا وتطورًا الذي يتضمن مسك دفاتر الأستاذ واليومية المحاسبية التي تستخدمها الشركات البريطانية الكبرى. كان لا يحبذ المساومة، وهي الطريقة المعتادة التي يمارس بها التجار أعمالهم في الأرصفة والأسواق. وبدلًا من ذلك أعجب بقواعد السلوك البريطانية. وكان يعتقد أن التحلي بالهدوء في أوقات الأزمات، سيكون مفيدًا للأعمال التجارية.

أدرك ديفيد أنه بحاجة إلى التحلي بالمرونة للنجاح وللحفاظ على هويته وقيمه حتى أثناء التنقل في إمبراطورية جديدة وقوية. أقسم الولاء للإمبراطورية البريطانية وأعد أبناءه وشركاته لخدمتها. لكن وضعه كشخص يهودي ومغترب خففت من حدة بعض النتائج المزعجة التي يسببها ارتماؤه في أحضان الاستعمار البريطاني. في بغداد، دعم آل ساسون الأعمال الخيرية على نطاق واسع واستمروا في القيام بذلك في بومباي، من خلال بناء المعابد اليهودية ودعم اليهود الذين وقعوا في حالة من الفقر. مثل العديد من أبناء طبقته، كان ديفيد يمتلك عبدًا في الهند، لكنه أطلق سراحه وسجل العتق في وثيقة رسمية ليؤكد أنه لن يُعاد استعباده. لقد بنى ووهب أول مستشفى يقبل المرضى الهنود. إذا نظرنا إلى الوراء، فمن السهل انتقاد ارتماء ديفيد في أحضان الاستعمار والاستبداد. في أوروبا وروسيا وفيما بعد في أمريكا، واجه العديد من اليهود خيارات أخلاقية مماثلة قدمها الاستعمار ووحشية الرأسمالية مع ظهور الاشتراكية وقيام الثورات. كان ديفيد رائداً فيما يمكن أن يكون شخصية تآلفت مع انتشار التصنيع والتمويل الحديث

في جميع أنحاء العالم: رجل الأعمال اليهودي الليبرالي - رجل الأعمال الذي أدت مهاراته ومواهبه إلى تحقيق نجاح مالي رائع، ولكن الذي جعله تاريخه الحافل بالصعوبات الشخصية والتزامه بالقيم اليهودية أكثر تقدمًا اجتماعيًا وسياسيًا.

في بغداد، اعتمد آل ساسون على الصلات والروابط التي امتدت عبر الشرق الأوسط لعدة قرون. بدأ ديفيد يعمل الآن في بلد جديد وهو لا يملك شبكة علاقات قائمة. فكيف يديرها؟ وكيف ينمي قوة عاملة مخلصة مدربة على تقنياته ومستعدة للاستفادة من الفرص التي تخلقها التطورات العلمية الجديدة في مجال الاتصالات والتصنيع والنقل؟

فجاء بفكرة مدارس ساسون.

أنشأ ديفيد ما يعادل مدينة شركة[1] تابعة لآل ساسون، مصممة لجذب اللاجئين اليهود، الذين قدموا أولاً من بغداد ثم من جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وتحويلهم إلى موظفين مخلصين. أرسلت العائلات الفقيرة والمكافحة أبناءها المراهقين من بغداد وسوريا وإيران وأفغانستان. والتحقوا بمؤسسة ديفيد ساسون الخيرية، حيث تعلم المراهقون اللغة العربية والجغرافيا والرياضيات والمحاسبة والعبرية، باستخدام الكتب المدرسية التي أوصى بها ديفيد. ثم تم تعيينهم ككتبة لتتبع المشتريات والمبيعات في مستودعات شركات ساسون، أو تم إرسالهم للتفاوض مع المشترين البريطانيين على بيع بالات القطن. في أيام السبت، يوم السبت اليهودي، كان يتم إغلاق مستودعات ساسون. ويجتمع الموظفون في منزل ديفيد ساسون لأداء الشعائر الدينية، وبعد فترة قصيرة باتوا يقيمون صلواتهم في أول كنيس يهودي في بومباي، الذي قام ببنائه ديفيد ساسون. إذا مرض الموظفون، يمكنهم طلب الرعاية في مستشفى ساسون العام في مدينة بونا القريبة، الذي بناه ديفيد وتبرع به للمصلحة العامة. وإذا أرادوا مواصلة دراستهم، فيمكنهم حضور المحاضرات أو استخدام المكتبة في معهد ديفيد

1- المدينة التي تكون فيها جميع المحلات والمساكن مملوكة من قبل شركة واحدة معينة وتكون أيضًا جهة العمل الرئيسية فيها-م

ساسون للميكانيكا، الذي كان يعرض نماذج للأعمال الميكانيكية وتلقى فيه محاضرات حول العلوم والتكنولوجيا. وكان الموظفون الذين يتقاعدون وليس لديهم أسر تعتني بهم يحصلون على النقود لشراء الطعام. وعندما يموتون، يتم دفنهم في المقبرة اليهودية التي تبرع بها ديفيد ساسون. جذبت هذه الشبكة الاجتماعية التي توفر حياة كريمة للأفراد من المدرسة إلى اللحد التي أقامها ديفيد ساسون تدفقًا متزايدًا من العمال إلى شركاته ومكاتبه. وقد كلفته حوالي 300 ألف دولار سنويًا من الأموال بسعر اليوم – وجلبت له الناس الطموحين والموهوبين والمخلصين.

بعد أقل من عقد من وصوله إلى بومباي، بات ديفيد ساسون واحدًا من أغنى الرجال في الهند. وأشاد به حاكم بومباي البريطاني ووصفه بأنه «في المرتبة الأولى من تجارنا غير الأوروبيين من حيث الثروة والشعور بالمسؤولية». كان قد بدأ للتو نشاطاته التجارية.

مع توسع بريطانيا العظمى في جميع أنحاء العالم من خلال الغزو والسياسات التجارية العدوانية والابتكار التكنولوجي السريع وتسخير طموح وفطنة الأجانب مثل ديفيد ساسون، أصبحت الصين أكثر انغلاقًا وتشددًا وانكفاءً داخليًا وغطرسة. كان ضعفها نابعًا من نجاحها. في أواخر عام 1800، كانت الصين قوة عالمية مهيمنة امتد حكمها ونفوذها في جميع أنحاء آسيا. كانت سفنها تقوم برحلات تجارية إلى بلدان جنوب شرق آسيا، وأبدى التجار الزائرون والوفود الدبلوماسية احترامهم للحكام الصينيين من خلال القيام بالطقوس المعروفة باسم kowtow، وتعني الركوع حتى تلامس جباههم الأرض، عند الاقتراب من الإمبراطور. وكان يدير العلاقات مع غير الصينيين مسؤولون يؤكدون على الدونية الثقافية للأجانب.

رفض البريطانيون، بغطرستهم، الانصياع لتلك القواعد – ورفض الدبلوماسيون والمسؤولون العسكريون البريطانيون القيام بطقوس kowtow. ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، بعد سنوات قليلة من توجيه الثورة الأمريكية الضربة الأولى للتوسع الإمبريالي البريطاني، اشتبكت بريطانيا والصين في سلسلة متصاعدة من المواجهات الدبلوماسية والعسكرية. أرسلت بريطانيا مبعوثين إلى الصين تطالبها بفتح مدنها وموانئها

للتجارة وبيع البضائع البريطانية. واقترحت أن يقيم سفير بريطاني في بكين، وأرسلوا معه، كهدايا، أمثلة على أفضل التقنيات البريطانية: الساعات والتلسكوبات والأسلحة والمنسوجات. في رسالة غالبًا ما يتم الاستشهاد بها إلى الملك جورج الثالث في عام 1793، رفض الإمبراطور الصيني تشيان لونغ الجهود البريطانية وأعرب عن دهشته من أن الملك قد يكون جاهلاً للغاية بتفوق الصين: كتب الإمبراطور إلى الملك جورج: «نحن نملك كل الأشياء». «أنا لا أضع أي قيمة للأشياء الغريبة أو المبتكرة ولا أجد فائدة من استخدام الأدوات التي تصنعها بلدك». لكن ميزان القوى العالمية كان يتغير. وحين غادر السفير البريطاني الصين بعد أن تعرض للإهانة بسبب طرده من قبل الإمبراطور، أبلغ رؤساءه أن الصين كانت تخادع وتتظاهر بغير حقيقتها. وأن جيشها ضعيف ولن يكون قادرًا على تحمل الضغط البريطاني. وكتب يقول إن الصين كانت مثل القارب المثقوب، وتشبه محاربًا عجوزًا، ومجنونًا، من الدرجة الأولى، وكانت محظوظة في امتلاكها سلسلة من الضباط المتمكنين واليقظين استطاعوا جعلها واقفة على قدميها خلال المائة والخمسين عامًا الماضية. ولم تتمكن من التغلب على جيرانها إلا بسبب ضخامة حجمها وحضورها. وفي الواقع، فقد توقع السفير البريطاني، أن الصين ستدرج في قائمة البلدان التي ستهاجمها بريطانيا، وسرعان ما ستتحول إلى أشلاء على الشاطئ.

كانت تجارة الأفيون هي الشرارة التي أشعلت اللهيب. كان الأفيون، يعد أفضل دواء متاح لعلاج الألم وتهدئة القلق في القرن التاسع عشر في أوروبا وبريطانيا العظمى. لم يتم تسجيل براءة اختراع الأسبرين كدواء حتى عام 1899. كان الأفيون أيضًا يسبب الإدمان ويؤدي إلى الهلوسة والشعور بنوع من الراحة. كتب شخص بريطاني في القرن التاسع عشر عن تجربته في تعاطي الأفيون قائلًا: «تخيلت أنني عشت أحيانًا لمدة 70 أو 100 عام في ليلة واحدة». تحول الأفيون إلى سلعة كان الصينيون بحاجة إليها بالفعل. في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان الطلب على البضائع الصينية في أوروبا، وخاصة الحرير والبورسلين، والشاي، قد خلق خللًا في الميزان التجاري لمصلحة الصين. كانت بريطانيا تدفع ثمن كل هذه السلع بالفضة، لكن الصين لم تكن

تشتري أي شيء في المقابل. ولمواجهة ذلك، شجعت شركة الهند الشرقية البريطانية على بيع الأفيون على الرغم من قلق سلسلة من الأباطرة الصينيين من مخاطر الإدمان وحاولوا تقييد المخدرات أو حظرها. قام البريطانيون بزراعة الأفيون في الهند وباعوه لوسطاء، ثم حققوا أرباحًا ضخمة من بيع المخدرات داخل الصين، والعمل مع المسؤولين الصينيين الفاسدين والتهرب من محاولات إغراق سفنهم والاستيلاء على مخدراتهم. كان ما يقرب من ثلث تجارة بومباي مرتبطة بتجارة الأفيون التي تقرها الدولة. وكان تهريب الأفيون إلى الصين يتم تحت سيطرة شركة بريطانية -وهي غاردين، ماثيسون وشركاه، التي أسسها تاجران إسكتلنديان. ومع ضغوط البريطانيين على الإمبراطور لكي يسمح للسفن بالدخول لبيع الساعات والأسلحة أصبح إدمان الأفيون مشكلة اجتماعية كبيرة. بحلول أوائل القرن التاسع عشر، كان واحد من كل عشرة صينيين مدمنًا. (بالمقابل، حوالي 3 في المائة من الأمريكيين أساءوا استخدام العقاقير القوية أو كانوا مدمنين عليها، مثل المواد الأفيونية الموصوفة، والكوكايين، والهيروين في ذروة القلق العام بشأن أزمة المواد الأفيونية و«الحرب على المخدرات» في الولايات المتحدة). ناشد المسؤول الصيني لين زيكسو المكلف بالقضاء على تجارة الأفيون مباشرة خليفة الملك جورج، الملكة فيكتوريا. وكتب لها رسالة رسمية حماسية متسائلًا «أين ضميرك؟». وأعلن أن المنتجات التي صدرتها الصين إلى بريطانيا العظمى- الشاي والحرير والحرف اليدوية - كانت كلها مفيدة. لكن رعايا الملكة فيكتوريا كانوا «يبيعون منتجات ضارة للآخرين من أجل تلبية رغبتكم في الجشع والطمع. لنفترض أن هناك أشخاصًا من دولة أخرى حملوا الأفيون لأجل بيعه إلى إنكلترا وأغروا شعبك بشرائه وتدخينه؛ بالتأكيد، أن جلالتك ستكرهينه بقوة ويعاقب بشدة بمرارة». لم تستجب الملكة فيكتوريا قط لهذه الرسالة. وعندما قام لين، بتوجيه من الإمبراطور، بإلقاء صناديق الأفيون في البحر وبدأ في احتجاز المسؤولين البريطانيين كرهائن، زودت شركة غاردين-ماثيسون وشركاهم الجيش البريطاني بخرائط مفصلة وخطط استراتيجية وعرضت تقديم المساعدة من خلال قباطنة الشركة البحريين الذين يعرفون أفضل الطرق المؤدية إلى الصين ونقاط ضعف البحرية الصينية.

غزت بريطانيا الصين في عام 1839 فيما أصبح يعرف باسم حرب الأفيون الأولى. وكما تنبأ السفير البريطاني الذي طرده الإمبراطور الصيني قبل خمسين عامًا، كانت الصين مفرطة في التفاؤل بقوتها وهُزمت بسهولة. وبموجب معاهدة نانجينغ، الموقعة في عام 1842، تنازلت الصين عن جزيرة هونغ كونغ لبريطانيا العظمى وفتحت خمس مدن للتجارة الغربية، بما في ذلك مدينة لم تكن معروفة سابقًا على نطاق واسع تسمى شانغهاي. كما أن التجار الأجانب الذين يمارسون الأعمال التجارية في الصين لن يدفعوا أي ضرائب. ولن يخضعوا للقانون الصيني - وهو وضع يُعرف باسم «خارج الإقليم». وسيتم عرض أي نزاعات تجارية أو قانونية أمام قضاة بريطانيين ويتم الفصل فيها بناءً على القانون البريطاني. ظلت تجارة الأفيون غير قانونية من الناحية الفنية، ولكن لم يكن من المرجح أن يتحدى الصينيون التجار البريطانيين بشكل مباشر مرة أخرى بعد فترة وجيزة من تلقيهم هزيمة عسكرية مدمرة. كانت تلك هي البداية لما أسماه أحد المؤرخين الصينيين (مائة عام من الإذلال) أما لين زيكسو، الذي ناشد ضمير الملكة فيكتوريا دون جدوى وفشل في إعاقة الغزو البريطاني، فقد أرسل إلى المنفى.

أيد ديفيد ساسون الغزو البريطاني للصين. وبدأ يتاجر في بيع الأفيون. فاشترى سفينة من مستودعاته ومكتبه في بومباي، وبدأ بتحميلها بالأفيون واستأجر قباطنة ليبحروا بها إلى الصين. كانت رحلة محفوفة بالمخاطر. ونظرًا لأن الصينيين كانوا يعتبرون تجارة الأفيون عملًا غير قانوني، فقد اضطرت سفينة ساسون إلى تفريغ المخدرات في جزر صغيرة بالقرب من ميناء كان تون الجنوبي ثم رشوة المسؤولين الصينيين ودفع التجار الصينيين لتوزيعه. ومع ذلك، فإن كل صندوق أفيون يتم شحنه إلى الصين كان يحقق ربحًا حوالي 100 جنيه إسترليني أو 10000 دولار من أموال اليوم. كان ديفيد يحضر بانتظام إلى بورصة كلكتا لتجارة الأفيون لتقديم عطاءات لشرائه. وفيما كان سيصبح استراتيجية مألوفة، اشترى أرضًا وبنى مستودعات لخزن الأفيون الذي اشتراه تجار آخرون ويقدم تسهيلات ائتمانية لتجار الأفيون والمتعاملين به. كان أصغر من أن يتنافس مع الشركات الكبرى -فقد كان لا يمتلك سوى سفينة بخارية واحدة كانت تهرب الأفيون، مقارنة بشركة

غاردن وماثيوس وشركائه، التي كانت تمتلك اثنتي عشرة سفينة بخارية كبيرة مدعومة بمئات من القوارب الصغيرة- لكنه أسس لنفسه موطئ قدم في تجارة مربحة.

جعلت الهند ديفيد ساسون ثريًا الأمر الذي جعله يحصل على الجنسية البريطانية. فقام بنقل عائلته إلى قصر في ضاحية مالابار هيل في بومباي، وهي منطقة لا يسكنها إلا أناس محدّدون تهب عليها نسائم باردة وتبتعد عاليًا فوق قذارة وضوضاء المدينة. قام بتصميم منزله الجديد على غرار تصميم قصر إيطالي وأطلق عليه اسم «Sans Souci» على اسم القصر البروسي لفريدريك الكبير في بوتسدام. في عام 1853، أدى اليمين وأصبح مواطنًا بريطانيًا، وكتب اسمه بالأحرف العبرية لأنه ما زال لا يعرف كيف يكتب بالإنجليزية. بعد أربع سنوات، واجه البريطانيون أخطر تهديد لسيطرتهم على الهند عندما انتفض الهنود المحليون الذين يعملون لدى شركة الهند الشرقية البريطانية فيما عرف بثورة السيبوي. وقف ديفيد بإخلاص إلى جانب بريطانيا، وساهم بماله بل قام بجمع الأموال من عائلات اليهود البغدادية الأخرى التي استقرت في بومباي. في لفتة مثيرة، ذهب ديفيد إلى المسؤولين البريطانيين في مقر الحكومة في بومباي وعرض عليهم تجميع وتجهيز فيلق يهودي للقتال من أجل البريطانيين في حالة انتشار التمرد الهندي. لم تكن هناك حاجة إلى المتطوعين، لكن ديفيد اشترى سندات حكومية لتمويل انتشار القوات البريطانية واستثمر بقوة في سوق الأسهم في بومباي لإظهار ثقته بالحكم البريطاني. كما أعلن أن أسرته وجميع موظفيه «سيسمح لهم بارتداء الملابس الغربية كلما رغبوا في ذلك»، (حتى يعرف من أي جانب أنت). عندما قمعت القوات البريطانية التمرد، قاد ديفيد موكبًا على ضوء المشاعل احتفالًا بانتصار القوات البريطانية وأقام مأدبة وحفلًا في سان سوسي. استقبلت فرقة عسكرية وصول الحاكم الاستعماري الجديد اللورد إلفينستون. الذي حيا ديفيد ساسون قائلًا: «يجب ألا ننسى أنه في وقت التمرد، عندما كان هناك تهديد بالخطر وبينما أصيب البعض بالذعر، كان السيد ساسون وعائلته هم أول من تقدم لدعم الحكومة البريطانية». بدأ عبد الله، الابن الأكبر لديفيد، في تسمية نفسه «ألبرت» تكريمًا لأمير ويلز،

الذي كان اسمه الكامل ألبرت إدوارد. وهكذا أصبح من كانوا أنجلوفيليون[1] إنكليزيين تمامًا.

مع انتصار بريطانيا في حرب الأفيون عام 1841، باتت بومباي تعج بآفاق التجارة مع الصين. كان البريطانيون يشجعون بنشاط الشركات على أن تتبع التاج البريطاني ووعدوا بتقديم القوات والزوارق الحربية البريطانية الحماية لهم . مرت عشر سنوات منذ أن هرب ديفيد متخفيًا في شوارع بغداد وسط ظلام الليل. لقد نجح في بغداد. ونجح في بوشهر. ونجح في بومباي. وها هو يقتنص فرصة جديدة. فقد وجه نظرته الريادية شمالاً، إلى الصين – وإلى شانغهاي.

1- الشخص الذي يعجب في إنكلترا وشعبها، وثقافتها، وآدابها–م

الفصل الثاني

إمبراطورية الأبناء - وتجارة الأفيون

جلس الداوتاي (daotai) في مكتبه في مدينة شانغهاي المسورة في انتظار أخبار وصول الأجانب. كان منصبه يعادل في الصين رئيس البلدية - وهو المسؤول الصيني الإمبراطوري الذي أرسله القصر في بكين للإشراف على المحاكم والشرطة والنقل وتحصيل الضرائب في شانغهاي. كانت الوظيفة ذات أجر معقول، والأهم من ذلك أنها كانت نقطة انطلاق لمنصب أعلى. كان الداوتاي السابقون قد تولوا مناصبهم خلال فترة الازدهار المتصاعدة التي كانت تعيشها شانغهاي. لم يكن ماركو بولو قد كلف نفسه عناء زيارة المدينة قبل عدة مئات من السنين، متجاوزًا إياها إلى هانغتشو في الجنوب. لكن شانغهاي نمت وازدهرت. كانت تقع بالقرب من المصب الواسع لنهر اليانغتسي، الذي يتدفق إلى وسط الصين، وكان قربها من المحيط الهادئ أمرًا بالغ الأهمية. وقد حولتها التجارة مع اليابان وجنوب شرق آسيا إلى مدينة نابضة بالحياة تضم أكثر من 200000 نسمة، على الرغم من أن تجارة الصين مع أوروبا كانت محدودة. كان رؤساء الموانئ يصدرون تعليماتهم في أي يوم من الأيام، إلى مئات السفن الشراعية الصينية لتفريغ حمولتها في مستودعات حجرية كبيرة على الشاطئ.

وخلف تلك الجدران المبنية من الطوب السميك التي كانت تمتد لأميال عديدة تحيط بالمدينة -وقد بُنيت في البداية للحماية من القراصنة- كان أصحاب المتاجر يبيعون البضائع والأطعمة في واجهات المحلات المزخرفة بعلامات حمراء زاهية مزينة بحروف صينية مذهبة. كان الباعة

المتجولون، وبائعو الشاي، والحلاقون، والخياطون، وصانعو الأحذية يجوبون الشوارع والأزقة. فيما يقوم أصحاب المكتبات بإعارة الكتب من عربات الدفع المتنقلة. ويؤدي المهرجون رقصاتهم في زوايا الشوارع. كنت تسمع في شانغهاي عشرات اللهجات المختلفة ورائحة عشرات الأصناف المختلفة من الطعام. وكانت تضج بحيوية وانفتاح يتناقضان مع العاصمة الرصينة بكين، حيث رفض الإمبراطور استقبال المبعوثين البريطانيين قبل سنوات، ولم يكن الأجانب موضع ترحيب. كتب زائر أجنبي أن الناس في شانغهاي كانوا «دائمًا متحضرين وودودين، يرحبون بنا بابتسامة وتحية مهذبة».

ومع ذلك، فقد بات الحاكم (الدوتاي) على يقين أن التغيير قادم. قبل ثمانية عشر شهرًا، غزا البريطانيون الإمبراطورية. ونحن الآن في عام 1843، وقد أُجبر الصينيون على توقيع معاهدة فتحت خمس مدن أمام التجارة البريطانية، بما في ذلك شانغهاي. في كانتون، وهي مدينة في الجنوب، قاوم الناس وصول التجار البريطانيين. وتعرض الأوروبيون للهجوم في الشوارع، مما أجبر البريطانيين على التراجع والعودة إلى منازلهم المستأجرة بحثًا عن الأمان. أما حاكم شانغهاي فيأمل ألا تكون مدينته على هذا النحو. كانت شانغهاي مدينة تجارية، اعتادت على الأنشطة التجارية والمالية. وسوف يعامل الأجانب فيها بشكل لائق، إن لم يكن بحرارة.

في تلك الأمسية من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وصلت أنباء إلى الحاكم حين كان في مكتبه داخل المدينة المسورة بأن سفينة بخارية بريطانية صغيرة قد رست في شاطئ شانغهاي. وصل أوائل البريطانيين. لم ينزل الحاكم إلى الشاطئ للترحيب بهم. قرر أن يجعلهم ينتظرون.

مع بزوغ فجر ذلك اليوم، أرسل الحاكم هودجين قديمين إلى رصيف الميناء مع الحمالين لنقل الوفد البريطاني إلى مكتبه. تجمعت حشود من المتفرجين الصينيين وسخروا من كثافة الشعر الذي يغطي وجوه «البريطانيين» بلحاهم وسوالفهم الطويلة على عكس الصينيين ذوي الوجه الناعم. كتب أحد الرجال الصينيين يقول إن «أرجل الأجانب وأقدامهم ممدودة ومنثنية

بصعوبة». وهم يذكرونه بـ «المهور التي يستخدمها المانشو[1] وهي تتبختر» وحيوانات «الجاموس المائي». وهناك دبلوماسي بريطاني كتب يقول إن الصينيين «كانوا دائمًا متفاجئين، كي لا نقول مندهشين، عندما علموا أن لدينا ألقابًا، وفهموا الفروق الأسرية بين الأب، والأخ، والزوجة، والأخت، وما إلى ذلك – باختصار، أننا نعيش بطريقة أخرى. على نحو مختلف عن قطعان الماشية».

اصطحب «البريطانيون» معهم مترجمًا، وكان ذلك أمرًا جيدًا، لأنه لا الحاكم ولا أي من مسؤوليه كانوا يتحدثون الإنكليزية. لقد طلبوا مكانًا لفتح مكتب لهم وإيواء رجالهم، لكن الحاكم رفض بأدب، وببساطة لم يكن هناك مكان متاح.

ثم تحدث تاجر من شانغهاي وعرض أن يؤجر للتجار البريطانيين منزلاً مؤلفًا من اثنتين وخمسين غرفة يقع في المدينة. فمكثوا هناك لبعض الوقت، ولكن سرعان ما أصبح الحاكم غير مرتاح لوجودهم داخل المدينة المسورة. وأعرب عن قلقه من أن عاداتهم الغريبة قد تنتقل عدواها إلى مجتمع شانغهاي وتفسد الانسجام الذي يعيشه. فأرسلهم بدلاً من ذلك إلى منطقة مستنقعات خالية على طول النهر خارج أسوار المدينة الصينية القديمة.

كانت الأرض مليئة بأشجار التوت ومقابر الأجداد، وكان الصينيون يعتقدون أنها كانت مسكونة بالأشباح. وكان السكان يقومون بإلقاء برازهم في المجرى المائي الذي يمتد بجانب المستنقع. افترض الحاكم أن الوافدين الجدد سيغادرون في غضون بضع سنوات. كانت شانغهاي بحاجة فقط إلى الصمود أمامهم.

بعد سبع سنوات، نزل إلياس ساسون، ثاني أكبر أبناء ديفيد ساسون، في شاطئ شانغهاي. شكل وصوله المرحلة التالية من توسع نشاطات آل ساسون التجارية لتصبح مؤسسة عالمية حقيقية. وبينما اعتمدت شركة جاردين –ماثيسون على الزوارق الحربية والمدافع البريطانية لفتح الصين وبسط إمبراطوريتها، بينما وزع ديفيد ساسون أبناءه. فأصبحوا سفراءه

1- أقلية عرقية في الصين–م

وعملاء استخباراته وبائعيه والمروجين له. في الزمن الذي لم يكن قد اخترعت فيه الهواتف أو التلغراف، عندما كانت الرسائل تستغرق شهورًا للوصول من الهند إلى شانغهاي أو لندن، كان الأشقاء الثمانية يعملون كفريق واحد، ويتنبأون خطوات العمل الصحيحة ويدعمون بعضهم بعضاً- ووالدهم المتطلب -في فروع أعمالهم التجارية التي تمتد على طول ساحل الصين، حتى اليابان، وفي النهاية عبر البحار إلى لندن. تطلبت الأعمال التجارية العالمية أسرة متماسكة. ولأجل تعريفهم بكل بلد وكل جانب من جوانب العمل، جعل ديفيد أبناءه يتنقلون بالتناوب من مدينة إلى مدينة لعدة أشهر وأحيانًا سنوات عديدة في كل مرة، برفقة ومساعدة طاقم مدرب تلقى تعليمه في مدارس ساسون ومرتبط بالعائلة من خلال دين وثقافة مشتركة. أظهر ساسون الأكبر قدرة ذكية على الحفاظ على تماسك عائلته العالمية والحفاظ على ولاء أبنائه. دفع لكل واحد منهم راتبًا سخيًا وشجعهم على الاستثمار بأنفسهم. لكن لا يمكن لأي منهم أن يصبح شريكًا في الشركة. حكم الأب بمفرده. ووضع وصية مفصلة حددت توقعاته لمستقبل عائلته وأطفاله وأحفاده- أن يتزوج الأولاد من يهوديات من بغداد ويستمرّوا في حضور الكنيس الأرثوذكسي.

عندما كان أبناؤه لا يزالون مراهقين، أحضرهم ديفيد إلى موانئ بومباي ليتعلموا كيف يتفاوضون مع قباطنة البحر، تمامًا كما تدرب من قبل على يد والده في بغداد. وجعلهم يشاهدون كيف تتم إدارة الحسابات ومسك الدفاتر وشرح لهم الأنظمة المتنوعة للأوزان والمقاييس وجودة المنتجات المختلفة. وأصر على أن يتعلموا اللغة الإنكليزية ويتعرفوا على التقنيات الجديدة -البواخر والسكك الحديدية- التي تعمل على تغيير التجارة وخلق الفرص للتجارة في الأسواق الدولية. عندما حان وقت خروجهم إلى العالم، قرر ديفيد أن تبقى زوجاتهم وأطفالهم في بومباي تحت إشراف زوجته. لقد وظف خدمًا للعائلات ومعلمين لزوجات أبنائه -وهي خطوة تقدمية ملحوظة في بلد نادرًا ما تتلقى فيه النساء تعليمًا. توقع ديفيد أنه في مرحلة ما قد يحتجن إلى العيش بشكل دائم في الخارج مع أزواجهن- وربما في نهاية المطاف في لندن - وأراد أن يكونوا مستعدين لذلك.

عندما حان الوقت لبدء نشاطاته العالمية، اختار ديفيد ابنه الثاني، إلياس البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا، للذهاب إلى الصين. كان إلياس أكثر انطواءً وتحفظًا من إخوته. على عكس إخوته الذين اعتنقوا الأساليب الغربية، واصل إلياس ارتداء ملابسه التقليدية التي كان يرتديها في بغداد، وكانت اللمسة الحديثة الوحيدة له هي ارتداء نظارة طبية لتصحيح قصر نظره. أعطته النظارات مظهر شخص أكاديمي متحفظ ومثابر. اعتقد ديفيد أن إلياس الهادئ والحساس، الذي كان منعزلًا نوعًا ما، سيكون الأنسب لقسوة ووحدة العيش بعيدًا عن العائلة في بلد غير مألوف.

ترك إلياس زوجته وابنه حديث الولادة في المنزل، كما طلب والده، وبدأ رحلة الإبحار الخطيرة التي استغرقت سبعين يومًا من بومباي إلى ساحل الصين. لم تعرف السفن في تلك الرحلة الهدوء إلا لبضعة أيام. كان الركاب يجلسون مستيقظين خلال الليل يلوحون بالبنادق استعدادًا لهجمات القراصنة. كانت المحطة الأولى لإلياس في الصين هي مدينة كانتون، حيث اتبع استراتيجية والده في تمويل شحنات الأفيون والمنسوجات، وتقديم قروض للتجار الصغار، وإرسال منتجاته الخاصة إلى الساحل لبيعها وتوزيعها. بعد عام، ترك إلياس نائبًا له تلقى تدريبه في مدرسة ساسون ليكون مسؤولًا عن الأعمال التجارية في كانتون، فيما أبحر هو على بعد سبعين ميلاً جنوبًا إلى المستعمرة البريطانية الجديدة في هونغ كونغ، حيث كانت تجارة شركة جاردين وماثيسون وشركائه بالأفيون مزدهرة. لفت انتباه إلياس نظام الإشارات المتقن الذي كان يستخدم للسيطرة على أسعار الأفيون، وكانت شركة جاردين وماثيسون تحمل السفن التجارية ذوات السرعة العالية في الهند بالأفيون ثم تبحر بها إلى خارج مؤانى هونغ كونغ وتقف هناك في الانتظار، في تلك الأثناء كان موظفو الشركة على الأرض يتتبعون أسعار الأفيون. مع تضاؤل الإمدادات وارتفاع الأسعار يصعد أحد الموظفين إلى قمة أحد جبال هونغ كونغ، وهو جبل فيكتوريا، إلى بقعة تُعرف باسم «مرصد جاردين». وهناك كان يشير إلى السفن المنتظرة أن الوقت قد حان للإبحار إلى الميناء وبيع أفيونها بأسعار مرتفعة. كان إلياس مستوردًا صغيرًا للأفيون بحيث لم يتمكن من إنشاء نظام إشارات خاص به، لكنه أعجب

بهذه الاستراتيجية. ظل الدرس المستفاد من قيمة تتبع الطلب عالقًا في ذهنه. وبعد عقدين من الزمان، استخدم التكنولوجيا الجديدة للتلغراف والمراكب البخارية بطريقة مماثلة لتدمير الميزة التي كانت تتمتع بها شركة جاردين والاستيلاء على سوق الأفيون لمصلحة آل ساسون.

وبدأ إلياس يسافر من هونغ كونغ، إلى المدن الصينية الأخرى التي باتت مفتوحة الآن للتجارة. وخلص إلى الاستنتاج أن هونغ كونغ كانت مزدحمة للغاية مع تدفق صغار التجار الآخرين. كانت المنافسة الشرسة على الأسعار تعني أرباحًا أقل تشمل جميع المنتجات، بما في ذلك الأفيون. ثم قرر في النهاية نقل مقر شركات ساسون إلى شانغهاي. إلى جانب كونها مدينة أكبر من هونغ كونغ، وقال لوالده، إن شانغهاي كانت أقرب إلى مدن شمال الصين الأكثر برودة، مما يجعل سكانها حريصين على شراء كرات الصوف والمنسوجات الصوفية التي يمكن أن تشحنها شركات آل ساسون من الهند.

نحن الآن في عام 1850، أي بعد سبع سنوات من وصول أول الوافدين البريطانيين إلى شانغهاي، الذين انضم إليهم حوالي مائة آخرين في مستوطنة المستنقعات التي خصصها لهم الحاكم. كانت ظروف الحياة هناك بائسة. حث طبيب بريطاني زملاءه الوافدين الجدد على «البحث عن مواقع مرتفعة» لتجنب الإصابة بالحمى الصفراء والطاعون والكوليرا والتيفوس. تقع شانغهاي على نفس خط العرض الذي تقع عليه مدينتا نيو أورلينز والقاهرة، وكانت تصبح مثل حمام بخاري في الصيف. عانى القادمون الجدد من الحرارة الشديدة والقوباء الحلقية وأنواع أخرى من الطفح الجلدي. غير العفن لون أحذيتهم وجزماتهم. لكن لم تظهر على البريطانيين أي علامات على رغبتهم بالمغادرة. حيث قاموا ببناء المستودعات والمكاتب على طول الشاطئ وأضافوا لها منازل ونادياً بريطانياً وحتى مضمار سباق. اختفى المستنقع واستبدل بشبكة واسعة من الشوارع ذات النمط الأوروبي. كان يمتد على طول النهر طريق متعرج كان البريطانيون، وكثير منهم مثل آل ساسون قد أتوا من الهند، قد أطلقوا عليه اسم كلمة أردية تستخدم لوصف الطريق المعبدة أو حاجز ترابي عند النهر وهي: البوند.

كان الحاكم يأمل في عزل الأجانب ومنع أي تسرب للأفكار الغربية

إلى شانغهاي. كان الصينيون الوحيدون الذين سمح لهم بالعيش في تلك «المستوطنة الدولية» في البداية هم الخدم. لكن الحروب الأهلية في الريف الصيني دفعت العديد من الصينيين إلى البحث عن ملاذ في المستوطنة الدولية الجديدة التي تحميها الزوارق الحربية البريطانية، والتي اعتبرها الصينيون أكثر أمانًا من أجزاء شانغهاي التي لا يزال الإمبراطور يسيطر عليها. بات الصينيون والأجانب يعيشون جنبًا إلى جنب في مدينة «بات يجتمع فيها أشخاص من كل جنس ولون»، على حد تعبير عالم صيني رسم خريطة جديدة لشنغهاي.

كتب رئيس تحرير صحيفة المدينة الجديدة الصادرة باللغة الإنكليزية يقول «إن قدر شانغهاي أن تصبح مركزًا تجاريًا دائمًا بين الصين وجميع دول العالم. ولاحظ زائر أوروبي أن السفن والمدافع البريطانية «فتحت الطريق» لاستعمار البوند والأرض المحيطة بها، و«ليس من المحتمل جدًا أن يتم طردهم من مكانهم». طرد الإمبراطور حاكم شانغهاي من منصبه وأرسل مجموعة من المسؤولين الصينيين إلى شانغهاي لإدارة العلاقات مع الأجانب. وحينها صار من المؤكد أنه ليس هناك أحد يستطيع وقف صعودهم.

ووفقًا لرؤية والده، فإن وصول إلياس إلى شانغهاي في سن الثلاثين يشير إلى أن حقبة دولية جديدة قد بدأت لعائلة ساسون. وقد تهالكت السفينة الشراعية التي جلبته في البداية وسبق لها أن جلبت البحارة والتجار إلى هونغ كونغ قبل بضع سنوات. فاشترت عائلة ساسون باخرة، مما أدى إلى تقليص وقت الرحلة بين الهند والصين بشكل كبير وضمان المزيد من الوقت وأن تكون الرحلة مريحة. نزل إلياس إلى شاطئ شانغهاي وهو يرتدي عباءة بغدادية فخوراً بنفسه، ومعه دفاتر حساباته، وأكياس من النقود، وصندوق السعوط الذهبي موضوع في جيب كبير تمت خياطته في ردائه. كان محاطًا بحاشية من المساعدين الذين تلقوا تعليمهم في بومباي في مدارس ساسون وتعلموا المحاسبة والرياضيات وأساسيات الأعمال التجارية. كان إلياس يتكلم عدة لغات - وإن لم يكن من بينها الصينية. بدأ على الفور بزيارة المستودعات والأرصفة على طول النهر، وبدأ يتحدث بصوته الناعم مع

قباطنة أكثر من 400 سفينة كانت ترسو في شانغهاي كل عام قادمة من الموانئ الآسيوية والأوروبية بحثًا عن المنسوجات والقطن والحرير وغيرها من المنتجات. وأعلن أحد قباطنة البحر أن شانغهاي باتت أرضًا يتدفق منها «الحرير والمال».

بدأ إلياس بتطبيق الدروس التي تعلمَها من والده، فبنى مستودعاته الخاصة في شانغهاي ليتجنب دفع الإيجار. وشرع ببيع الأفيون والتوابل الهندية والصوف الهندي للصينيين، وكان يشتري الحرير وجلود الحيوانات والشاي، ثم يبيعها بعد ذلك إلى قباطنة السفن التي تحمل الأفيون المتلهفين لملء مخازن البضائع الفارغة في رحلة العودة إلى الهند. كما عمل وسيطًا لتجار آخرين يتطلعون إلى شحن البضائع إلى الهند، مستخدمًا صلاته مع التجار الصينيين لملء مساحة الشحن الخاصة بهم. بدأت السفن المبحرة في شانغهاي تتنافس على المساحات الفارغة في أرصفة إلياس. تبين أن المنافسة مع التجار الآخرين باتت شرسة. وكان قلق إلياس يتزايد باستمرار من مخاطر التجسس. ولأنه لم يكن يتحدث الصينية، كان عليه، مثل معظم الأجانب، الاعتماد على الوسطاء الصينيين الذين يتحدثون الإنكليزية، والمعروفين بالكومبرادور، للمساعدة في التفاوض على الصفقات والولوج إلى عالم النشاطات التجارية الصينية المعقد. كانت فرص الفساد منتشرة. اشتكى إلياس، مثل غيره من الأجانب، من اضطراره لدفع رشى، تُعرف باسم «العمولات»، للمسؤولين الصينيين لنقل بضاعته إلى أجزاء أخرى من الصين. رفع إلياس عدة دعاوى قضائية ضد الكومبرادور بتهمة سرقة أموال آل ساسون وإساءة إدارتها.

كان تأثير إلياس على شانغهاي عميقًا. فقد سعى لإقامة تحالفات والبحث عن فرص للعمل مع التجار الآخرين، بما في ذلك الطبقة الجديدة من رجال الأعمال الصينيين الذين أثار اهتمامهم الوافدون الأجانب وأرادوا العمل معهم. عندما تسببت التوترات المحلية في داخل الصين في حدوث تمردات وانتفاضات كان من الصعب على الإمبراطور إخمادها -وأشهرها تمرد تايبينغ، الذي كان حرباً أهلية فعلية بدأت في عام 1850- حيث تدفق عشرات الآلاف من اللاجئين الصينيين على الأجزاء التي تديرها بريطانيا في شانغهاي بحثًا عن الأمان، وكان العديد منهم تجارًا صينيين ميسوري

الحال. اشترى إلياس الأرض وبدأ في بناء منازل خشبية بسيطة قام بتأجيرها لعائلات اللاجئين. لقد زادوا من عدد سكان شانغهاي وزادوا من طاقة المهاجرين وطموحهم في المدينة.

كان ديفيد ساسون محقًا في أن إلياس كان الأنسب عاطفياً للتعامل مع حياة العزلة في شانغهاي. لكن الثمن الذي دفعه إلياس كان واضحًا في الاضطراب الذي أحدثه في عائلته. فقد فصلت تسع سنوات بين ولادة طفل وآخر من أطفاله - ونادرًا ما كان قادرًا على الإبحار إلى منزله في بومباي لقضاء بعض الوقت مع زوجته. بنى إلياس في شانغهاي، منزلاً من طابقين بالقرب من النهر، أحاطه بجدار واقٍ وفناء زرع فيه نباتات الفاونيا وأشجار الكرز المزهرة. واستأجر العشرات من الخدم الصينيين. كان يتوقف من حين لآخر عند نادي شانغهاي الذي تم إنشاؤه حديثًا، والمليء بالتجار الأجانب الآخرين، ليتناول المشروبات ويتبادل الأحاديث والأخبار. في أيام الأحد، كان يقوم بزيارة مضمار السباق الجديد لمشاهدة المهور المنغولية القزمة وهي تجري من حول المضمار. لكنه كان يتجنب حضور معظم المناسبات الاجتماعية الأخرى للمغتربين.

اعتبره خصومه رجل أعمال ذكيًا وصعب المراس -ولكنه كان أيضًا منطويًا وكتومًا. كان يحب أن يتمشى عبر فناء منزله، مرتديًا الجلباب الذي يرتديه أبناء الطبقة الصينية الأرستقراطية والنظارات. في أوقات أخرى كان يمشي بمفرده في حديقة على طول البوند- باحثًا عن الراحة هربًا من حرارة المدينة وضوضائها. عندما جاء شقيقه الأكبر عبد الله لزيارته، انصبت تعليقات التجار على ما يتمتع به أخوه من شخصية اجتماعية ذات كاريزما تفوق ما كان يمتلكه أخوه الأصغر. ذات مرة، تعرض إلياس لاعتداء وحشي من قبل «شخص مخمور» واضطر إلى طلب المساعدة من القنصلية البريطانية. ومنذ ذلك الحين بدأ يحمل معه سلاحًا. على الرغم من أنه ظل منعزلًا عن المدينة التي أصبحت موطنًا له، فإنه تجاوز توقعات والده التجارية للشركة، وقام بتوسيع الأعمال التجارية في الصين وإنشاء مكاتب مزدهرة في كانتون وهونغ كونغ واليابان، وكانت جميعها تمر عبر شانغهاي.. وبات يتوقع أن يكافأ على التضحيات التي قدمها.

عند عودته إلى بومباي، قسم ديفيد الأعمال التجارية بين إخوة إلياس الستة الأصغر ما بين الهند والصين، وأرسل بعضهم للعمل مع إلياس. نادرًا ما كان الإخوة ساسون الثمانية يعيشون في نفس المدينة، وقد كتبوا أكثر من 7000 رسالة بعضهم لبعض بين عامي 1860 و1900. وكان ديفيد يكتب إلى جميع أبنائه يوميًا. كانوا يتبادلون الأحاديث العائلية والأخبار، ويقارنون أسعار القطن والأفيون، وينتابهم القلق من أعمال التجسس التجاري، ويناقشون خطط رفع مستوى معيشة العاملين لديهم للحفاظ على ولائهم. كتب أحد الأخوة في بداية الحرب الأهلية الأمريكية: «آمل أن أحصل الشهر المقبل على أخبار سارة عن سعر القطن لأن هناك أرباحًا مالية ناتجة عن الحرب في أمريكا».

وفي سعيه للحصول على ميزة على منافسيه، بحث ديفيد عن طرق لتسريع قرارات أعمال ساسون. فقد كان انتظار الموافقة على قرض تجاري من المصارف في بومباي أو لندن يستغرق وقتًا طويلاً إذا أراد بناء مستودعات في شانغهاي أو شراء أرض لبناء منازل أو تمويل شحنة من البضائع. أرسل ديفيد أحد إخوة إلياس إلى هونغ كونغ للانضمام إلى رواد الأعمال في شركات جاردين وشركات أخرى لتأسيس بنك هونغ كونغ وشنغهاي، الذي يمكنه الموافقة بسرعة على قروض الشركات في الصين - وخاصة القروض المقدمة إلى أعضاء مجلس الإدارة مثل آل ساسون. بالنسبة لمقره الرئيسي، استأجر آرثر ساسون للبنك مبنى كان إلياس قد اشتراه قبل عقود في هونغ كونغ. بعد بضعة أشهر، افتتح البنك فرعه في شانغهاي في البوند، ووضع تمثالًا من البرونز يحمل أسدين مهيبين في المقدمة. وسرعان ما أصبح أغنى وأقوى بنك في آسيا.

قد تكون الشركات الكبيرة مثل جاردين تكسب المزيد من المال وتصبح معروفة بشكل أفضل، لكن نجم شركات ساسون المبتدئة والمتعددة الجنسية كان يرتفع بسرعة. وقد صرح أحد أصحاب الشركات المنافسة لصحيفة تصدر باللغة الإنكليزية في الصين: «لقد بات الذهب والفضة والحرير واللبان والتوابل والأفيون والقطن والصوف والقمح - كل ما يتحرك فوق البحر أو على الأرض يعود لشركات ساسون أو يحمل علامة ساسون

وشركاه». وأعلن جاكوب سفير، وهو باحث وكاتب أوروبي كان يتنقل عبر آسيا، في عام 1859 أن آل ساسون، جمعوا من أنشطتهم التجارية في الصين والهند، «ثروة هائلة، وصلت إلى قرابة خمسة ملايين جنيه إسترليني» وهو ما يعادل 600 مليون دولار بأسعار اليوم.

بعد ما يقرب من عشرين عامًا من إرسال إلياس إلى شانغهاي في مهمة استكشافية ذات فرص نجاح غير مؤكدة، استدعاه ديفيد للعودة إلى بومباي في عام 1862 للبدء بالتخطيط لخلافة الأسرة. كان ديفيد في السبعين من عمره. وقد حان الوقت لكي يعمل إلياس وشقيقه الأكبر عبد الله جنبًا إلى جنب ويتولّيا مصالح العائلة التجارية.

كان عبد الله، يمضي قدمًا في خلافة الأسرة، وهو الذي كان يُفضل بالفعل باعتباره الابن الأكبر. لم تكن شانغهاي تبدو موقعًا مهمًا عندما استقر فيها إلياس الانطوائي والمحب للعزلة. قام ديفيد بتكليف عبد الله، الابن الأكثر اجتماعية وانصياعًا، بمهمة خارجية مريحة. إذ أرسله إلى بغداد، التي عادت فيها الأنشطة التجارية لآل ساسون بعد الإطاحة بالحكام المحليين. لقد كانت موقعًا سهلًا وأكثر ربحًا من شانغهاي. كان الكثير من أعمال آل ساسون لا يزال يمر عبر الخليج الفارسي، وكان اسم ساسون معروفًا. وكان الجميع يتحدثون العربية، وهي اللغة الأم لآل ساسون. وكانت بغداد أقرب إلى بومباي من شانغهاي، مما يعني أن عبد الله يمكنه العودة إلى المنزل بشكل متكرر لرؤية والده وعائلته.

أخطأ كل من والد إلياس وشقيقه في تقدير مدى التغير والتطور الذي طرأ على إلياس خلال السنوات التي قضاها في شانغهاي. فقد بات أكثر ثقة بالنفس، وأكثر ريادية. وقام بتوسيع أعمال العائلة وسافر إلى الصين واليابان وأنشأ مكاتب جديدة. لقد كان يعيش وهو عازم على زيادة نجاح وتأثير عائلة ساسون ووالده.

على عكس العمل الشاق الذي كان يقوم به وحده في إدارة أعمالهم في شانغهاي، وجد إلياس شقيقه الأكبر في بومباي يعيش حياة الرفاهية. استمتع عبد الله بحياة باذخة في قصر جديد على التلال الواقعة خارج المدينة. لقد

عاد من مهمة ناجحة في بغداد وكان يقضي المزيد والمزيد من الوقت إلى جانب والده. لجأ ديفيد إليه كثيرًا للحصول على المشورة، وتولى عبد الله دورًا اجتماعيًا أكبر، حيث أشرف على التبرعات الخيرية للأسرة. وقد وضع خططًا طموحة لمزيد من التوسع في العمل، بما في ذلك بناء مصانع لإنتاج المنسوجات الهندية. وتعاقد مع رجال الأعمال البريطانيين ومسؤولي السلطات الاستعمارية. بعد انتهاء حفلة ضخمة حضرها 300 ضيف بريطاني وعرضت فيها أوبرا إيطالية في منزله، هنأت جريدة بومباي غازيت عبد الله وعائلته «على رغبتهم الواضحة في التحالف مع المجتمع الإنجليزي في بومباي».

بعد ظهر أحد أيام تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1864، تمشى ديفيد ساسون قليلًا في حدائق قصره في سان سوسي ثم توجه إلى غرفة نومه لكتابة خطاباته التي تحمل إرشاداته اليومية لأبنائه في هونغ كونغ وشنغهاي وبومباي ولندن.. بعدها مات وهو نائم عن عمر ناهز الثانية والسبعين. حضر أبناؤه، المنتشرون في جميع أنحاء العالم، مراسم جنازته ونكست أعلام المملكة المتحدة التي كانت ترفعها سفن ومكاتب ومستودعات شركات ساسون.

بموجب شروط وصية ديفيد، أصبح عبد الله الرئيس الجديد لإدارة أعمال العائلة، وكان إلياس نائبه. نمت مشاعر الاستياء لدى إلياس مع اتضاح ما كان يخبئه المستقبل. افترض عبد الله أن إلياس، وهو الشخص الانطوائي في الأسرة، سوف يحاول العمل من خلف الكواليس. فاقترح أن يشرف إلياس وابنه يعقوب، 23 عامًا، على موانئ شانغهاي وهونغ كونغ والخليج الفارسي كمديرين متجولين، مما يعيد إلى الذاكرة العديد من الرحلات التي قام بها إلياس قبل عشرين عامًا. عندما يكون عبد الله مستعدًا للتخلي عن الرئاسة، فإن قيادة آل ساسون ستؤول بالطبع إلى ابنه. حاول إلياس حشد إخوته للقيام بتمرد ضد أخيهم الأكبر، لكن عبد الله استطاع كسبهم إلى صفه، وأرسلهم إلى لندن ووعدهم بمنحهم مكافآت سخية. ربما كشفت شانغهاي كيف ورث إلياس فطنة والده التجارية. لكن عبد الله كان يتمتع بقوة شخصية ديفيد ومزاياه القيادية.

بعد أقل من ثلاث سنوات على وفاة والدهم، في خريف عام 1867، أعلن إلياس أنه سيستقيل من العمل في شركات العائلة ويبدأ بتأسيس شركة جديدة خاصة به. وقد بلغ نصيبه من تركة والده ما لا يقل عن 250 ألف جنيه إسترليني -أكثر من 25 مليون دولار بأسعار اليوم. لم ينضم إليه أي من الإخوة الآخرين. وقرروا جميعًا البقاء مع عبد الله. أخبر عبد الله الأسرة أنه يتوقع أن يؤسس إلياس شركة تجارية صغيرة في شانغهاي- وهذا ليس من شأنه أن يؤثر على سمعة الشركة الأم القوية دوليًا. قام إلياس برفقة ابنه يعقوب بتسمية شركته الجديدة إلياس ديفيد ساسون وشركائه (E. D. Sassoon & Co.) وصعد على متن سفينة تقله في رحلة العودة إلى شانغهاي. احتار الصينيون بين الشركتين، فأطلقوا على شركة عبد الله اسم شركة ساسون القديمة وعلى شركة إلياس اسم شركة ساسون الجديدة.

مع توسع «شركة ساسون الجديدة»، تقلص التواصل الاجتماعي بين إلياس وإخوته وأصبح نادراً. وكانوا يتجمعون في المناسبات مثل الزواج والجنازات ويتبادلون التهاني الرسمية بعيد الميلاد، ليس أكثر من ذلك. لكن كلتا الشركتين ستستفيدان من أكبر استثمار لهما في السلعة التي ستعزز ثروتهما ونفوذهما: الأفيون.

حتى قبل حرب الأفيون الأولى، وقبل سنوات عديدة من انفصال إلياس عن إخوته ليبدأ شركته الخاصة، كان آل ساسون يجنون الأموال من تهريب الأفيون إلى الصين. لكنهم ما زالوا رجال أعمال صغاراً. ولم يتمكنوا من التنافس مع عمليات التهريب التي كانت تقوم بها شركة بريطانية كبيرة مثل جاردين وماثيسون، التي نشرت سفنها السريعة ومراكب صغيرة مسلحة بشكل جيد لالتقاط صناديق الأفيون في الهند، حيث كانت التجارة به تتم بشكل قانوني، ثم تبحر نحو الساحل الصيني. ومن ثم بيعها في الصين، حيث تم حظره. كان تهريب الأفيون إلى الصين يعني التملص من أو محاربة القراصنة والدوريات الصينية، ورشوة المسؤولين الصينيين، والتسلل إلى كانتون والموانئ الصينية الأخرى. كان تهريب الأفيون يجلب أرباحًا مذهلة – أكثر من تجارة الحرير أو القطن أو المنسوجات. وحتى بعد خصم تكلفة شحن الأفيون وتوزيعه على المدمنين في الصين، فإن شركة جاردين كانت

تحقق ربحًا بنسبة 30 بالمائة إلى 50 بالمائة عن كل صندوق أفيون. وفي رحلة حدثت في عام 1832، باع قبطان سفينة واحدة من سفن شركة جاردين ما قيمته 200 ألف دولار (بأسعار اليوم) من الأفيون في أربعة أيام.

على الرغم من الانتصار البريطاني في حرب الأفيون، فإن التجارة بالأفيون ظلت من الناحية الفنية عملًا غير قانوني في الصين. لم يكن لدى الشركات الصغيرة مثل شركات عائلة ساسون من خيار سوى الاعتماد على شركات جاردين لنقل شحناتها من الأفيون وتهريبه لمصلحتها. في عام 1851، سجلت الوثائق البريطانية 42 سفينة تحمل شحنات من الأفيون تابعة لشركات بريطانية متورطة في تجارة الأفيون، وكان الكثير منها من سفن تابعة لشركات جاردين. فيما لم تسجل سوى إحدى عشرة سفينة تابعة لشركات أمريكية. وتم تسجيل اثنتين فقط تابعتين لشركة ديفيد ساسون وشركائه. وقد أعرب ويليام جاردين عن ابتهاجه لأن تجارة الأفيون أبعدت «أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة». تبين دفاتر الحسابات التي تعود إلى عام 1842، والتي كانت صفحاتها مهترئة مع تقدم الزمن، وبشكل واضح كيف اشترت شركة جاردين الأفيون من آل ساسون بسعر منخفض في الهند، وحققت أرباحًا ضخمة من بيعه في الصين، وكانت باستمرار تضغط وتحاصر آل ساسون. وقد أرسل أحد مسؤولي شركة جاردين في شانغهاي برقية إلى إلياس ذات مرة يعلمه فيها: «بأننا أصدرنا تعليمات تنص على أن الأفيون التالف الخاص بك يجب أن يتم استبداله بأفيون جديد وسليم». وفي حالة أخرى، رفضت شركة جاردين دفع ثمن الأفيون الذي تم شراؤه من آل ساسون –والذي تم توزيعه بصورة قطع من الكعك وكان يتم غليه لاختبار نقائه– «وذلك بسبب سوء مظهر الكعك وغليانه بشكل سيئ». كان إلياس يؤسس مشروعًا مربحًا في كل مجال يختاره. ولكن في التجارة الأكثر ربحًا في الصين، لم تسيطر شركات آل ساسون إلا على 20 بالمائة فقط من سوق الأفيون.

كل ذلك تغير في عام 1857، بعد سبع سنوات من نزول إلياس لأول مرة في شانغهاي. فقد غزت بريطانيا الصين مرة أخرى وهي عاقدة العزم على فتح كل مدن الصين أمام تجارة الأفيون، وليس فقط خمس مدن، وإضفاء

الشرعية على بيع الأفيون رسميًا، فيما أصبح يعرف باسم حرب الأفيون الثانية. سارعت قوة بريطانية وفرنسية مشتركة بالتوجه إلى بكين ونهبت وأحرقت القصر الصيفي للإمبراطور. استسلمت أسرة تشينغ الحاكمة في الصين للقوة المشتركة الفرنسية البريطانية بعد فترة وجيزة، منهية بذلك حرب الأفيون الثانية وآمال الصين في عكس اتجاه الهيمنة الأجنبية في شؤونها الوطنية. جرد الجنود الأوروبيون القصر الصيفي من مقتنياته الثمينة. وتم تسليم المتحف البريطاني لوحين من النحاس تم نزعهما من الباب أثناء عمليات النهب. كما تم أخذ كلب من فصيلة البيكيني من القصر وتقديمه هدية إلى الملكة فيكتوريا.

أُجبرت الصين على التنازل عن المزيد من الأراضي - شبه جزيرة كولون في جنوب الصين، التي أصبحت جزءًا من هونغ كونغ. أصبحت تجارة الأفيون عملًا قانونيًا. وأصدرت شركة جاردين وماثيسون بيانًا صحفيًا أشادت فيه بانتصار بريطانيا، معلنة أن «استخدام الأفيون ليس عملًا مشينًا، بل إنه يجلب الراحة والفائدة للصينيين الذين يعملون بجد».

بالنسبة لآل ساسون، غيّر تقنين الأفيون كل شيء. حيث تحولت تجارة الأفيون من جريمة إلى عمل تجاري. أدرك أبناء ديفيد، المتواجدون في الهند وهونغ كونغ وشنغهاي ولندن، أنهم لم يعودوا بحاجة إلى سفن شركات جاردين ولا لمركباتهم المسلحة أو شبكة من المهربين لإيصال منتجاتهم إلى الصين. يمكنهم الآن شراء الأفيون في الهند، وشحنه بواسطة باخرة تجارية أو على متن قواربهم الخاصة، واستئجار بعض العاملين الصينيين في الطرف الآخر ليقوموا بتوزيع الأفيون لمصلحتهم. ويمكنهم بذلك إنشاء احتكار شامل لهذه التجارة.

بدأت سلسلة الاحتكار في الهند. لم تكن شركات جاردين تنتج الأفيون الخاص بها. فقد كانت تشتري الأفيون من المزارعين الهنود من خلال وكلاء محليين هنود. قرر آل ساسون العمل بعيدًا عن الوكلاء من خلال التفاوض مباشرة مع المزارعين الهنود، وإقراضهم المال لزراعة محصول الأفيون مقابل الحق الحصري لهم في شراء المحصول. كانوا يبحثون عن مزارعين

يقومون بزراعة أفيون مالوا[1]، وهو الأفيون الأكثر شعبية في الصين. بحلول الوقت الذي قررت فيه شركة جاردين تطبيق هذه الاستراتيجية وشراء الأفيون مباشرة من المزارعين، كان الأوان قد فات. كان آل ساسون قد أغلقوا العقود على جزء كبير من المحصول. وبات بإمكانهم شراء الأفيون والاحتفاظ به إلى أن يشعروا أن الوقت قد حان لبيعه.

جاءت بعد ذلك قضية التسعير. كان يتم شراء الأفيون في الهند ولكنه يباع في شانغهاي. تذكر إلياس «مرصد شركة جاردين» في هونغ كونغ وكيف كان العاملون فيها يعيقون توزيع شحنات الأفيون إلى أن ترتفع الأسعار، شجع إلياس إخوته على استخدام شبكة معلومات الأسرة الراسخة ليتداولوا فيما بينهم أخبار أسعار الأفيون لتحديد أفضل وقت لإغراق السوق بتلك السلعة. وكمثال على ذلك جاء في برقية أرسلها مكتب شركات ساسون في كلكتا إلى مكتبها في هونغ كونغ أن «تجارة الأفيون تتعرض إلى الخسارة عند انخفاض الأسعار». نحن لدينا مخزون ضخم في كلكتا. وبيعه الآن يعرضنا إلى خسارة فادحة». وبدلاً من ذلك، قرر آل ساسون الاحتفاظ بالأفيون إلى أن ترتفع الأسعار. ركز آل ساسون جهودهم وأموالهم في الاستفادة من الاختراع الجديد (التلغراف)، الذي أحدث ثورة في الاتصالات عبر البلدان وبين القارات. كانت بعض البرقيات الأولى التي أرسلت بواسطة التلغراف في آسيا عبارة عن رسائل مشفرة من مكتب إلى آخر تناقش سعر الأفيون – وكان يتم تداول المعلومات قبل أن تتمكن شركات جاردين أو أية شركات منافسة أخرى من الحصول عليها. بحلول نهاية القرن التاسع عشر، كان آل ساسون يعتبرون من بين الخبراء البارزين في تكنولوجيا التلغراف، وتمت دعوتهم للتحدث أمام مجلس العموم.

أخيرًا جاءت قضية التوزيع. كانت شركة جاردين تعتمد على شبكتها الراسخة من المهربين والمسؤولين الصينيين الفاسدين. ولكن مع تقنين تجارة الأفيون، وجد إلياس طريقة أكثر كفاءة –وأرخص– للوصول إلى العملاء. تفاوض مع أبناء قومية التشاوتشو، وهي أقلية صينية استقرت

1- منطقة في الهند–م

بالقرب من الساحل الصيني ولكن كانت لها علاقات على طول طرق التجارة في جميع أنحاء الصين. وفي مقابل حصة من الأرباح، بدأ التشاوتشو يبيعون الأفيون الخاص بشركات آل ساسون إلى صينيين آخرين. ومن أجل تقويض مكانة شركات جاردين والتجار الآخرين، كان آل ساسون يبعون أفيونهم أحيانًا بأسعار منخفضة أو يقرضون المال لمتاجر بيع الأفيون الصينية. استفاد التشاوتشو بشكل كبير من العمل مع آل ساسون. وقد علق زائر غربي على الثراء المتزايد «لرجال الأفيون المحليين»، الذين اعتبروا هذه التجارة «عملًا ممتعًا ومحترمًا.. و.. حضاريًا جدًا». كان معارضو تجارة الأفيون يعتقدون أن من يتاجر بالأفيون هم رجال العصابات. وبدلاً من ذلك، ظهرت فئة جديدة من رواد الأعمال الصينيين: «تتم تجارة الأفيون من قبل رجال يتمتعون بأعلى درجات الاحترام، ويمتلكون رأس مال كبيرًا، وأشخاص محترمين ومعروفين كتجار من الدرجة الأولى». استخدم التشاوتشو الأموال التي جنوها من بيع أفيون شركات ساسون للاستثمار في البنوك والمتاجر.

كان تأثير كل ذلك على شركات جاردين سريعًا ومدمرًا. وبقلق متزايد، راقب المسؤولون التنفيذيون في شركات جاردين النجاح المتزايد لآل ساسون. كتب أحد المسؤولين التنفيذيين في شركة جاردين في الهند إلى أحد الموظفين: «لا يمكنني إقناعك بشدة بالأهمية الهائلة لمراقبتك بعناية الإجراءات التي يقوم بها آل ساسون والمضاربون الذين تؤدي أنشطتهم إلى زيادة الأسعار بشكل خطير». كانت تكتيكات آل ساسون تسمح لهم بخفض أسعار الأفيون وبيعه بسعر أرخص. وكتب المسؤول التنفيذي نفسه يقول: «إنني مندهش من وجود شحنات أفيون تباع بأسعار لا يمكن إلا أن تسبب الخسارة». كان الانخفاض في الأسعار «مدمرًا» لشركات جاردين. وكتب مسؤول تنفيذي آخر أن تجارة الأفيون «باتت حكرًا على الكلاب». كانت إحدى شحنات الأفيون القادمة من الهند إلى شانغهاي، تحوي 10 صناديق تابعة لشركة جاردين في مقابل 42 صندوقًا لشركات ساسون. وفي شحنة أخرى، كان هناك 260 صندوقًا لشركة ساسون و42 فقط لشركة جاردين. بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من الخلاف بين إلياس

وإخوته، باتت شركات ساسون تسيطر على 70 بالمائة من شحنات الأفيون المتدفقة إلى الصين.

في عام 1872، بعد ثلاثة وثلاثين عامًا من قيام شركات جاردين بحث بريطانيا لكي تغزو الصين لحماية أعمالها في مجال الأفيون، انسحبت الشركة تمامًا من تجارة الأفيون. لكنها ستستمر في تحقيق أرباح ضخمة في تجارة القطن والعقارات والمناجم والشحن. لكن تجارة الأفيون والأرباح التي عززت نجاحاتها الأولى باتت تعود الآن إلى عائلة ساسون. والأمر يشمل كذلك ما تمنحه تجارة الأفيون من تأثير ونفوذ. اعتمدت الحكومة الاستعمارية البريطانية في الهند على أموال الضرائب على مبيعات الأفيون لدعم إمكانياتها المالية. توجه نائب الملك البريطاني إلى عبد الله ساسون، الابن الأكبر لديفيد وخليفته المختار، طالبًا منه بكل أدب أن يزوده بـ«معلومات مفيدة... عن آفاق تجارة الأفيون للأشهر الـ12 المقبلة»، مضيفًا، «لا أعرف شخصًا أفضل منك يستطيع توفيرها». بعد سنوات قليلة، طلب البريطانيون من عبد الله الانضمام إلى المجلس التشريعي الهندي (البرلمان). بعد ذلك بوقت قصير، أنعموا عليه بلقب فارس، وأصبح السير ألبرت ساسون.

نادرًا ما كان يشار إلى معاناة مدمني الأفيون في الصين في الرسائل التي يتبادلها أبناء ساسون أو في البرقيات الصادرة من مكاتب شركاتهم أو سجلاتها التجارية. كان آل ساسون يعلمون أن إدمان الأفيون يؤثر على صحة العمال الصينيين. وقد حذر مسؤول بريطاني في هونغ كونغ مبكرًا في عام 1844 من أن تجار الأفيون «أفسدوا ودمروا وأهلكوا الروح المعنوية» للصينيين «ففي كل ساعة كان هناك ضحايا جدد». أرسل مكتب شركات ساسون في شانغهاي برقية إلى مكتبها في كلكتا تفيد أنها بحاجة إلى طرد أحد الموظفين الصينيين ممن يشغلون منصبًا عاليًا لأنه أصبح «عديم الفائدة» بسبب تدخينه المفرط للأفيون. قام المبشرون البروتستانت في الصين بتجميع البيانات لإثبات الضرر الذي يلحقه الأفيون وأنشأوا رابطة مكافحة الأفيون، التي ضمت أطباء بارزين في شانغهاي. في عام 1875، أصدرت ولاية سان فرانسيسكو، خوفًا من انتشار الأفيون بين عمال السكك

الحديدية الصينيين المهاجرين، أول قانون أمريكي لمكافحة المخدرات، جعل تنظيم أوكار لبيع وتعاطي الأفيون جريمة يعاقب عليها القانون. هجر سيغفريد ساسون، أحد شعراء بريطانيا الرائدين في أوائل القرن العشرين، عائلته و«ثروتها الهائلة». وكتب يقول: «لقد صنعوا ثروتهم في الشرق من خلال التجارة القذرة بالأفيون، وأصبح لديهم ملايين وملايين العملات المعدنية». تحت ضغط من الجماعات المناهضة للأفيون، شكلت الحكومة البريطانية في عام 1893 لجنة ملكية للتحقيق في تجارة الأفيون في الهند 1893. في شهادتهم أمام اللجنة، أصر ممثلو آل ساسون على أن الأفيون، إذا استخدم باعتدال لا يشكل خطورة. أعلن أحد المديرين التنفيذيين لشركات ساسون أن تدخين الأفيون كان «مجرد نشاط ترفيهي يقوم به أبناء الطبقات العليا»، بينما أضاف آخر أنه «إذا تم تناول الأفيون بشكل معتدل، فإنه مفيد للغاية». وكان آل ساسون يعلنون دومًا أنه مثلما انغمس الأوروبيون في تناول الكحول، كذلك انجذب الصينيون بشكل غريزي إلى الأفيون. وفي الواقع فإن «الصينيين الذين كانوا يدخنون أو يشربون الأفيون كانوا أفضل تصرفًا وأكثر هدوءًا، وأكثر عقلانية بكثير من أولئك المدمنين على المشروبات الكحولية».

قاوم آل ساسون بكل شراسة أي جهد للحد من تجارة الأفيون أو حظرها. كان من العوامل الحاسمة لنجاحهم التأثير المتزايد للعائلة في السياسة البريطانية وفي قصر باكنغهام. في عام 1858، أرسل والدهم إسحاق ساسون، الذي كان يعمل مع شقيقه إلياس في شانغهاي، إلى لندن لفتح مكتب لعائلة ساسون هناك. اغتنم إسحاق تلك الفرصة بلهفة. كان يكره الرطوبة والحرارة التي يتميز بهما الصيف في شانغهاي، وعلى نحو غير تقليدي، قيل له إنه يستطيع إحضار زوجته وابنه الصغير. غادرت العائلة إلى إنكلترا. افتتح إسحاق مكتبًا للشركة في شارع فينتشرش في لندن، وهو شبيه لوول ستريت شارع المال والأعمال الصاخب في نيويورك، واشترى قلعة ملكية قديمة في منطقة أشلي بارك في مقاطعة كنت. في بغداد، تم إعداد أفراد آل ساسون ليشغل واحد منهم منصب أمير اليهود (الناصي) الذي يعمل مستشارًا للملوك ويدعم الحكومة بالأموال. لقد استوعبت العائلة أهمية

التفاعل بين السياسيين وأفراد العائلة المالكة مع الشركات، والصفقات التجارية والتحالفات التي كانت تعقد أثناء الحفلات ومآدب العشاء في القصور الفخمة. سرعان ما انضم إلى إسحاق اثنان من إخوته الأصغر، حتى يتمكنوا من شراء العقارات ويقوموا بالترفيه عن أفراد الطبقات العليا البريطانية. بدأت الرسائل التي يتبادلها الأخوة في التركيز بشكل أقل على أسعار القطن والأفيون وازداد تركيزها على أسعار الخمور ومآدب الطعام للملوك. أرسل الأخوة الذين يعيشون في لندن قصاصات من الصحف إلى الهند ليتفاخروا بنمو علاقاتهم الاجتماعية المتزايدة وتوسعها ونصائحهم حول آداب السلوك الاجتماعي والتملق. عندما زار الأرستقراطيون البريطانيون الهند، حث الأخوان بعضهم بعضًا على دعوتهم إلى حفلات في قصر العائلة. «هذا سيضيف إلى شهرة عائلتنا. وأرسلوا دعوات إلى الصحفيين حتى يكتبوا عن هذه الحفلات في الصحف».

كان الهدف الرئيسي الذي كان يسعى إليه أبناء ساسون هو الرجل الأكثر أهمية في بريطانيا – ابن الملكة فيكتوريا وولي العهد إدوارد، أمير ويلز، المعروف شعبياً باسم «بيرتي». قبل أن يصبح ملكًا في عام 1901 عن عمر يناهز التسعة والخمسين عامًا، كان بيرتي قد شغل منصب ولي العهد لمدة أطول من أي من أسلافه. كان اجتماعيًا وواسع التفكير ومنفتحًا عالميًا أكثر من العديد من أفراد العائلة المالكة الآخرين، وأصبحت لديه علاقات صداقة مع العديد من اليهود البارزين والأثرياء، بمن في ذلك عائلة روتشيلد. كان يحتاج أيضًا إلى المال لينفقه على الحياة الباذخة التي كان يعيشها. فقد أحب بيرتي لعب القمار والصيد واقتناء اليخوت. واحتفظ بسلسلة من العشيقات، بمن في ذلك الممثلات والمغنيات، ويغدق عليهن هدايا باهظة الثمن. وانتشرت الإشاعات والأقاويل حول الديون التي تراكمت عليه.

بدأ الإخوان ساسون بالتودد لوريث العرش البريطاني خلال الحفلات التي يحضرها وأثناء سباقات الخيول التي كانت تستضيفها عائلة روتشيلد. بدأ أحد الإخوة، وهو روبن، بمرافقة الأمير البدين في رحلة «علاج» لمدة شهر لإنقاص وزنه في جمهورية التشيك. قام أفراد الأسرة بتخزين الأطعمة المفضلة لبيرتي وظلوا مستيقظين حتى وقت متأخر حيث كان منشغلًا بلعب

الورق والمشاركة في رقصة المرتفعات الإسكتلندية وتدخين السيجار. والأهم من ذلك، أنهم ساعدوه في تسديد ديونه المتعلقة بلعب القمار، بما في ذلك إعطاؤه نصائح بشأن الأسهم ومنحه الفرص للحصول على «نشرة إعلانية» عن الأفيون -أي شراء بعض الكميات من الأفيون في الهند ثم جني الأرباح عند بيعه في شانغهاي. أكسبته الأسرة الكثير من المال لدرجة أنه قال مازحًا إنه يجب عليه تعيين روبن ساسون- رفيقه في رحلة إنقاص الوزن - مستشاره المالي ووزير خزانة بريطانيا العظمى. عندما زار بيرتي الهند، استضاف ألبرت حفلة للأمير في قصره في سانس سوسي في كلكتا الذي ورثه عن والده. كتب ألبرت إلى إخوته في لندن: «سيكلفنا ذلك الكثير من المال، لكنه سيضيف إلى شهرة العائلة». بعد مغادرة بيرتي، كلف ألبرت أحد النحاتين بصنع تمثال ضخم يظهر فيه الأمير وهو يمتطي حصانًا. وفي قاعدة التمثال عبارة منحوتة بشكل بارز بجانب صورة لابن ألبرت إدوارد، تشير إلى أن هذا التمثال هو تكريم للملك القادم.

كما أثار الصعود السريع لآل ساسون ردود أفعال قوية. كانت العديد من العائلات البريطانية الثرية تمتلك الكثير من الأراضي ولكنها تفتقر إلى السيولة النقدية. ومثلما تنامى لدى الأرستقراطيين البريطانيين فجأة ولع بالنساء الأمريكيات الثريات وميراثهن، فقد تعلموا أيضًا التسامح مع الغرباء بل وحتى الترحيب بهم مثل عائلتي روتشيلد وساسون، التي يمكنها تحمل نفقات الاستثمار في صناعات جديدة، واستضافة الحفلات الباذخة، والترفيه عن الملك، وشراء وتجديد العقارات الريفية المتداعية. كتب أحد الصحفيين من لندن عن عائلة ساسون: «قل ما شئت، اليهود هم ملح المجتمع الذكي، والمحفز الفكري الوحيد له». «فهذه التأثيرات البشرية التي تصنع خميرة لندن العصرية مصدرها في الغالب الأعم هم اليهود».

لكن أعضاء آخرين من الطبقة الأرستقراطية البريطانية استهجنوا وصول هؤلاء القادمين الجدد وتبادلوا فيما بينهم الافتراءات المعادية للسامية حتى عندما كانوا ينضمون إلى آل ساسون لتناول العشاء. رفض دوق بريطاني أن يؤجر منزله الريفي لروبن ساسون، على الرغم من علاقات روبن الوثيقة بالعائلة المالكة، «بسبب ديانته». أخبر الدوق أصدقاءه أنه سيأخذ «إيجارًا

أقل من مستأجر مرغوب فيه أكثر». عندما زار أمير ويلز مضمار السباق في شمال لندن بصحبة عدد من أفراد عائلة ساسون، هتف شخص من بين الحشد: أهلًا بملك اليهود.

كتب ونستون تشرشل إلى والدته عشية تتويج بيرتي في عام 1901: «لدي فضول لمعرفة المزيد عن الملك». هل سيغير نمط حياته بصورة جذرية؟ وهل سيبيع خيوله ويتخلى عن أصدقائه اليهود، أم سيحتفظ بروبن ساسون إلى جانب مجوهرات التاج والرموز الملكية الأخرى؟

عندما قرر رب الأسرة، ألبيرت ساسون، الانتقال من بومباي إلى لندن بشكل دائم للانضمام إلى إخوته، قامت إحدى الصحف البريطانية بنشر قصيدة فكاهية قصيرة تسخر منه وصفته بـ «الراكون» عاشق الذهب:

السير ألبرت عبد الله ساسون
ذلك الراكون الهندي العاشق للذهب
اشترى عقارًا يسمى بوابة الملكة
وسيبدأ في استخدامه في حزيران القادم.

اعتبر آل ساسون، أنهم بحصولهم على لقب الفروسية وتلقيهم الدعوات لحضور الحفلات الملكية والاستمتاع بتناول العشاء مع وريث العرش البريطاني ومرافقته في رحلاته العلاجية لإنقاص الوزن، أنفسهم بريطانيين. وكذلك الصينيون، الذين رأوا أن أنشطة آل ساسون التجارية باتت تزدهر تحت رعاية التاج البريطاني، كانوا يعتبرونهم بريطانيين. لكن العديد من البريطانيين كانوا ينظرون إلى آل ساسون على أنهم يهود.

ورغم ذلك، تضافرت مصلحة آل ساسون وحلفائهم في لندن للحفاظ على تجارة الأفيون مزدهرة. في عام 1891، أصدر برلمان بريطانيا، تحت ضغط شعبي، تشريعًا يمنع تلك التجارة. وباستخدام علاقاتهم السياسية والاجتماعية، تمكن آل ساسون من تأخير تنفيذه. في عام 1906، أقر البرلمان – قانونًا آخر يحظر بيع الأفيون في الصين. وكتب ممثل شركات ساسون «سوف نتكبد خسائر فادحة فمن سنطالبه بالتعويض؟»". «خسائرنا

الصحاري الهندية الحارة تزفر الهواء السام
والديدان المشوية وسط الرمال الصفراء
الغربان السوداء تنتشل اللحم من عظام الجثث،
تنقر على الأقدام، وتنثر الدم؛
ينبت الخشخاش الأحمر الدموي، من أجل كل هذا،
فيصنعون عجينة من مادة تسبب الإدمان عليها.
يرتفع دخان أخضر عندما تقطع تلك العجينة إلى أشلاء،
وهي تستنزف الذهب والمال من البلاد
وتجعل حيوية سكان الحي تختفي يومًا بعد يوم.

بعد حظر الأفيون، بدأ آل ساسون في استثمار أموالهم في العقارات وبناء المصانع، ليبنوا ثروة أكبر. عندما تولى الشيوعيون السلطة في عام 1949، قاموا بالاستيلاء على السجلات التجارية الخاصة بشركات ساسون في شانغهاي. في الثمانينيات، سمحت الحكومة الصينية لاثنين من الاقتصاديين الصينيين بإجراء تحقيق مفصل وحساب ممتلكات آل ساسون المتعددة على مدى قرن من العمل. اكتشف الصينيون أن أرباح الأفيون جلبت لآل ساسون 140 مليون «ليانغ» (الاسم الشائع للعملة الصينية في القرن التاسع عشر) - وهو ما يعادل 2.7 مليار دولار بأسعار عام 2018. ثم استثمروا تلك الأموال في ممتلكات وأسهم وشركات في شانغهاي لمضاعفة أرباحهم، إلى ما يعادل 5.6 مليارات دولار. وكما قال الكاتب الفرنسي أونوريه دي بلزاك، وهو يتأمل في ثروة أباطرة اللصوصية في القرن التاسع عشر حول العالم مثل آل ساسون: وراء كل ثروة عظيمة جريمة.

الفصل الثالث

لورا وايلي خضوري

خلال جيل واحد فقط تغير حال ديفيد ساسون وأبنائه من كونهم لاجئين فارين من بغداد ليقفزوا إلى قمة فئة رجال الأعمال والمجتمع البريطاني. أصبحوا أعضاء في برلمان الهند المستعمرة وقدموا المشورة للحكومة الاستعمارية البريطانية. وأصبحوا يستقبلون الملك في منازلهم ويتبادلون معه الأحاديث الودية ويزورونه في قلعة وندسور. لقد كانوا روادًا في استخدام العديد من أدوات الرأسمالية الحديثة وطبقوها بلا رحمة، ونشروا البواخر والتلغراف والبنوك الحديثة. كان مقرهم الرئيسي في لندن يضم طابقًا كاملاً من المترجمين لترجمة سندات الشحن والعقود وبوالص التأمين واستفسارات العملاء التي تصلهم مكتوبة بالعبرية والعربية والفارسية والصينية والهندوستانية. اضطر الإمبراطور الصيني إلى فتح شانغهاي أمام التجار الأجانب، وكان يأمل في تقييد نفوذهم وإبعادهم في النهاية. وبدلًا من ذلك، استمرت عائلة ساسون في توسيع أعمالها وبدأت في تغيير الصين والطريقة التي يفكر بها الصينيون في مجال الأعمال. في عام 1881 كتبت نورث تشاينا هيرالد وكانت صحيفة جديدة صادرة باللغة الإنكليزية في شانغهاي تقول «إن اسم ساسون أقل شهرة في أوروبا من اسم روتشيلد، ولكن بين التجار الصينيين»، هو ذو مفعول سحري.

مع انتشار أخبار نجاح آل ساسون ونجاح أباطرة مال آخرين، بدأ رجال أعمال أجانب آخرون من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وأوروبا في الوصول إلى الصين لاغتنام هذه الفرصة الجديدة. كان من بين أكثر ابتكارات

ديفيد ساسون لفتًا للانتباه -إنشاء مدارس ساسون لتهيئة موظفين جدد في كل عام لشركات العائلة- وقد كان هذا الأمر يمثل خطرًا أيضًا. مع انتشار الحديث عن الأموال التي ستجنى في الصين، ازداد كذلك طموح البغداديين المساكين الذين تدفقوا على العمل لدى آل ساسون. وكما كانت كميات النقود لدى آل ساسون تزداد. كانت أعداد منافسيهم تزداد أيضًا.

سمعت ريما قدوري عن مدارس ساسون واعتبرتها كوارث مالية -لحقت بعائلتها. كانت هي وزوجها صالح يعيشان بشكل جيد في بغداد- لم يكونا ثريين مثل أبناء عمومتهما البعيدين من عائلة ساسون، لكنهما كانا مرتاحين رغم ذلك. كان صالح «مزارعًا وتاجرًا» -وهو ما يعادل تاجرًا مصرفيًا في بغداد. في المناطق الريفية المحيطة ببغداد، كانت قطعان الأغنام بمنزلة ضمان للصفقات التجارية. كان البدو هم من يرعون الخراف؛ وعمل صالح كمصرفي وسمسار، حيث كان يقدم القروض، وكانت الأغنام بمنزلة الضمان لتلك القروض. كان لعائلة خضوري سبعة أطفال- ستة أولاد وبنت. أرسلوا أولادهم الستة إلى مدرسة خاصة تديرها منظمة يهودية مقرها باريس، حيث يتعلم فيها الأولاد القراءة والكتابة باللغة الإنكليزية والعبرية والفرنسية. في عام 1876، مات صالح وكان أطفاله ما زالوا مراهقين، تاركًا ريما تعيلهم وحدها. لم يكن بينهم أي شخص كبير بما يكفي لتولي أعمال العائلة. سمعت ريما أن آل ساسون، يوفرون من خلال شركاتهم الجديدة في الهند والصين، التدريب والوظائف للعاملين الجدد. وعلى الرغم من أن أولادها كانوا مراهقين ليس إلا، اعتبرت هذه فرصة رائعة لهم، حيث يمكنهم إرسال الأموال لدعم والدتهم الأرملة. وبالتأكيد سوف يرحب بهم آل ساسون وسوف يجعلهم ما يحصلون عليه من تدريب في مجال إدارة الأعمال واللغات أشخاصًا ذوي قيمة. وثقتهم بعضهم ببعض ستبقيهم قريبين من بعض. قررت ريما إرسال أربعة من أبنائها إلى الهند للعمل مع آل ساسون. كان أصغرهم إيلي في الخامسة عشرة من عمره. رحب به آل ساسون: كونه أحد أقارب العائلة من بغداد وعاش في أوقات عصيبة، ومراهقًا يمتلك عقلية تجارية؛ ومنصبه مضمون وكذلك فإن شعوره بالامتنان والولاء لهم مضمونان أيضًا.

لم تكن رحلة إيلي من بغداد ومسار حياته تختلف كثيرًا عن رحلة ديفيد ساسون. هناك عدة عوامل تميزهما بعضهما عن بعض. كان ديفيد يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا عندما فر من بغداد، وكان زوجًا وأبًا ووريثًا لثروة، وكان يهيئ نفسه لتولي قيادة عائلته والمجتمع اليهودي وعمله التجاري الذي امتد عبر الشرق الأوسط. فيما كان إيلي صبيًا في الخامسة عشرة من عمره. يتحدث الإنكليزية والفرنسية لكنه يفتقر إلى شبكة علاقات وصلات آل ساسون والاحترام والتوقير اللذين يحظون بهما. سيترعرع إيلي في الصين وسيتخذ أهم خياراته التجارية والعائلية هناك. على النقيض من آل ساسون، الذين حملوا عباءة النجاح والسلطة معهم من بغداد إلى بومباي ثم إلى شانغهاي، كان إيلي مكافحًا، ورجلًا عصاميًا يحمل بين جنباته شعورًا بانعدام الأمان الذي كان يخفيه العديد من الرجال العصاميين. وبقدر ما شعر ديفيد بأنه غريب، كان وضع إيلي أكثر خطورة. أجبره انتقاله إلى الصين على بناء تحالفات وعلاقات مع مهاجرين آخرين ومع الصينيين. كان من شأن تصميمه وخفة حركته أن يثير إعجاب العديد من الصينيين، الذين رأوا في اندفاعه ومعاركه ضد المؤسسة البريطانية بعضًا من نضالاتهم وتطلعاتهم. كان عليه أن يربط مصير عائلته بالصين، ويعمل في ظل آل ساسون، وسوف يستمر بالتقدم إلى أن تتفوق عليهم عائلته في يوم من الأيام.

بعد فترة قصيرة قضاها إيلي في بومباي، حيث تدرب في مدرسة ساسون وتعلم أساسيات تجارة الجوت والقهوة والمنسوجات تم تكليف إيلي بوظيفة كاتب متدرب في هونغ كونغ ليعمل في شركة إلياس ديفيد ساسون، وهو المشروع الذي كان لا يزال جديدًا وقام بتأسيسه إلياس، الذي انفصل عن العائلة ليعمل بمفرده. كان على إيلي أولاً الحصول على «وثيقة مرور» Laissez–passer –وهي وثيقة سفر تسمح له بالسفر إلى جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية والهند والصين. وصل إلى هونغ كونغ في 20 مايو 1880، وتوجه إلى مقر الشركة المزدحم الواقع بالقرب من الواجهة البحرية. بحلول عام 1880– بعد أربعة عقود تقريبًا من حرب الأفيون الأولى، ومع ترسيخ الحكم البريطاني في هونغ كونغ وسريان اتفاق التسوية الدولية حول شانغهاي – كانت هونغ كونغ تعد بالكثير من الطموح. كان مقر الشركة

يطل على الواجهة البحرية المزدحمة. وكانت عائلة ساسون تعد من بين العائلات التجارية المهيمنة في المدينة. وحصل إيلي على راتب قدره سبعة وثلاثون روبية في الشهر، كان يرسل نصفه إلى والدته في بغداد.

قام إيلي بعمله على أتم وجه وسرعان ما تم إرساله شمالًا إلى مدن الموانئ الصغيرة إلى مكاتب الشركة المنتشرة على طول الساحل الصيني، وانتهى به المطاف عند موقع الشركة في مدينة ويهاي الصغيرة، التي يتطلّب الوصول إليها من شانغهاي القيام برحلة بحرية تستغرق ثلاثة أيام، حيث كان آل ساسون يديرون مستودعًا هناك. في سن الثامنة عشرة، انتقل إيلي إلى منزل كبير فيه حديقة وإطلالة على المرفأ وأصبح منصبه الوظيفي «كاتبًا من الدرجة الثالثة». من المحتمل أن يكون المنصب المهم في شانغهاي ينتظره في المرحلة التالية.

كانت ويهاي، مثل العديد من المدن الصينية، تعاني من سوء النظافة وتفشي الأمراض بشكل متكرر. وقد تفشى وباء الطاعون الدبلي بعد وقت قصير من وصول إيلي. كان رؤساء إيلي في إجازة وبعضهم يقوم بزيارة مواقع أخرى. وحيث إن إيلي كان مسؤولاً مؤقتًا عن المستودع، فقد أخذ برميلًا من المواد المعقمة من المخزن وقام برش المبنى بالمبيدات لقتل البراغيث والجرذان التي كانت تنشر المرض. عندما بدأ الناس يموتون بالقرب من المستودع، قام إيلي بتوزيع المواد المعقمة على الموظفين الصينيين. وبالنسبة لأولئك الذين لم يتمكنوا من السداد، فقد وافق على ان يقوموا بالدفع لاحقًا.

عندما عاد كبار المديرين، وبخوا إيلي على ذلك التصرف وقيامه باستخدام المطهرات بدون إذن. وسواء كان هناك طاعون أم لا، فإنه تصرف بمواد تخص شركات ساسون. تم استدعاؤه إلى مكتب الشركة الرئيسي في شانغهاي، حيث دافع عن موقفه بشدة. قال له ابن عم ساسون المسؤول عن المكتب ألا يكون سريع الانفعال. وإذا وعد «بتحسين أساليبه في العمل»، فسيتم نسيان الحادثة.

فأجابه إيلي: «إذا كانت هذه هي نظرتكم إلى الحياة، وإذا كنتم لا تقدرون

الجوانب الإنسانية، فأنا أقدم استقالتي الآن». تأثرت عائلة ساسون بهذه القصة لأنها لخصت نظرة إيلي إلى نفسه: رجل عنيد ومبدئي يهاجم حماقة الآخرين وقصر نظرهم. من المحتمل أيضًا أن يكون إيلي شابًا وطموحًا، مفتونًا بالفرص المنتشرة من حوله في الصين، وقد سئم ببساطة من العمل لدى آل ساسون المتعجرفين وقرر أن الوقت قد حان للانطلاق بمفرده. كان لورانس نجل إيلي يمزح قائلًا وهو يناقش مصادر الثروة التي جمعتها عائلة خضوري في وقت لاحق، بأن الأسرة يجب أن توثق رحيل إيلي عن آل ساسون من خلال كتابة عبارة «برميل من المطهرات» على شعار عائلة خضوري.

بعد تركه مكتب شركة ساسون في شانغهاي، سافر إيلي عائدًا إلى هونغ كونغ لطلب المساعدة من شقيقه الأكبر موسى، الذي أرسلته والدته أيضًا إلى خارج بغداد للعثور على عمل مع آل ساسون. أعطى موسى شقيقه 500 دولار هونغ كونغ وحذره، «لا تعد إليّ من أجل المزيد».

أخذ إيلي مبلغ الخمسمائة دولار وتوجه إلى أفضل فندق في المدينة، فندق هونغ كونغ -المؤلف من أربعة طوابق تعلوها قبة مزخرفة ومرصد. وبجانبه فناء واسع وبار وغرفة بلياردو ودرج كبير يؤدي إلى غرف الضيوف. كانت على طول ثلاث جهات من الفندق شرفة مغطاة لحماية الضيوف من الحرارة. كان الوسطاء والسماسرة يلتقون في هونغ كونغ يوميًا عند تلك الشرفة لتبادل النصائح المالية، والترويج للأسهم، وشراء الأسهم في الشركات- التي كانت رائدة في البورصة الرسمية. كان اسم ديفيد ساسون يعني المزيد من الفرص وكان جاذبًا لهم. لم يكن أسم إيلي خضوري كذلك. وخوفًا من أن يكون اسمه «أجنبيًا» للغاية، تبنى إيلي اسمًا مستعارًا: هو إلياس كيلي واستنتج أن اسم «إلياس سيلاس كيلي» سيحظى بفرصة عمل أفضل من اسم «أليعازر سيلاس خضوري» الذي كان معروفًا به في بغداد ومع لهجته البغدادية الثقيلة وعدم وجود سوى 500 دولار في جيبه. تحولت الشرفة إلى وسيلة ممتازة لشاب غريب مثل إيلي خضوري لإجراء الاتصالات. أسس مع اثنين من الوسطاء الآخرين، وهما بنيامين وبوتس شركة وساطة للأوراق المالية، بنيامين وكيلي وبوتس. وبات بإمكانه الآن شراء أسهم في الشركات بناءً على المعلومات التي يتم جمعها من الوسطاء الآخرين وتحديد فرص

الاستثمار المبكرة. مكنه العمل تحت اسم إلياس أن يتخفى، مما يسمح له ألا يكشف سره حتى يكون مستعدًا للإعلان عن استثماراته علنًا. في مارس 1891، وكان في سن الخامسة والعشرين، اشترى أسهمه الأولى – وكانت للشركة مالكة الفندق الذي كان يزوره كل صباح.

إن خلفية إيلي الأكثر تواضعًا وظروفه الصعبة منعته من جمع رأس المال الذي يحتاجه لدخول تجارة الأفيون. لقد أُجبر على أن يصبح أكثر تنوعًا في أعماله وأن يطور شبكة أكبر من شركاء الأعمال من التجار البريطانيين الذين وصلوا من لندن بحثًا عن الثروة، أو للبحث عن شركات ساسون. أصبح إيلي سمسارًا للأوراق المالية، وأصبح يمتلك أسهمًا في عشرات الشركات وكان يعمل خلف الكواليس مع الشركاء والمالكين، وراكم النفوذ والسلطة – وهي الاستراتيجية التي سيستخدمها المستثمر الأمريكي وارين بافيت بإتقان بعد قرن من الزمان. اعتاد إيلي أن يكون مؤدبًا ومهذبًا في الأماكن العامة، ولكنه يكون عنيدًا وقاسيًا في اجتماعات الشركة، فكان يضغط على الشركاء ويستغل الاضطرابات المالية من أجل السيطرة على زمام الأمور.

وسعيًا منه وراء الصفقات التجارية الرابحة، بدأ إيلي في تخطي الحواجز الاجتماعية، التي لم يسمع بها أحد تقريبًا في ذلك الوقت. كانت أغلبية سكان هونغ كونغ من الصينيين، لكنها كانت مستعمرة بريطانية، وكان الصينيون يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية. كان بإمكانهم العيش فقط في أحياء معينة ومُنعوا من زيارة جبل فيكتوريا ذي المناظر الخلابة الذي كان يحلق فوق وسط المدينة. وكانوا يُعاقبون على الجرائم البسيطة بالجلد العلني. لم يمنع ذلك إيلي من مصادقة أغنى رجل أعمال محلي في هونغ كونغ – وهو روبرت هوتونغ. كان هوتونغ من رجال الأعمال الكبار الذين تمتد نشاطاتهم التجارية إلى أوروبا وآسيا وكان والده هولنديًا وأمه صينية. تعلم اللغة الإنجليزية وعمل كمبرادور في شركات جاردين، حيث كان يتفاوض على عقد صفقات تجارية مع الصينيين وينشئ استثمارات خاصة به. كان معروفًا أنه رجل أعمال صيني، وبحلول الوقت الذي عاد فيه إيلي إلى هونغ كونغ وكان يتطلع لشراء أسهم في شركات ناشئة، كان هوتونغ أحد أغنى الرجال الصينيين في المدينة. بدأ الاثنان في الاستثمار في شركات

جديدة ومبتكرة كانت، في نهاية القرن التاسع عشر، تعمل على تغيير نمط الحياة وإطلاق عملية التحديث. وقد استحوذا على حصة في شركة الكهرباء الوليدة في هونغ كونغ، وأشتريا أسهمًا في الفنادق التي كانت تجتذب رجال الأعمال والمسافرين الأجانب، وحازا على جزء من ملكية شركة الترام الآلي المخصص لتسلق قمة جبل فيكتوريا، وهو أعلى جبل في هونغ كونغ، وكان يطل على الميناء، وقد حل هذا الترام محل الخدم الذين كانوا ينقلون العائلات البريطانية على المحفات[1] في درجات حرارة مرتفعة. امتدت العلاقة بين إيلي وهوتونغ لعدة أجيال. بعد سنوات، كتب هوتونغ بمودة لأطفال إيلي أنه كان يراهم وهم يكبرون. لم يتمكن أحد من عائلة ساسون أن يقيم مثل تلك العلاقة الحميمة للغاية مع الصينيين قط.

بعد عقدين تقريبًا من الأنشطة والأعمال، بدأ إيلي، وكان في الثانية والثلاثين من عمره، يفكر في الزواج. كان أبناء ساسون وبتوجيه من والدهم، متزوجين جميعًا من نساء من عائلات بغدادية ميسورة الحال، وعادة ما كانوا يتركونهن في بومباي لتربية أطفالهن أثناء انتقالهم من شانغهاي إلى هونغ كونغ ومن ثم إلى لندن. كان المغامرون البريطانيون والأجانب الآخرون الذين يحطون في الصين يقيمون علاقات مع «الطيور المغردة» في شانغهاي، وهو الاسم الذي يطلق على البغايا الصينيات اللواتي يستدرجن الرجال على طول أرصفة الميناء. لم يتزوج إلياس شقيق إيلي مطلقًا، لكن يبدو أنه كانت لديه سلسلة من العلاقات مع النساء الصينيات. عندما توفي، ترك منزلًا ومالًا لامرأة صينية وبناتها. وحضرت حينها عدة نساء صينيات أخريات ذكرن أنه وعدهن بمجموعة من الأملاك وكذلك المجوهرات.

لم يكن أي من أساليب العيش هذه تتوافق مع طبيعة إيلي. أبحر إلى إنكلترا لمعرفة كيفية تكوين شراكات تجارية مع يهود أثرياء هناك والتقى بفريدريك موكاتا، زعيم الجالية اليهودية في لندن. دعا موكاتا إيلي إلى منزله لمقابلة ابنة أخيه لورا.

1- فئة من المركبات التي لا تستخدم فيها عجلة، والتي يحملها الرجال لنقل الأشخاص-م

كانت لورا تمتلك كل شيء لم يكن عند إيلي. كانت فتاة أرستقراطية بريطانية متعلمة. وعائلتها جزءًا من «أبناء العم» - وهي مجموعة من العائلات اليهودية الثرية التي بنت سمعتها في إنكلترا لمئات السنين. تم طرد أفراد عائلة الموكاتا من إسبانيا أثناء حملات محاكم التفتيش في عام 1492، واستقروا أولاً في هولندا، ثم انتقلوا إلى لندن بعد أن أعاد أوليفر كرومويل قبول إليهود في إنكلترا. وقد أصبحوا أثرياء يديرون بورصة الذهب والفضة في لندن، وتحول فريدريك موكاتا إلى الأعمال الخيرية، حيث أسس المدارس والمكتبات في الطرف الشرقي من لندن، حيث يعيش معظم اليهود الفقراء. أصبح إيلي مفتونًا بلورا. كانت تعتبر بسيطة المظهر وقد اقتربت من الأربعين، وفاتتها سنين عديدة من الزواج، وكانت تكبر أيلي بعدة سنوات. سافرت إلى الهند مع ابن عمها، وهو أمر غير معتاد بالنسبة للنساء في ذلك الوقت، وقد توفيت والدتها مؤخرًا. من المحتمل أن لورا كانت تواجه الحياة كامرأة ثرية غير متزوجة تشارك في الأعمال الخيرية وتساعد فقراء لندن.

لكن إيلي كان مفتونًا بها. وقرر تأجيل عودته إلى الصين، وبعد بضعة أشهر، عرض عليها الزواج. في الوقت الذي كانت فيه الزيجات المرتبة طريقًا أكيدًا لنجاح الأعمال، لم يكن بمقدور إيلي أن يرتب خيارًا أفضل، حيث تزوج من عائلة ثرية بارزة في لندن لإكمال استثماراته المتنامية في الصين. ولكن إذا كان هذا هو كل ما توقعه إيلي، فقد أساء الحكم على زوجته. مهما كانت دوافعه، فقد انتهى به الأمر إلى زواج كان صفقة شراكة أكثر بكثير من غيره من الزيجات في عصره. منحت لورا زوجها إيلي جواز المرور إلى عالم المجتمع الراقي في لندن. قاما بتربية أبنائهما كاشخاص بريطانيين، ابتداء من أسمائهم -لورانس وهوراس- إلى المدرسة الداخلية التي التحقوا بها، إلى القصر الذي سيشترونه في لندن. لكن لورا كانت مصممة أيضًا على عدم الاكتفاء بحياة الأغنياء العاطلين عن العمل وتنظيم حفلات الغداء الخيري بين حين وآخر. كان معظم التجار المغامرين في الذهاب إلى الصين يتركون زوجاتهم في إنكلترا، فلم تكن الصين قط مكانًا مريحًا. لكن لورا كانت تحب السفر وكانت حريصة على التغيير بعد وفاة

والدتها. عندما أعلن إيلي أنه سيعود إلى الصين للبحث عن المزيد من الفرص التجارية، قررت لورا أن تسافر معه.

كان الطقس «حارًا جدًا» عندما وصلت هي وزوجها الجديد إلى هونغ كونغ، وقد أشارت إلى ذلك في يومياتها. عندما خفت الحرارة، حاصرهما «ضباب رطب رهيب». انتقلت هي وإيلي إلى منزل يقع في منتصف الطريق المؤدي إلى قمة جبل فيكتوريا، وهو الجبل الذي يلوح في الأفق فوق وسط هونغ كونغ وكان مخصصًا للأوروبيين والأجانب الآخرين. هناك يمكنهما الهروب من بعض الحرارة والرطوبة. بعد فترة وجيزة من وصول لورا، اقتلع إعصار جزءًا من شرفة منزل خضوري وألقاه على دفيئة في حديقة بالأسفل. أما المنزل المجاور، الذي كان يطفو فوق الأرض على أعمدة طولها أربعة أقدام، فقد تطاير من أساسه. كان بإمكان إيلي ولورا أن يسترقا النظر عبر المرفأ في منطقة كولون إلى العمال وهم يلتقطون الجثث التي خلفها الإعصار. وقد كتب ابنها لورانس بعد سنوات عديدة في مذكراته «في البداية، وجدت والدتي أن الحياة في هونغ كونغ صعبة نوعًا ما، كونها مختلفة تمامًا عن الجو الذي اعتادت عليه في لندن». كان عمها قد تبرع بمبالغ كبيرة لمساعدة المهاجرين اليهود الفقراء الذين يحتشدون في شرق لندن – على غرار حي لوير إيست سايد في نيويورك. ولكن في هونغ كونغ، كان الفقر والكوارث أسوأ. كانت العديد من الاحتياجات متشابهة. ولن يكون المستفيدون منها هم اليهود. بل الصينيون.

في لندن، كانت لورا تُعتبر جزءًا من الطبقة العليا البريطانية، وكانت ثروة عائلتها وعلاقاتها الاجتماعية تمهد لها الطريق للوصول إلى غاياتها. لم يكن الأمر كذلك في هونغ كونغ. كانت المستعمرة مكانًا يشيع فيه «التكبر والغرور»، كما سيذكر ابنها لورانس بعد سنوات. والمجتمع يشيع فيه حرفيًا التمايز الطبقي.

تربع قصر الحاكم الصيفي على قمة جبل فيكتوريا. ويذكر لورانس: «مع هبوطك من الجبل، يتراجع مستوى الطبقات الاجتماعية وفقًا لذلك». «كان الجو العام من وجهة نظر أي شخص قادم من إنكلترا وأيًا كانت خلفيته الاجتماعية يثير الدهشة. فلم يتمكنوا في البداية من فهم ما يجري».

عندما حاولت لورا بناء شبكة من الأصدقاء، كان عليها أولاً أن تتكيف

مع عادات المجتمع الراقي في هونغ كونغ. على سبيل المثال، لن يقترن أحد بعلاقة صداقة مع لورا إلى أن تقدم كارت زيارة -مثل كارت العمل- إلى منزل تلك العائلة. بل إنها تضطر إلى ثني زاوية من الكارت لتظهر أنها جلبته بنفسها ولم ترسله مع خادم أو سائق عربة. وإلى أن ترسل لها العائلة الأقدم منها في هونغ كونغ أحد كارتاتها ردًا على ذلك -وبالتالي تعترف بوجودها- فإن البروتوكول يمنع لورا من زيارتها مرة أخرى.

على عكس شانغهاي، التي بدت كأنها دولة لها حدود، كانت هونغ كونغ مستعمرة بريطانية مع حاكم ملكي وحكومة مدنية ومبالغة شديدة في البروتوكول وتقليد شاي بعد الظهر وتشدد في تصنيف طبقات الناس ولهجاتهم. كان من يزورها يقول إنها كانت بريطانية أكثر من بريطانيا.

كتب أحد المبشرين البروتستانت أن السيدات في هونغ كونغ «يعشن حياة تحمل القليل من المسؤولية أثناء تجولهن في عربات لتوزيع مجموعة من بطاقات الدعوة، وترتيب وجبة غداء اليوم التالي، وتبادل الأحاديث حول ارتفاع أسعار المحار وطائر الدراج». «كانت بعض السيدات بلا شك مرحات وغير مباليات، لكنهن عادة ما كن يشعرن بالتعب والانزعاج وضيق التنفس قليلاً خلال الأيام الحارة بفساتينهن الضيقة». وزادت الوجبات الثقيلة من انزعاجهن. لكن البريطانيين لم يتخلوا عن تقاليدهم بسبب حرارة هونغ كونغ أو يتناولوا الطعام المحلي. فكان العشاء يبدأ في السابعة، تمامًا كما يحدث في لندن، ويبدأ بكأس من نبيذ الشيري، يليه الحساء والسمك وطبقان من اللحوم والجبن والسلطات. ثم تقدم بعد ذلك الحلويات والفواكه وتتخلله كؤوس من النبيذ والخمر.

أنجبت لورا ثلاثة أطفال في غضون أربع سنوات. توفي أحدهم، فيكتور، عن عمر ناهز خمسة أشهر. في عام 1901، تخلى إيلي عن استعمال اسم «كيلي» وأعاد تسمية شركته بفخر «إيلي خضوري وأولاده». وفي محاكاة للبريطانيين، تبنى تصميمًا لشعار النبالة[1]، وشعارًا مأخوذًا من عائلة لاورا، آل موكاتا الأثرياء: إخلاصك لمبادئك يحقق لك الازدهار في عملك.

1- رمز يُستخدم لتمثيل الأفراد والجماعات والبلدان والمدن والأسر والكنائس والجامعات-م

كانت لورا مصرة على ألا تؤدي ظروف عيشها في مستعمرة مثل هونغ كونغ إلى خنق تطلعاتها. كانت عائلتها ناشطة في الأعمال الخيرية في لندن، وكان أبناء عمومتها، وهم آل ساسون، قد بنوا ووهبوا الكنائس والمدارس في الهند وفي جميع أنحاء الشرق الأوسط. انضمت الآن إلى إيلي للبدء بدعم قضية رائدة وهي: تأسيس مدارس للفتيات. اتفق الزوجان على بناء مدرسة للبنات في بغداد سميت باسم لورا. تفاوض إيلي مع معارفه في بغداد لشراء الأرض ودفع تكاليف البناء؛ وتفاوضت لورا، التي تكتب بالفرنسية بطلاقة، مع زوجاتهم لدعم المنح الدراسية للطلاب وتنظيم كل الأمور الإدارية.

أصرت لورا على أن تعليم الفتيات كان أمرًا حاسمًا إذا كانت بغداد تريد أن تدخل عصر التحديث، تمامًا كما كان التعليم وإنشاء المكتبات حاسمين في تحسين واقع المهاجرين اليهود الفقراء في الطرف الشرقي من لندن. وقفت المعلمات في المدرسة الجديدة ضد زواج القاصرات ونجحن في رفع سن الزواج للفتيات اللواتي يتخرجن من المدرسة. قدمت عائلة خضوري الدعم لتأسيس مكتبة في المدرسة يمكن للنساء استخدامها حتى بعد مغادرتهن. التحقت أكثر من 700 فتاة، بالمدرسة كانت معظمهن من العوائل اليهودية الفقيرة، على الرغم من أن بعضًا من الآباء المسلمين، الذين اجتذبتهم الأفكار التقدمية، أرسلوا بناتهم إلى تلك المدرسة أيضًا. مع نمو مدرسة بغداد، بدأت لورا وإيلي في دعم الجهود التي يبذلها إلياس شقيق إيلي لتأسيس شبكة من المدارس للطلاب الصينيين الفقراء الذين حرموا عادة من التعليم في هونغ كونغ وكانتون. كانت المدارس تدرس الحساب واللغة الصينية والإنجليزية، وقد تم تسجيل ألف طالب فيها.

توسع بحث «إيلي» عن استثمارات جديدة مما قاده لأن يذهب إلى شانغهاي ومن ثم إلى الصين. صممت لورا ألا تبقى وسط جو هونغ كونغ الخانق، فقررت أن تسافر معه برفقة طفليها الصغيرين ومربيتهما وعشرات الحقائب. على مدار العقدين التاليين، ظلت لورا تحتفظ بمذكرات تسرد فيها تجاربها التي تذكرنا أحيانًا بدور الممثلة كاثرين هيبورن في فيلم الملكة الأفريقية.

في إحدى رحلاتهم المبكرة، لاحظت كيف ظل الجميع، بمن فيهم إيلي

والصبيان، مستيقظين طوال الليل بسبب دوار البحر. وقد تمكنت من التغلب عليه. وكتبت «لقد أصبحت بحارة جيدة الآن»، رغم أن الحرارة الشديدة لا تزال تمثل مشكلة. «كان الجو حارًا جدًا منذ مغادرتنا هونغ كونغ ولكن لحسن الحظ كان هناك نسيم لطيف في شانغهاي، على الرغم من أن درجة الحرارة وصلت إلى 40 درجة مئوية».

صدمتها روائح وقذارة الصين. كانت شوارع بكين كما وصفتها «مليئة بطين كثيف ولزج للغاية وهناك أكشاك بائسة وقذرة تسمى بازارات، تصطف على جانبي الشارع الواسع». وإلى جانب الحشود المتدافعة من الناس، كانت الجمال تجوب الشوارع وهي تحمل البضائع. كان الناس بائسين غير مهتمين بالحيوانات. كان أصحاب عربات اليد يندفعون إلى الأمام بينما كانت عرباتهم تنحرف من جانب إلى آخر فوق الطرق الوعرة المليئة بالأخاديد والثقوب في كل منعطف. إن حياة الفقر في بكين وشنغهاي جعلت من حي إيست إند في لندن المليء بالمنازل المتصدعة يبدو مكانًا لعوائل أرستقراطية. وتابعت لورا تكتب في يومياتها «اندفعنا بين المتاجر والبسطات القذرة الموضوعة أمامها، ونحن نتوقع في كل دقيقة أن نتعرض للهجوم لأنه لم يكن معنا سوى القليل من الملابس الإضافية، وكان يجب أن نلقي بها إلى هؤلاء الأطفال القذرين بشكل مقرف والعراة تمامًا»، أراد زوجان بريطانيان كانا يسافران مع لورا العودة بسرعة إلى الفندق. لكن لورا خالفتهما الرأي قائلة: «لقد أدهشني الجزء الهزلي من المشهد بأكمله ولم أكن لأقرر العودة مهما حدث».

كلما سافرت أكثر، أصبحت لورا أكثر جرأة. كتبت خلال إحدى رحلاتها في الصين من هونغ كونغ إلى شانغهاي: «لاحظت وجود سفينة شراعية تحمل رجلين فقط تحاول أن تجتاز مركبنا».

كانت تقف على سطح المركب ومعها لورانس البالغ من العمر سبع سنوات لكي تريه المنظر الطبيعي الذي أمامهما. «قبل أن نعرف ما كان يحدث، أصبح مركبنا في نفس جانب السفينة الشراعية. وبدأ ينزل إلى قاع النهر شيئًا فشيئًا». أمسكت لورا طفلها الصغير. «تشبثنا بالعارضة الحديدية في الجانب العلوي ثم غمرنا الشعور المروع بما سيحدث بعد ذلك – أين

كان إيلي والرضيع (هوراس) وآه نينغ (مربية الطفل)؟ ماذا يمكنني أن أفعل لإنقاذ لورانس؟ أين يجب أن نكون جميعًا بعد دقيقة إذا استمر الوضع هكذا؟ اندفعت كل تلك الأفكار عبر عقلي مثل وميض البرق». عندما كان القارب يقترب من الانقلاب، أصبح عالقًا في الوحل، مع تشبث لورا وابنها بالجانب المرتفع منه. اندفع إيلي والمربية، وهما يمسكان بهوراس، نحو سطح المركب لتجنب الوقوع في النهر. استطاع القارب تصحيح وضعه ببطء وواصل مسيره. وأشارت لورا في يومياتها «بالطبع، كان هناك كالعادة بعض الأشخاص الأغبياء على متن المركب، الذين بكوا وصرخوا وكان لابد من إعطائهم شيئًا من البراندي»، في ذلك المساء، نامت العديد من النساء وقد ربطن أربعة أحزمة نجاة حول أجسادهن. ثم كتبت لورا: «لا أستطيع أن أفكر كيف يمكن أن يكون بعض الناس بهذا الغباء». أمضت بقية الرحلة بهدوء وهي ترسم المناظر الطبيعية التي تشاهدها وتعزف على البيانو وتقود الركاب للمشاركة بغناء جماعي.

عبر سفرها في أرجاء الصين، كانت لورا تلتقط لمحات من التدهور البطيء للبلاد حيث غزتها دول أخرى، بما فيها اليابان في ذلك الحين، وطالبت بأراض وامتيازات تجارية. ومثل الصين، صُدمت اليابان بوصول السفن الغربية وظهور الأدلة على تفوق الغرب في مجال الأسلحة والتكنولوجيا. وعلى عكس الصين، تفاعلت اليابان مع ذلك الوضع بإرسال علماء وجنود إلى بلدان الغرب ليتعلموا من الدول الأجنبية، وليتزودوا بالمعارف، والاستعداد للتوسع نحو البلدان المجاورة. في عام 1894، هاجمت اليابان الصين من الشمال واستولت على الامتيازات الأجنبية لنفسها.

خلال رحلة استعادت بها ذكريات عاطفية جرت عام 1905 إلى مدينة شيفو، وهي إحدى المدن التي عمل فيها إيلي موظفًا لدى آل ساسون وكان حينها «فتى فقيرًا من بغداد»، لاحظت لورا وجود مسدسات على جميع السفن، بما في ذلك السفينة التي استقلتها هي وإيلي. أصرت الحكومة الصينية على تسليح السفن لصد الغزاة اليابانيين. صعدت لورا على سطح السفينة، وشرح لها القبطان كيفية «استخدام» المدافع إذا هاجمهم اليابانيون. «سمعنا أن معركة قد خيضت للتو استولى فيها اليابانيون على 5 من (سفنهم

الروسية)، وقد أغرق بعضها.. أما جميع سفن أسطول بحر البلطيق الذي كان من المتوقع أن يفعل مثل هذه العجائب فقد استولى عليها اليابانيون أو أغرقوها وأسروا كبار الأدميرالات». انتهت رحلة عائلة خضوري دون وقوع حوادث، لكنها كانت علامة تنذر بالسوء على الصعود المرتقب لليابان.

بعد بضعة أشهر، سافرت لورا على متن سفينة أخرى مع عائلتها، وأشارت في مذكراتها أن «هناك أماكن معينة تعتبر خطيرة، وإذا كنا قد وصلنا إلى هذه الأجزاء ليلًا، فلا بد أن نرسو وسط الألغام العائمة». ومع ذلك، غادرت السفينة وهي في حالة معنوية جيدة، وكتبت بيتًا فكاهيًا من الشعر في سجل القبطان: «وهكذا عبرنا بسرور من فوق الموجة / ولم نواجه أي لغم يجعلنا نشعر بالخطر».

استمتعت لورا بالاهتمام الذي اجتذبته روح المغامرة لديها عند الأجانب الآخرين. واختلطت بين ركاب الدرجة الأولى على متن قارب يعبر المحيط الهادئ لقضاء عطلة في كندا، والتقت بالمسؤولين الروس واليابانيين المتجهين إلى الولايات المتحدة لمناقشة قضايا السلام مع الرئيس ثيودور روزفلت وتحدثت معهم حول «مسألة الحرب». لقد استمتعت بحقيقة كيف أن الركاب الآخرين «يعتقدون أننا أناس مدهشون كوننا أتينا من أرض بعيدة مثل الصين وأنهم يريدون أن يعرفوا كل شيء عن حياتنا هناك».

أثناء قيادتها لعربة يجرها حصان في أحد شوارع شانغهاي عام 1905، رأت لورا التكلفة الرهيبة للحرب الروسية اليابانية، التي امتدت إلى المياه الساحلية للصين: كان الجنود المصابون يرقدون على الشاطئ، «وكانت هناك صفوف من النقالات، 2 أو 3 على التوالي، تمتد على طول ميل واحد، وكان فيها جنود مساكين من الجرحى الروس، وأجسادهم مغطاة بالملاءات لكن وجوههم التي تعاني سكرات الموت كانت بمواجهة أشعة الشمس الحارقة: لقد كان مشهدًا مؤلمًا حقًا».

بعد سنوات من زواجه من لورا وتأسيسه لحياة في الصين، بات إيلي غنيًا بما يكفي للاستقرار والتوقف عن رحلاته التي لا تنتهي. كانت شانغهاي مكانًا جيدًا لكسب المال، ولكن لم يكن هناك مكان لتكوين أسرة. نقل إيلي لورا

وولديهما إلى لندن. واشتروا منزلاً بالقرب من عائلة لورا وسجلوا الأولاد في مدرسة إعدادية للغة الإنكليزية. بدأ إيلي في البحث عن منزل ريفي.

لم تدم إقامتهم في لندن طويلاً. فما كاد إيلي ولورا يستقران في منزلهما الجديد في لندن حتى تلقى إيلي خطابًا يفيد بأن مديرًا في شركته في هونغ كونغ كان يضارب بأموال الشركة ويسرق بعضًا منها. كانت شركته تواجه «خسائر فادحة». فعاد إلى هونغ كونغ لاسترداد ما يستطيع استرداده.

اتضح أن المشكلة كانت أسوأ من وجود موظف واحد غير أمين. قام إيلي بتوسيع استثماراته لتشمل صناعة جديدة ذات إمكانات هائلة -المطاط- وبدأ في شراء الأسهم في شركات المطاط في ماليزيا وأماكن أخرى في جنوب شرق آسيا. كانت الصناعة مزدهرة بفضل صناعة السيارات السريعة النمو في أوروبا والولايات المتحدة، والتي تتطلب استخدام المطاط لتصنيع الإطارات. عندما بدأ هنري فورد الإنتاج الضخم لسياراته من طراز تي (Model T) في عام 1908، زاد الاهتمام بمادة المطاط، حيث ارتفع الطلب عليها بنسبة 20 في المائة إلى 30 في المائة في الأسبوع.

لسوء الحظ، كان الارتفاع الكبير في أسعار أسهم شركات المطاط بمنزلة «فقاعة» كلاسيكية تفوق فيها أسعار الأسهم بكثير واقع الأعمال. عندما تباطأ الطلب الأمريكي على المطاط، انهار السوق. كان إيلي يقترض الأموال من أحد أكبر البنوك في هونغ كونغ، وهو تشارترد بنك، لشراء أسهم في شركات المطاط الماليزية، باستخدام الأسهم كضمان. مع انخفاض أسعار الأسهم، طالبه البنك بالسداد الفوري لقروضه، المعروفة باسم «السحب على المكشوف». وعند العودة إلى هونغ كونغ للتعامل مع المشكلة، التقى إيلي بمالكي المصرف للتفاوض، لكنهم كانوا مصرّين على استعادة أموالهم الآن.

توجه إيلي إلى حديقة صغيرة أمام البنك في وسط مدينة هونغ كونغ وارتمى على أحد مقاعدها مطرقاً برأسه إلى الأرض.

عندها جاء رجل بريطاني بشارب ويرتدي سترة وربطة عنق وربت على ظهره. كان إيلي معروفًا في جميع أنحاء المدينة. «إيه.. أيها الشاب خضوري، لماذا تبدو بائسًا جدًا؟» كان ذلك الرجل هو توماس جاكسون،

رئيس بنك هونغ كونغ وشنغهاي، المدعوم من قبل آل ساسون، وكان بالفعل البنك الأول في آسيا.

أجاب خضوري: «حسنًا، كما تعلم، إذا كانت جميع أموالك مستثمرة في شركات المطاط، وانهارت أسعار أسهمها، وطلب المصرفي الذي تتعامل معه من خلال السحب على المكشوف، أن تسدد له ديونه فمن الطبيعي أن تبدو بائسًا».

«ألم تسمع بوجود بنك آخر؟» سأله جاكسون. ثم دعاه لمقابلته في مكتبه.

في غضون أيام قليلة، حصل إيلي على قروض جديدة من بنك هونغ كونغ وشنغهاي وأصبح قادرًا على الوفاء بالديون مرة أخرى. كان لدى جاكسون عرض آخر له أيضًا. فقد اقترضت أكثر من 300 شركة مطاط في ماليزيا أموالاً من البنك وهي الآن تتأرجح على حافة الإفلاس مع انخفاض سعر المطاط. فاستفسر منه فيما إذا كان يفكر بدعم من البنك وقيامه بالضغط على الشركات، في العمل على دمجها في عدد قليل من الشركات الكبرى، مما يقلل النفقات والموظفين؟ وفي الواقع، كان إيلي يفكر بذلك.

تبين أن الاستثمار في المطاط لم يشكل نقطة تحول مالية لإيلي فقط بل كان نقطة تحول شخصية أيضًا. فحتى ذلك الحين، كان إيلي يركز في استثماراته على مستقبل الصين وتحديثها. لكنه الآن تعلم أيضًا أنه يمكنه الاستفادة من الأزمات، والمخاطرة ببعض أمواله الخاصة مقابل الحصول على ربح أكبر بكثير. تطلب ذلك نوعًا معينًا من الصبر والمثابرة في العمل -القيام بالاستثمار في الوقت الذي كان الجميع- يريدون أن يفلتوا بريشهم. تعلم إيلي شيئًا عن نفسه: فهو عندما يؤمن بخطة معينة ويثق بحدسه، يمكنه القيام بمخاطرة كبيرة وجعلها تؤتي ثمارها.

في غضون أشهر قليلة، تحول إيلي خضوري من وسيط في البورصة إلى ممول، وقام بتصفية عدد من الشركات بدعم من بنك هونغ كونغ وشنغهاي، وإنشاء شركات جديدة، والاستثمار في أكثر الشركات الواعدة. كان يعمل من شانغهاي وهونغ كونغ، ويضمن القروض ويوفر الرهونات العقارية لإنقاذ العديد من شركات المطاط من الإفلاس. بعض هذه الشركات كان يديرها

رجال أعمال بريطانيون أثرياء، وقد وجدوا أنفسهم فجأة يتلقون أوامر من هذا المهاجر من بغداد. مع انتعاش سعر المطاط بحلول عام 1912، ارتفعت أسعار الأسهم. أصبح إيلي مليونيرًا مرة أخرى. بالعودة إلى لندن، أخبر إيلي زوجته لورا أن مستقبل شركته يكمن بشكل متزايد في شانغهاي. بعد عام من اعتقادها أنها غادرت الصين إلى الأبد، عادت إليها لورا تاركة الصبيين -لورانس وهوراس- في مدرسة داخلية بريطانية.

تبين أن أزمة المطاط التي جعلت إيلي مليونيراً كانت واحدة من الشرارات التي أشعلت ثورة 1911 في الصين والتي أطاحت بالإمبراطور. فمنذ أن غزا البريطانيون الصين في حرب الأفيون الأولى، كان البلاط الإمبراطوري في بكين يتحين الفرص للرد. فالضم البريطاني الفعلي لجزء من شانغهاي وفتحها عددًا من الموانئ الأخرى أدى إلى قيام بلدان أخرى بمحاولات لغزو الصين وفقدانها لبعض أراضيها. بعد أربعة عشر عامًا، غزتها بريطانيا مرة أخرى وأجبرت الصين على التنازل عن كولون، شبه الجزيرة التي تمثل الجزء الجنوبي من مساحة اليابسة التابع لإقليم هونغ كونغ، مما منح بريطانيا السيطرة على أحد أكبر الموانئ الطبيعية في العالم. وطالبت الولايات المتحدة، التي كانت تشعر بالغيرة من الامتيازات التي انتزعتها بريطانيا من الإمبراطورية الصينية، بحقوق تجارية تفضيلية مماثلة لمساعدة التجار الذين يبحرون من نيو إنغلاند إلى شانغهاي وساحل الصين. تبعها في ذلك الفرنسيون والألمان واليابانيون مستخدمين زوارقهم الحربية وجنودهم. صعد المتمردون الصينيون الذين أثارهم نجاح الغزاة الأجانب وشعورهم بضعف الإمبراطور، من سقف تحدياتهم الخاصة. في عام 1850، هز تمرد تايبينغ الصين. فقد كان الأباطرة المحافظون وبلاطهم يحبطون بشكل متكرر جهود إصلاح الحكومة الصينية واللحاق بالغرب.

بدأ الإصلاحيون الصينيون يعتقدون أن المشكلة لا تكمن فقط في غزوات الدول الاستعمارية ولكن في عدم قدرة الإمبراطور والحكم الإمبراطوري الصيني على الرد عليها بفعالية.

بمجرد أن اكتشف العرق الأوروبي حالة أوضاعنا الداخلية، قام بتحشيد قواه الاستعمارية «الوطنية، مثلما تتجمع أسراب من النمل على شيء متسخ

وكريه الرائحة أو مثلما يتركز عدد لا يحصى من السهام على الهدف»، بهذه الكلمات وصف ليانج تشيتشاو تشاي، أحد كبار المفكرين الصينيين الوضع آنذاك، داعيًا إلى تبني إصلاحات واسعة للسماح للصين بدخول عصر التحديث وطرد الأجانب. فيما ذهب صن يات صن إلى أبعد من ذلك. تدرب صن كطبيب وتلقى تعليمه في الخارج بشكل جزئي، وأصبح محبطًا بشكل متزايد بسبب رفض الإمبراطور ومستشاريه استخدام المعرفة من بلدان الغرب المتقدم تقنيًا. ودعا إلى الإطاحة بالإمبراطور وتنصيب حكومة جمهورية ديمقراطية وطرد المستعمرين الأوروبيين واليابانيين.

اجتذب صن دعم العديد من الأثرياء الصينيين، بمن في ذلك شريك إيلي التجاري روبرت هوتونغ. فقد استفاد هوتونغ بشكل كبير من العمل مع الأجانب. وقد بدأ العمل في شركة جاردين وكانت له علاقة عمل مربحة مع إيلي. لكنه كان يعتز أيضًا بهويته كصيني، وكان يرتدي عادةً ثوبًا حريريًا صينيًا تقليديًا في الأماكن العامة، وكان يعتقد أن المعاهدات التي فرضها البريطانيون بعد حروب الأفيون كانت غير عادلة. كان ثريًا ويعيش حياة مريحة وقوميًا ومعاديًا للاستعمار.

وقع العديد من البنوك الصينية والمستثمرين الصينيين الصغار في فقاعة المطاط. ومع هبوط أسعار المطاط، بدأت موجة تلو الأخرى من البنوك الصينية تعلن الإفلاس، الأمر الذي أثار حفيظة صغار المودعين وبدأوا يقلقون على أموالهم. وانهارت نصف البنوك الصينية في شانغهاي. عندما تم اكتشاف أن المسؤولين الصينيين المحليين قد استخدموا الأموال الحكومية للمضاربة في مادة المطاط -وخسروا الملايين- سيطر الإمبراطور على شبكة السكك الحديدية المتنامية في الصين وأعلن عن خطط لبيعها للأجانب لجمع الأموال. لم تثر هذه الخطوة غضب الوطنيين الصينيين فحسب، بل أغضبت الحكومات المحلية ورجال الأعمال الصينيين الذين كانوا يديرون نظام السكك الحديدية المتنامي والمربح. واندلعت أعمال شغب أدت بالإمبراطور إلى دعوة الجيش لقمع الاحتجاجات. في العاشر من أكتوبر 1911، نظمت الجماعات الثورية انتفاضة في ووشيانغ في مقاطعة هوبي، مما أشعل سلسلة من الثورات وأدى إلى انهيار أسرة تشينغ وتأسيس

جمهورية الصين. بعد العديد من المحاولات الفاشلة، نجح الثوار. وعاد صن يات صن، الذي كان يقوم بجمع الأموال وإنشاء التنظيمات في الخارج عندما اندلعت الثورة إلى الصين، وعين أول رئيس لجمهورية الصين.

سخر العديد من رجال الأعمال البريطانيين في شانغهاي من الثورة حين كانوا يجلسون في مقاعدهم في نوادي شانغهاي. ثم رحبوا بسقوط الإمبراطور ودولة الصين الضعيفة، وعلى مدى السنوات القليلة التالية شكلوا تحالفات مع أي من أمراء الحرب أو العسكريين الصينيين الذين يمكنهم الاستفادة منهم في أعمالهم التجارية بعد انهيار الحكم المركزي في الصين. كان إيلي أكثرهم تعاطفًا مع تلك الأحداث. كان جزءًا من المؤسسة البريطانية وبعيدًا عنها في نفس الوقت. كان العديد من شركائه في العمل، مثل هوتونغ، من الصينيين الذين دعموا الثورة. لقد كشفت له رحلاته مع لورا التي جابا بها مختلف أنحاء الصين نطاق المشاكل التي تعاني منها الصين وتسببت في عدم رضاه عن الحكومة الإمبراطورية. لا أحد يستطيع أن ينكر أن الصين كانت في وضع يائس. في عام 1912، عندما زار صن يات صن المنتصر شانغهاي وحظي باستقبال في قصر أحد كبار المديرين التنفيذيين في شركات ساسون، انتبه إيلي إلى الأمر. لقد أثار هذا الزعيم الجديد للصين اهتمامه.

كان جزء من تعاطف إيلي مع الصينيين وغضبهم من الاحتلال الأجنبي نابعاً من وضعه الخاص. فعلى عكس ديفيد ساسون، الذي أصبح مواطنًا بريطانيًا في عام 1853، وأبناء ساسون، الذين حازوا على ألقاب الفروسية في لندن وكانوا يتناولون الطعام مع أمير ويلز، كان إيلي عشية الحرب العالمية الأولى رجلاً بلا وطن. بموجب معاهدات مختلفة، كان مواطنو بغداد الذين يعيشون في الصين يعتبرون مواطنين فرنسيين ويهتم بهم الفرنسيون. استمر إيلي في محاولاته في تقديم طلب للحصول على الجنسية البريطانية، مستفيداً من كون زوجته بريطانية، وأن أطفاله يدرسون في المدارس الداخلية البريطانية، ونجاحه في مجال الأعمال، وإتقانه اللغة الإنكليزية. وفي كل مرة كان يتم رفض طلبه. كتب نائب القنصل البريطاني في هونغ كونغ إلى وزارة الخارجية: «يجب رفض الطلب، لأنه إذا تم منحه الجنسية، ففي هذه الحالة، سوف يتبعه عدد لا يحصى من الآخرين».

زادت الحرب العالمية الأولى من إحساس إيلي بالضعف. بسبب أن الإمبراطورية العثمانية في تركيا التي كانت تحكم بغداد، تحالفت مع ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. عشية الحرب، أبحرت لورا وإيلي عبر المحيط الهادئ إلى كندا، حيث التقيا بابنيهما المراهقين، اللذين أبحرا عبر المحيط الأطلسي من لندن لقضاء عطلة الصيف. لقد خططوا للعودة إلى إنكلترا بعد الإجازة. عندما اندلعت الحرب في أغسطس 1914، لم يتمكن آل خضوري من الاستمرار فيما خططوا له في إنكلترا – سواء بسبب مخاطر الحرب أو عدم اتضاح مسألة حصولهم على الجنسية. كان على عائلة خضوري الإسراع لاقتراض المال من الأصدقاء وحجز تذكرة العودة إلى شانغهاي، حيث سجلوا الأولاد في مدرسة محلية تدرس باللغة الإنكليزية. كتبت لورا في يومياتها: «لم أشعر في حياتي قط بمثل هذا القلق الشديد بشأن فحص جوازات السفر». «وجد العديد من أصدقائي أن الوضع لا يطاق وعادوا دون استكمال رحلاتهم المقترحة. فكان يقابل المسؤولون أحدهم على متن القطار ومرة أخرى عند وصولهم إلى المحطة والفندق، ويطرحون العديد من الأسئلة غير الضرورية تمامًا ويسعدون بإطالة أمد المعاناة».

وتروي لورا حكاية المواجهة التي حدثت لشاب وعائلته مع المسؤولين البريطانيين عندما اكتشفوا أنه مثل إيلي ولد في بغداد. «بعد الأسئلة المعتادة عن عمره والخ ، سألوه : ما هي جنسيتك؟

أجاب: «فرنسي».

«أين ولدت؟»

«في بغداد»

«أين تعيش؟»

«في فرنسا»

«أوه، فهمت أنت تعيش في بغداد التي تقع في مكان ما في فرنسا».

حينها أصدرت الحكومة الاستعمارية البريطانية في هونغ كونغ لائحة تنظيمية منعت المقيمين غير البريطانيين من الانضمام إلى مجالس إدارات الشركات البريطانية الكبرى في الصين وهونغ كونغ. كان إيلي يستخدم

الأموال التي يجنيها من التجارة بالمطاط لشراء أسهم في شركات كانت تراهن على مستقبل شانغهاي: مثل شركات الغاز، وشركات تطوير الأراضي. كانت هذه الشركات جذابة لأن أصحابها لديهم علاقات عميقة مع المؤسسة البريطانية ومجلس بلدية شانغهاي، الذي يدير الشؤون اليومية للمدينة بموجب اتفاقية التسوية الدولية. ضمنت اللوائح الجديدة أن تظل شركات هونغ كونغ وشنغهاي ناديًا للنبلاء البريطانيين. وعلى الرغم من نمو استثماراته، مُنع إيلي من الانضمام إلى مجالس إدارة الشركات حيث يتم اتخاذ القرارات.

تزوج إيلي من امرأة مفعمة بالحيوية وواثقة من نفسها. تأثرت لورا بشدة بفكرة منح النساء حق الاقتراع وحركات تحرر المرأة الجديدة التي بدأت في الظهور على شواطئ شانغهاي. وصفتها الصحف المحلية بأنها أكثر امرأة أجنبية «تدعو إلى حرية المرأة» في المدينة.

عندما أصبحت السيارات متوفرة في الصين، أصبحت لورا واحدة من أوائل النساء في الصين اللائي قمن بقيادة سيارة، فكانت تقودها على طول شارع نانجينغ وهو الشارع التجاري الرئيسي في شانغهاي. كما فازت «ببطولة الرماية بالمسدس للسيدات». مدفوعة جزئيًا بسعي إيلي للحصول على الجنسية البريطانية، وأيضًا من خلال الرغبة في المساعدة في تخفيف الفقر والمعاناة التي شهدتها في جميع أنحاء الصين، وسعت لورا عملها الخيري. فزارت دور الأيتام والمدارس الصينية وجمعت الأموال للصليب الأحمر في شانغهاي، مما حث النساء البريطانيات الأخريات على فعل الشيء نفسه. قامت بتنظيم الفعاليات الخيرية والبازارات، وهو ما كان يحدث لأول مرة في شانغهاي. وكتبت إحدى الصحف المحلية في شانغهاي: «لقد كانت تستمتع بالعمل من الصباح حتى الليل وبتكريس طاقاتها وقدراتها ووسائلها لقضية الفقراء والمحتاجين». بدأ أحد الأصدقاء اليهود لعائلة خضوري بالتبرع بالمال لضحايا الفيضانات الصينيين الذين اصطفوا أمام قصره. بالنسبة لوجهة النظر الغربية، خاصة بعد مائة عام، قد يكون مثل هذا السلوك صفعة لأسوأ أنواع مقتضيات النبالة. لكن بالنسبة للصين فإن مثل هذه الأعمال الخيرية كانت جديدة. قدم التجار الصينيون المال لدعم

عشائرهم أو قراهم عندما كانت الأوقات صعبة. لم يعطوا المال لأشخاص لا يعرفونهم. بدأ الأثرياء الصينيون في مراقبة جهود عائلة خضوري وسرعان ما بدأوا جهودًا مماثلة، في كثير من الأحيان في شراكة مع الغربيين.

بدأت لورا أيضًا في الضغط من أجل منح المزيد من الفرص للنساء. ضغطت على الأندية البريطانية التي يقتصر دخولها على الذكور لفتح أبوابها للنساء، على الأقل في أوقات معينة. نظرت باستياء إلى كيفية معاملة النساء في جميع أنحاء آسيا، وذكرت في مذكراتها كيف رأت في رحلة إلى كوريا جرسًا كبيرًا «اعتاد أن يقرع في الساعة 9 مساءً لإبلاغ الرجال أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل والسماح بخروج النساء، وهو ما لا يسعهن فعله إلا بعد حلول الظلام». في كثير من المجتمعات، «لم يكن من المفترض قط أن يرى النساء أي رجل سوى أزواجهن، وحتى هذا الأخير كان ينظر لهن بازدراء». اعتقدت لورا أن تعليم الفتيات يمكن أن ينهي هذا الأمر ويضمن أن النساء في الصين وفي أي مكان آخر لن «يعزلن ويصبحن سجينات».

كان هوراس ولورانس يستعدان لإكمال تعليمهما الجامعي في إنكلترا. كان إيلي صارمًا، لكن لورا أشرفت على شؤون الأسرة. أراد لورانس أن ينضم إلى جمعية معالي لنكولن[1] ويصبح محامياً في إنكلترا. فكر هوراس في دخول كلية الزراعة وأن يصبح مزارعًا نبيلًا، ربما في كندا، حيث كانت العائلة تستمتع بإجازاتها. كتبت لورا في يومياتها: «ستندهش إذا كان بإمكانك رؤية أولادنا الآن». «إنه لأمر رائع كيف يتفوق الأولاد على آبائهم بسرعة». في خريف عام 1918، أمضت الأسرة ستة أسابيع في اليابان، كان أفرادها يمارسون رياضة المشي لمسافات طويلة وصيد الأسماك. أمضت لورا «ساعات سعيدة كثيرة في الرسم». كتبت بتفاؤل عن الرحلات القادمة، بمساعدة الابتكارات الجديدة مثل السفر بالطائرة، «عندما يسافر الجميع في طائرات، والمسافات التي تبدو كبيرة جدًا يمكن تجاوزها في غضون أيام قليلة».

1- جمعية شرفية لنقابة المحامين وإحدى الجمعيات المهنية المرموقة في العالم للمحامين-م

في الرحلات المكوكية من لندن إلى هونغ كونغ إلى شانغهاي والعودة مرة أخرى، غالبًا ما اشتكت لورا إلى إيلي من عدم امتلاكهم «منزلًا ثابتاً». اشترى إيلي قصرًا في الشارع الأكثر أناقة في شانغهاي وهو شارع نانجينغ لاحظت لورا بروح الدعابة التي جبلت عليها، أنه يحتوي على بئر بها ماء متسخ بشكل رهيب مع بضع فقاعات تتراقص فوقه».

بعد ستة أسابيع من عودة الأسرة إلى شانغهاي بعد قضاء العطلة في اليابان، اندلع حريق في القصر الواقع في شارع نانجينغ حين كان الجميع نيامًا. انتشرت النار بسرعة، واختنق الدرج الرئيسي بالدخان. خرج إيلي من غرفة نومه في الطابق الأول وعبر القاعة إلى غرفة نوم لورا وأيقظ زوجته. ثم ذهب لإيقاظِ الأولاد. كان الخدم قد أيقظوهم بالفعل وهربوا. مع اشتداد الدخان، اندفع إيلي للخارج وتجمعت الأسرة عند الشرفة الأرضية بعيدًا عن النيران. أدركت لورا أن مربية العائلة غير موجودة وهرعت إلى المنزل للبحث عنها. حين وصلت فرقة الإطفاء، وجدوا لورا منهارة عند خزانة الملابس، كانت مختنقة من الدخان. كانت المربية قد هربت بالفعل.

حضر المئات جنازة لورا في اليوم التالي، وأقيم حفل تأبين لها في المدينة بعد ذلك بأسبوع حضره العشرات أيضاً. كتب أحد المعجبين بها (إن فضائلها هي الأكثر ندرة ولا تقدر بثمن كونها ظهرت في عصر اللهاث وراء الماديات، حيث استحوذ السعي وراء الثروة على غالبية الرجال والنساء، إلى حد جعلهم يكادون يتسببون في موت أرواحهم.) اصطحب إيلي أطفاله وتوجهوا إلى إنكلترا. ودفنت لورا في مقبرة في شانغهاي.

لكنهم لن يبقوا بعيدين عنها لفترة طويلة.

القسم الثاني

ملوك شانغهاي

الفصل الرابع

نهضة شانغهاي

سقطت الصين، ونهضت شانغهاي.

بعد أشهر قليلة من إعلانه رئيسًا لجمهورية الصين الجديدة، تمت الإطاحة بصن يات صن واستبداله بجنرال قوي هو يوان شيكاي. أعلن الجنرال نفسه إمبراطورًا في أواخر عام 1915، ثم تنازل عن العرش بعد بضعة أشهر، تاركًا فراغًا في السلطة أدى إلى فترة جديدة من سيطرة أمراء الحرب في الصين. حكم الجنرالات إقطاعياتهم التي انتشرت في مناطق مختلفة من البلاد بالقمع والإرهاب والقوة العسكرية. واصل البريطانيون والفرنسيون والأمريكيون والألمان واليبانيون إدارة مناطق نفوذهم، وبسطوا سيطرتهم على كل مدينة رئيسية في الصين تقريبًا باستثناء بكين. تخيل أنه على الرغم من الاستقلال الاسمي المبكر لأمريكا كان البريطانيون لا يزالون يحتلون نيويورك وبوسطن وأتلانتا بينما كانت هناك حكومة أمريكية محاصرة في واشنطن العاصمة، واستمروا في خسارة المعارك ضد الأمريكيين الأصليين في الغرب والانفصاليين في الجنوب. على النقيض من ذلك، تمتعت شانغهاي بما كانت تفتقر إليه معظم الصين: حكومة مستقرة يمكنها حماية مواطنيها. تم عقد اتفاقية التسوية الدولية في عام 1863، عندما انضمت الامتيازات الأمريكية -التي تشمل الأرض المواجهة لنهر هوانغبو المتاخم للأراضي التي تسيطر عليها بريطانيا- إلى المستوطنة البريطانية. ترأس هذا الجيب الاستعماري الذي بدأت تتسع أهميته بشكل متزايد لجنة مكونة من سبعة أعضاء من الممولين والصناعيين البريطانيين البارزين الذين انتخبهم

مجتمع الأعمال البريطاني في شانغهاي - مجلس بلدية شانغهاي. (ظل الامتياز الفرنسي مستقلاً وكانت تحكمه مجموعة مماثلة من رجال الأعمال الأجانب). أشرف مجلس بلدية شانغهاي على بناء الطرق وجمع القمامة ودفع الضرائب. وقام بتنظيم عمل موردي الغاز وعربات الترام والريكشو[1] وبيوت الدعارة. كما أشرف على عمل الشرطة. تم تصميم جميع سياسات اتفاقية التسوية الدولية من قبل قادة الأعمال في شانغهاي لخلق جو من الاستقرار والازدهار، وتناقص التدخل الحكومي وهو الأمر الذي يتوق إليه الرأسماليون الأجانب. كانوا ممثلو شركات آل ساسون، بالطبع، أعضاء دائمين في المجلس. أصبحت شانغهاي، على حد تعبير أحد المؤرخين، «جمهورية التجار». توافد المستثمرون الأجانب على المدينة، وقد أغرتهم وسائل الراحة الحديثة، والضرائب المنخفضة، وعدم وجود المحسوبية. بالنسبة لرجال الأعمال والممولين الأجانب الطموحين، لم تعد تفوح من شانغهاي رائحة الصرف الصحي وطهي الطعام والبخور بل باتت تفوح منها رائحة المال.

كانت الحياة اليومية أكثر إمتاعًا بكثير مما كانت تذكره لورا في يومياتها. فما عادت توجد، على الأقل حيث يعيش الأجانب، رائحة المرض والقذارة، والأشخاص المشاغبين، والشعور بأنهم على تخوم إمبراطورية كبرى. باتت الشوارع تزدان بمباني البنوك والمكاتب التجارية والمباني الرسمية. أما الافتقار إلى نظام الصرف الصحي الذي أثار فزع المستوطنين الأجانب الأوائل، ومشهد الصينيين وهم يسحبون الناس في عربات يد كما لو كانوا حمولات من الطوب، ونقص الأضواء المناسبة والمياه الجارية - كل هذه الأشياء تم استبدالها بتكنولوجيا جديدة. فالشوارع التي يعيش فيها الأجانب باتت تسير فيها الآن عربات ترام، وإضاءة بمصابيح الغاز، ومياه جارية. والفلل التي بناها الأثرياء الأجانب على طريق عند شارع نانجينغ باتت تمتد إلى ما وراء مضمار السباق الشهير. وتسببت المزايا التي حصل عليها الأجانب في خلق مصاعب للصين. ارتفع عدد النساء الغربيات في

1- عربة ركاب بعجلتين أو ثلاث عجلات-م

شانغهاي -اللائي يرافقن أزواجهن- من سبع نساء فقط في عام 1850 إلى أكثر من ثلاثة آلاف بحلول عام 1895، وهو مؤشر على مدى تحسن الظروف المعيشية. صدر حينها كتاب ترجم إلى الصينية العبارات الشائعة التي يحتاجها الأجانب الوافدون حديثًا ليسهل عليهم التعامل مع الخدم الصينيين مثل :: «Nung hiau tuh Ying koh kuh sau feh va?» (هل يمكنك الطهي وفقًا للطريقة الإنكليزية؟) «Hiniung tan long kuh bung zung tan t'seh chepah» (أخرجي السجادة ونظفيها من الغبار في الخارج) «Pau seau non t'seh chepeh seang seang.» (خذي الطفل للنزهة)

ويتذكر رجل أعمال بريطاني شاب تلك الفترة بالقول (كان على المرء أن يصرخ... وحينها سيصله كل شيء). «أولاً، ناقل الماء لكي يملأ حوض الاستحمام اليومي، ثم الصبي الثاني حاملاً طبق الإفطار المؤلف من شريحة اللحم والبيض (كلاهما رخيص جدًا إلى حد لا يستطيع المرء تحمل عدم تناول الطعام منهما)، ثم بنفس الصيحة عليك أن تنادي... الحمال الذي سيأخذك إلى المكتب لمزاولة عملك اليومي».

يتذكر أحد جيران آل خضوري في شارع نجيانغ قائلاً: «أتذكر أنني لم أستحم بمفردي حتى بلغت الثانية عشرة من عمري». كانت الخادمة هي التي تحضره لي دائمًا. لم أكن أعرف كيف أسكب الماء على جسمي. كانت عندي مربية هي أقرب إليّ من والدتي».

لم يقتصر النمو والتحديث على الأحياء الأجنبية والعائلات الأوروبية التي عاشت هناك. فقد كان تأثيرها يمتد إلى الخارج. منذ حروب الأفيون، كافحت أفضل العقول في الصين من أجل الرد على الغرب الأكثر تقدمًا من الناحية التكنولوجية والأفضل تسليحًا. بالنسبة للعديد من رواد الأعمال الصينيين، باتت شانغهاي تقدم لهم الآن الإجابة: التعلم من رجال الأعمال الأجانب، والاستفادة من حدود المدينة المفتوحة والمنافسة الأجنبية. بالنسبة لبعض الصينيين، كانت شانغهاي تمثل تذكيرًا يوميًا بالهزائم العسكرية التي لحقت بالصين والإذلال الذي تعرضت له. فيما كانت تمثل لآخرين، منارة تضيء لهم المستقبل».

بحلول العشرينيات من القرن الماضي، كان يعيش حوالي 40.000 أجنبي في مستوطنة شانغهاي الدولية التي يديرها البريطانيون. إلى جانب مليون صيني، بالإضافة إلى مليوني صيني آخرين كانوا يعيشون في الأجزاء التي تسيطر عليها الصين من المدينة. فرض البريطانيون قيودًا اجتماعية على جميع السكان الصينيين. لا يمكنهم دخول النوادي البريطانية أو المشي في حدائق معينة. لكن يمكنهم المشي أو قيادة سياراتهم عبر المستوطنة الدولية دون قيود، والتسوق من المتاجر، والعمل في المكاتب والمصانع. بدأ الأشخاص الطموحون من الصينيين يتدفقون على شانغهاي مصممين على العمل من أجل الشركات الأجنبية المصطفة في منطقة البوند. لقد كان الوافدون الجدد يتصرفون مثل المهاجرين في بلادهم - يعملون بجد، ويتمتعون بروح المبادرة، ويكتظون في الأحياء الفقيرة، ويبحثون عن عمل مع الأغنياء الأجانب أو مع الشركات الصينية الجديدة المصابة بعدوى الطاقة المبتكرة التي غزت المدينة. فأسسوا شركات لتجارة القطن، والمطاط والتبغ والحديد والدقيق والسجائر وتصنيع الأغذية. بين نهاية القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن الماضي، بات أكثر من نصف المصانع الجديدة في الصين -يدار من قبل رجال الأعمال الصينيين- في شانغهاي. ازدهرت صناعة السينما المحلية. وظهرت في اللوحات الإعلانية على جدران المباني في جميع أنحاء المدينة نساء صينيات يرتدين ملابس غربية يدخن السجائر الغربية وتحيط بهن أنواع السلع الكمالية الغربية.

كما سمح البريطانيون بمساحة أكبر للمعارضة ولحرية الصحف الصينية في منطقة التسوية الدولية أكثر من الذي سمحت به السلطات الصينية في بقية أنحاء الصين. ونتيجة لذلك، أصبحت هذه المنطقة ملاذاً للراديكاليين السياسيين، بمن فيهم الشيوعيون الذين أرادوا الإطاحة بالرأسماليين وطرد الأجانب من الصين. عاش كل من ماو تسي تونغ وتشوان لاي، وهما زعيمان للثورة الشيوعية الصينية التي ستنتصر في عام 1949، في منطقة التسوية الدولية أو منطقة الامتياز الفرنسي القريبة في عشرينيات القرن الماضي، وقاما بنشر الدعاية لأفكارهما الثورية وعقد اجتماعات غايتها إثارة الثورة. كانت تصدر في الصين في ذلك الوقت أكثر من 1000 صحيفة يومية

وأسبوعية وشهرية باللغة الصينية، وصدر العديد منها في شانغهاي. كان عمال المصانع متحمسين للسياسة. يتذكر أحد العمال في مصنع للقطن: «كان تقريبًا كل شخص في المصنع يقرأ الصحف». كانت إحدى النساء غير المتعلمات تشتري يوميًا صحيفة وتطلب من ابنها قراءتها لها حتى تتمكن من «فهم المجتمع والوضع السياسي الحالي». حتى سائقو عربات الريكشو كانوا مواكبين للأخبار، وكان حوالي نصفهم يقرأون الصحف.

في المرة الأولى التي زار فيها شانغهاي في عشرينيات القرن الماضي، صُدم الجنرال الأمريكي جوزيف ستيلويل، الذي سيلعب دورًا محوريًا في تشكيل وجهات نظر أمريكا بشأن الصين وعلاقاتها معها خلال الحرب العالمية الثانية، من حداثة المدينة. بدلاً من الطراز الشرقي من المعابد الخشبية والمعابد ذات الأسقف المنحدرة بلطف، رأى ستيلويل الفنادق والبنوك الحديثة والشوارع الواسعة والمتنزهات في مدينة على الطراز الغربي. وحين كان ينظر من نافذة فندقه، كان يتصور أن شانغهاي تبدو مثل فيلادلفيا.

ثم نزل إلى الشوارع. فبعد مغادرته الفندق، انغمس في الأزقة الضيقة المليئة بـ«الصخب والحشود والروائح والضجيج المتواصل لأصوات مختلفة، ورجال الأعمال الذين يبيعون ويساومون، ويطلقون اللعنات والإنذارات وينادون على بضاعتهم بالصراخ، والهتافات، ورنين الأجراس أو طقطقة العصي على كتل من الخشب». وقد أشار في مذكراته إلى إعجابه بطاقة الصينيين: «إذا ما سارت الأمور بالاتجاه الصحيح، سيهيمن على البلاد 400 مليون شخص من خلال قدرتهم على العمل والتصنيع، ومن الأفضل أن نكون معهم».

وفي وقت لاحق سيذكر نجل إيلي، لورانس خضوري أنه «لم ولن تكون هناك مدينة أخرى أبدًا تشبه شانغهاي في سنوات ما بين الحربين». «فقد كانت مدينة شديدة التناقضات، تجمع بين سمات الشرق والغرب. وكانت باريس الشرق... وجنة للمغامرين. وفيها واصلت أنا وأخي تعليمنا - فالآفاق الدولية لشنغهاي كانت توسع نطاق تعليمنا وتعطينا فهمًا لما يعنيه أن نصبح مواطنين عالميين».

بالنسبة لثري يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا وسليل أسرة مشهورة بنجاحاتها في مجال الأعمال، كانت المدينة بمنزلة الجنة. يتذكر لورانس تلك الفترة: «كان الشتاء باردًا، مما يجعل المرء يشعر بالحيوية والنشاط». «كانت شانغهاي مكانًا يمكن للمرء فيه الرقص طوال الليل، والذهاب لركوب الخيل في الساعة 6 صباحًا، والعمل طوال اليوم ومع ذلك لا يشعر بالتعب».

بدأ إيلي خضوري، حين كان في لندن وقد تملكته مشاعر اليأس ولم يفق بعد من صدمة موت لورا في التفكير فيما يجب أن يفعله. بدأ أمر العودة إلى شانغهاي يبدو كخيار جيد. كان لورانس، الذي بلغ العشرين من عمره، قد التحق بالفعل بجمعية معالي لنكولن Lincoln's Inn، وهي كلية الحقوق البارزة آنذاك في لندن. فيما كان هوراس، الأصغر منه بسنوات قليلة، يتحدث عن دراسة الهندسة المعمارية أو ربما كلية الزراعة ليصبح مزارعًا نبيلًا. كان إيلي رجلاً ثريًا وكان يحظى بدعم من عائلة زوجته، آل موكاتا الأثرياء وذوي العلاقات الاجتماعية. لكن آفاق إيلي في بريطانيا بدت محدودة. لم يكن يحمل الجنسية البريطانية. ونظر خصومه البريطانيون إليه بازدراء واستهزأوا بوفاة زوجته. في وصف الحريق الذي أودى بحياة لورا، كتب جيه كيه باترسون، المدير التنفيذي لشركة جاردين، لرؤسائه: «وسط تدافع الجميع، تم نسيان والدة العائلة، عندما انتهى كل شيء، تم العثور عليها مختنقة من الدخان وميتة مثل سمكة مدخنة في خزانة أوصدت أبوابها عليها». ذهب المدير التنفيذي إلى القول إن إيلي «لسوء الحظ... وجدت الباب!» سخر ويليام كيسويك، رئيس مكتب شركة جاردين في شانغهاي وأحد أقوى رجال المدينة، بشكل خاص من هيئة ومظهر آل خضوري «الذي يؤكد أنهم من نسل الساميين». وقد اشتكى في إحدى رسائله من أن آل خضوري (لا يتوقفون أبدًا عن حشر أنوفهم في كل شيء وطرح الأسئلة والاستفسارات» بشأن الصفقات التجارية. «يمكن للمرء أن يقول بصدق إن آل خضوري لديهم أنوف مناسبة جدًا ليحشروها في كل شيء».

على النقيض من ذلك، فإن الصينيين الذين تعامل معهم إيلي في

شانغهاي وهونغ كونغ لم يميزوا بين رجال الأعمال البريطانيين واليهود. لقد عاملوه باحترام. ولم يكن هناك تاريخ معاد للسامية في الصين يمكن أن يلاحظه إيلي. في سن الخامسة والخمسين، افتقر إيلي إلى القدرات التي تمكنه من اللعب في ساحة ملاك الأراضي الإنكليز. كان إيلي «كرة ملتهبة من الطاقة المرتدة»، كما وصفه أحد الموظفين. «رجل لا يحب الروتين، ويتصرف وفقًا لما يعتقده. كان كل ما يطلبه يجب أن ينفذ على الفور وكان لا يتوقف عن الطلب من العاملين تنفيذ مهام متعددة وكان مولعًا بأدائهم تلك المهمات على أتم وجه مهما بذلوا من جهود شاقة»، ومع رحيل لورا، «امرأة جميلة المظهر أيضًا». كانت الصحف البريطانية تورد تقارير يومية عن مجيء وذهاب العديد من أفراد عائلة ساسون إلى البلاط الملكي وهم يدخلون ويختلطون مع الملك والدائرة المحيطة به. شعر إيلي أنه، على الرغم من نجاحه، فإنه سيبقى إلى الأبد غريبًا في لندن، ويعيش في ظل آل ساسون الأغنى والأكثر نجاحًا.

وقد حسمت مأساة عائلية ثانية قراره. بعد عام من وفاة لورا، توفي إليس شقيق إيلي بنوبة قلبية في هونغ كونغ، تاركًا له حصة كبيرة في شبكة من الفنادق في هونغ كونغ وشنغهاي وبكين. جلس إيلي الآن متربعًا فوق إمبراطورية منتشرة عبر الصين وآسيا: فنادق فاخرة لأخيه الراحل؛ وشركة كهربائية في هونغ كونغ وجنوب الصين؛ وشركات للمطاط في ماليزيا؛ وتزايد في حيازات الأسهم في شانغهاي. تطلبت استثماراته المترامية الأطراف اهتمامًا ثابتًا منه. في المرة الأخيرة التي سافر فيها إلى إنكلترا –في عام 1910– ترك عمله في أيدي مديرين محليين. كانت عمليات الاختلاس والأزمة الاقتصادية قد تسببت في تراجع أعماله. كما أن ما حدث مع آل ساسون كان بمنزلة تحذير له أيضًا. خلال الحرب العالمية الأولى، اتهمت شركات ساسون في شانغهاي بالتجارة مع الأعداء الألمان، ملأت تفاصيل ذلك الحدث صفحات الجرائد. تمت تبرئة الشركات، لكن تلك الحادثة أظهرت كيف يمكن أن يؤدي عدم وجود رقابة قوية إلى تشويه سمعة العائلة.

قرر إيلي العودة إلى شانغهاي واصطحاب ابنيه معه. كان يعتمد على لورا في الماضي. والآن بات يعتمد على لورانس وهوراس. في عام 1924،

طلب لورانس إنهاء دراسته القانون في كلية لنكولن إن وطلب من هوراس أن يتخلى عن أحلامه في دراسة الهندسة المعمارية والزراعة. (في خطوة تمرد بسيطة، لم يسحب لورانس أوراقه رسميًا من لنكولن إن، لكنه أبقى على اتصاله بها نشطًا حتى الثمانينيات من عمره.) أعلنت عائلة خضوري عن عودتها إلى شانغهاي من خلال بناء أكبر قصر في المدينة. على غرار القصر الملكي في فرساي الذي يقع خارج باريس، حيث عقد الحلفاء للتو مؤتمر السلام الذي أنهى الحرب العالمية الأولى، كانت مساحة قاعة القصر تبلغ ضعف مساحة أي منزل موجود في شانغهاي وكان القصر يقع على مقربة من المنزل الأكثر تواضعًا لجاردين ويليام كيسويك، الذي غالبًا ما كان مديروه التنفيذيون يسخرون من إيلي وعائلته. امتدت الشرفة الأرضية على طول مقدمة قاعة القصر الرئيسية حيث بلغ طولها 220 قدمًا، فكانت لا توازيها في الطول شرفة أي مبنى سكني في المدينة. احتوى القصر على مجموعة من المرائب التي كانت تضم العديد من سيارات رولز رويس. كان طول القاعة من الداخل ثمانين قدمًا، وعرضها خمسين قدمًا، وارتفاعها 65 قدمًا، وفيها 3600 مصباح كهربائي تلمع في السقف. أحصى أحد الزوار وجود أكثر من أربعين أريكة في الصالة وغرف المعيشة والصالونات. وكان بإمكان غرفة الطعام أن تتسع لخمسين شخصًا. كانت هناك اثنتا عشرة غرفة نوم، على الرغم من أن ثلاثة أشخاص فقط كانوا يعيشون في المنزل -إيلي ولورانس وهوراس، يقوم على خدمتهم اثنان وأربعون خادمًا. كانوا يأكلون وجباتهم على طاولة صغيرة موضوعة في زاوية في غرفة الطعام الواسعة. في السنوات اللاحقة، ألقى ابنا إيلي باللوم في الإسراف في بناء القصر على مهندس معماري مدمن على الكحول، قالوا إنه بنى القاعة أثناء وجودهم في لندن ودون علمهم- وهو ادعاء يبدو غير قابل للتصديق. لم يمنع ذلك آل خضوري من ملء القاعة بالتحف الصينية والسجاد الفارسي، بل وحتى بوضع سقف كامل مستورد من معبد هندي.

أصبحت قاعة القصر المكان الأكثر شهرة في شانغهاي. وعلى عكس الحفلات التي كانت تقام في نادي شانغهاي البريطاني المزدحم وغيره من

أماكن تجمع البريطانيين التي كانت رصينة ووقورة، فإن تلك التي كانت تقام في قاعة القصر تأثرت بشدة بعصر موسيقى الجاز الذي كان يجتاح الولايات المتحدة وأوروبا. لم يربط القصر شانغهاي بلندن، ولكنه ربطها أيضًا باريس ونيويورك. استضافت عائلة خضوري الكابتن تشارلز ليندبيرغ[1] وأقامت حفلة على شرفه عندما كان يقوم برحلة حول العالم، ثم استقبلت كاثرين ستينسون[2] كأول امرأة تقود طائرة إلى شانغهاي من إنكلترا. وفي أحد الأيام هبطت مجموعة من الطيارين الأمريكيين الذين كانوا يحلقون حول العالم في القصر في الساعة الرابعة بعد الظهر. تم عمل فيلم عن ذلك الهبوط وعرض في قاعة الرقص في قاعة القصر الكبرى في الساعة التاسعة في نفس الليلة. كانت الحفلات التي تقام في القاعة الكبرى تضم حسب وصف صحيفة شانغهاي الناطقة باللغة الإنجليزية «مجموعة من الفتيات الجميلات» اللواتي يرحبن بالضيوف عند الباب ويقمن باصطحابهم إلى قاعة الرقص والحدائق لمشاهدة «المعزوفات المنفردة والراقصين والفرق الموسيقية والأدوار الموسيقية المتنوعة وبعض الفساتين الأنيقة وبعض الأعمال الموسيقية المثيرة التي لم نشهدها من قبل في شانغهاي. بعد تنظيم حفلة على الطراز الأمريكي في عام 1924، كتبت إحدى الصحف أن «هذه الحفلة كانت ذات طابع غير رسمي -كانت بوهيمية تقريبًا- مما أدى إلى شهرة أقوى لعظمة وفخامة قاعة قصر السيد خضوري».

على بعد حوالي ميل من قاعة القصر، عبر الشارع القادم من قصر إيلي السابق الذي شهد موت لورا في الحريق، كان يوجد منزل كبير وعقار مملوكين لأصدقاء إسكتلنديين لآل خضوري. عندما قرر هؤلاء الأصدقاء الانتقال منه، اشترت شركة إيلي العقار وقررت بناء «أفضل وأفخم فندق في آسيا». سوف يطلق عليه أسم ماجيستيك Majestic.. بعد بضع سنوات سيتبعه فندق آخر في هونغ كونغ، أطلق عليه بينينسيلا Peninsula.

من الصعب اليوم في عالم من سلاسل الفنادق ذات النمط الواحد

1- طيّار ومهندس أمريكي، ويعتبر أول شخص عبر المحيط الأطلسي على متن طائرة-م

2- من أوائل الطيارات الإناث في العالم-م

ورحلات سفر رجال الأعمال المتكررة أن نقدر الأهمية التي تلعبها الفنادق في تحديد هوية المدينة وأماكن تجمع رجال الأعمال. بالنسبة للبريطانيين، كانت الفنادق امتدادًا للاستعمار ورمزًا للكياسة والثقافة البريطانية في بيئة فوضوية. كانت سلسلة الفنادق التي ورثها إيلي عن أخيه تدير مجموعة من الفنادق الاستعمارية -وهي بريطانية في جوهرها- في جميع أنحاء الصين. بالنسبة لأولئك الذين يحتسون الشاي في كراسي النادي الجلدية، ويجلسون في غرف أرضيتها مفروشة معظمها بالسجاد وتعلوها الستائر، مع الفوضى المتخفية التي كانت تسود الصين وتعطي انطباعًا للخارج بأنها تعيش في أمان، سيكون من السهل تصديق أن الفندق كان مملوكًا للورد بريطاني، وليس لبعض المهاجرين من بغداد. في الواقع، فإن أحد الزائرين كتب يقول إن «النوادل في الفنادق بعباءاتهم الزرقاء الطويلة وشعرهم المجدول هم فقط من أعطوا الانطباع بأن أوروبا كانت بعيدة بعض الشيء».

فيما يخص فندق ماجيستيك في شانغهاي، استأجر إيلي فريقًا للعمل لديه تصور لشيء مختلف، فقد أراده فندقًا يشعر فيه هو وأبناؤه بالراحة والإقامة الطيبة، فندق يعكس تجاربهم وظهور المدينة كمدينة عالمية يسكنها أناس من مختلف الجنسيات في عالم مترابط. لم يسمح نادي شانغهاي البريطاني للصينيين بالانضمام إليه. تم فصل مضمار السباق الذي يديره البريطانيون، مما أجبر الصينيين على الانخراط في مضمارهم الخاص. على النقيض من ذلك، تم الإعلان عن فندق ماجيستيك الجديد باعتباره فندقًا «عالميًا» مفتوحًا أمام الغربيين والصينيين (الأثرياء) على حدٍ سواء، وهو مكان يمكن أن تتواجد فيه أجزاء مختلفة من شانغهاي حيث يمكن للصينيين الأثرياء الحصول على لمحات من العالم الأوسع وتذوق مزاياه. كان الدافع لافتتاح الفندق اقتصاديًا. فقد رأى إيلي أن هناك سوقًا واعدة له تتمثل في السائحين المتجولين حول العالم ورجال الأعمال المحليين والمغتربين الأثرياء ورجال الأعمال الصينيين المجتهدين.

استأجر إيلي مهندسًا معماريًا إسبانيًا / فرنسيًا لبناء فندق أحلامه وضمه إلى طهاة فرنسيين ومديرين سويسريين وفنانين أميركيين. كان الضيوف يتناولون الطعام الفرنسي ويرقصون على أنغام أوركسترا الجاز بقيادة

العازف الأمريكي ويتي سميث، الذي شجع النساء الصينيات على ارتداء الشيونغسام cheongsam، وهو فستان يحتضن الجسد مع شق يمتد على ساق واحدة، وقد أصبح الموضة السائدة بين نجمات السينما والشابات العاديات على حدٍ سواء، مما سمح لهن بالرقص بسهولة أكبر بارتداء أحدث صيحات «الملابس البسيطة»، بما في ذلك بنطلونات الجينز. بدأ مشاهير هوليوود في زيارة شانغهاي والإقامة في فندق ماجيستيك. وفي ذروة شعبيتهما، مكث نجما هوليوود الممثل دوغلاس فيربانكس وزوجته ماري بيكفورد لمدة أسبوع. حضر أكثر من 2000 شخص الحفل الراقص الذي أقيم على شرفهما. وقال فيربانكس للصحفيين: «لا يوجد سوى خمس مدن بارزة في العالم، وفي رأيي، تحتل شانغهاي الأضواء باعتبارها الأكثر حيوية وإثارة للاهتمام والأكثر تقدمًا».

عزز إيلي من تبرعاته الخيرية، ونسقها مع متطلبات السياسة الخارجية لبريطانيا، ودعم الجهود البريطانية لتحسين صورتها في الشرق الأوسط والصين. قدم المال إلى مستشفيات في إنكلترا وفرنسا والقسطنطينية والشرق الأوسط. وتخليداً لذكرى لورا، قدم الدعم لمدرسة للبنات في بغداد كانت الراحلة قد ساعدت في تأسيسها. ووهب مدرسة أخرى للبنات في شانغهاي. وفي زيارة قام بها إلى لندن، قدم العون للحكومة من خلال استضافة الملوك الذين كانوا يزورون لندن وتقديم كل وسائل الراحة والتسلية لهم، وكان من بينهم الملك فيصل ملك العراق وإمبراطور إثيوبيا هيلا سيلاسي.

في عام 1926، حقق إيلي مراده الذي طال انتظاره من بريطانيا العظمى: فقد منح الملك جورج الخامس إيلي الجنسية ولقب فارس الفروسية. وأصبح إيلي الآن حرًا في البدء في زيادة عدد الأسهم التي يملكها وأخذ مكانه في مجالس إدارة الشركات البريطانية. وبالتعاون مع صديقه القديم وشريكه التجاري روبرت هوتونغ، بدأ في شراء أسهم في شركة شانغهاي لاند، أكبر شركة عقارات في شانغهاي. كانت الشركة تحت سيطرة حفنة من أفراد النخبة البريطانية في شانغهاي -كان جميع مؤسسيها أعضاء في مجلس بلدية شانغهاي، الذي كان يتحكم في الأراضي وتقسيم المناطق في المستوطنة الدولية. نتيجة لذلك، امتلكت الشركة غالبية قطع الأراضي الممتازة لتقوم

بتطويرها. واشترى إيلي وهوتونغ ما يكفي من الأسهم في السوق المفتوحة لكي يتمكنا من السيطرة على الشركة. ووجها دعوة إلى آل ساسون للانضمام إليهما- وهكذا انتصر زملاؤهم الغرباء على أفراد النخبة القدامى. بعد ذلك جاء دور شركة شانغهاي للغاز، التي أصبحت واحدًا من أهم المرافق وأكثرها ربحية مع نمو المدينة. وهي قد تأسست في الأصل من قبل شركات بريطانية، لكن إيلي تولى زمام الأمور فيها، حيث كان يشتري الأسهم مع توسع الشركة، حتى سيطر عليها بامتلاكه حوالي 40 في المائة من الأسهم. قام بتثبيت ابنه الآخر، هوراس، في عضوية مجلس الإدارة، وفي النهاية عينه رئيسًا.

نشأت كل من عائلتي ساسون وخضوري وسط التربة الدينية والثقافية الثرية للمجتمع اليهودي في بغداد. مع تلاشي ذكرياتهم في بغداد واستبدالها بحياتهم الجديدة في الإمبراطورية البريطانية كمواطنين بريطانيين، تباعدت وجهات نظرهم حول وضعهم في العالم -وبالتالي في الصين- حفزت الحركة الصهيونية -التي ترفع شعار حلم العودة إلى فلسطين والقدس- اليهود في جميع أنحاء العالم في أوائل القرن العشرين للانضمام إليها عندما واجهوا تصاعد مشاعر معاداة السامية في أوروبا وما جرى من مذابح لليهود في روسيا. حافظ آل ساسون على ابتعادهم عن الصهيونية. لقد ارتموا في أحضان البريطانيين، واثقين من أن أموالهم ونفوذهم المتزايد لدى العائلة المالكة والعوائل الأرستقراطية في لندن تضمن سلامتهم وصعودهم.

كانت الحركة الصهيونية أكثر قربًا إلى إيلي. فقد كانت لديه أموال أقل من آل ساسون، واتصالات أقل. لقد كافح لأكثر من عقد للحصول على الجنسية البريطانية. وكان عليه أن يتبنى اسماً مسيحيًا -كيلي- ليبدأ حياته في هونغ كونغ. كانت فكرة الوطن اليهودي جذابة لرجل بدا مكانه في العالم غير مؤكد.

أصبح إيلي زعيم الحركة الصهيونية الصغيرة في الصين عام 1909، وتبرع هو وشقيقه بالمال لشراء أرض للجامعة العبرية في القدس. في عام 1917، وتحت ضغط دولي، أصدرت إنكلترا وعد بلفور، الذي أيد إنشاء وطن لليهود في فلسطين الذي كان الخطوة الأولى لما سيصبح إنشاء دولة إسرائيل في عام 1948. حشد اليهود في جميع أنحاء العالم، الرأي العام

وسعوا إلى إقناع الحكومات لتأييد فكرة دولة يهودية جديدة. في نفس العام الذي صدر فيه وعد بلفور، قرر إيلي الاقتراب من الزعيم المفترض للصين، صن يات صن، وطلب الدعم منه.

مثل معظم الصينيين، لم يكن صن يات صن يعرف سوى القليل جدًا عن اليهود. ولكنهم لم يكونوا غائبين تمامًا عن تاريخ الصين. كانت مجموعة صغيرة من اليهود من الشرق الأوسط قد استقرت في مدينة كايفنغ قبل قرون وتبنت اليهودية المستوحاة من ظروف الصين. هناك نصب تذكاري حجري يعود إلى عام 1489 كتب فيه بعض اليهود على حياء: «يختلف ديننا عن الكونفوشيوسية في التفاصيل الصغيرة فقط». فكلا الديانتين «تبجل الأجداد، وموالية للملوك والـوزراء، ويطيع فيها الأبناء الآباء». بحلول القرن العشرين، اختفى جميع يهود مدينة كايفنغ تقريبًا من خلال التزاوج المختلط. اتبع معظم الصينيين البوذية والطاوية والكونفوشيوسية ولم يكن لديهم سوى القليل من الخبرة أو العداء تجاه اليهود، حيث عاملوهم على أنهم شيء آخر مستورد من الغرب، تمامًا مثل المسيحيين. ذكر أحد أصدقاء إيلي في عشرينيات القرن الماضي: «أن الصينيين الأصليين لا يفرقون بين اليهودي والمسيحي». «كلاهما أجنبي في نظرهم».

سبق لصن يات صن أن التقى ببعض اليهود أثناء رحلاته حول العالم بحثًا عن الدعم لجهوده للإطاحة بإمبراطور الصين. في زيارة لموسكو، حيث كان الشيوعيون قد أطاحوا للتو بالقيصر، التقى صن بالعديد من كبار الشيوعيين الذين كانوا يهودًا، ويذكر خليفته شيانغ كاي شيك فيما بعد، أنهم «كانوا يتحدثون بإخلاص عن رغبتهم بإقامة علاقات صداقة». في الولايات المتحدة، التقى صن بموريس كوهين، الملاكم اليهودي السابق الذي أصبح رئيس جهاز الأمن. وفي شانغهاي، زار عزبة سيلاس هاردون، الذي كان يدير أنشطة عائلة ساسون هناك. تعاطف صن مع محنة اليهود، التي ذكرته، كما كتب، ببعض الأمثلة عن كفاح الصين. وكتب يقول: «لقد اختفت مشاعر التعصب القومي عند الصينيين من مختلف القوميات عندما غزا الأجانب بلادهم». لكن الصين لم تكن الدولة الوحيدة التي تم احتلالها. فالشعب اليهودي فقد وطنه أيضًا.

بعد اللقاء الذي جمع إيلي وجهًا لوجه مع صن لمناقشة قضايا الحركة الصهيونية وفلسطين ووضع اليهود، أيد صن وعد بلفور في رسالة شخصية بعثها إلى إيلي، حيث كتب أن «كل محبي الديمقراطية لا يمكنهم إلا دعم الحركة من أجل أن تستعيد أمتكم الرائعة والضاربة جذورها في التاريخ التي ساهمت كثيراً في حضارة العالم المكانة المشرفة التي تستحقها بحق بين سائر الأمم». في المقابل، عرض إيلي خبرته على الحكومة الصينية وأشار بنفس المنوال إلى أنه مستعد لشراء سندات لدعم حكومة الجمهورية الجديدة التي يتزعمها صن.

استمرت تلك العلاقة حتى بعد وفاة صن بالسرطان في عام 1925، وهي العلاقة التي استمرت على يد أرملة صن صاحبة الشخصية المؤثرة والقوية سياسياً بشكل متزايد، مدام صن يات صن، والمعروفة أيضًا باسم سونغ تشينغ لينغ.

تعود أصول مدام صن يات صن إلى واحدة من أكثر العائلات نفوذاً والمتعلمة في الغرب. أرسل والدها، تشارلز سونغ، بناته الثلاث لتلقي التعليم في الولايات المتحدة ورتب لهن زيجات مع أشخاص ينتمون إلى النخبة السياسية في الصين. أصبحت سونغ تشينغ لينغ مدام صن يات صن، وتزوجت أول رئيس للصين. بعد سنوات، تزوجت شقيقتاها من شخصيتين مؤثرتين في السلطة أيضًا. تزوجت سونغ مي لينغ من زعيم الصين الجديد، الجنرال شيانغ كاي تشيك، وأصبحت معروفة في جميع أنحاء الغرب باسم مدام شيانغ كاي شيك. تزوجت الأخت الثالثة، آي لينج، من إتش إتش كونغ، وهو من نسل كونفوشيوس وهو مصرفي ثري. كان الصينيون يمزحون بقولهم إن إحدى أختي سونغ (آي لينغ) تحب المال، والأخرى (مي-لينغ) تحب السلطة، لكن مدام صن (تشينغ لينغ) كانت تحب الصين.

أذعن هوراس ولورانس ابنا إيلي خضوري تدريجياً للأدوار التي كان ينحتها لهما والدهما. عند عودته إلى شانغهاي في عام 1924، عين إيلي هوراس مسؤولاً إداريًا لغرض الإشراف على إدارة قاعة القصر الكبرى، وترتيب الحفلات الفخمة فيها، والإشراف على الأعمال الخيرية التي كانت

والدتها قد بدأتها. تخلى هوراس عن حلمه بدراسة الزراعة وأصبح مزارعًا نبيلًا في الغرب. كان يمتلك دقة ملاحظة للأشياء الجميلة والطعام الجيد، ولكن طبيعته الخجولة منعته من أن يتحدى والده.

كان لورانس أكثر حيرة. لقد استاء من الطريقة التي حوله بها والده أحيانًا إلى ساعي بريد ومجرد إداري صغير. يتذكر لورانس في وقت لاحق: «لم أستمتع كثيرًا بفترة الشباب». «ربما فقدت بعضًا من متعة كوني شابًا صغيرًا لأنني غرقت على الفور في مسؤوليات ثقيلة للغاية».

كان إيلي يصطحب معه لورانس في رحلاته الخارجية، وعينه كسكرتير خاص له، وجعله يصوغ الرسائل ويرتب الاجتماعات. حتى قبل وفاة لورا، عندما كان لورانس لا يزال مراهقًا، أحضره إيلي إلى هونغ كونغ لزيارة شركة الكهرباء فيها وجعله يحمل حقيبة يده. وكان رئيس الشركة، وهو الشريك البريطاني لإيلي، يرأس أيضا شركة هارلي دي. يدسون، لصناعة الدراجات النارية. وكان لورانس معجبًا بشدة بتلك الدراجات.

لاحظ شريك إيلي ذلك فقال للورانس (سأقدم لك واحدة منها).

فصرخ إيلي قائلًا: لا لن يقبلها.

وكانت تلك نهاية القصة. في المنزل كما في العمل، كانت كلمة إيلي هي القانون الساري. وكان إيلي مثل ديفيد ساسون يحول أبناءه إلى امتدادات لنفسه ولأعماله. فقد دربهم على أن يكونوا مخلصين له ويتبعون قيادته. اعتقد إيلي -بشكل صحيح- أن لورانس كان أفضل رجل أعمال من بين ولديه وكان يعده لتولي أعمال العائلة في هونغ كونغ. كان لورانس يتوق إلى القوة والاستقلال اللذين سيأتيان مع هذا الدور - على الرغم من أن ذلك سيعني قضاء وقت أقل في شانغهاي. كانت تلك فرصة له ليترك بصمته الخاصة. في حين سيبقى شقيقه هوراس في شانغهاي لرعاية والدهما.

لم يكن لدى المعارضين فرصة تذكر لعرقلة جهود إيلي في تمكين ولديه من السلطة والنفوذ. بعد فترة وجيزة من نجاح في كسب تأييد صن يات صن لإعلان بلفور، اقترح إيلي أن يتبرع بمبلغ ضخم للصهاينة في فلسطين لبناء «مدينة متكاملة» بالقرب من القدس تشمل المدارس والمستشفيات

والمزارع. كان الشرط الوحيد له هو أن يشرف لورانس وهوراس على المشروع. بعد عامين، زار إيلي فلسطين ليرى مراحل التقدم التي وصل إليها المشروع ليجد أن الأموال قد استخدمت لقضايا أخرى ولم تكن هناك علامات على البناء. شعر بخيبة أمل مريرة وقال إنه قد تم تضليله، استقال إيلي من رئاسة فرع الحركة الصهيونية في شانغهاي، وقطع روابطه المهمة مع المجتمع اليهودي. واشتكى قائلًا «أنا أغنى بكثير من عائلة روتشيلد ومع ذلك فهم يفعلون ما يحلو لهم». «وهذه القيود تطبق عليّ فقط».

في أبريل 1928، توفي أحد مديري شركة الكهرباء في شانغهاي. اشترى إيلي أسهمه وعين لورانس، الذي لم يبلغ الثلاثين بعد، كممثل له في مجلس الإدارة. تذمر بعض المديرين التنفيذيين في مقر الشركة في هونغ كونغ من تصميم إيلي على جلب ولديه «ذوَي الخدود الوردية، من شانغهاي» إلى قاعة الاجتماعات. بعد بضع سنوات، أطاح بروبرت شيوان الذي كان شريكه لفترة طويلة من منصب رئيس مجلس الإدارة وقام بترقية لورانس إلى منصب الرئيس. كما بدأ بتعيين لورانس في مجالس إدارة شركاته الأخرى في هونغ كونغ.

كتب ويليام كيسويك أحد مسؤولي شركة جاردين وكان إيلي يكرهه شديد الكره إلى زميل له. «التقيت اليوم لورانس خضوري الذي أخبرني بابتسامته الساحرة أنه قد انضم إلى مجلس إدارة شركة ورف في هونغ كونغ»، في العام الماضي قاومت تقدمهم. لكنني أعرف مدى إصرارهم، والمال له تأثير ساحر».

على بعد أميال قليلة من قاعة القصر الكبرى، كانت أحياء أخرى من شانغهاي غارقة في الفقر والازدحام. كانت الأحياء الفقيرة في شانغهاي من أكثر الأحياء اكتظاظًا بالبشر والأكثر بؤسًا على وجه الأرض - وتبلغ ازدحاماتها ضعف ازدحـام حي لوير إيست سايد في نيويورك. كان أصحاب المصنع يجنون أرباحًا ضخمة من خلال دفع أدنى الأجور الموجودة في العالم. وقد زار مسؤولو مجلس شانغهاي البلدي الأحياء الفقيرة ووجدوا ما يصل إلى خمس عشرة أسرة تتشارك في منزل واحد. كان عمال البلدية يدفعون العربات على طول الشوارع، والتقاط الجثث كما لو

كانت قمامة. وصف الكاتب البريطاني كريستوفر إيشروود والشاعر ويستن هيو أودن اللذان زارا شانغهاي آنذاك في وصف لأحوال الناس (نصف الأطفال لديهم خط أزرق حول اللثة وهو من أعراض التسمم بالرصاص. وقلة منهم سيتمكنون من البقاء على قيد الحياة لفترة أطول من عام أو ثمانية عشر شهرًا).

وصف الكاتب ماو دون، في الصفحات الافتتاحية من روايته منتصف الليل التي انتشرت على نطاق واسع، كيف تغيرت شانغهاي مرة أخرى، من هندستها المعمارية على طول منطقة البوند إلى التكنولوجيا الجديدة المتدفقة عبر المدينة. عند وصوله من الريف، حدق أحد الزائرين الصينيين بقلق في المباني الجديدة قائلًا: «عند النظر إلى الغرب سيصاب المرء بصدمة عجيبة حين يرى على سطح بناية ذات طراز أجنبي بني لافتة نيون ضخمة باللون الأحمر الملتهب والأخضر الفسفوري: ضوء، وحرارة، وقوة!».

كان إيلي أكثر صدقًا من معظم الأجانب، حيث قام ببناء عدة مدارس في شانغهاي لتعليم الأطفال الصينيين الفقراء، وخاصة الفتيات. كتب الصحفي البريطاني آرثر رانسوم بعد زيارته لشنغهاي أن الأجانب مثل عائلة خضوري وساسون كانوا يعيشون في «علبة زجاجية محكمة الإغلاق ومعزولة». «فأوروبا بعيدة عنهم والصين، التي كانت على أبوابهم، تبدو بعيدة جدًا». إنهم «ينظرون من حولهم إلى مبانيهم الرائعة ويفاجئون من أن الصين ليست ممتنة لهم على هذه الهدايا، متناسين أن الأموال لبنائها جاءت من الصين».

لاحظ مايكل حفيد إيلي بعد عقود: «لقد عاشت عائلتي في فقاعة».

كانت الفقاعة على وشك أن تثقب.

في عام 1920، وصل أمين مكتبة وناشط سياسي ذو وجه مدور إلى شانغهاي واستأجر غرفة في المستوطنة الدولية في مبنى يملكه سيلاس هاردون، قطب العقارات والمدير السابق للشركات التابعة لعائلة ساسون في شانغهاي.

لم يكن ماو تسي تونغ شيوعيًا بعد -لم تظهر الترجمة الصينية الأولى للبيان الشيوعي إلا في وقت لاحق من ذلك العام- لكنه دعم العديد من

الحركات الراديكالية وندد بالاحتلال الأجنبي لشنغهاي. استفاد ماو من كونه يعيش في مستوطنة دولية أكثر تسامحًا ويستأجر شقة من مالك عقار أجنبي في نشر الأدبيات الشيوعية على نطاق واسع، وتنظيم المزيد من الاحتجاجات. في شانغهاي، التقى ماو بالبروفيسور تشين دو زيو الذي كان يقوم بتنظيم الحزب الشيوعي الناشئ. وجه تشين دعوة إلى ماو لحضور المؤتمر الأول للحزب، الذي عقد في شانغهاي في يوليو 1921. اجتمع خمسة عشر مندوبًا، متنكرين كأساتذة جامعيين في رحلة صيفية، في منزل من طابقين في منطقة الامتياز الفرنسية. حتى مع الحرية النسبية التي كانت توفرها منطقة التسوية الدولية، كان المنظمون على حافة الخطر. عندما تجول شخص غريب بشكل غير متوقع في الاجتماع، فر ماو والمندوبون الآخرون، خوفًا من مداهمة الشرطة لهم، وتوجهوا إلى الجنوب، حيث أنهوا الاجتماع هناك. عاد ماو إلى شانغهاي عشرات المرات في عشرينيات القرن الماضي، وكان يقيم دائمًا في منطقة التسوية الدولية أو منطقة الامتياز الفرنسي المجاورة وأقام تحالفات مع متطرفين يحملون أفكارًا مشابهة لأفكاره مثل شوان لاي، الذي كان يعيش في الجوار. ورغم أن البريطانيين كانوا يفتخرون بالاستقرار والازدهار الذي جلبوه إلى شانغهاي، فإن الأستاذ الصيني الذي أسس الحزب الشيوعي مع ماو عبر عن حزنه لكون «كل حجر وكل قطعة عشب» في شانغهاي كانت قبل وصول الأجانب تنتمي إلى الصينيين. لكن الآن هناك حدائق لا يمكنهم دخولها. على الرغم من أن الصين كانت حينها دولة ديمقراطية، فإن الصينيين الذين يعيشون في المستوطنات التي يديرها الأجانب لا يستطيعون التصويت. ووصف الصينيين الذين يعملون مع الغربيين ويستفيدون منهم بأنهم «كلاب للأجانب». أما صن يات صن، الذي كان يحب العيش في شانغهاي، ويستمتع بلعب الكروكيت، وعمل مع إيلي لتأييد وعد بلفور، الذي كان يشتكي من أنه لا يستطيع مقابلة مؤيدين أجانب لوعد بلفور وتناول العشاء في النوادي المملوكة للأجانب أو المشي في الحدائق البريطانية في البوند. فقد اقترب من التحالف مع الشيوعيين.

كتب ماو في إحدى مقالاته أن هدف «الإمبرياليين الأجانب» هو تحويل

الصين إلى مستعمرة. وفي مواجهة هؤلاء «الأعداء»، يحتاج الصينيون إلى أن يكونوا «قساة لا يرحمون».

أرعب انتشار الأفكار الشيوعية آل خضوري. فقبل كل شيء، نظر الرأسماليون بقلق إلى القوة المتزايدة للشيوعيين الصينيين. في مارس 1927، أطلق شوان لاي انتفاضة شيوعية مسلحة في شانغهاي. استولى العمال على المدينة باستثناء منطقة المستوطنة الدولية. وبدعم ضمني من البريطانيين والنخبة الثرية في شانغهاي، أمر الجنرال شيانغ كاي شيك، الذي خلف صن يات صن كزعيم للقوميين، قواته بالزحف إلى شانغهاي واستعادة المدينة.

أرسل آل خضوري وأبناء الجالية البريطانية نداء طارئًا إلى لندن للمطالبة بإرسال القوات البريطانية لحمايتهم من القتال الذي كان على وشك الاندلاع. وعندما وصل الجنود البريطانيون، فتح إيلي لهم قاعة القصر الكبير وأمر هوراس بالتأكد من توفر وسائل الترفيه عنهم. أقام البريطانيون حواجز حول المستوطنة الدولية لحمايتها مما بدا أنه بداية حرب أهلية بين الشيوعيين والقوميين.

انتهى الأمر إلى أن تحدث مجزرة. حاصر شيانغ والقوات القومية الشيوعيين في شانغهاي، وأعلنوا الأحكام العرفية، وبدأوا في إعدام المؤيدين الشيوعيين – تم إعدام ما يصل إلى 12000 في ثلاثة أسابيع. أصدر شيانغ أمرًا سريًا لجميع المقاطعات الخاضعة لسيطرة قواته بتطهيرها من الشيوعيين. كما تم اعتقال وقتل أكثر من 10000 شيوعي في جميع أنحاء البلاد. خلال العام التالي، قتلت حملات القمع المناهضة للشيوعية 300000 شخص.

نجا ماو. فر من شانغهاي وقاد جيش فلاحين صغيرًا من المنسحبين وكانت تلك بداية ما سيصبح جيش التحرير الشعبي. لم تمس منطقة التسوية الدولية. راقب الجنود البريطانيون المجازر من بعيد وكتبوا رسائل إلى الوطن تشيد بفخامة غرفهم في القصر والأطعمة «الممتازة» والغريبة للمطبخ البغدادي.

كانت الأزمة، حتى ذلك الحين، قد انتهت. سيطر شيانغ كاي شيك والقوميون حينها على شانغهاي وبقية البلاد. وظلت منطقة التسوية الدولية جيبًا يحكمه مجرم بريطاني والقانون التجاري وتحميه القوات البريطانية.

لكن هذا لم يجعلها محصنة تمامًا من التغييرات التي تجتاح الصين. استدعى شيانغ ورجال حكومته إيلي ورجال الأعمال الصينيين والأجانب الآخرين في شانغهاي وطالبوهم بشراء السندات الحكومية «للمساعدة في تحقيق التوازن في الميزانية». لقد كان ثمنًا معقولاً يمكن دفعه مقابل الاستقرار.

بعد ثلاثة أشهر من مذبحة شانغهاي، وصل شيانغ كاي شيك إلى فندق ماجيستيك الذي يملكه آل خضوري لحضور «حفل زفاف العقد» - وهو زواجه من الأخت الصغرى لمدام صن يات صن كان كل من الشيوعيين والقوميين يحاولون اعتبار صن، والد الأمة، مصدر إلهامهم. بعد وفاة زوجها، اختارت مدام صن بنفسها الجانب الشيوعي، وكانت تعيش في شانغهاي، آمنة في ذلك الوقت ولكنها عاجزة. من خلال زواجه بشقيقة مدام صن، كان شيانغ كاي شيك يؤسس ارتباطًا مباشرًا بإرث صن وشعبيته. احتشد أكثر من 1000 شخص في قاعة الرقص في الفندق. تم تزيين الجدران بالزهور البيضاء. غنى مغنٍ أمريكي للزوجين أثناء دخولهما وسط تصفيق كثيف. غطت صحيفة نيويورك تايمز حفل الزفاف في الجزء العلوي من صفحتها الأولى في اليوم التالي. كان شيانغ كاي شيك في طريقه لتأسيس سلالة حاكمة. وكذلك كان يفعل إيلي.

في تلك الأثناء كان آل ساسون يعيشون في حالة من الفوضى، حيث قسمت الخلافات السلالة التي حاول داود تأسيسها مع أبنائه الثمانية. في أعقاب وفاة ديفيد عام 1864، انتقل معظم أبنائه إلى لندن. كان إلياس ساسون، الأخ الذي يمتلك أوسع عقلية تجارية في مجال الأعمال، لا يزال يعيش في شانغهاي، لكنه كان بعيدًا عن العائلة ويدير شركته الناجحة، شركة إدوارد إلياس ساسون. وكما تنبأ إلياس، فان إخوته خضعوا لإغراءات العيش في لندن وبات يتناقص لديهم الاهتمام بالأعمال التجارية في الصين والهند، حتى مع تزايد حاجتهم إلى المال لتمويل متطلبات عقاراتهم والإنفاق على وسائل التسلية والترفيه.

عند وفاة سليمان ساسون، آخر أبناء داود الثمانية الباقين في الهند، وتبعه بسرعة حادث وفاة ابن أخيه الذي كان من المفترض أن يخلفه، واجه آل ساسون مشكلة. وبينما كان الأخوان اللندنيان يناقشان موضوع من الذي

يجب أن يدير الشركة وما إذا كان يجب -لأول مرة- تسليم الإدارة إلى شخص من خارج العائلة، أعلنت فلورا، زوجة سليمان، من بومباي أنها ستتولى إدارة الشركة كنوع من الوصاية إلى أن يبلغ ابنها من العمر ما يكفي للتدخل. كانت تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا -أصغر من زوجها بما يقرب من عشرين عامًا- لكن نسبها لا يمكن أن يرقى إليه الشك. فقد كانت حفيدة ديفيد ساسون. وزواجها من واحد من أبنائه كان قد أثار الدهشة. فهي تزوجت في الأساس عمها. لكن لا أحد كان يستطيع أن يجادل في ذكائها وثقافتها، كان والداها متعلمين جيدًا وأكاديميين وكانا حريصين على أن تتلقى فلورا تعليمًا ممتازًا حرمت منه معظم النساء في ذلك الوقت. لقد أحضرا حاخامات بارزين من بغداد لتعليمها وسجلوها في مدرسة النخبة في بومباي. بحلول الوقت الذي كانت فيه فلورا تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، كانت تعرف العبرية والآرامية والهندوستانية، وكذلك الإنكليزية والفرنسية والألمانية. وكان يمكنها أن تقتبس أقوالًا من مؤلفات شكسبير. عملت العديد من النساء الهندوسيات والمسلمات في ظل «البردا»، وهو الفصل الجسدي بين الرجال والنساء وكن يطالبن بتغطية وجوههن وأجسادهن في الأماكن العامة. رفضت فلورا القيام بذلك، وفي بعض الأحيان رافقت زوجها إلى المكتب، الأمر الذي صدم زملاءنا الذين لم يروا امرأة في مكتب شركة تجارية من قبل.

عند وفاة زوجها، كانت فلورا تعرف أشياء كثيرة مكنتها من تحدي إخوة زوجها مباشرة. مثل الإمبراطورة الأرملة تسيشي في الصين، ستكون الوصية على عرش ديفيد ساسون وشركاته فقط إلى حين يبلغ ابنها سنًا كافية لتولي المنصب، وبالتالي فإنها ستضمن استمرار الذكور في السيطرة على شركات آل ساسون. وافق الأخوان المقيمان في لندن على ذلك. وقد أنشآ خطوط اتصال منفصلة مع المديرين التنفيذيين الآخرين لشركات ساسون في بومباي للتأكد من أن فلورا ستكون رئيسًا صوريًا يسهل التحكم فيه.

تمكنت فلورا من تحقيق نتائج مذهلة فاقت كل المقاييس. كانت مستمعة جيدة، وواعية بالتفاصيل، مع موهبة لاستخراج معلومات مفيدة بشكل غير مخفي من الموظفين والمنافسين. لم يكن من المفترض أن تُرى النساء في

الأماكن العامة ونادراً ما كن يغادرن منازلهن. ومراعاة للتقاليد المحلية، قامت فلورا في البداية بتقييد ظهورها أيضًا، حيث كانت تقضي أوقات الصباح في المنزل، جالسة على كرسي ذي ظهر مرتفع وأمامها منضدة صغيرة، وتجيب على رسائل تصل من الصين، واليابان، ومنطقة الخليج. لكنها تقوم في وقت متأخر بعد الظهر بزيارة مصانع القطن التابعة لآل ساسون في طريقها إلى المكتب. وجدها العاملون امرأة ساحرة وودودة. دعاها نادي اليخوت الملكي في بومباي، وهو معقل للذكور، لتصبح عضوًا فيه. مع انخفاض صادرات الأفيون، تحولت فلورا إلى تجارة البضائع مثل النحاس والشاي والفضة والتوابل. ووصلتها برقيات من لندن أشادت بإنجازات «أختنا العزيزة».

في ربيع عام 1897، انتشر وباء الطاعون الدبلي في بومباي، وانتشر في الأحياء الفقيرة حيث يعيش معظم السكان -ومنهم العديد من عمال فلورا- . مات ما يقرب من 20000 شخص. توقفت التجارة في بومباي حيث تراكمت البضائع وتُركت لتتعفن في ميناء الحجر الصحي. تبع ذلك تفشي وباء الكوليرا، مما أدى إلى تفاقم الأزمة.

انضمت فلورا إلى «لجنة مكافحة الطاعون» المكونة من الأطباء وموظفي الخدمة المدنية ورجال الأعمال. وهي عاقدة العزم على تهدئة الذعر المتزايد ودعمت جهود عالمة أوبئة شابة طورت لقاحًا مضادًا للكوليرا. عندما شجب بعض القادة المسلمين والهندوس حملات التطعيم بحجة أنه غير نظيف ويخالف تعاليم دينهم، قامت فلورا بتلقيح نفسها -وصورت الحدث- وخرجت مع نساء أخريات، شكلن ما يعرف بـ«نادي بيردا»، لإقناع الآخرين بالانضمام إليهن.

تسبب تفشي الطاعون في تدمير أعمال ساسون. أُجبرت شركة فلورا على إغلاق العديد من المصانع وتشغيل مصانع أخرى بنصف طاقتها. أصبح شعرها الداكن مخططاً بكثافة باللون الأبيض.

مع تراجع الأرباح، بدأ شقيق زوج فلورا في لندن يفقد صبره. بدأ أبناء الجيل الأصغر من عائلة ساسون -أبناء الإخوة الثمانية- يتساءلون عن

سبب وجوب تولي المرأة زمام الأمور، خاصة إذا كان أحدهم يربي ثلاثة أطفال، وأحدهم معاق. شعرت فلورا بالعزلة أكثر فأكثر.

انتظر الأخوان اللذان يعيشان في لندن اللحظة المناسبة للانقلاب عليها. في اليوم السابق لعيد الميلاد من عام 1901، قاموا بالانقلاب، غيروا الهيكل المالي للشركة لإخراج فلورا تمامًا. أعلن ديفيد ساسون وشركاؤه أنه تم تغيير إدارة الشركة من شراكة خاصة للأخوين ساسون شقيقة زوجتيهما فلورا إلى شركة مساهمة – مع احتفاظ الأخوين ساسون بجميع الأسهم في الشركة الجديدة. سيصبح أحد الإخوة رئيساً؛ وسيصبح ثلاثة آخرون مديرين. سيكون الرئيس الجديد لمكتب بومباي شخصًا كان مساعدًا للعائلة منذ فترة طويلة وكان يقدم المشورة لفلورا في السنوات الأخيرة. تم قطع صلات فلورا بالشركات بالكامل.

انتشرت شائعات في بومباي مفادها أن فلورا ستؤسس شركتها الخاصة الآن بعد أن أُجبرت على ترك أعمال العائلة. كتب موظف موالٍ لفلورا رسالة يأسف لرحيلها «الكارثي». كما أعرب آخر عن أسفه «لرحيل من تمثل متعة واحدة على الأقل في عالمنا القذر هذا». وكتبت فلورا ملاحظة إلى صديقة لها، وهي تنتقد تصرف أخوة زوجها في لندن: «سأتقاعد من الشركة غدًا، حيث لا أعتقد أنني سأتمكن من الكدح طوال اليوم بينما لا يهتم الآخرون -الا بمصالحهم فقط، ويضرون أكثر مما ينفعون عندما يتنبهون فجأة إلى سير الأعمال». وبعد أن سلبت منها مزاولة الأنشطة التجارية في بومباي، قررت فلورا الانتقال إلى لندن، حيث يمكنها الحصول على رعاية طبية أفضل لابنتها المعوقة. صعدت هي وأطفالها على متن سفينة عند الرصيف، وكان في وداعها حشد من المسؤولين والخدم الغارقين في البكاء متمنين لها حظًا سعيدًا. امتلأت غرفتها الفاخرة بالباقات والهدايا. قبل أن تبحر السفينة مباشرة، تقدمت فتاة هندية شابة نحو فلورا ووضعت إكليلًا حول عنقها، مكتوبًا عليه باسم «صاحبة الجلالة، ملكة بومباي وإمبراطورة مالابار هيل»– موقع قصر آل ساسون. أبحرت فلورا بعيدًا. ستصبح فاعلة خير معروفة في لندن وعالمة هاوية محترمة. لم تطأ قدمها شركات ساسون مرة أخرى.

في الوقت نفسه كانت فلورا قد بدأت تخوض المعركة على منصب مدير

الشركة في بومباي التي خسرتها، في لندن، كانت هناك امرأة أخرى من عائلة ساسون بدأت معركة مع المؤسسة البريطانية الحاكمة وعائلتها للمضي قدمًا في تطلعاتها.

كانت راحيل ساسون لم تزل طفلة عندما أرسل ديفيد ساسون والدها، سولومون إلى لندن لتمثيل مصالح عائلة ساسون التجارية والدخول إلى المجتمع اللندني. وقد حقق نجاحًا فاق كل التوقعات، فامتلك قصرًا فخمًا، وخدمًا، وأصبحت لديه ضيعة. أرسل أبناءه الثلاثة إلى جامعة أكسفورد. أما راحيل، وكما كانت العادة في ذلك الوقت، فقد بقيت في المنزل. كانت تستقبل الزوار وتعزف على البيانو. حُرمت النساء في ذلك الوقت من التصويت. وحُرمن من الحصول على فرص التعليم. كان المطلوب من راحيل أن تسعى للحصول على زيجة مناسبة. فقد تزوجت والدتها التي ولدت ونشأت في بغداد وهي في السادسة عشرة.

تمردت راحيل على هذا المصير. وكتبت لاحقًا أنها كانت «ابنة ذكية». وسخرت من بنات الأرستقراطيين البريطانيين الآخرين اللواتي «يتم إرسالهن سنويًا إلى السوق، ليتبادلن الأحاديث والضحكات إلى أن يقابلن شريك الحياة» ويصبحن زوجات. أما أولئك الذين يمتلكون «عقولًا ناضجة» مثل عقلها «فيعيشون وحدهم ليستمتعوا بحياة العزوبية».

توفي والد راحيل عندما كان عمرها تسع سنوات فقط. وترك في وصيته تعليمات صارمة تفيد بأنه على الرغم من أن الأسرة تعيش الآن في لندن، فإنها يجب أن تتزوج شخصًا من المجتمع اليهودي البغدادي. وترك قصر العائلة ذا الحدائق المورقة لأخيها وخصص صندوقًا ائتمانيًا لراحيل. تمردت راحيل، صاحبة الشخصية القوية وذات الإرادة، ورفضت أن تتزوج من شاب بغدادي، أو حتى أن تتزوج على الإطلاق. وأعلنت قائلة: «لا يمكن الا لقلة من النساء أن تجمع الواحدة منهن صفة الحبيبة، والأم، والطباخة الماهرة، والقديسة، والمحادثة الذكية، ومدبرة المنزل الممتازة، والعشيقة، والرفيقة، والممرضة كلها في نفس الوقت». «فالرجال يتوقعون الكثير». في السادسة والعشرين من عمرها –وقد تجاوزت سن الزواج بالفعل– انتقلت راحيل من منزل العائلة في الريف البريطاني إلى لندن وتدربت على مهنة

التمريض. على الرغم من أن راحيل كان لديها العديد من الخاطبين، فإن عائلتها استسلمت لحقيقة أنها سوف تكبر لتصبح «امرأة عانسًا». وحين اقتربت من سن الثلاثين، وقعت راحيل في حب فريدريك بيير، رجل الأعمال الألماني الذي ورث ثروة وأعجب بروح راحيل المستقلة. من بين نشاطاته التجارية العديدة قرر فريدريك بيير أن يركز طاقاته على الصحافة في لندن وخصوصًا الصحيفة التي اشترتها عائلته: الأوبزرفر، وهي صحيفة أسبوعية تصدر يوم الأحد وتغطي أخبار الفن وقضايا العدالة الاجتماعية.

تحول بيير، الذي ولد يهوديًا، إلى الديانة المسيحية. في اليوم السابق لحفل زفاف راحيل الذي جرى عام 1887، تحولت هي أيضًا إلى المسيحية. أثار هذا الأمر غضب والدتها وأفراد عائلة ساسون. كان آل ساسون كعائلة يهودية قلقين للغاية بشأن زواج أطفالهم من أشخاص مسيحيين لدرجة أنهم أدخلوا ملاحق إلى وصياتهم تتضمن عبارات صريحة تشير إلى حرمان أطفالهم من الميراث إذا تزوجوا من غير اليهود، أو حتى من غير البغداديين. لكن إغراءات التخلي عن اليهودية كانت قوية. عندما ارتفعت مكانة آل ساسون أعلى وأعلى في المجتمع البريطاني، بدأ المزيد من أفرادها في ترك العقيدة اليهودية، مما أثار غضب أفراد الأسرة المتمسكين بتقاليدها المتوارثة. قطع آل ساسون علاقتهم مع راحيل. أعلنت والدتها فترة حداد علنية -كما لو أن راحيل قد ماتت- لإظهار استيائها.

ومن دون أي تردد تخلت راحيل عن مهنة التمريض ووجدت بغيتها المنشودة في الصحافة. أصبحت مراسلة وكاتبة عمود في صحيفة زوجها. وردًا على ما لاقته من الموظفين الذكور، الذين عارض العديد منهم الدعوات المتزايدة لتحرير المرأة، أعلنت راحيل أنها تريد أن تصدر صحيفة خاصة بها. اشترى زوجها فريدريك صحيفة صنداي تايمز وعينها رئيسة تحريرها. وسرعان ما استقال رئيس تحرير صحيفة الأوبزرفر، وعُينت راحيل رئيسة تحرير تلك الصحيفة أيضًا – وكانت أول امرأة في بريطانيا تقوم برئاسة تحرير صحيفتين واسعتي الانتشار. مرت ثمانون عامًا قبل أن تشغل امرأة أخرى هذا المنصب الرفيع في عالم الصحافة البريطانية.

ظهرت راحيل كناشطة نسوية وشخصية ليبرالية. واقترحت زيادة

الضرائب على الأغنياء ودعمت القوانين لتحسين الأجور وتحسين ظروف العمل. وأعادت إلى الذاكرة كيف تقطعت بهم السبل وهم في وطنهم حين ذهب إخوتها إلى أكسفورد، ودعت إلى المساواة في التعليم، وطالبت «بفتح الجامعات أمام الجنسين وبموجب نفس الشروط». وتلقت دعوة للتحدث في المؤتمر العالمي للمرأة، وقامت بتعداد المكاسب التي أحرزتها هي ونساء أخريات وأعلنت أن «القرن التاسع عشر سيكون قرن المرأة».

حدث أعظم تحول لراحيل عندما انغمست في الجدل حول قضية دريفوس. قرب نهاية عام 1894، تم اتهام النقيب ألفريد دريفوس، العضو اليهودي الوحيد في هيئة الأركان العامة الفرنسية، بالتجسس ونقل وثائق عسكرية سرية إلى المسؤولين الألمان. وحُكم عليه بالسجن المؤبد ونقل إلى جزيرة الشيطان وجُرد من رتبته وبدلته العسكرية في احتفال عام أمام 20 ألف باريسي كانوا يهتفون «الموت لليهود!»

على الرغم من أن راحيل نفسها تحولت إلى البروتستانتية، فقد كانت قلقة من أن التهمة التي وجهت إلى دريفوس بالولاء المزدوج قد تعرض للخطر المكاسب التي حققتها هي وغيرها من اليهود. وكتبت تقول: إنه ليس هناك ما هو أعظم من الارتباط والولاء اللذين أظهرهما أبناء العرق العبري لأي بلد يعاملهم بشكل جيد».

كشفت إحدى الصحفيات العاملات في صحيفة الأوبزرفر عن أدلة تفيد بأن الذين أثاروا قضية دريفوس قد استخدموا وثائق مزورة لتشويه سمعته. فواجهت المزور واستجوبته في غرفة أحد الفنادق وقررت نشر القصة. تم إلغاء الإدانة التي وجهت إلى دريفوس لاحقًا، وأعيدت له رتبته الكاملة.

رغم كل ما قامت به راحيل فإن ذلك لم يفتح أبواب عائلة ساسون لها. دافعت راحيل عن تجارة الأفيون التي كان يمارسها آل ساسون في صفحات الأوبزرفر، لكنها لم تُدعَ قط للانضمام إلى شركات العائلة أو حضور الأمسيات والحفلات الراقصة التي كانت العائلة تنظمها للترفيه عن أمير ويلز. في عام 1896، ساءت الحالة الصحية لفريدريك زوج راحيل. قال الأطباء إنه قد يكون مصابًا بمرض السل، أو ربما كان مصابًا بمرض

الزهري، نتيجة كثرة علاقاته الجنسية. بدأت راحيل، التي تدربت كممرضة، في الاعتناء به بالإضافة إلى إدارة صحيفتيها. بعد وفاته في عام 1901، أصيبت بالاكتئاب، ولم تتمكن من كتابة مقالاتها وافتتاحيات صحيفتيها. حشد أفراد عائلة ساسون جهودهم ضدها. بسبب كونها امرأة عاملة متمردة وغير تقليدية تقوم بعمل الرجال. لطالما اعتبرتها عائلتها امرأة غريبة الأطوار ولا يمكن التنبؤ بتصرفاتها. باتت الآن أرملة ثرية بدون أطفال. وصف أحد أقارب ساسون الذي زارها حالتها النفسية حيث بدت هادئة في لحظة ما ثم بدأت في «الحديث بحماس شديد». رفضت راحيل تقديم وصية زوجها إلى المحكمة الأمر الذي أثار الشكوك حول من سيرث ثروته. قدم شقيقها، الذي لم يرها منذ خمسة عشر عامًا، التماسًا للمحكمة مدعيًا بأنها كانت «مختلة العقل». وافق ثلاثة أطباء ومحامي عائلة ساسون على تقديم الطلب. مثلت راحيل أمام «مفوض هيئة رعاية المرضى العقليين» الذي عينته المحكمة، والذي أعلن أن راحيل مجنونة. نظرًا لافتقارها إلى دعم الأسرة وعدم قدرتها على المقاومة، فشلت المرأة التي أشرفت على جريدتي صنداي تايمز والأوبزرفر في الدفاع عن نفسها أو توكيل محامي دفاع أو استدعاء عدد من الأطباء للإدلاء بشهادتها نيابة عنها. تم بيع الصحيفتين اللتين كانت تترأسهما. أمضت راحيل بقية حياتها وهي تعيش وحيدة في قصر كبير تحت رعاية الممرضات. توفيت في عام 1927. ومثلما حدث مع ابنة عمها فلورا، ومع لورا خضوري ذات الحظ السيئ، فإن طموحات راحيل ساسون ذهبت أدراج الرياح. لقد جسدت مسيرتها المهنية مجموعة المفارقات التي عاشتها عائلة ساسون: فقد كانت ذات أفكار ليبرالية وشخصية اجتماعية وناشطة نسوية وفي نفس الوقت دعمت أيضًا الإمبراطورية البريطانية، ودافعت عن تجارة الأفيون التي جعلت عائلتها غنية ومؤثرة للغاية. كانت امرأة يهودية كسرت الحواجز وكانت تسعى جاهدة من أجل القبول الاجتماعي من خلال التحول إلى المسيحية، ولكنها وجدت نفسها عالقة بين تقاليد عائلتها اليهودية ومشاعر معاداة السامية التي تنامت في أوروبا. كانت امرأة ذات موهبة وطموح أصابهما الإحباط. بالنسبة لعائلة ساسون، لم يكن هناك ما يشير إلى أن القرن التاسع عشر -أو القرن العشرين- سيصبح قرن المرأة.

عندما عادت الحياة في شانغهاي إلى طبيعتها بعد قمع شيانغ كاي تشيك للتمرد الشيوعي، بدأ رجال الأعمال البريطانيون في منطقة التسوية الدولية وفي نادي شانغهاي يتبادلون الأقاويل عن عازب ثري قدم من إنكلترا يتوكأ على عصا، ولكنه ينضح بالأناقة والجاذبية الجنسية. بعد المشاكل التي عاشتها أسرة ساسون مع فلورا ومغادرتها إلى لندن، سارعت للعثور على شخص ما لإدارة أعمالها في آسيا، شريان الحياة المالي للأسرة. كان هذا السليل الجديد للعائلة، الذي يتخذ من بومباي مقراً له، يزور شانغهاي عدة مرات متكررة، ويستفسر عن الصفقات التجارية ويرافق النساء الجميلات إلى حلبات سباق الخيول، وقد اعتاد أن يضع زهرة القرنفل في عروة سترته، ومساكة السجائر الفضية تخرج من فمه بابتهاج. كان اسمه فيكتور ساسون، وريث عائلة ساسون. وهكذا أصبحت عائلة ساسون على وشك العودة إلى شانغهاي.

الفصل الخامس
رائد الأعمال

كيف حالك يا عزيزي؟

انحنى فيكتور ساسون، وعيناه الداكنتان تتراقصان بفضول وبلمحة من الشقاوة. كان شاربه الرفيع بمثل قلم الرصاص والنظارة بزجاجة واحدة التي كان يضعها على عينه اليمنى يمنحان كل نكتة وملاحظة يقولها صفة اللامبالاة. كان طوله أكثر من ستة أقدام، وصاحب كتفين عريضتين، وكان سباحًا جامعيًا قويًا في كامبريدج، بالإضافة إلى كونه ملاكمًا ولاعب تنس أفضل من المتوسط. يمكن للمرء أن يرى سبب انجذاب الرجال والنساء إليه –ثقته بالنفس، وفطنته السريعة، وروح السخرية. بالإضافة إلى ذلك، كان فيكتور عازبًا وواحدًا من أغنى الرجال في العالم. كانت لديه موهبة السياسي المتمثلة في جعل كل من يتحدث إليه يشعر كأنه مركز اهتمامه، كما لو كان– أو غالبًا ما تكون امرأة – هو الوحيد في الغرفة. أشارت الصحفية إميلي هان التي كانت تعمل في مجلة نيويوركر، التي من المحتمل أنها كانت على علاقة مع فيكتور في شانغهاي، في رسالة بعثتها إلى والدتها. «كان فيكتور لماحًا بشكل غير عادي وذكيًا، خاصة بالنسبة لكونه رجل أعمال، كان يحب الأذكياء».

كان فيكتور ساسون حفيد ديفيد ساسون عرّاب العائلة، يحب كل شيء مبتكر وجديد ظهر في عشرينيات القرن الماضي: السيارات السريعة والطائرات وأفلام الرسوم المتحركة ونجمات السينما. كان يحتفظ بكاميرا سينمائية خاصة به تكون دائمًا في متناول يده، حتى يتمكن من الاندفاع إلى

الخارج والتقاط الصور لأصدقائه أو اليخوت المغادرة، أو في وقت لاحق، القصف الذي يقوم به اليابانيون. وجهز إستوديو تصوير خاصًا لالتقاط صور لصديقاته في جميع مراحل خلع ملابسهن. وقام ببناء إسطبلات لتربية الخيول التي تشارك في مسابقات الخيول في جميع أنحاء العالم.

جذبت عيناه الثاقبتان وذكاؤه السريع الانتباه برغم العكازين اللذين أبقياه منتصب القامة ويساعدانه في السير نحو مكتبه وفندقه ونادي الرقص الخاص به. كان تحت الخصر رجلاً مشلولًا. فلقد أصيب في وركه في حادث تحطم طائرة أثناء خدمته خلال الحرب العالمية الأولى عندما كان في الخامسة والثلاثين من عمره. عكست مذكراته الخاصة معاناته – فكان يقضي ليالي طويلة بلا نوم، ويسعى في البحث عن أدوية وعلاجات تخفف آلامه، ويبحث عن الأطباء الذين يمكنهم جعله يمشي بشكل طبيعي مرة أخرى. ومثل فرانكلين روزفلت، فقد أظهر ثقة ورجولة تحدت إصابته. فكان لا يتوقف عن حضور الحفلات الفخمة، وكان يغادر فجأة إلى غرفة خاصة في الطابق العلوي عندما يشعر بوخزات من الألم تنتشر في جسده. كان أصدقاؤه الذين يتركهم حينها يسمعون أحيانًا دويًا في السقف فوقهم عندما يقع على الأرض. فكانوا يتظاهرون بعدم الانتباه.

أخفت الحركات المتصنعة التي كان يقوم بها فيكتور ومحاولاته العبثية لإيجاد علاج لحالته عقلًا تجاريًا ذكيًا. كان يتحدث الفرنسية بطلاقة، وكان يحب إلقاء الخطب، ويحتفظ بسجل دقيق عن كل من قابله حتى يتمكن من التأثير عليه لاحقًا. غالبًا ما استخف به خصومه في العمل، وكذلك فعل اليابانيون أيضًا.

أما في شانغهاي، فقد كاد ينفد عدد الأشخاص من سلالة ساسون الذين يقومون بإدارة الأنشطة التجارية للعائلة. كانت شركة ديفيد ساسون يديرها حفيده، ريجينالد، الذي وصفه كاتب سيرة العائلة بأنه «بطل حرب، ولاعب غولف وفارس، لكنه لم يكن عبقريًا في التجارة». كان ريجينالد يمضي معظم أوقاته في أندية شانغهاي ومضمار السباق. حاول هذا الرجل الأخرق امتطاء جياده وسقط خمس مرات خلال خمسة أسابيع، وكان يحدث له كسر في العظام في كل مرة. بعد حمله على نقالة في أحد السباقات، أصر

على العودة وامتطاء السرج بعد بضع ساعات من بدء السباق الأخير، وسط تصفيق الجمهور.

بدا ظهور فيكتور المستهتر في البداية حلًا سيئًا لمشاكل إدارة شركات ساسون. وُلد فيكتور في نابولي بينما كان والداه مسافرين، التحق بمدرسة هارو الإنكليزية الداخلية ثم جامعة كامبريدج حيث تخصص في التاريخ. أصبح قريبًا من «نونكي»، وهو لقب عم ساسون الذي كان يواعد المغنيات في النوادي وينفق ببذخ. وكونه كان مولعًا بالملذات الدنيوية وأكثر ثراء من معظم أصدقائه، أسس فيكتور ناديًا جامعيًا للعزاب كان يموله بالنبيذ الفاخر، وأصبح راقصًا بارعًا في حفلاته. أقسم أنه لن ينجب أبدًا. بعد تدقيقه لنسبه الذي يعود إلى عائلة ساسون، قال ذات مرة: «أنا مقتنع بأنني سأنجب إما ابنًا عبقريًا أو أحمق. إنها مخاطرة لست مستعدًا لتحملها».

حصل معظم الطلاب «المتميزين» مثل فيكتور من أبناء الطبقات العليا على «مرتبة الشرف من الدرجة الثالثة» في جامعة كامبريدج – وهي ما تعادل «المرتبة سي» في الولايات المتحدة. لكن فيكتور أظهر ذكاء شديدًا. ففي خضم انشغاله بالحفلات والرقص والإنفاق على الملابس والنبيذ، كتب أطروحة في التاريخ نالت تكريمًا محترمًا من الدرجة الثانية، وتفوق بذلك على العديد من أبناء عمومته أو على سيغفريد ساسون، الشاعر البريطاني الشهير الذي سيترك كامبريدج بعد بضع سنوات بدون أن يحصل على أي شهادة على الإطلاق.

بعد تخرج فيكتور، أخبره والده أنه، باعتباره أحد أفراد عائلة ساسون، فيفترض أن يبدأ العمل في المقر الرئيسي لشركة العائلة في لندن وأن يجد له عروسًا من بين العائلات اليهودية الثرية في إنكلترا. لكنه امتعض من الأمر. وبدلاً من ذلك، تلقى دعوة من عمه جاكوب –ابن المارق إلياس ساسون– لزيارة مصانع العائلة في الهند وشنغهاي.

سافر فيكتور برفقة جاكوب، الذي نظم رحلته، أولاً إلى بومباي، حيث زار مصانع النسيج التابعة لعائلة ساسون. وجرب تصليح المغازل ولفتت انتباهه أحدث التقنيات المطبقة في كل من مانشستر والولايات المتحدة، وطرح أسئلة ذكية على عمال الصيانة.

بعد ذلك قام جاكوب بإرسال فيكتور إلى شانغهاي، التي وجدها ذلك الشاب مدينة مثيرة للغاية. وقام بشراء الأحجار الكريمة مثل اليشم والعاج ليبيعها في شارع نانجينغ (الشارع التجاري الرئيسي في شانغهاي) وحضر الحفلات التي أقيمت على شرفه من قبل خريجي كامبريدج، وتناول المشروبات وانضم إلى جوقة الغناء. ولأن جاكوب لم ينجب أطفالًا، أصبح مولعًا بابن أخيه، الذي بدا أنه يتنقل بسهولة من الطبقات العليا في المجتمع إلى أكواخ الجنود الذين يرافقهم في رحلات الصيد أو لعبة البولو[1]. بحلول الوقت الذي غادر فيه فيكتور شانغهاي، كان جاكوب قد عينه شريكًا صغيرًا للشركة، على أمل أن يعود يومًا ما.

أثارت رحلة فيكتور إلى آسيا بعض آمال العائلة في أن يصبح شخصًا جادًا، لكنه سرعان ما عاد إلى أساليب حياته المعتادة في لندن، متجنبًا الحضور إلى المكتب ومفضلًا قيادة سيارته الجديدة ومشاهدة سباقات المناطيد التي تجري في الريف مرتديًا قبعته العالية، ومعطف الصباح، وواضعًا القرنفل في عروة سترته، مع نظارته المفردة[2] التي حشرت في عينه المتغطرسة وقد «أخذ في ذراعه أجمل فتاة في جوقة الغناء»، على حد تعبير كاتب سيرة العائلة.

كان فيكتور في الثالثة والثلاثين من عمره عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى. التحق بالخدمة الجوية البحرية الملكية المشكَّلة حديثًا. أطلق عليه رفاقه الجنود لقب «بابا» لأنه كان يكبرهم بعقد من الزمان. في وقت مبكر من صباح يوم فبراير 1915، جلس فيكتور في مقعد المراقبة بطائرته وهو يحدق في خرائطه بينما كان طياره الشاب قد أقلع بها. وفجأة بدأ المحرك يهتز ويصدر صوتًا متقطعًا ثم توقف. بدأت الطائرة تترنح ثم هوت إلى الأرض. أفاد الطيار في وقت لاحق أن فيكتور ظل «يقظًا ومنتبهًا، وباردًا كقطعة خيار». أصاب الحادث فيكتور بالشلل. فقد كسرت ساقاه ولحقت أضرار بوركه. وأعطي حقنة من المورفين ونُقل على نقالة إلى المستشفى.

1- العصا والصولجان–م

2- عدسة مفردة تستخدم لتحسين النظر، حيث تتكون من عدسة بإطار أو بدون إطار متصلة بسلسلة–م

ويتذكر الطيار ذلك الحادث قائلًا: «باتت الطائرة ميئوسًا منها وسيتم تحويلها إلى خردة».

بقت ساقاي فيكتور في قالب جبس لمدة ثمانية أشهر. ورفض استخدام كرسي متحرك. قال لأصدقائه إنه مقتنع بأنه ليس هناك امراة ترغب بالزواج منه الآن إلا من أجل ماله ومنصبه. وذكر لأحد أقاربه: «إنني إذا أنجبت أطفالًا أصحاء وجذابين، فلن أستطيع إلا أن أشعر بالغيرة منهم بشكل رهيب».

تم تكليف فيكتور بالعمل مع القوات الجوية الأمريكية وتطبيق معرفته التجارية لتسريع إنتاج القاذفات التي يتم تصنيعها في إيطاليا - وهذه هي بداية ما ستصبح مشكلة مدى الحياة بالنسبة لأمريكا. على الرغم من أن فيكتور كان ضابطًا بريطانيًا مسؤولًا عن مفرزة أمريكية، فإن الجنود الأمريكيين أظهروا «ثقة كبيرة» بأحكامه، كما سيذكر لاحقًا. لقد رحبوا بالطريقة التي تجاوز بها العقبات البيروقراطية، حيث قرر مقابلة جنرال أمريكي للحصول على موافقة لزيارة المصانع وهدده في حال عدم الموافقة بالتواصل مع صديق كان يعمل في الإدارة في واشنطن. وحين توجه بالقطار إلى إيطاليا لمرافقة كبار الضباط الأمريكيين في زيارة تفقدية، تبين أن الضابط الإيطالي المسؤول عن الأعمال اللوجستية كان يعمل في أحد مطاعم فيكتور المفضلة في لندن. خصص هذا الضابط الإيطالي لفيكتورعربة نوم فاخرة بينما كان الأمريكيون ذوو الرتب العالية ينامون طوال الليل جالسين في عربات عادية. في صباح اليوم التالي قال ضابط أمريكي لفيكتور «بدأت أدرك الآن كم من المفيد أن تكون معوقًا».

ازدهرت أعمال كل من شركة ديفيد ساسون الأصلية وشركة ابنه إلياس ساسون خلال الحرب، حيث زودت الجيش البريطاني بالقطن الذي تصنع منه بدلات العسكريين الرسمية ونشطت تجارتها مع الصين والهند وإنكلترا. أدت نهاية الحرب إلى تباطؤ الطلب على القطن الهندي في إنكلترا. وفاقمت من ذلك الأمر الإضرابات المتزايدة التي كان ينظمها العمال الهنود، الذين كانوا يحتشدون حول المهاتما غاندي ودعواته للحكم الذاتي. كان رمزه هو القماش الهندي البسيط، الذي قوض صناعة النسيج التي جنى فيها آل ساسون الكثير من أموالهم بعد أن أصبحت تجارة الأفيون غير قانونية. كان

العمال في الهند يطالبون بأجور أعلى. بدأ غاندي في شن حملات مقاطعة ضد البضائع البريطانية وفي الصين، بدأت اليابان بتشييد مصانع خاصة بها وشرعت في إغراق السوق الصينية ببضائعها.

ولأجل استعادة تفوقهم، كان آل ساسون بحاجة إلى زيادة رأس المال لتحديث مصانعهم. ولكن مع تزايد التحديات في عالم الأعمال، استمرت شركة ساسون التي تتخذ من لندن مقراً لها في إظهار الاهتمام الروتيني فقط بإدارة الشركة. تجاهل فيليب ابن عم فيكتور، الذي تسلق بسرعة مناصب في الحكومة البريطانية، الشركة تمامًا، وقضى وقته في تأثيث ثلاثة عقارات منفصلة بسجاد ومنسوجات ولوحات فنية من مدينة أوبيسون الفرنسية، بما في ذلك أعمال لفنانين مشهورين مثل الرسام الإسباني دييغو بيلاثكيث، وجون سينغر سيرجنت، وتوماس غينزبرة.

لم يكن أداء القادة المحتملين الآخرين أفضل بكثير. فوالد فيكتور، إدوارد، الذي تولى على مضض إدارة شركة إدوارد ساسون باعتباره صاحب أكبر عقلية تجارية بين الأقارب، توفي بعد أن عانى من سلسلة من السكتات الدماغية في الخمسينيات من عمره تركته ضعيفًا ويعاني من الخرف. أما سيلاس هارون الذي كان محبطًا بسبب انغماسه في العمل بلا هدف حين كان على رأس الشركة، وهو أحد «صبيان بغداد» الأصليين الذين كان ديفيد ساسون قد عينهم للعمل في شانغهاي، فقد ترك الشركة في عام 1920 وأسس شركته الخاصة، وبدأ بشراء العقارات في المدينة. بعد فترة وجيزة، توفي وريث محتمل آخر بنوبة قلبية.

فيكتور نفسه كانت لديه رغبة شديدة في خوض غمار السياسة. لكن في أول ترشحه لمنصب مجلس بلدية لندن عن حزب المحافظين، خسر بفارق مائة صوت. كان يبلغ من العمر أربعين عامًا، كان شخصًا وسيمًا وغنيًا، لكن إصابته في الحرب جعلته يشعر بالإحباط حيث بدا أنها ستدفعه إلى هامش المجتمع الثري، قرر فيكتور الانتقال إلى بومباي وتولي إدارة المصالح التجارية لعائلة ساسون.

فاجأ فيكتور الجميع، بمن فيهم مديروه، الذين افترضوا أنه سيكون

رئيسًا صوريًا غير محترف، فأحكم قبضته على الشركة. كان يتجول على طول أرض المصنع باستخدام عكازتيه، واستمر في بحثه الذي بدأه عندما زار بومباي لأول مرة، حيث صور المغازل وقطع الآلات المعقدة في مصانع النسيج التابعة لعائلة ساسون وأرسل برقيات إلى إنكلترا تحمل أفكارًا لإعادة تصميمها. واستفسر من مديري مختلف مكاتب شركات ساسون في جميع أنحاء آسيا حول ما يتعلق بالمنشآت الصناعية والتأمين والعقارات. وكشف عن امتلاكه موهبة خاصة في قضايا التمويل. وأدرك من خلال دراسته حالة المصانع والأصـول والاستثمارات في الهند والصين وبريطانيا، أن نقل الأموال يمكن أن يكون مربحًا مثل تصدير القطن أو استيراد التوابل. قام بتوسيع شبكة البنوك التي يسيطر عليها آل ساسون، الأمر الذي منحه إمكانية الوصول إلى عملات مختلفة في دول مختلفة للاستفادة من تقلب أسعار الصرف. فإذا قرر البرلمان رفع الضرائب في بريطانيا، يمكنه توجيه الأرباح حينذاك من خلال الشركات التابعة والصناديق الائتمانية في هونغ كونغ لتجنبها. وإذا كان الاضطراب السياسي في الهند والصين يجعل عملتهما أقل استقرارًا، فيمكنه تحويل أمواله إلى الجنيه الإسترليني. حمت معاملات التداول بالعملات أصوله وزادت أرباحه وأرسلت تدفقًا غنيًا من الأقساط إلى أقاربه في لندن لتمويل حفلات التصوير والمجموعات الفنية الخاصة بهم.

في الهند أصبح فيكتور، الذي تم فصله من عمله في لندن بصفته شخصًا لعوبًا ومستهترًا، رجلًا ذا نفوذ. تم تعيينه في المجلس التشريعي الوطني الاستعماري كممثل لصناعة النسيج. انغمس في المناقشات حول إصلاح العملة وتحسين ظروف عمل المصانع. كان يؤمن بالحكم الاستعماري وكان مقتنعًا بأن العناية الأبوية التي قدمتها عائلته للعمال الهنود قد أفادتهم. كانت ظروف العمل والأجور في مصانع ساسون هي الأفضل في الهند. وأيد قانونًا حدد أسبوع العمل بستين ساعة ورفع الحد الأدنى لسن الأطفال العاملين إلى اثني عشر عامًا، على الرغم من اعتراضات العديد من زملائه من أصحاب الملايين. كتب إلى صديق له: «لا أتظاهر بمعرفة أي شيء عن تلك المناقشات، فحتى وقت وصولي إلى دلهي، كانت المناقشة الوحيدة

التي استمعت إليها [كانت في الجامعة] ولم تطأ قدماي قط مجلس العموم».
ولكن باستثناء أشخاص قليلين، شعر فيكتور أنه لا يوجد أحد في الحكومة الاستعمارية البريطانية لا يستطيع مجادلته.

رأى فيكتور أن هناك تهديدات متعددة تلوح في الأفق السياسي للهند: المهاتما غاندي، والاشتراكية، واستقلال الهند. في عام 1922، قام أمير ويلز الوسيم -الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد الثامن- بزيارة نيودلهي. استقبله فيكتور عند ترجله من طائرته مع قادة آخرين. وسرعان ما نظم أنصار غاندي أعمال شغب وإضرابات لتدمير جولة النوايا الحسنة الملكية. رفض ونستون تشرشل، وكان سياسيًا مشهورًا في لندن، الانصياع لمطالب غاندي وحملته للعصيان المدني التي انتشرت في مختلف المدن الهندية ووصفها بأنها جهود «مقلقة ومثيرة للغثيان» يقوم بها «رجل مسكين مثير للفتنة»... «يمشي نصف عارٍ فوق درجات قصر نائب الملك». لكن فيكتور، الذي كان يعرف تشرشل عن قرب، حذره في رسالة بعثها له من أن غاندي «أصبح شخصًا مهمًا في جميع أنحاء الهند».´كان فيكتور يعتقد أن البريطانيين لا يمكنهم الاستمرار في قمع غاندي بوضعه في السجن. ووصف لصديقه لقاءه مع رجل أعمال هندي ثري في بومباي وتفاجأ بالشكوك التي يحملها رجل الأعمال تجاه الحكم البريطاني وتعاطفه مع دعوات غاندي للاستقلال. معلقًا «إذا كان رجل مثله لا يزال يحمل مثل تلك الشكوك، فماذا يفكر الرجل غير المتعلم؟»

اقترح ساسون أن يجذب البريطانيون غاندي إلى جانبهم، وأن ينشئوا تحالفًا لمعارضة الأعضاء الشيوعيين في حركته التي كان غاندي يواجه صعوبة متزايدة في السيطرة عليهم. تنبأ فيكتور في رسالة بعثها إلى صديق له: «في اللحظة التي تزيل فيها النظام البريطاني، تزيل الشيء الوحيد الذي يوحد الهند». وأن «الصعوبات التي يواجهها غاندي... يبدو أنها تتزايد بدلاً من أن تتضاءل رغم اقترابه من النجاح».

كان فيكتور نفسه يواجه مشاكل بسبب مشاعر الغضب المتنامية ضد الوجود البريطاني ومطالب العمال الهنود. في عام 1925، اقترح بناء مضمار سباق خاص في بومباي بتكلفة 500000 دولار (قياسًا بسعر

الدولار في عام 1925). كان فيكتور وأصحاب مطاحن بومباي يقترحون في نفس الوقت خفض الأجور بسبب انخفاض الطلب على المنسوجات. احتدم احتجاج إحدى الصحف المحلية في بومباي على المقترح: «كيف يمكن للمرء أن يصدق صرخات أصحاب المطاحن بأنهم لا يوافقون على مشروع السير فيكتور الطموح؟» وصفت صحيفة تايمز أوف إنديا اقتراح فيكتور بأنه «مناف للمنطق» وإهانة للعمال. وأوضحت الصحيفة: «يوجد ما يكفي في العالم من الأشياء التي يمكن للأغنياء أن ينفقوا أموالهم عليها دون الانغماس في الصرف على التفاهات والأشياء الباهظة الثمن». ومع ذلك لم يستطع تجنب استعلاء الأرستقراطيين البريطانيين وموظفي الخدمة المدنية الذين حكموا السياسة الهندية. كان فيكتور أحد أكبر أرباب العمل في الهند. تفاخر موظفوه بأن الحاكم العام البريطاني غالبًا ما يسير في الأماكن العامة خلف فيكتور ساسون. ولكن على الرغم من ثروة فيكتور، فإن المسؤولين البريطانيين ظلوا لا يستسيغون التعامل مع فيكتور وعائلته الثرية باعتبارهم حديثي نعمة، وأطلقوا عليهم مصطلح «boxwallahs»[1]، الذي يشير إلى التجار الذين كسبوا المال لكنهم يفتقرون إلى الموهبة والفطنة للحكم.

بدأ فيكتور زيارة شانغهاي لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر في السنة لتفقد أنشطة شركات إلياس ساسون في الصين. وعلى عكس الهند، كانت شانغهاي مستقرة ومزدهرة، ولا يوجد فيها سوى القليل من أنشطة التحريض السياسي. وضع شيانغ كاي شيك حدًا للتهديدات الشيوعية. جثمت الطائرات الحربية البريطانية في الميناء لحماية الأنشطة التجارية البريطانية. كان مجلس بلدية شانغهاي المكون من سبعة أعضاء، ويضم ممثلاً عن عائلة ساسون، يشرف على كل شيء بدءاً من الشرطة إلى الأشغال العامة. كانت الضرائب منخفضة. لاحظ ساسون كيف أن سيلاس هاردون، الذي كان يعمل مراقبًا ليلياً في إحدى شركات ساسون ثم أصبح مدير مكتبهم في شانغهاي، تركهم وأصبح

1- مصطلح ذو معنيين متناقضين على الأقل: أحدهما يشير إلى بائع متجول في الشوارع في الهند البريطانية والآخر يدل على أحد كبار المسؤولين التنفيذيين في الشركات، بشكل رئيسي في مدينة كلكتا، في الهند ما بعد الاستعمار-م

ثريًا عن طريق شراء آلاف الشقق في شانغهاي وتأجيرها للصينيين. باتت ثروته الآن تنافس ثروة فيكتور. حين كان فيكتور جالسًا في جناحه في أحد فنادق آل خضوري المطلة على منطقة البوند، شاهد سيارة كاديلاك يقودها سيلاس وهي تتسابق على طول الشارع مع عربات الريكشي. وبات يحضر الحفلات الفخمة ويرافق النساء اللواتي يرتدين ملابس أنيقة إلى سباقات الخيول.

كتب فيكتور إلى صديق له في عام 1927 بعد إحدى زياراته للصين: «لن تسوء الأمور أبدًا في الصين إذا كنا حازمين مع الحكومة القومية منذ البداية». «لقد طور الشياطين الأجانب المستوطنات الحالية. وشهدت ازدهارًا لأنها لم تسمح بالتدخل الصيني ولم تفرض الضرائب». كانت قوة غاندي المتنامية تهدد الوجود الاستعماري في الهند، لكن في الصين، كانت الحكومة القومية الجديدة ضعيفة – وكان آل ساسون يعتقدون أنها غير فعالة. وكان يمكن لرجال الأعمال الأجانب أن يفعلوا ما يحلو لهم، وهو الأمر الذي بدا مغريًا لفيكتور.

قرر فيكتور تصفية ممتلكات عائلته التي يعود تاريخها لما يقرب من قرن من الزمان في الهند ونقل أمواله إلى شانغهاي. وقال لصحيفة هندية إنه يغادر بسبب «المنافسة الشديدة مع الشركات الهندية» وبسبب «التحيز ضد الأجانب». انتشرت الأخبار التي تفيد بأن أحد أغنى رجال بريطانيا تخلى عن الهند من أجل شانغهاي في الصحف في جميع أنحاء العالم. خطط فيكتور لتحويل ما يعادل ستين «لك»[1] من الفضة – 400 مليون دولار بدولارات اليوم. لفتت تلك الأخبار انتباه جاردين، منافس آل ساسون القديم، وغذاها بجرعة نموذجية من مشاعر معاداة السامية. فقد كتب المدير التنفيذي لإحدى شركات جاردين، مشيرًا بسخرية إلى الخلفية اليهودية المعروفة لكثير من المديرين التنفيذيين في شركات فيكتور، أن مديري شركة ساسون الجديدة في شانغهاي «يضمون عددًا كبيرًا ممن يجب أن يكونوا من أفضل السلالات الإسكتلندية». ومع ذلك، حذر المدير التنفيذي، «من المحتمل أن يكونوا أخطر منافسينا في المستقبل، ومن الصعب التأثير عليهم».

1- وحدة في نظام الترقيم الهندي تُساوي مائة ألف–م

اشترى فيكتور أبرز موقع في منطقة البوند، وهو مبنى سكني كامل في المدينة، عند تقاطع طريق نانجينغ والواجهة البحرية، وبدأ في بناء منزل جديد للعائلة، سيعرف باسم بيت ساسون. وسيتألف من تسعة طوابق مع برج نحاسي في قمته - أعلى بخمسين قدمًا من أطول مبنى موجود في ذلك الوقت، وهو بنك هونغ كونغ وبنك شانغهاي، الذي يقع على بعد بضعة مبانٍ أسفل منطقة البوند وكان أكبر بكثير من فندق ماجيستيك العائد لعائلة خضوري الذي تم الانتهاء منه مؤخرًا والذي يقع على بعد ميل واحد. أخبر فيكتور المهندسين المعماريين أنه يريد دمج فندق جديد مع المبنى أيضًا. سيحمل الاسم الذي أطلقه ماركو بولو على الصين: كاثاي.

بقي فيكتور ينزل بشكل روتيني في أفخم فنادق العالم: تاج محل في بومباي، وجورج الخامس في باريس، وكلاريدج في لندن. وتعهد بأن فندق كاثاي سوف ينافسها جميعًا.

وعلى حد تعبير أحد النقاد المعماريين، فإن الفندق الجديد الذي كان يطل بارتفاع شاهق على منطقة البوند «كان مثل سفينة صاروخية مزخرفة بالآرت ديكو[1] ترتفع من نهر هوانغبو» قبل بناء فندق كاثاي، كان على السياح والأجانب والصينيين أن يشقوا طريقهم عبر شوارع شانغهاي وأسواقها الفوضوية لشراء السلع الفاخرة. تحت السقوف الفسيفسائية، كانت ساحة ردهة فندق كاثاي تضم عشرين متجراً تبيع أحدث القبعات، والملابس الداخلية، والبياضات من باريس، وأشياء للسائحين، مثل العصي الفضية ذات المقابض المصنوعة من اليشم. كانت الممرات مبطنة بمصابيح ومرايا من الكريستال. كانت ممرات رواق الفندق المؤدية إلى مداخل الفندق تتقاطع تحت قبة مثيرة. بالإضافة إلى غرف الضيوف، كان الفندق يضم عدداً من «الأجنحة الوطنية»، كان كل منها مزين بأسلوب أجنبي مختلف: حصائر التاتامي في جناح اليابان، والسجاد الهندي والوسائد في جناح الهند، والأثاث الصيني والسيراميك في جناح الصين. وخلفها كانت

1- موجة تصميم شعبية بزغت في فرنسا على أعتاب الحرب العالمية الأولى، وراجت بين عامي 1920 و1939، وأثرت بالعديد من الفنون كالعمارة-م

وسائل الراحة الحديثة تنبض بالرفاهية، وهي وسائل لم تعرفها لا شانغهاي ولا الصين على نطاق واسع من قبل. كان يمكن للنزلاء استدعاء نادل أو خادم ينظف الغرف أو منظفة أو عامل غسيل الملابس والمكوى عن طريق الهاتف. كانت أحواض الاستحمام العميقة تحتوي على حنفيات فضية تزود النزلاء بالمياه النقية من النهر الذي يجري خارج المدينة.

اعتمد أفراد الأجيال السابقة من آل ساسون الذين استقروا في شانغهاي على مجموعة متماسكة من البغداديين -مثل سيلاس هاردون- لإدارة أعمالهم التجارية. تخلى فيكتور عن هذا النهج، وخلق بدلاً من ذلك فريق إدارة عالمي. قام بتعيين مدير لفندق كاثاي من طاقم فندق تاج محل في بومباي، والمدير العام لشركة الفندق من طاقم فندق كلاريدج في لندن، ومدير النادي الليلي لفندق كاثاي من برلين، وأضاف إلى الأطعمة التي يقدمها الفندق أنواعًا متعددة من الأطباق التي تجمع بين التوابل والمقبلات الخفيفة.

انتقل فيكتور إلى جناح في الطابق التاسع. كانت نوافذه تطل على منطقة البوند مثل مقدمة السفينة، مما يمنحه إطلالة مباشرة على الميناء وعلى جميع المباني المزخرفة بالآرت ديكو الواقعة في الأسفل. أطلق على هذه الإطلالة «ربة إلهامه». قام بتركيب حوضي استحمام في الحمام. وقال لأحد أصدقائه «أحب أن يشاركني الآخرون سريري ولكن ليس حمامي».

جعل فندق كاثاي من الفنادق التي كانت تملكها عائلة خضوري، بما فيها فندق ماجيستيك الشهير، تبدو باهتة بالمقارنة معه. تخلى الضيوف عن النزول في فندق أستور هاوس الذي يعود لعائلة خضوري الواقع في منطقة البوند، بالقرب من فندق كاثاي، والذي كان لا يزال يطلب من الخدم حمل قدور ضخمة كان يفرغ فيها نزلاء الغرف فضلاتهم، بينما كان لدى فندق كاثاي سباكة داخلية. بين عشية وضحاها، جعل فندق كاثاي من فندق آل خضوري «مؤسسة من الدرجة الثانية»، حسبما كتبت صحيفة إخبارية تصدر باللغة الإنكليزية في شانغهاي. ووصف زائر أمريكي فندق أستور هاوس بأنه «هيكل خشبي أخضر باهت، يشبه الكهف، غرفه سقوفها عالية تفوح منها الروائح النتنة والعفنة». على النقيض من ذلك، تخلت نساء صينيات

نحيفات يرتدين بدلات شيونغسام أنيقة عن الذهاب إلى فندق ماجيستيك وبدأن بالتوافد على فندق كاثاي، واختلطن مع ضيوف الفندق الأجانب الذين يبحثون عن أحدث حفلات الشاي -وهي تقليد بريطاني يجمع بين شاي بعد الظهر والرقص- وأحدث صيحات موسيقى الجاز. وبدأ فنانو الملاهي الليلية الرائدون في العالم يقدمون عروضهم في قاعة حفلات كاثاي، التي تم تجهيزها بأرضية ذات نوابض للتشجيع على الرقص. كان الضيوف يطلبون مشروبات الكوكتيل الذي تخصص فيكتور في تحضيرها -ومن بينها مشروب «قبلة الكوبرا»، الذي يمزج أجزاء متساوية من البراندي والكوراساو والقشدة ويضاف لها ثلاث قطرات من شراب الأفسنتين ذي الطعم اللاذع. وكانوا يستمتعون بتناول «التيفين»- وهي غداء متعدد الأطباق مستوحى من الهند يتضمن، يوم الخميس، كاري الخضار على طريقة مدينة بومباي مصحوبة بزجاجة من مشروب الباس المثلج. وكانت خدمة الغرف تقدم طبق Capon Sourdough وهي عجينة مخمرة مع لحم الديك إضافة إلى مشروب الماديرا وكبد الأوز والكمأ، ونزع من الكيك يسمى «Crêpes Georgette» الذي يرش فوقه الأناناس المفروم ناعماً والمنقوع بمشروب الكيرشفاسر. (فيكتور نفسه، كان نحيفًا لكنه كان قلقًا دائمًا بشأن وزنه، وكان يأكل بحذر شديد وكتب في مذكراته: «حافظت على رشاقتي من خلال تناول الخضار»، «وكنت أتبع نظام الريجيم لتسعة أيام. الإفطار اليومي يتكون من: نصف حبة جريب فروت، وكوب قهوة سوداء. وسلطة مصنوعة من الليمون»). سمح امتلاكه لأراض زراعية واسعة أن يضمن لزبائنه أن الأسمدة المستخدمة في زراعة الخضروات التي تقدم في مطابخه آمنة، وأنه لا يستخدم الأسمدة المصنوعة من الفضلات البشرية.

بدأ يتوافد الأثرياء الصينيون على الفندق للاحتفال بأعياد الميلاد والمناسبات السنوية والمناسبات الخاصة الأخرى. في بهو الفندق، قام فيكتور بتركيب كابينة تسجيل تشبه كابينة الهاتف حيث يمكن للضيوف أن يسجلوا فيه تهانيهم وتحياتهم لمن يرغبون وبعدها يسلمون أسطوانة مسجّلة عليها أصواتهم ويحتفظون بها كتذكار. كتب فيكتور إلى صديق له: «بات الصينيون يخرجون أكثر بكثير مما اعتادوا عليه، ويمكن للمرء أن يقابلهم

نحيفات يرتدين بدلات شيونغسام أنيقة عن الذهاب إلى فندق ماجيستيك وبدأن بالتوافد على فندق كاثاي، واختلطن مع ضيوف الفندق الأجانب الذين يبحثون عن أحدث حفلات الشاي -وهي تقليد بريطاني يجمع بين شاي بعد الظهر والرقص- وأحدث صيحات موسيقى الجاز. وبدأ فنانو الملاهي الليلية الرائدون في العالم يقدمون عروضهم في قاعة حفلات كاثاي، التي تم تجهيزها بأرضية ذات نوابض للتشجيع على الرقص. كان الضيوف يطلبون مشروبات الكوكتيل الذي تخصص فيكتور في تحضيرها -ومن بينها مشروب «قبلة الكوبرا»، الذي يمزج أجزاء متساوية من البراندي والكوراساو والقشدة ويضاف لها ثلاث قطرات من شراب الأفسنتين ذي الطعم اللاذع. وكانوا يستمتعون بتناول «التيفين»- وهي غداء متعدد الأطباق مستوحى من الهند يتضمن، يوم الخميس، كاري الخضار على طريقة مدينة بومباي مصحوبة بزجاجة من مشروب الباس المثلج. وكانت خدمة الغرف تقدم طبق Capon Sourdough وهي عجينة مخمرة مع لحم الديك إضافة إلى مشروب الماديرا وكبد الأوز والكمأ، ونزع من الكيك يسمى «Crêpes Georgette» الذي يرش فوقه الأناناس المفروم ناعماً والمنقوع بمشروب الكيرشفاسر. (فيكتور نفسه، كان نحيفًا لكنه كان قلقًا دائمًا بشأن وزنه، وكان يأكل بحذر شديد وكتب في مذكراته: «حافظت على رشاقتي من خلال تناول الخضار»، «وكنت أتبع نظام الريجيم لتسعة أيام. الإفطار اليومي يتكون من: نصف حبة جريب فروت، وكوب قهوة سوداء. وسلطة مصنوعة من الليمون»). سمح امتلاكه لأراض زراعية واسعة أن يضمن لزبائنه أن الأسمدة المستخدمة في زراعة الخضروات التي تقدم في مطابخه آمنة، وأنه لا يستخدم الأسمدة المصنوعة من الفضلات البشرية.

بدأ يتوافد الأثرياء الصينيون على الفندق للاحتفال بأعياد الميلاد والمناسبات السنوية والمناسبات الخاصة الأخرى. في بهو الفندق، قام فيكتور بتركيب كابينة تسجيل تشبه كابينة الهاتف حيث يمكن للضيوف أن يسجلوا فيه تهانيهم وتحياتهم لمن يرغبون وبعدها يسلمون أسطوانة مسجّلة عليها أصواتهم ويحتفظون بها كتذكار. كتب فيكتور إلى صديق له: «بات الصينيون يخرجون أكثر بكثير مما اعتادوا عليه، ويمكن للمرء أن يقابلهم

في العديد من الحفلات». «إنه لأمر مدهش حقًا كيف أصبحوا أوروبيين، وكيف باتت السيدات على استعداد تمامًا لفعل أشياء لم يكن يسمع بها حتى قبل بضع سنوات».

بحلول منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي، بات يتوقف 40000 سائح سنويًا في شانغهاي، كانت تقلهم السفن العابرة للمحيطات الجديدة التي كانت تجوب أصقاع الأرض. في كل يوم، كان يتدفق عليها السياح من السفن القادمة من مدن تريستا وهامبورغ ولندن وأوسلو وسياتل وفانكوفر. لم تكن تكتمل أي رحلة بحرية عالمية بدون أن تتوقف في شانغهاي. تحول المشاهير الذين كانوا ينزلون في فندق ماجيستيك في شانغهاي إلى فندق كاثاي الأكثر حداثة وبريقًا. قام الكاتب المسرحي نويل كوارد بتسجيل لحظات وصوله، وكيف أصيب بالأنفلونزا، وكتب مسودة مسرحيته (الحياة الخاصة) وهو مستند إلى وسائده في جناحه في الفندق. كانت شانغهاي مدينة المال السهل والحياة المنفتحة. ويقال إن واليس سيمبسون، التي أثارت فضيحة في بريطانيا العظمى بزواجها من الملك إدوارد الثامن، قد التقطت ذات مرة صورًا في المدينة وهي لا ترتدي سوى طافية النجاة فقط. حينها كان فيكتور يضع شانغهاي حرفياً على خريطة العالم.

جاءت فيكي بوم، مؤلفة رواية الفندق الكبير، التي تم تحويلها لاحقًا إلى فيلم من بطولة غريتا غاربو، إلى شانغهاي وكتبت تكملة لها استندت إلى نوعية الحياة في فندق كاثاي الذي كان يختلط فيه أناس من جنسيات مختلفة: «كان هناك المتفائلون، والمتشائمون، والغربيون، والشرقيون، ورجال، ونساء. والأوروبيون، والأمريكيون، ومن بلاد المشرق. وتجد الشجاعة والجبن. والمثالية والجشع. والكراهية والحب. وأناساً من كل نوع ولون وميول. تعلو فيه الأصوات، والضوضاء، والضحك، وحفلات شاي، وأنخاب ويسكي. أوركسترا كاملة تجمع كل أصناف البشر: كان ذلك هو وقت تناول الشاي على حديقة السطح. «قضى تشارلي شابلن وبوليت جودارد، زوجته المستقبلية، إجازة في شانغهاي في عام 1936 وأقاما في فندق كاثاي (في المرة السابقة التي زارا فيها شانغهاي، أقاما في فندق أستور هاوس الذي يعود لآل خضوري وكان يقع في أقصى

منطقة البوند). في لقاء جمع تشارلي شابلن مع فيكتور في النادي الليلي للفندق أخبر تشابلن فيكتور أنه حريص على إنتاج فيلم يصوره في الصين حول كونتيسة روسية بيضاء تسعى إلى كسب لقمة العيش بالعمل راقصة محترفة – وهو الفيلم الذي عرض فيما بعد تحت عنوان كونتيسة من هونغ كونغ.

تراجعت الحجوزات في فندق ماجيستيك. في غضون عام من افتتاح فندق كاثاي، قام فيكتور بتشكيل مجموعة من المستثمرين، واشترى الفندق، وسرعان ما أغلقه وباع محتوياته بالمزاد.

أثار النجاح الذي حققه فندق كاثاي طفرة في أعمال البناء غيرت ملامح مدينة شانغهاي. بنى فيكتور فندقًا ثانيًا، هو متروبول، كان يستهدف المسافرين من رجال الأعمال. تبع ذلك ببناء العديد من المباني السكنية والأبنية التجارية والفنادق مثل غروفنر هاوس وامباركمنت هاوس وكاثاي مانسون وهاملتون هاوس وكلها تحمل أسماء بريطانية ملكية. وكانت تحوي على الإجمال على 1000 غرفة نوم وأجنحة مكيفة – بعضها موزعة على ثلاثة طوابق. عندما توفي سيلاس هارون، وبدأ أبناؤه يتقاتلون على ميراثه، تلقف فيكتور الفرصة واشترى العشرات من ممتلكاته. في إحدى الأمسيات، زار فيكتور ملهى ليليًا فيه قاعة رقص مشهورة فأخذه النادل هو وأصحابه إلى طاولة بعيدة عن حلبة الرقص. عندما اشتكى فيكتور من ذلك، اعتذر النادل وقال إنه كان يستخدم عكازين، وقد افترض أنه غير قادر على الرقص. غادر فيكتور المكان، واشترى موقعًا قريبًا، وبنى نادي سيرو، الذي أصبح أكثر نوادي الرقص شهرة في المدينة.

أدى ازدهار حركة البناء إلى جعل العقارات في منطقة بوند تصبح أكثر تكلفة من العديد من مواقع البناء في الأجزاء العصرية في لندن أو نيويورك. بحلول عام 1935، استعاد فيكتور كامل استثماراته في شانغهاي من خلال العقارات وحدها، بقيمة 87 مليون يوان، أو 460 مليون دولار بدولارات اليوم. أضاف فيكتور في ذلك الحين إلى إمبراطوريته العقارية، مصانع النسيج وتجارة الأخشاب وأحواض بناء السفن وشركة شانغهاي للحافلات وتجارة السيارات وخدمات التخزين ومصنع الجعة. عندما أصبحت قطعة

أرض شاغرة متاحة بجوار فندق كاثاي، وصل إلى علم فيكتور أن الحكومة القومية تخطط لبناء بنك الصين على ذلك الموقع بارتفاع ثلاثة وثلاثين طابقًا، مما يجعل فندق كاثاي يبدو قزمًا إلى جانبه. لكن ممتلكاته الضخمة منحته السيطرة على مجلس بلدية شانغهاي، الهيئة التي يسيطر عليها الأجانب والتي كانت تتحكم في تصاريح البناء على طول منطقة البوند.

على عكس عائلة خضوري، لم يتعامل آل ساسون على المستوى الشخصي كثيرًا مع الصينيين. لم ينظروا إليهم قط على أنهم متساوون معهم وخصصوا المزيد من طاقتهم لتقوية صلاتهم بالأرستقراطية البريطانية. يتذكر الأحفاد أنه كانت لديهم عاطفة حقيقية تجاه الهند وبغداد، التي قدموا منها. فكانوا يحضرون الكاري الهندي والحلويات الشرق أوسطية الحلوة ويتحدثون بمودة عن بومباي. لا تكشف رسائلهم سوى القليل من الإشارات إلى وجود علاقات جوهرية لهم مع الصينيين. كانت الصين مكان عمل بالنسبة لهم ليس إلا.

كان فيكتور مختلفًا. كان يفكر ذات مرة في دخول السياسة في بريطانيا وكانت لديه مصلحة في بناء التحالفات. في الهند، كان بالفعل شخصية عالمية للغاية، مدركًا للتفاعل بين الأعمال والتجمعات الاجتماعية – وهو شيء كان آل ساسون يفعلونه بمهارة في لندن، حيث أدى تقربهم من الملك والعوائل الأرستقراطية إلى استمرار تجارة الأفيون في الهند. رغم الرفض الشعبي. تضمنت مذكرات فيكتور الاجتماعية نظامًا دقيقًا مرمزًا بالألوان: فقد شدد على أسماء الأشخاص الذين يعرفهم باللون الأزرق، والأشخاص الذين التقى بهم لأول مرة باللون الأحمر. واحتفظ بمخططات لأماكن الجلوس في مآدب الغداء والعشاء، مع إيلاء اهتمام خاص للعائلة المالكة الهندية ورجال الأعمال البارزين.

أدرك شيانغ كاي تشيك والحكومة القومية الجديدة في وقت مبكر مدى الاستفادة التي يمكن أن يقدمها فيكتور اقتصاديًا وسياسيًا. كانت شانغهاي، في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، المركز الاقتصادي للصين، وموطنًا لما يقرب من نصف البنوك والمصانع الكبرى. كان لدى القوميين أجندة طموحة لتحديث البلاد. وقد احتاجوا إلى الضرائب لتمويل الجيش

الذي كان يحارب «قطاع الطرق» الشيوعيين بقيادة ماو في الجبال الشمالية وفي أجزاء من الريف. جمع شيانغ في البداية الأموال التي يحتاجها من خلال التحالف مع عصابات شانغهاي التي كانت تقوم باستفزاز وابتزاز واختطاف رجال الأعمال الصينيين الذين اكتسبوا ثراءً بسبب ازدهار شانغهاي. ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن «محنة التاجر الصيني في شانغهاي وحولها كانت أمرًا يرثى له». «فالتجار الذين كانوا تحت رحمة دكتاتورية الجنرال شيانغ كاي شيك، كانوا لا يعرفون ما الذي يخبئه لهم الغد، فقد تكون مصادرة لممتلكاتهم، أو القروض الإجبارية، أو النفي، أو الإعدام المحتمل». اعتقل القوميون بقيادة شيانغ كاي شيك ابن تاجر أصباغ باعتباره «معاديًا للثورة»، ولكن تم الإفراج عنه عندما «تبرع» والده بمبلغ 200000 دولار لشيانغ. ودفع تاجر آخر نصف مليون دولار عندما اختفى وريثه البالغ من العمر ثلاث سنوات. أمرت الصين بإلقاء القبض على رونغ، ملك تجارة القطن، عندما رفض شراء السندات الحكومية.

لم تنجح تكتيكات الذراع القوية هذه مع فيكتور أو مع أجانب آخرين مثل آل خضوري. كان كسب دعمهم أمرًا حاسمًا ليس فقط للاستثمار التجاري، ولكن أيضًا للحفاظ على دعم الولايات المتحدة وبريطانيا. وسوف يعطي إشارة إلى الشركات الأجنبية الأخرى والمستثمرين الصينيين أن الحكومة القومية كانت موثوقة سياسياً. كان الطريق إلى تحديث الصين والنجاح السياسي للحكومة القومية يمر عبر منطقة البوند.

منذ اللحظة التي أعلن فيها فيكتور عن نيته نقل ثروته إلى شانغهاي، أرسل شيانغ كاي شيك كبار مسؤوليه الماليين، المتعلمين في الغرب ويتحدثون الإنجليزية بطلاقة، إلى عقد سلسلة من لقاءات العمل على الغداء، حيث قدموا صفقات تجارية مربحة وعائدات عالية على الاستثمار.

قضى شيانغ كاي شيك والمسؤولون من حوله وقتًا طويلاً في استمالة المسؤولين الأمريكيين ووسطاء السلطة، بمن فيهم هنري لوس، الناشر ذو النفوذ للمؤسسة الإعلامية التايم، وقد أنشأوا ما أصبح يُعرف باسم لوبي الصين في الولايات المتحدة، ليحشدوا الصفوف لكسب التأييد الشعبي الأمريكي للنظام القومي الصيني. قام تي في سونغ، وزير المالية الصيني،

بكسب ود الجامعات الأمريكية باعتبار خريجيها هم النخبة التي كانت تدير الصين. وخاطب المستمعين الأمريكان في برنامج إذاعي «هل تعلمون أن أكثر من نصف مجلس الوزراء الحالي لحكومتنا هم من خريجي كلياتكم؟» «ويشرفني أن أكون من خريجي جامعة هارفارد. وكذلك الأمر مع أفراد عائلتي، فقد درست إحدى أخواتي، السيدة شيانغ كاي شيك، في جامعة ويليسلي. والتحقت شقيقتان لي، هما السيدة صن يات صن والسيدة إتش كونغ... بكلية ويسليان في ماكون في جورجيا».

كان فيكتور يعتبر نفسه السياسي الأبرز والأكثر مهارة واطلاعًا. وكان ممثلًا لمالكي مطاحن بومباي في المجلس التشريعي الهندي. ولقد كان يفهم مسار التدفقات النقدية وساعد في كتابة الأنظمة والقوانين المتعلقة بالإصدار النقدي في الهند. كان يعتقد أنه قام بتشخيص مستقبل الهند بشكل صحيح والمشكلة التي قد يتسبب فيها صعود غاندي لبريطانيا وللرأسماليين من أمثاله. كان مقتنعًا بأن نقل ثروته إلى الصين والاستثمار في شانغهاي كان خطوة ذكية على الرغم من الاضطرابات التي هزت بانتظام الحكومة القومية الصينية. كتب فيكتور من شانغهاي إلى صديق له: «الوقت يمر هنا أسرع من أي مكان أعرفه». «أعتقد أن السبب في ذلك هو أن هناك دائمًا الكثير من الأعمال. لدينا حروب وثورات وفزع وإنذارات وتحركات من جميع الأنواع يوميًا». ومع ذلك، اعتقد فيكتور أن «لا شيء يحدث حقًا».

كان القوميون يثقون بفيكتور أيضًا. بعد أسبوع من انتقاله إلى شانغهاي كان ضيف شرف يجلس على رأس طاولة لتناول العشاء مع كبار رجال الأعمال الصينيين والأجانب، وكان وزير المالية سونغ يجلس على يمينه. وقد عرضوا على فيكتور فرصة شراء السندات الحكومية التي تدر عائدات تتراوح بين 12 و15 في المائة في السنة - وهو معدل أفضل من أي استثمار آخر. كما دغدغ القوميون مشاعر الخوف من الشيوعية التي كان يحملها. في إحدى جلسات الغداء، أحضر مسؤولو الحكومة القومية معهم مسؤولًا عسكريًا كبيرًا لديه مصادر جيدة من وسط «المخربين» لإطلاعه على الوضع العسكري. وفي مكان آخر، التقى بمجموعة من رجال الأعمال الأثرياء الصينيين ممن يدعمون القوميين. وقد سجل في دفتر ملاحظاته «إنهم بلا

شك يؤمنون جميعًا بالقوميين في الحكومة». وقد بدوا جميعًا «على دراية تامة» بـ «العناصر المخربة».

جلب تحالف فيكتور مع القوميين المنفعة لكلا الجانبين. ورغم الكساد الذي كانت بقية دول العالم تعاني منه، واصل فيكتور جني الأموال في شانغهاي. وقد استخدمها لشراء الأصول في البلدان التي دمرها الكساد. اشترى أسهمًا في شركات أمريكية، وسندات في أستراليا، وحصة كبيرة في بنك فرنسي صغير. استخدم القوميون أموال السندات التي اشتراها فيكتور لتمويل جيشهم وتحديث الاقتصاد. بالإضافة إلى ذلك، كانت لديهم مكانة وتأييد من أحد أغنى رجال العالم الذي كان يتشاور معهم خلال وجبات الغداء والزيارات إلى مضمار السباق. في يونيو 1935، حضر كبار المسؤولين القوميون إلى فندق كاثاي وقدموا لفيكتور شخصيًا «ميدالية ذهبية من الدرجة الأولى»، وهي أعلى وسام صيني.

استفادت سمعة فيكتور أيضًا من دعم اللوبي الصيني الضخم في الولايات المتحدة، بقيادة هنري لوس. كان لوس نجل أحد المبشرين، وكان يعتقد أن القوميين هم مفتاح مستقبل الصين. لقد وضع موارد إمبراطوريته في مؤسسة التايم الإعلامية في خدمة القوميين، ومدح شيانغ كاي شيك وزوجته في صفحات مجلة التايم، وهي المجلة الإخبارية الأكثر نفوذاً في ذلك الوقت، وفي مجلة فورتشن Fortune، مجلة رجال الأعمال الرائدة. وفي عام 1935، أغدقت مجلة فورتشن المديح لما وصفته «بطفرة شانغهاي»، معلنةً أن «الصينيين يعيشون مرحلة حيوية جديدة. فقد أطلق اندماج الأفكار القومية مع النمط الغربي في العمل قوى جديدة لم تكن موجودة في عام 1860 أو حتى عام 1927». إذا كنت في أي وقت من العشرينيات من القرن الماضي قد قمت بسحب أموالك من الأسهم الأمريكية وتحويلها إلى شانغهاي على شكل استثمارات عقارية، فإنك ستضاعفها ثلاث مرات في غضون سبع سنوات.

أعلنت المجلة أن «رجلًا واحدًا في العالم نجح في هذا فعلاً» – وعلى صفحات المجلة، كانت تنتشر صور لشخص طوى ذراعيه على عصا ذات رؤوس عاجية وهو يبتسم ومعروف للقراء جيدًا، إنه فيكتور ساسون.

وأعلنت المجلة: «من الطبيعي أن يفضل العازب العيش في إحدى شقق السير فيكتور ساسون الأنيقة الجديدة». كان فندق كاثاي «أحد أفخم الفنادق في العالم، وبات ينافس أفضل الفنادق في مانهاتن». وفيكتور ساسون نفسه؟ «لقد ترك بصمته على شانغهاي من خلال مجموعة من مبانيه، ووجد فيها ملاذًا آمنا لثروته، لقد كان رجلًا عظيمًا بحق».

بينما زاد فيكتور من رهانه على شانغهاي، بدأ إيلي خضوري في نقل بعض استثماراته خارج المدينة وتوجه بها إلى هونغ كونغ، التي، كانت على عكس شانغهاي، مستعمرة بريطانية. وبالتالي فإنها كانت جزءًا ثابتًا من الإمبراطورية البريطانية، يديرها مسؤول بريطاني وتحميها القوات البريطانية. في عام 1920، قرر بناء فندقه الفخم، ريبلاس باي في الجزيرة وتبعه لاحقًا في نفس العقد من السنين فندق أكثر فخامة، هو فندق بينينسولا الذي يقع في منطقة كولون قرب ميناء هونغ كونغ. كما واصل العمل في خط ترام –خط سكة حديد عمودي– كان يشق جبل فيكتوريا وكان أحد أعاجيب الهندسة في آسيا. عندما حصل إيلي أخيرًا على جنسيته البريطانية، خرج من الظل وانضم إلى مجلس إدارة شركة الكهرباء والطاقة الصينية. حصل على لقب فارس عام 1926 وأصبح «واحدًا منا تقريبًا»، على حد تعبير رجل إنكليزي في شانغهاي.

ظل إيلي يجد أفضل فرص العمل لديه من خلال العمل مع الأجانب الآخرين. في عام 1926، قام خوسيه بيدرو براغا، الذي كان والده البرتغالي قد استقر في ماكاو وحصل على وظيفة في شركة الكهرباء والطاقة الصينية، برحلة مع إيلي في الجزء الريفي من كولون ليعاين قطعة أرض كبيرة مغطاة بحقول الأرز. كانت على وشك أن تباع بالمزاد. قال براغا لإيلي إن إمكانياتها التجارية «لا حدود لها». أسس إيلي شركة مع براغا، المهاجر البرتغالي، وروبرت هوتونغ، الذي أصبح، بالإضافة إلى استثماراته الأخرى، أحد أكبر مالكي العقارات في هونغ كونغ.

بدأ إيلي في بيع بعض أسهمه في شانغهاي بهدوء لغرض جمع الأموال لشراء قطعة الأرض في كولون. وفي حرب مزايدة شرسة، قام بالمزايدة على مجموعة من المستثمرين الصينيين. أطلق إيلي وشركاؤه على الموقع اسم خضوري هيل Kadoorie Hill ووضع المخططات لمد شارع في الموقع

سمي بشارع خضوري. بدأ إيلي في بناء العشرات من المنازل الفاخرة ذات الطراز الاستعماري، تحوي على ملاعب تنس ومواقف للسيارات -وهو أكبر تطور شهدته هونغ كونغ على الإطلاق، وشرع في بناء موقع جذاب للأجانب مثل إيلي وبراغا وهوتونغ كبديل عن الأماكن الأخرى في هونغ كونغ.، كان عبارة عن مخيم فخم وفاخر يطل على ميناء جزيرة هونغ كونغ عند قمة جبل فيكتوريا الذي يسيطر عليه البريطانيون. وعلى نتوء صخري يطل على البحر، عند أقصى الشمال من كولون في الأقاليم الجديدة، بدأ إيلي في بناء منتجع لقضاء عطلة نهاية الأسبوع يُعرف باسم بولدر لودج Boulder Lodge. كان فيكتور ساسون قد حكم على شانغهاي بأنها رهان أكثر أمانًا من الهند. اما بالنسبة لآل خضوري، فكانت هونغ كونغ تبدو أكثر أمانًا من شانغهاي- أو على الأقل وسيلة تحوط جيدة.

احتفظ فيكتور، على الرغم من الألم المستمر الذي كان يعانيه جراء إصابات الحرب التي تعرض لها، بجدول مواعيد للأنشطة التجارية والاجتماعية كان من شأنه إرهاق معظم الأشخاص، فكان يقضي الصباح في مكتبه في فندق كاثاي، ويتناول الغداء مع شركائه في العمل، وبعد الظهر يزور مضمار سباقات الخيل أو يزور استثماراته، وفي المساء يحضر حفلات العشاء الرسمية، وغالبًا ما يتبعها بالقيام برحلة بحرية على متن يخته أو يتناول المشروبات بعد العشاء في أحد نواديه. حول فيكتور فندق كاثاي إلى مكان لإقامة الحفلات التي أثارت الفضائح في المدينة على الرغم من أن الناس كانوا يتدافعون للحصول على دعوات لها. في إحدى الحفلات التنكرية التي تتعلق بالمدارس كان يطلب من الضيوف أن يصلوا وهم يرتدون زي تلاميذ المدارس. استقبلهم فيكتور وهو يرتدي زي مدير مدرسة، ووضع على رأسه القبعة الجامعية المربعة وعصا مصنوعة من خشب البتولا لضرب الطلاب المتمردين. وكانت هناك حفلة أخرى، دعي فيها أفراد الطبقة الراقية في شانغهاي إلى قاعة رقص فندق كاثاي التي تحولت ليلاً لتكون أشبه بحلبة سيرك كبيرة. وصل رجال الأعمال البارزون في المدينة وهم يرتدون أزياء الفنانين الجريئة. حضرت زوجة أحدهم مرتدية ملابس جعلتها تشبه الفقمة. كان فيكتور يرتدي زي مدير الحلبة، مكتملًا بقبعة علوية وشارب وسوط.

كان البعض يمتعض مما يجري معتبرين أنه محاولات دؤوبة لِلتسلق الاجتماعي. في إحدى الأمسيات في فندق كاثاي، تدخل فيكتور في محادثة كانت تجري بين أرستقراطي بريطاني زائر وامرأة شابة. فصاح به الأرستقراطي: «ارجع إلى بغداد! ارجع إلى بغداد !».

وقد علقت امرأة بريطانية ثرية على تلك الحادثة بالقول «صحيح أنه كان يهوديًا، لكن لا يمكن لأحد أن يتجاهل الرجل الذي يلعب الغولف مع أمير ويلز»، وأنا على ثقة أنه سيكون موضوعًا ساخنًا في النادي».

عندما لم يكن فيكتور يتفاوض بشأن الصفقات التجارية، أو يصور النساء، أو يخطط لتنظيم حفلات –وغالبًا أثناء قيامه بهذه الأشياء– كان يحضر سباقات الخيل ويزور إسطبلات خيوله المتنامية. كانت تلك السباقات تثير في فيكتور حب المقامرة ولكنها أيضًا، كما اعترف هو بذلك، كانت تغذي طموحاته الاجتماعية. وقد اعترف بأن الأشخاص الآخرين في عائلته «أكثر شهرة مني»: كان الشاعر سيغفريد ساسون معروفًا في جميع أنحاء إنكلترا بقصائده التي كتبها أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان ابن عم آخر له، هو فيليب ساسون، مساعدًا لرئيس الوزراء ديفيد لويد جورج. ثم خدم في مجلس الوزراء البريطاني.

قال فيكتور ذات مرة: «تعود شهرتي إلى حقيقة أنني أمتلك أفضل خيول السباق الإنكليزية في القرن». كانت خيوله خرافية بالفعل. وكانت تفوز بانتظام في السباقات الإنكليزية الكبرى، وكان كثيرًا ما يشاهدها وهو جالس في المقصورة الملكية، يتبادل الأحاديث مع الأرستقراطيين ورجال الأعمال. في شانغهاي، كانت مقصورته الخاصة في مضمار السباق المحلي ممتلئةً دائمًا بمعارفه من رجال الأعمال التجارية والنساء الصينيات والغربيات.

على الرغم من أنه كان معروفًا باسم فيكتور، فإن اسمه الكامل كان إليس فيكتور ساسون، واستخدم أول حرفين من اسمه لتسمية العديد من خيوله: ديوي إيف، وهابي إيف، وهوليداي إيف، وكورتنغ إيف، ويدنغ إيف، وهونيمون إيف، وأوبرا إيف. أما الأسماء الأخرى فقد أطلقها ليكسب حظوة لدى المشاهير – على سبيل المثال، أطلق على أحد خيوله اسم «بينزا»

على اسم مغني الأوبرا الإيطالي الشهير إزيو بينزا. وفاز بينزا بسباق الخيل الإنكليزي الأول، المعروف باسم ديربي. وكما يليق برجل المال الذي كان يستمتع بالقيام بالمناورات بالتلاعب المالي وإتقان تقلبات العملات، فقد استمتع فيكتور بدراسة سلالات الخيول وكيفية تكاثرها، والتزاوج بين السلالات المختلفة لإنتاج أبطال للسباقات.

كان فيكتور ساسون رائدًا لفكرة أن يكون رجل الأعمال من المشاهير. كان بقاؤه في فندق كاثاي، واستئجار شقة في أحد مبانيه، والجلوس مع المشاهير في مقصورته في مضمار السباقات، وحضورهم الحفلات الخاصة به - كل ذلك جلب الزوار إلى الدائرة الساحرة المحيطة بفيكتور. أصبح فيكتور ساسون أشهر شخصية في شانغهاي. عندما زار الممثل الكوميدي الأمريكي ويل روجرز المدينة، أطلق على فيكتور لقب (جي بي مورغان الصين والهند).

كانت الحياة الجنسية لفيكتور موضوعًا شائعًا للأقاويل. وقيل إنه التقى بسيرج فورونوف، الجراح الروسي المولد الذي كان يجري عمليات زرع شرائح رقيقة من خصيتي القرود في كيس الصفن البشري لتجديد الأداء الجنسي. كان يقوم بتدوين ملاحظات يكتبها أثناء تناوله وجبات الغداء مع السياسيين ورجال الأعمال الصينيين في مفكرته الخاصة، لكنه كان يلصق بعناية بين تلك الملاحظات صورًا عارية كان قد التقطها لنساء أوروبيات وصينيات. كانت تظهر بعضهن وهن مستلقيات بإغراء على الأريكة. فيما تظهر أخريات وهن يؤدين حركات رياضية أو يقفن عاريات الصدر أمام تماثيل بوذا، والمجوهرات في غطاء الرأس المتقن تتدلى فوق حلمات أثدائهن. استأجر فتيات من الملاهي للعمل معه كـ «سكرتيرات». ذات مرة، كان أحد شركائه يجتمع معه في مكتبه في فندق كاثاي عندما دخلت شابة لتعلن أنها ستغادر شانغهاي. قام فيكتور بسحب درج في مكتبه مليء بالأساور الماسية وطلب منها اختيار إحداها كهدية. عندما قالت إنها لا تستطيع أن تتراجع عن قرارها، صرخ بها فيكتور، «خذي الدرج كله!» واستأنف الاجتماع.

انتشرت الأقاويل التي تتحدث عن أن فيكتور كان ثنائي الجنس. في إحدى الحفلات، اعترضت ابنة ممول صيني ثري عندما وضع فيكتور يده على ركبتها. ودفعته بعيدًا. وضع فيكتور يده على الفور على ركبة شقيقها.

لم يتزوج فيكتور إلى أن بلغ الخامسة والستين من عمره، عندما كان في المنفى في جزر الباهاما بعد أن استولى الشيوعيون على السلطة، فقد تزوج من ممرضته الأمريكية.

من بين جميع النساء المرتبطات بفيكتور، كانت الأكثر إثارة للاهتمام كاتبة أمريكية تدعى إميلي هان، بدأت في كتابة مقالات لصحيفة نيويوركر في أوائل العشرينات من عمرها. في سن الخامسة والعشرين، انتقلت إلى الكونغو البلجيكية حيث أمضت عامين تعمل في الصليب الأحمر. كانت تدخن السجائر بكثرة وتتناول المشروبات بحماسة. وصلت إلى شانغهاي في أبريل 1935 أثناء رحلة لها حول العالم مع أختها، وكانت تنوي البقاء بضعة أسابيع فقط لرؤية المعالم السياحية قبل الاستمرار في رحلتها نحو أفريقيا. كانت في الثانية والثلاثين من عمرها، وكانت قصة شعرها البني القصير على أحدث موضة، وكانت امرأة «مثيرة ومغرية». أشار مراسل مجلة التايم تيودور وايت في رسالة إلى والدته أن «إميلي هان هنا أيضًا». ووصفها بأنها «امرأة مجنونة ورائعة ومثيرة وجميلة.. وذكية بشكل غير عادي، تدخن السيجار وتتكلم الصينية، وكان كل رجل يراها يقع في هواها».

في أول ليلة لها في شانغهاي، حضرت هان محاضرة عن الكاتب دي إتش لورانس نظمها صديق لها في أحد المباني التي يملكها على بعد بنايات قليلة من فندق كاثاي. بعد المحاضرة وتناول العشاء، اصطحب فيكتور هان وشقيقتها في سيارة رولز رويس إلى منزله الريفي. بعد أربعة أيام دعاهما مرة أخرى وطلب من هان أن يلتقط لها صورًا في إستوديو التصوير الخاص به. عرض على الأختين ألبومًا كبيرًا احتفظ فيه بالصور العارية التي التقطها للعديد من أجمل نساء شانغهاي. وافقت هان على الفور، وأعربت عن امتنانها له لأنه طلب منها ذلك ولم يطلبه من أختها هيلين وتتذكر هان: «لم يطلب السير فيكتور من هيلين ذلك»، وظلت تقول، «أتمنى لو كان لدي مثل جسمك»، فلم يرد عليها السير فيكتور سوى بابتسامة. ثم قال: «لكن لديك شخصية لطيفة».

قررت هان البقاء في شانغهاي. منحها فيكتور جناحًا خاصًا في مبنى سكني فاخر يملكه.

كتبت إلى والدتها تقول «لقد عدنا الآن إلى فندق كاثاي، ونزلنا في جناح بدلاً من غرفة، لأن السير فيكتور جعلهم يعطوننا إياه بتخفيض كبير. إنه يمتلك كل المباني المهمة تقريبًا في شانغهاي». «عندما انتقلنا بالأمس، وجدنا سلة كبيرة من المشروبات الكحولية – ومن كل شيء تقريبًا يمكن أن يخطر ببالك، بما في ذلك الفودكا، وفوقها علبة من الجبن الكريمي اللذيذ».

وجدت هان وظيفة لها في صحيفة نورث جاينا ديلي نيوز – North China Daily News وعُيِّنت مراسلة لصحيفة نيويوركر في الصين. باتت تتناول العشاء وتتبادل الأحاديث مع فيكتور بانتظام. وكتبت إلى أختها أنها كانت مثل «قطة» «أحتفظ بكل ما عندي من رغبات وطلبات وأقدمها له، مرة واحدة في الأسبوع». بدأت تحضر الحفلات التي كان يقيمها فيكتور وترافقه إلى سباقات الخيل. في عطلات نهاية الأسبوع، كانا يستقلان يختًا كان قد صنعه في النرويج، ويصطحبان أصدقاءهما لصيد البط.

كانت هان –مثل فيكتور– صاحبة عين زائغة. فقابلت زاو سينماي، وهو كاتب صيني وسيم ومتزوج يعيش في باريس وناشر لمجلة أدبية. وصفته في قصة نُشرت في مجلة نيويوركر «عندما لم يكن يضحك أو يتحدث، كان وجهه ذو اللون العاجي يصبح بيضويًا تمامًا، لكن من يبحث عن الكمال، فحسبه أن ينظر إلى عينيه. ليتفحص جمالها المتواري والمذهل، كانتا مليئتين بالنور والحياة، كان فمه الناعم المنحوت مزدانًا بشوارب مثل شوارب أسلافه، تتحول إلى خطوط حادة عند زوايا شفتيه. كانت لحيته الصغيرة، التي لم تكن أكثر من مجموعة من الشعيرات في نهاية ذقنه، مزحة ماكرة في شبابه. في فترات الصمت والراحة يكون وجهه صافيًا للغاية، لكنه نادرًا ما كان في حالة راحة».

في أول لقاء جرى في الليلة الأولى لها مع فيكتور ساسون، تبادلت معه هان الأحاديث إلى وقت متأخر من الليل وعادت لالتقاط صور عارية. في أول لقاء جرى في الليلة الأولى لها مع زاو، ذهبت معه إلى مسكنه، ودخنت الأفيون، وبدأت معه علاقة غرامية.

في نفس الوقت الذي كانت تنام فيه مع زاو، أصبحت هان ودودة مع

زوجته وأطفاله وعائلته ودائرته الاجتماعية وبدأت تكتب عنهم قصصا خيالية رقيقة لصحيفة نيويوركر. كتبت هان حينها: «شيئًا فشيئًا، بسبب كل الأشخاص الصينيين الذين قابلتهم، وكل تاريخهم الذي سمعته، تمكنت من رؤية النوافذ الجديدة التي ستفتحها الصين». كتبت سلسلة من القصص الشعبية لمجلة نيويوركر حولت فيها زاو إلى «السيد. بان» وسخرت من الطريقة التي كان يسخر فيها الزوار الغربيون –بمن فيهم أولئك الذين أقاموا في كاثاي– من الصين. ووصفته قائلة: «كان شاحبًا كأنه شبح، ملتحيًا بقليل من خصلات شعر الصينيين الحقيقيين، يلبس رداءً بنيًا وقورًا، وعيناه الضيقتان الطويلتان فارغتان وبعيدتان، وكان بإمكانه أن يجعل أكثر السياح بلادة يفغر فمه دهشة لسماع المزيد من حكاياته». وتواصل وصفها للسيد بان. «في البداية يقتبس أقوالًا من كونفوشيوس وينظر لي بعين واحدة طلبًا لموافقتي، وكان يتحدث بالصينية مع النوادل.... لم يكن يعوزه قط الكلام بعد بعض الأمسيات المملة في أحد المطاعم، قلت له ذات مرة «هل تعلم أنك أول أجنبي يدخل إلى هنا على الإطلاق، لكنه لم يكن يهمه ما يقوله الأجانب عنه».

كثيرًا ما كتبت هان لوالدتها وأختها عن «الصعوبات العاطفية» التي تواجهها جراء تنقلها بين زاو وفيكتور. «من حين لآخر، يجد السير فيكتور، وهو أجمل رجل في العالم، سببًا ما ليقدم لي هدية، وأنا آخذها دون خجل، الجميع يفعل ذلك، لأنه أيضًا أغنى رجل في العالم وعلى عكس السيد. روكفلر يبدو أنه يرغب في إهدار أمواله بهذه الطريقة»، «طالما لم أسمح لنفسي بالانزلاق إلى عادة أن أتوقع منه أن يساعدني، أعتقد أن الوضع يظل آمنًا، أليس كذلك؟»

عندما غادر فيكتور في رحلة إلى الهند، كتبت هان إلى شقيقتها هيلين، «إنني حقًا أحبه يا هيلين؛ أنا أحبه حقًا. وأحب كل ما نعرفه عنه». من جانبه، عامل فيكتور هان بشكل مختلف عن النساء الأخريات اللائي كن يتنقلن معه. ما بدا أنها علاقة قصيرة تطورت إلى صداقة. كانت هان واحدة من عدة نساء سيصبح فيكتور قريبًا منهن ويثق بهن. عندما وقعت هان عقدًا لتأليف كتاب عن عائلة سونغ، عرضت على فيكتور مسودة للفصول الأولى. وتتذكر قائلة «لقد قدم لي معروفاً كبيراً». «حتى ذلك الحين، كنت أستخدم أصدقائي

القدامى من نادي مونداي الليلي كضحايا يستمعون لصفحاته، وأقوم بتجربة الكتاب عليهم فصلاً فصلاً. كانوا يستمعون، ويقيمون، ويقدمون بعض الاقتراحات اللطيفة، ويطرحون بعض الأسئلة، لكنهم استمروا في إخباري أنه من السابق لأوانه الحكم على الكتاب». لم يكن فيكتور مهذبًا هكذا. «لقد أرسل لي الفصول الثمينة التي كتبتها مع ملاحظة صريحة: «هذا هراء، قالها بشكل قاطع. لقد مللتني تلك الصفحات حتى الموت. لو لم أكن في السرير، لكنت نمت على الكرسي، وأنا أقرأه».

شرعت هان في إعادة كتابته. عندما قرأ فيكتور النسخة الثانية، أخبرها أنها أبقته مستيقظًا حتى الساعة الواحدة صباحًا. أصبح الكتاب من أكثر الكتب مبيعًا.

لكن نصائحها المبنية على خبرتها كانت سلاحًا ذا حدين. لم يعر فيكتور نفس القدر من الاهتمام لتحذيرات عشيقته من أن دعم الشيوعيين كان يتصاعد في شانغهاي. وكونها صحفية، فقد كانت ترى أن عدم المساواة بين ثروات الأجانب والفقر في الصين هو الذي كان يغذي هذا الدعم. اختلطت إميلي هان وعاشرت أصحاب الملايين مثل فيكتور، لكن عشيقها الصيني زاو سينماي قدمها أيضًا إلى المثقفين الصينيين والمفكرين اليساريين، بمن فيهم تشوإن لاي. وكتبت تقول: «حتى الأرستقراطيون، الذين أعرفهم هنا، يعترفون بأن الشيوعية هي الحل الوحيد للأزمة». أصبحت هان صديقة للسياسيين الصينيين، وقد حذرها أحدهم من أن «البريطانيين بحاجة إلى حالة صحوة وقحة».

لم يبال فيكتور بمخاوفها، وخيمت على تقييمه للأوضاع تعاملاته التجارية مع القوميين الذين أكدوا له أن الشيوعية لا تمثل تهديدًا، وكذلك الغيرة من علاقة هان المستمرة بزاو، التي كانت سرًا مكشوفًا في دائرة علاقات فيكتور الاجتماعية. وافتضح أمرها أمامه عندما استخدمت النطق الصيني للأسماء الأجنبية. ذات مرة عندما ظهرت إميلي في رحلة على يخته مرتدية بدلة السباحة الخاصة بها، لاحظ فيكتور أن بشرتها كانت صفراء اللون – علامة على اليرقان المحتمل بسبب تدخينها للأفيون مع زاو. صرخ فيها قائلاً: «لقد أصبحت تشبهين الصينيين أكثر من اللازم».

شعرت هان بصراع نفسي بسبب مظاهر الفقر التي رأتها. كانت تعتقد أن التواجد في الصين يعني التواطؤ مع هذا الاستغلال. وكتبت في مذكراتها: «لماذا تعترضون على وجود الحمالين في عربات الريكشا»، «عندما تتسبب في نفس القدر من الضرر بكل الطرق الأخرى، بمجرد أن تعيش مثل أجنبي في بلد مكتظ بالسكان في الصين؟ الحذاء الذي أمشي فيه من صنع رجل كادح؛ هو صانع الأحذية، الذي أنهكته مساوماتي على السعر، فيأخذ ما خسره من عماله، وهكذا يتم استغلالهم (من قبلي) تمامًا مثلما أقوم باستغلال عامل الحمالة (الريكشا)».

«فالعمالة الرخيصة في مدينة شاسعة مثل شانغهاي تعني الإنتاج الرخيص: الأثاث والأدوات المنزلية والملابس والتوابل. في جو هادئ، في شانغهاي كنت أجلس في مبنى مرتفع وفي الأسفل مني كومة من الحمقى الذين يعانون من نقص التغذية».

في عام 1935، وهو العام الذي أشادت فيه مجلة فورتشن بفيكتور و«الطفرة التي شهدتها شانغهاي»، أحصى مجلس بلدية شانغهاي 5950 جثة كانت مرمية في شوارع المستوطنة الدولية -لسكان صينيين ماتوا من الجوع أو المرض وكانت أسرهم فقيرة جدًا لدرجة لا تستطيع فيها دفنهم. بدأ مطعم Jimmy's Kitchen الشهير الذي كان مالكه طباخًا سابقًا بالبحرية الأمريكية وكان فيكتور يزوره كثيرًا، يقدم الهامبرغر ولحم البقر المحفوظ على شكل قطع كبيرة جدًا لدرجة أن كل زبون كان يغادر ومعه كيس كارتوني مملوء بالطعام- ليس لكلب العائلة، ولكن ليتم إعطاؤه للمتسولين الذين ينتظرون في الخارج. مكث الصحفي الأمريكي إدغار سنو، الذي سيسافر قريبًا إلى مدينة ينان ويوثق بتعاطف صعود ماو والشيوعيين، في الغرفة 303 في فندق أستور هاوس الذي تملكه عائلة خضوري، الذي يقع في أقصى منطقة البوند بعيدًا عن فندق كاثاي، وكتب بإيجاز عن الانقسام الصارخ بين الأغنياء والفقراء والأجانب والصينيين في شانغهاي. وكتب يقول إن الأجنبي في شانغهاي «يعيش في عالم خاص به». «بالنسبة له، هناك حوالي ثلاثة ملايين عامل صيني في شانغهاي الكبرى يشكلون خلفية كبيرة -وضرورية للتجارة والصناعة، لكن- من المؤسف أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا جميعًا مثلنا؟»

مع انتشار الاضطرابات في شانغهاي، تسللت الأفكار الراديكالية إلى موظفي فندق كاثاي. أصبح يانغ مينجليانغ، وهو ابن عائلة فقيرة من شانغهاي، عاملًا في الفندق مهمته تحية الناس عند باب مطعم فندق كاثاي. كان عمره اثني عشر عامًا. وأخبره المدير الأجنبي للمطعم «من الأفضل أن تعمل بجد من أجلي. أنت تعلم أن تعيين مئة نادل أسهل بالنسبة لي من البحث عن مئة كلب».

لكي يترقى يانغ في عمله ويصبح نادلًا، بدأ يدرس اللغة الإنكليزية في إحدى المدارس الليلية ويشتري الكتب والمجلات الإنكليزية، وكان من بينها كتب تتحدث عن الشيوعية وإذلال البريطانيين للصين – وهي الكتب التي كانت متوفرة في منطقة التسوية الدولية في المتاجر التي تقع بالقرب من فندق كاثاي. واستنتج من كل ذلك: «أن كل شخص مسؤول عن نهوض وسقوط بلاده». انضم يانغ إلى الحزب الشيوعي السري، وأثناء عمله كنادل في مطعم كاثاي الشهير وفي الحفلات الخاصة بالفندق، أصبح جاسوسًا مفيدًا ينقل أخبار مجيء وخروج القادة الصينيين القوميين، ولاحقًا، رجال الأعمال والمسؤولين اليابانيين. عندما غزا الشيوعيون شانغهاي في عام 1949، أصبح مسؤولاً رفيع المستوى في جيش التحرير الشعبي الذي احتل المدينة.

بدا فيكتور أحيانًا كأنه يتفهم هشاشة شانغهاي، وكيف أن انتشار الفقر بين سكانها الصينيين حدّ حتى من نجاحها الاقتصادي. كتب في عام 1932: «لن يتمكن الغرب أبدًا من الاستمرار في تزويد دول المشرق بالسلع الصناعية إذا لم يوفر أيضًا بعض الوسائل لزيادة القوة الشرائية للأشخاص الذين تستهدفهم السلع المصنوعة آليًا». وكان يفتخر بنفسه كونه كان يدفع لعماله الصينيين أجورًا أعلى تقريبًا من أي أجور يدفعها أي رجل أعمال غربي آخر في شانغهاي.

لكن دخول فندق كاثاي كان محظورًا على جميع الصينيين ما عدا الأغنياء منهم. في عام 1933، كتب زبون صيني إلى إحدى الصحف المحلية يشكو من أن الطابق الذي يحوي على مكاتب فيكتور في فندق كاثاي يحتوي على حمامات منفصلة، أحدها مكتوب عليه «للسادة» والآخر «للصينيين».

«ربما علينا ان نقترح أن تقوم إدارة الفندق ببناء مزلقة تمتد من طاولة أمين الصندوق في الفندق إلى النهر الموجود خارج الفندق حتى يتم إلقاء أموال الصينيين غير المرغوب فيهم في ذلك النهر. فهي لا يمكن أن تكون نظيفة بدرجة كافية لخلطها مع العملات المعدنية التي يتم تسليمها بأيد بيضاء».

بعد سنوات قليلة، قام الكاتب اليساري الصيني لو شوان بزيارة فندق كاثاي لرؤية صديق بريطاني. عندما دخل مصعد البهو، تجاهله عامل المصعد الصيني. بعد الانتظار لبضع دقائق، ارتقى لو شون السلم وصعد سبعة طوابق. وكتب لاحقًا، لا عجب، أن مواجهة مثل هذا الإذلال دفع العديد من الصينيين إلى «العيش في غرفة صغيرة وجعلوا البق يتغذى على أجسامهم».

كانت المشاكل السياسية والاقتصادية والانقسامات في شانغهاي هي الشبح الذي يلاحق اليابان بشكل كبير. فمثل الصين، كانت اليابان ترفض إقامة علاقات تجارية مع القوى الغربية قبل وصول السفن الحربية الغربية نحو منتصف القرن التاسع عشر. على عكس الصين، استجابت اليابان بشكل فعال وقوي لذلك التطور، وأصلحت نظامها السياسي، وأرسلت الطلاب والخبراء إلى الخارج للتعلم من الغرب، وأعادت تسليح نفسها لتصبح القوة المهيمنة في آسيا. في عام 1895، هزمت اليابان الصين في حرب كشفت مرة أخرى عن ضعف الصين. بعد عشر سنوات هزمت اليابان روسيا، لتصبح أول قوة آسيوية تهزم خصمًا أوروبيًا. وبسبب عزمها على تحويل شمال الصين إلى مستعمرة لها، والغيرة من الامتيازات التجارية التي انتزعتها الدول الغربية منذ حروب الأفيون، بدأت اليابان في عام 1931 في خلق سلسلة من الحوادث للسماح لقواتها بغزو المزيد والمزيد من الأراضي الصينية. كانت التجارة اليابانية مع الصين في ازدياد. أدار اليابانيون ثلاثين مصنعًا للنسيج حول شانغهاي، حيث جذبتهم، مثلهم مثل الأجانب الآخرين، مجموعة هائلة من العمالة الصينية الرخيصة. بحلول ذلك الوقت، كان أكثر من 30000 ياباني يعيشون في شانغهاي – ما يمثل ثلاثة أضعاف عدد البريطانيين. في نفس العام، لفق الجيش الياباني انفجارًا بالقرب من خط سكة حديد يملكه اليابانيون، وألقى باللوم فيه على منشقين صينيين، وغزا منشوريا، وخلق دولة

مانشوكو الصغيرة. نزل الطلاب والعمال الصينيون إلى الشوارع للاحتجاج على الاحتلال الياباني لمنشوريا والمطالبة بمقاطعة المنتجات اليابانية. انتقد فيكتور الاحتجاجات باعتبارها عملًا ميئوسًا منه وكتب إلى صديق له أن أولئك الموجودين في الحكومة الصينية «يرون أنهم لا يستطيعون خوض حرب مع اليابان»، التي كانت أقوى بكثير، و«مطالبات الطلبة للحكومة بمحاربة جميع الأجانب ليست عملية».

قصف اليابانيون شانغهاي في عام 1932، زاعمين أنه كان عليهم حماية المواطنين اليابانيين، وغزا الآلاف من الجنود اليابانيين المدينة، مع التركيز على المستوطنة اليابانية المعروفة باسم هونغكاو الواقعة شمال المستوطنة الدولية. شنت القوات الصينية هجومًا مضادًا، وانتشرت المعارك في جميع أنحاء شانغهاي التي تسيطر عليها الصين، وكانت تتحاشى الاقتراب من منطقة التسوية الدولية لتجنب إشراك بريطانيا أو قوى غربية أخرى.

كان فيكتور يتناول طعام الغداء في فندق كاثاي عندما فجر الصينيون قنبلة بالقرب من سفينة القيادة اليابانية التي كانت ترسو في الميناء. اهتزت أركان الفندق. أمسك فيكتور بالكاميرا الخاصة به وخرج وهو يعرج لالتقاط الصور. مرت رصاصة أطلقها جندي صيني فوق رأسه وحطمت نافذة إحدى الغرف المطلة على منطقة البوند. بدلاً من البحث عن مكان آمن في المستوطنة، حيث كتب فيكتور عنه «لقد كنا دائمًا في خطر أقل من أي خطر واجهته مدينة أمريكية في الرابع من يوليو[1]»، أمسك بكاميرته السينمائية الجديدة وقام بجولة في المناطق المدمرة مع ضابط أمريكي. وكتب في مذكراته: «يبدو المشهد الفعلي للقتال مثل أنقاض مدينة إيبر البلجيكية». «ربما أدق وصف لها أنها كانت مجموعة من الجثث المتناثرة نتيجة الأفخاخ المتفجرة».

قام بلصق صورة في مذكراته لمحطة سكة حديد قريبة تشتعل فيها النيران. وكتب تحتها: «إنها حقًا حرب».

في غضون بضعة أشهر، خفت حدة القتال. اعتذر اليابانيون لفيكتور

1- يوم الاستقلال الأمريكي-م

عن حادث إطلاق النار عليه. بموجب اتفاقية وقف إطلاق النار، أُجبر الصينيون على سحب معظم قواتهم من شانغهاي. بات اليابانيون يسيطرون على منشوريا، وتدفق الآلاف من اليابانيين إلى المدينة للإقامة في منطقة هوانغكوي المجاورة الواقعة شمال منطقة البوند، وكانت تحت السيطرة اليابانية الفعالة. بدأت الحياة تنتعش في فندق كاثاي. سجل فيكتور في مذكراته أن كاثاي أصبح «مكتظًا بمآدب العشاء والحفلات الصغيرة»، رغم وجود «عدد قليل جدًا من الشباب».

كتب له أحد أصدقائه أن اليابانيين «يعاملون شانغهاي على أنها ملك لهم وكل شخص فيها عدو لهم»، في حين أن الصينيين «يناورون فقط لكسب الوقت ويرفضون تسوية أي شيء، حيث لا توجد حكومة يمكنها أن تحكم حقًا في الوقت الحالي».

استأنف فيكتور أنشطته المفضلة، وعاود حضور السباقات وإقامة الحفلات المميزة في فندق كاثاي لكن الوضع المتوتر كان له أثره. عندما زار فيكتور، وهو الآن في الخمسينيات من عمره، لندن، أصيب صديقه بالصدمة لرؤية شعره الأسود الأملس وقد خالطه الشيب ووجهه مبطّن بالتجاعيد. كتب في مذكراته: «لم أكن أستمتع كثيرًا». «لا يزال أصدقائي الصينيون هنا ولكن يبدو أنهم لا يحصلون على صفقات جيدة. فمنهم من ذهب إلى كانتون والبعض الآخر إلى نانكينغ، على الرغم من أنني أقمت لهم حفلتين».

بدأت علاقاته المربحة مع حكومة شيانغ كاي شيك القومية في التدهور. علم فيكتور، كما علمت أمريكا لاحقًا، أن للقوميين أجندتهم الخاصة. كانت طفرة شانغهاي التي أشادت بها مجلة فورتشن في عام 1935، من نواحٍ عديدة، وهمًا من صنع الدولة. كان العائد المرتفع للسندات الحكومية يستنزف الأموال التي كان من الممكن استثمارها في البنوك والصناعة الصينية ووضع بدلاً من ذلك في أيدي مستثمرين مثل فيكتور وحكومة شيانغ كاي شيك والجيش. ازدهرت شانغهاي بينما وقع المزارعون والريف في الصين في حبائل كساد اقتصادي عميق وأصبحت الرسائل السياسية التي يبعثها الحزب الشيوعي أكثر جاذبية.

لقد استفادت الصين من العولمة حيث كان المستثمرون مثل فيكتور يبحثون عن عوائد عالية خلال فترة الكساد. وبات يعاني من نفس الآثار. ولكونه بات يشك في النقود الورقية كونها خاضعة للتزوير، حول فيكتور جميع أمواله إلى نقود من الفضة يمكن تحويلها إلى نقود ورقية أو يتعامل بها كما يشاء. في عام 1933، تخلت الولايات المتحدة عن معيار الذهب، لمصلحة العملة الورقية. ولإرضاء المطالب السياسية للدول الغربية التي تكثر فيها مناجم الفضة، بدأت في شراء الفضة بأسعار مرتفعة بشكل مصطنع وتخزين تلك الفضة في وزارة الخزانة الأمريكية. بالنسبة للممولين في شانغهاي -وفيكتور ساسون واحد منهم- كان هذا يعني أنه بدلاً من شراء السندات القومية، يمكنهم الآن بيع ممتلكاتهم الفضية إلى الولايات المتحدة مقابل ربح سريع وواضح بنسبة 10 في المائة. كانت النتيجة كارثية بالنسبة للاقتصاد الصيني. فقد خرج من الصين أكثر من 170 مليون دولار من الفضة في الأشهر الثمانية الأولى من عام 1934 - أي ما يعادل 3 مليارات دولار اليوم. وانخفضت مبيعات السندات. وبسبب عدم بيع السندات، تباطأ الزخم العسكري لقوات شيانغ. بات الجيش الأحمر بقيادة ماو قادرًا على اختراق حصار الحكومة القومية الضعيفة وبدء مسيرة الزحف الكبير نحو قاعدة جديدة آمنة في مدينة ي. كانت الحكومة القومية على وشك الانهيار المالي.

اتخذ القوميون سلسلة من الخطوات التي أدت فعليًا إلى تأميم البنوك الصينية ووضعها تحت سيطرة شيانغ كاي شيك. وطلبوا تسليم جميع مخزونات الفضة التي تحتفظ بها البنوك أو الأفراد إلى الحكومة مقابل النقود الورقية. أصبح القوميون يسيطرون الآن على المعروض النقدي وقيمة الفضة. وصف فيكتور وآخرون ما حدث بأنه «انقلاب شانغهاي المصرفي». لقد جاء من العدم، ومن المحتمل أن يكلف فيكتور ملايين الدولارات ويجمد قيمة الفضة التي كان يحتفظ بها، مما أجبره على استبدالها بالعملة الصينية التي يسيطر عليها القوميون.

التقى فيكتور وهو يشعر بالغضب مع لي مينغ، وسيطه المالي مع الحكومة القومية. كيف يمكن لشيانغ وقادة الحكومة القومية -وهم الأشخاص الذين يتناولون الغداء والعشاء مع فيكتور- اتخاذ مثل هذا القرار من دون تحذيره؟

أبلغ لي مينغ فيكتور بكل ثقة أن القوميين لم يستشيروا أي شخص خارج نطاق الحكومة الصينية.

بدأ القوميون الصينيون أيضًا بالمطالبة بأجراء تغييرات في مفهوم خارج الحدود الإقليمية – وهو المبدأ الذي وضع الأجانب والمعاملات التجارية الأجنبية خارج نطاق القانون الصيني وسلطة الحكومة الصينية. لم يقتصر الأمر على عمل الأجانب كدولة مستقلة في شانغهاي فحسب، بل إن حياة مليون صيني يعيشون في منطقة التسوية الدولية كانت أيضًا تحت سيطرة الأجانب، وليس الحكومة الصينية. وجد القوميون أن هذا الوضع غير مقبول. في عام 1930، أذعنت بريطانيا لمطالب الحكومة القومية وأعادت لها السيطرة على ويهايويي، حيث بدأ إيلي خضوري أولى خطواته في الصين. نتيجة ضغوط الحكومة القومية أضاف مجلس بلدية شانغهاي خمسة أعضاء صينيين إلى كادره، على الرغم من أن الأجانب ما زالوا يحتفظون بالأغلبية. كان مستقبل الاستثمار الأجنبي في شانغهاي «محفوفًا بالمخاطر»، كما حذرت دراسة أجريت بتكليف من غرفة التجارة البريطانية في عام 1931. «وهو يعتمد على استمرار حماية القوات والسفن الحربية التابعة لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة وفرنسا، وعلى درجة معينة من التسامح من جانب الحكومة الصينية».

كان فيكتور محاصرًا. جعلته شانغهاي أحد أغنى الرجال في العالم. بلغت قيمة ممتلكاته العقارية وحدها أكثر من نصف مليار دولار. لكنه كان سجينًا في قفص ذهبي. يعتمد نجاح الاستثمار في العقارات على نمو شانغهاي المستمر، وهو لم يعد حراً في إرسال أرباحه إلى خارج البلاد. فإذا كان القوميون يسيطرون على الفضة، فمعنى ذلك أنهم يسيطرون على البنوك، والقروض الممنوحة للمستثمرين، وقدرة الأجانب مثل فيكتور على نقل الأموال داخل وخارج البلاد. أنهى انقلاب شانغهاي المصرفي افتتان فيكتور بالقوميين وشيانغ كاي تشيك. عندما سيتقرب إليه الصينيون في السنوات التالية طلبًا للمساعدة ضد صعود اليابانيين وتهديداتهم بالغزو، سيرفض فيكتور. كتب إلى صديق له في لندن (البقاء على الحياد هو شعاري في هذا العمل، ولكن على المرء أن يحذر مما يقوله فقول الحقيقة الصادمة لن يوصلنا إلى أي نتيجة).

مثل البريطانيين والأمريكيين، رفض فيكتور تصديق أن اليابانيين، على الرغم من تنامي مشاعرهم القومية والتصريحات العدائية، سيذهبون إلى شن الحرب. وكتب إلى صديق له يخبره أن الجيش الياباني كان «حديثًا» و«مدرّبًا جيدًا» لكنه كان أقل من «المعايير الأوروبية الحديثة». كان الطيران الياباني في «حالة سيئة للغاية» وكان طياروهم في الصين «من الدرجة الثالثة». في صيف عام 1937، غادر فيكتور في رحلة إلى الهند. في 8 يوليو كان يتفحص شريط الأخبار وقرأ فيه أن القوات اليابانية والصينية اشتبكتا على جسر ماركو بولو خارج بكين. لقد كانت «حادثة» أخرى فبركتها اليابان. في غضون أربع وعشرين ساعة، كانت عوامة من الطرادات والمدمرات اليابانية تتجه إلى شانغهاي بينما كانت قاذفات القنابل تحلق على ارتفاع منخفض لتمشيط الريف. استعدادًا لاندلاع قتال آخر بين الصينيين واليابانيين، قامت القوات البريطانية وقوات المارينز الأمريكية بتطويق المستوطنة الدولية بالأسلاك الشائكة وأكياس الرمل. في صباح يوم السبت 14 أغسطس 1937، هاجمت الطائرات الصينية سفينة يابانية راسية بجانب منطقة البوند. فرت طائرتان صينيتان من المدافع اليابانية ومن الإصابة بقنابلها. لكن إحداهما سقطت مقابل فندق كاثاي مباشرة، في شارع مزدحم بالمدنيين، مما أدى إلى ارتفاع جدار من اللهب والحطام. في الشارع، احترقت السيارات بشدة، وأصبحت مقاعد الركاب مليئة بالجثث المتفحمة. وتناثرت مئات الجثث حولها – كثير منها كانت مقطعة الأوصال ولا يمكن التعرف عليها. تناثرت قطع من اللحم البشري على جدران فندق كاثاي ووصلت حتى الطابقين الخامس والسادس.

عندما عاد فيكتور إلى شانغهاي بعد شهر، كان القتال مستمراً. كتب في مذكراته أنه ذهب إلى «عدد من المنازل» ورأى «عدة جثث، كان منها جثث البستاني وأفراد عائلته». وقال بستاني صيني آخر لفيكتور إن ابنته تعرضت للاغتصاب من قبل جنود يابانيين. في ديسمبر، تحركت القوات اليابانية إلى أقصى الجنوب وغزت واحتلت نانجينغ. وصلت تقارير إلى شانغهاي عن تورط جنود يابانيين في عمليات اغتصاب وقتل جماعي لمدنيين صينيين. كان فيكتور قلقًا من أن اليابان قد تخوض يومًا ما حربًا مع بريطانيا والولايات

المتحدة. وأكثر ما ينذر بالسوء بالنسبة له أنه رأى أنه كان موضع شك لدى اليابانيين. واقتطع مقالاً نقل عن صحيفة يابانية مهاجمتها بريطانيا لمحاولتها إحباط صعود اليابان. «تم تصميم السياسة البريطانية لتضع عقبات اقتصادية في طريق اليابان، بينما كانت تأمل في الانهيار الاقتصادي والمالي لليابان»، كان هذا هو فحوى المقال الذي لصقه فيكتور في يومياته. وذكرت فيه الصحيفة اسم مواطنين بريطانيين اعتبرتهما أعداء اليابان في الصين وهما: السفير البريطاني لدى الصين وفيكتور ساسون.

بعد حلول رأس السنة الجديدة لعام 1938 بفترة وجيزة، جلس فيكتور في مكتبه في فندق كاثاي وكتب إلى رئيس العمليات الأوروبية في لندن يقول: «يبدو لي الوضع هنا أكثر جدية وخطورة مما كان عليه في أي وقت مضى، سواء من الناحية السياسية أو المالية». اليابانيون «وصلوا إلى مرحلة لا يبدو أنهم يخافون فيها من أحد». لقد اشتكى من أن الجنود اليابانيين في شانغهاي ضربوا مؤخرًا ضابط شرطة بريطاني كان يقود دورية في الشارع «لمجرد أنه، كما يقولون، لم يسحب سيارته بعيدًا عن الطريق بالسرعة الكافية للسماح لدراجة نارية تابعة لمجموعة من قوات الإنزال البحري الياباني بالمرور، وأعتقد أنه في هذا الصدد ستزداد الأمور سوءًا بدلاً من أن تتحسن». واشتكى من التأثير المستمر للانقلاب المصرفي، مما يعني أن القوميين لن يسمحوا له بإخراج أمواله من الصين. وإذا تولى اليابانيون مقاليد الأمور، فسوف تزداد سوءًا.

بعد أربعة أيام، كتب مرة أخرى: «الأمور تبدو خطرة حقًا الآن، ولا يمكنني رؤية ما يجب القيام به». كان يعتقد أن اليابانيين كانوا يستعدون للسيطرة على الصين اقتصاديًا. إذا حاول البريطانيون حصار اليابان أو فرض قيود تجارية عليها، «فسوف يعلنون الحرب علينا، متوقعين أنهم سيكونون قادرين على العيش في الصين عن طريق المصادرة بالجملة». وخلص فيكتور إلى أن البريطانيين يجب أن يبدأوا «بسحب كل بريطاني من الصين بما في ذلك المدنيون من هونغ ثم وقف كل التعاملات التجارية مع اليابان».

أنهى فيكتور الخطاب بإخبار مدير مكتبه في لندن أنه لا يريد أن يطّلع المديرون التنفيذيون والعاملون في شركاته في شانغهاي على آرائه «لا أريدهم أن يعرفوا مدى اكتئابي».

الفصل السادس

يجب الحذر فالوضع خطير جدًا

في يوم بارد وممطر من شهر نوفمبر 1938، بعد أحد عشر شهرًا من كتابة فيكتور رسائله المقلقة إلى لندن، رست سفينة الركاب الإيطالية الفاخرة كونتي بيانكامانو في شانغهاي وهي تحمل - أكثر من مائة لاجئ يهودي من ألمانيا وأستراليا. ظلت هذه السفينة تجلب على مدار سنوات عديدة، المشاهير والأثرياء إلى شانغهاي للإقامة في فندق كاثاي. أما الآن فهي تنقل اليهود الذين يدفعون ضعفي أو ثلاثة أضعاف أسعار الرحلة في السوق السوداء إلى المكان الوحيد المتبقي في العالم الذي يؤوي اليهود الفارين من النازيين. حيث رفضت دولة بعد أخرى توفير الملاذ الآمن لليهود الفارين من النازية، كانت شانغهاي -التي تقاسم إدارتها الصينيون واليبانيون والبريطانيون والفرنسيون- مدينة مفتوحة. لا أحد يحتاج إلى تأشيرة للدخول إليها ولا يمكن أن يطرد منها أحد.

كان أحد الركاب يدعى إريك رايزمان ويبلغ من العمر 12 عامًا من فيينا. كانت الأشهر التسعة الماضية بالنسبة لإريك وعائلته ضبابية وتحمل مزيجًا من مشاعر الخوف والقلق بالنسبة لإريك وعائلته. كان والده يدير متجرًا لبيع الفاكهة بالجملة؛ وكانت والدته ربة منزل افتتحت مطعمًا ناجحًا للأطعمة المعلبة في وسط مدينة فيينا. كانت التعليقات والتهكمات المعادية للسامية جزءًا من حياتهم اليومية، ولكن عندما توجه الجنود الألمان إلى فيينا في مارس 1938 لأجل احتلالها، اكفهر الجو. في يوم الجمعة الذي ملأت فيه الحشود شوارع فيينا وهي ترحب بهتلر، عاد إريك إلى شقته من اجتماع

الكشافة وسأل عن مكان والدته. قال شقيقه: «انظر هنا من النافذة». هناك، في الشارع الذي يسير بجانب المبنى السكني، رأى إيريك والدته تدعك الشارع لتنظفه كان الناس المتجمعون ينظرون إليها باستهزاء. ركض إريك ونزل الدرج لمساعدتها. دفعه الناس نحو الأرض وجعلوه يبدأ في الدعك أيضًا. وصرخوا به «أيها اليهودي، ساعد والدتك مثل يهودي صالح!». في الأسبوع التالي، وحين توجه بول أخو إريك، إلى مدرسته الثانوية رأى حشدًا متجمعًا بالقرب من المدخل. في الداخل، وفي الطابق الرابع، قامت عصابة من الطلاب الذين يرتدون شارات النازية بإمساك طالب يهودي وألقوا به فوق الدرابزين إلى الردهة في الأسفل. أصيب شقيق إريك بالذعر وهرب إلى المنزل، رافضًا الذهاب إلى المدرسة مرة أخرى. عاد والدهما إلى المنزل يائسًا ومحبطًا. فقد استولى شركاؤه المسيحيون على متجره.

بدأ آل رايسمان بالبحث عن طرق للهروب من فيينا. فأرسلوا رسائل إلى أفراد الأسرة الذين يعيشون في الخارج. تناوب إريك وشقيقه ووالده على الوقوف في طوابير تضم يهودًا آخرين أمام القنصليات الأجنبية، طالبين تأشيرات تسمح لهم بمغادرة النمسا. كانوا يقفون في الطابور ابتداءً من المساء حتى التاسعة صباحًا، عندما تفتح القنصليات. في بعض الأحيان يتم السماح بدخول أول خمسة عشر شخصًا، وأحيانًا العشرة الأوائل فقط. لكن أقصى ما كانوا يحصلون عليه هو استمارة طلب تأشيرة أو فرصة للقاء السفير أو القنصل وتقديم طلبهم.

رفضت السفارة تلو الأخرى التماس والده للحصول على تأشيرة، إلى أن عثروا ذات يوم على القنصلية الصينية. حدثهم القنصل، الذي كان يدعى هوو فنغ شان وكان يتكلم الألمانية وبدا متعاطفًا معهم بشكل غير عادي، عن شانغهاي.

كان هذا الدبلوماسي، واحدًا من جيل الصينيين الذين غادروا الريف الصيني متوجهين إلى شانغهاي ليصبحوا أثرياء ويتعرفوا على العالم. وُلِد «هوو» في ريف الصين عام 1901. بعد وفاة والده وكان في السابعة من عمره، قامت والدته بتسجيله في بعثة تبشيرية لوثرية نرويجية مجانية، ثم في مدرسة أنشأتها بالقرب منهم جامعة ييل. ومثل معظم الصينيين، كانت معتقداته

متجذرة بقوة في المبادئ الكونفوشيوسية. وأطلق على طفليه اسمين يشيران إلى معتقدات الكونفوشيوسية، فسمى الأول «الفضيلة» والثاني «اللياقة». لكنه انجذب أيضًا إلى الديانات الغربية، بما في ذلك اليهودية والمسيحية، وأصبح يجيد اللغتين الإنكليزية والألمانية. في عام 1926 شق طريقه إلى شانغهاي. جعلته كوزموبوليتانية[1] المدينة في حالة نشوة. تم رصده من قبل القوميين، الذين كانوا حريصين على تدريب جيل جديد من الطلاب الصينيين على اللغات الغربية والمعارف الأوروبية، وأرسلوه لدراسة الفيزياء في ألمانيا. عندما عاد هوو إلى الصين، تم تعيينه في وزارة الخارجية. في عام 1932، تم إرساله مرة أخرى إلى ألمانيا للحصول على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي من جامعة ميونيخ. وصل إليها فور وصول أدولف هتلر إلى السلطة. كان مفتونًا بالثقافة الأوروبية، لذا طلب الذهاب إلى فيينا وتم تعيينه هناك قنصلًا في عام 1937. طُلب منه مرارًا إلقاء محاضرات حول التاريخ والثقافة الصينية وصادق عددًا من المثقفين اليهود، بما في ذلك ثلاث شقيقات يهوديات ثريات. عندما جاء السياسيون الصينيون القوميون لزيارة أوروبا، حذرهم هوو من أن التهديد النازي حقيقي وأن معاداة النازيين للسامية كانت مميتة. وقال هوو لوفد صيني زائر «الوضع الآن يشبه حريقًا وصل إلى كيس ورقي وسوف تشتعل به النيران». وأن العواقب ستكون وخيمة جدًا وخاصة بالنسبة لليهود.

عندما سار هتلر إلى فيينا في مارس 1938، كان الاستقبال الحماسي له قد جعل هوو يشعر بالصدمة. كان الأمر أشبه بتحية المعجبين لنجم سينمائي. ذهب هوو إلى منزل عائلة دورون حيث تعيش الأخوات اليهوديات الذي سبق له أن قابلهن، وقال إنه سيحميهم. تتذكر إحدى الشقيقات: «لقد ادعى أنه بفضل وضعه الدبلوماسي، لن يجرؤ [النازيون] على إلحاق الأذى بنا». كان هوو يجلس في أحد المقاهي في فيينا حين جاء النازيون للبحث عن اليهود. وحث وزارة الخارجية الصينية على القيام بشيء لمساعدة يهود فيينا على الهروب، لكن القوميين كانوا يشترون أسلحة من ألمانيا ولا يريدون إزعاج الحكومة الألمانية.

1- تعدد الأجناس من كل بلدان العالم-م

لذلك، قرر هوو التصرف بمفرده. منح الأخوات دورون تأشيرة خروج، حتى يتمكنّ من الهروب إلى فلسطين. وعند مقهى يقع في آخر الشارع الذي توجد فيه القنصلية الصينية، بدأ بدعوة اليهود الواقفين في طابور على أمل الحصول على تأشيرة للقائه. وأوضح أنهم لا يحتاجون إلى تأشيرة لدخول شانغهاي. لكنهم يحتاجون إلى إظهار تأشيرة شانغهاي للحصول على تصريح خروج للهروب من النمسا. لذلك، بدأ هو بإصدار التأشيرات. بحلول يونيو 1938، بعد ثلاثة أشهر من ضم هتلر للنمسا، كان قد أصدر 300 تأشيرة وبعد أربعة أشهر، أصدر 1900. لم يسافر جميع حاملي تأشيرات هوو إلى شانغهاي، لكنهم تمكنوا من استخدام تلك الأوراق للحصول على تأشيرات العبور والهروب إلى أماكن أخرى - الولايات المتحدة وفلسطين والفلبين. كتب هوو لاحقًا في مذكراته العائلية: «اعتقدت أنه من الطبيعي أن أشعر بالرحمة وأن أرغب في المساعدة». «من وجهة النظر الإنسانية، هذا ما كان ينبغي فعله». وكتب في قصيدة أهداها لزوجته:

العطايا التي تمنحها السماء لا تأتي صدفة.

لا يتم تشكيل قناعات الأبطال باستخفاف.

بعد أن أصبحت تأشيرة شانغهاي في جيبه، حصل والد إريك على تصريح خروج لعائلته. باع جميع المفروشات الشرقية التي كانت تملكها عائلته واشترى بثمنها تذاكر سفر على متن قطار عبر سويسرا إلى إيطاليا، حيث استقل وعائلته السفينة كونتي بيانكامانو في نابولي، التي انطلقت بهم عبر قناة السويس والبحر الأحمر، وعبر بومباي، وسنغافورة، وهونغ كونغ قبل أن يصلوا بعد رحلة استمرت شهرًا إلى المياه الموحلة لميناء شانغهاي عند منطقة البوند. كان إريك يرتدي ملابسه الشتوية وخوذة من اللباد اشتراها عندما توقفت السفينة في مصر للعبور عبر قناة السويس. كان برفقته شقيقه -الذي كان لا يزال يعاني من الصدمة بعد أن رأى البلطجية النازيين يقذفون زميله اليهودي في الصف حتى الموت- ووالديه. من على سطح السفينة العابرة للمحيطات، حدق إريك وشقيقه وهما فاغران فميهما في المباني

المشيدة على طراز فن الآرت ديكو وهي تصطف على الواجهة المائية وعلى حشود الصينيين في الأسفل، وهم يتدافعون على طول الأرصفة وفي الشارع، وهم يصرخون ويتصايحون ويزعقون بلغتهم الغريبة وغير المألوفة.

وحينما كانا ينعمان النظر في الحشد المتجمع، اكتشفا لافتة باللغة الألمانية رفعها أحد الأشخاص الموجودين وسط الحشد كتب فيها: مرحبًا بكم في شانغهاي. لم تعودوا يهودًا ولكن من مواطني العالم. جميع مواطني شانغهاي يرحبون بكم.

قال له شقيقه البالغ من العمر خمسة عشر عاماً: «يبدو الناس مثل النمل».

نزل آل ريسمان من القارب، ومعهم عشرات اللاجئين الآخرين، تم تجميعهم في شاحنة مع أمتعتهم، ونقلهم إلى عنابر للنوم حيث تم توفير غرفة لهم وإطعامهم. على الرغم من أنهم لم يعرفوا ذلك، فإن المتبرع لهم كان فيكتور ساسون.

بدأ افتتان اليابان باليهود عام 1905 عندما ذهب وزير المالية الياباني إلى أوروبا لجمع الأموال لمحاربة الروس. ولغرض تمويل هجومهم، سافر تاكاهاشي كوريكيو، نائب محافظ بنك اليابان، إلى لندن ليرى ما إذا كان بإمكانه إقناع البنوك الأوروبية والأمريكية بإقراض اليابان. لقد كان طلبًا جريئًا – من بلد آسيوي مغرور يخطط لمهاجمة قوة أوروبية كبرى. في حفل عشاء في أبريل 1905، التقى تاكاهاشي مع جاكوب شيف، الرئيس اليهودي الألماني المولد لبنك كوهن ولوب وشركاه في أمريكا، مثل العديد من اليهود الأمريكيين، كان يكره روسيا والقيصر لمواقفهما المعادية للسامية وهجماتهما على اليهود التي أرهبت البلدات والأحياء اليهودية. قبل ذلك بعامين، اقتحمت عصابات روسية مسلحة بالسكاكين والفؤوس شوارع كيشينيف، وقتلت تسعة وأربعين يهوديًا واغتصبت العشرات من النساء. في أعقاب مذبحة كيشينيف، فر عشرات الآلاف من اليهود الروس إلى الولايات المتحدة وفلسطين. ناشد اليهود الأمريكيون ذوو النفوذ، بمن فيهم شيف، الرئيس ثيودور روزفلت للتدخل، ولكن دون جدوى.

في خضم سعي اليابان لبناء أسطول بحري ومهاجمة روسيا، رأى شيف

في ذلك فرصة لإضعاف القيصر المكروه. فهيأ أكثر من 200 مليون دولار في شكل قروض للجيش الياباني (أكثر من 33 مليار دولار بالدولار الحالي) وشجع المصرفيين الأمريكيين الآخرين على إقراض الأموال أيضًا. أسفر القرض عن تمويل بناء نصف البحرية اليابانية، التي هزمت بعد ذلك الأسطول الروسي في بحر البلطيق بشكل حاسم وساعدت اليابان على الانتصار على روسيا في عام 1905. أصبح تاكاهاشي وزيرًا للمالية، ثم رئيسًا للوزراء. أرسل ابنته للعيش مع شيف عندما درست في الولايات المتحدة. أصبح شيف أول أجنبي يحصل على وسام الشمس المشرقة من إمبراطور اليابان.

كانت إحدى نتائج انتصار اليابان على روسيا أن الجنود عادوا من الحرب بنسخ من كتاب بروتوكولات حكماء صهيون السيئ السمعة، وهو كتيب روسي مزور نُشر لأول مرة في عام 1903 وادعى أنه محضر اجتماع لقادة يهود يستعدون للسيطرة على العالم. بالاعتماد على قرون من معاداة السامية والأساطير والخرافات المعادية لليهود، تمت ترجمة البروتوكولات وإعادة إنتاجها في جميع أنحاء العالم. رعى هنري فورد طباعة خمسمائة ألف نسخة منه في الولايات المتحدة في عام 1920. استخدم النازيون الكتاب في دعايتهم المعادية للسامية وأمروا بتدريسه في العديد من المدارس. ضرب الكتاب على وتر حساس لدى العديد من العسكريين اليابانيين أيضًا. كانوا يحاولون فهم لماذا عارض الغرب وعصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى صعود اليابان وتوسعها في الصين. أعطى الكتاب جواباً سهلاً: لقد وقف اليهود وسيطرتهم الشيطانية بين اليابان ومكانتها الصحيحة في العالم.

ساعد على نشر هذه الآراء قبطان البحرية اليابانية الصاعد نجمه بسرعة، كوريشيجي إينوزوكا. ومن خلال الكتابة تحت اسم مستعار، ترجم إينوزوكا الكتاب والمقالات التي تحمل دعاية معادية لليهود إلى اليابانية ونشرها في الدوريات العسكرية اليابانية. وصف إينوزوكا اليهود بأنهم «مصدر الأفكار الشريرة» وأنهم كانوا «العقل المدبر لمؤامرات دولية ضد اليابان وراء الكواليس في بريطانيا والولايات المتحدة والصين وروسيا». وأنهم المسؤولون عن «لا أخلاقية الشباب الياباني من خلال

عرض أفلامهم». لقد سيطروا على «الصحافة الأمريكية وبالتالي الرأي العام وتحويلها ضد اليابان». وكتب إينوزوكا أن هجمات هتلر على اليهود كان «لا مناص منها»

لكن كتاب البروتوكولات لم ينتشر في اليابان كما حدث في ألمانيا، التي استوطنت فيها كراهية المسيحية لليهودية ومعاداة السامية لقرون، مما أدى إلى عزل اليهود في الأحياء اليهودية (الغيتو) ومن ثم تهجيرهم. في شانغهاي، كان اليهودي الوحيد الذي تعامل معه معظم اليابانيين أو حتى سمعوا عنه هو جاكوب شيف نفسه. كانت النتيجة أنه مع استمرار كبار الضباط في الجيش الياباني والبحرية في دراسة الغرب ومحاولة فهمه ابتكروا وصفة غير عادية لمعاداة السامية. واعتقدوا أن اليهود يتحكمون بالفعل في مقاليد القوة العالمية. ولكن على عكس النازيين أو غيرهم من المعادين للسامية الذين اعتقدوا أن اليهود بحاجة للإبادة، خلص العسكريون اليابانيون إلى أنهم يستطيعون إيجاد حلفاء نافعين لهم من اليهود، مثل جاكوب شيف، إذا اقتربوا من الطريق الصحيح. لم يرغب إينوزوكا في إبادة اليهود. أراد جذبهم وتسخير ثرواتهم وقوتهم لتمويل «مجال الازدهار المشترك لشرق آسيا الكبرى» في اليابان، وخاصة التنمية الصناعية لدولة مانشوكو الشكلية في شمال شرق الصين التي كانت دمية في يد اليابانيين. وخلص إينوزوكا إلى أن اليهود يمكن أن يكونوا بالفعل أعداء أقوياء. لكن يمكن أن يكونوا أيضًا حلفاء أقوياء.

اعتقد إينوزوكا أن محور القوة اليهودية في الصين كان فيكتور ساسون، أغنى رجل في شانغهاي، والداعم المالي للحكومة القومية، والصديق المقرب لـ هـ.هـ كونغ و ت.ف. سوونغ كبار مساعدي شيانغ كاي تشيك. كتب إينوزوكا أن اليهود هم «الحكام الحقيقيون للصين، لاقتصادها وقادتها». «وأن شيانغ يعتبر مجرد دمية في يد أسياده، الأثرياء اليهود، ولا سيما السير فيكتور ساسون».

كان الهدف: تحويل فيكتور ساسون إلى جاكوب شيف. كتب إينوزوكا: «سيكون من المهم أن ندرس بالتفصيل ونكتشف إلى أي مدى يمكننا الاستفادة من الشعب اليهودي». «ولذلك، يُنصح بشكل قاطع أنه ينبغي

تعزيز وكالات استخباراتنا وتكثيف البحث عن المعلومات على الفور». في خريف عام 1938، وصل إينوزوكا إلى شانغهاي ليبدأ عمله.

لم يكن الدين يعني الكثير لفيكتور. فلم يلتزم بقواعد النظام الغذائي اليهودي وكان أكثر ميلًا للتبرع إلى الكنيس اليهودي لتكريم عائلته بدلاً من حضور الشعائر الدينية. على الرغم من سماعه الإهانات المعادية للسامية من حين لآخر، فقد جسد انتصار الاندماج اليهودي وقبولهم في المجتمع. وفي الأماكن العامة، كان يتجاهل خلفيته اليهودية، ويركز بدلاً من ذلك على شهرته كرجل أعمال ورفيق مرح. وبحسب ما كان يذكر دائمًا «فإن السباق الوحيد الأكبر من اليهود» هو «الديربي» - وهو سباق النخبة البريطاني للخيول الذي كان فيكتور يمارسه وأشرك فيه خيوله الأصيلة.

على النقيض من ذلك، كان إيلي خضوري، على الرغم من الاشتباكات العرضية مع يهود آخرين في شانغهاي، أكبر متبرع يهودي في الجالية اليهودية في شانغهاي وزعيمها الفعلي. لقد أقنع صن يات صن بالمصادقة على وعد بلفور وكان منخرطًا منذ فترة طويلة في الحركة الصهيونية. كانت استثماراته في هونغ كونغ تنمو، ولكن لا يزال لديه الملايين المستثمرة في شانغهاي وعاش هناك لما يقرب من ثلاثة عقود. عندما بدأت مجموعات صغيرة من اللاجئين اليهود بالوصول إلى شانغهاي ابتداءً من منتصف الثلاثينيات، بدأ إيلي وقادة يهود آخرون في تنظيم وصولهم والتبرع بالمال لمساعدتهم. وقاموا بتزويد عائلات اللاجئين القادمة بالقوارب -ومعظمهم من المهنيين من الطبقة الوسطى- بغرف في منازل داخلية خاصة، في الجمعية الخيرية (جيش الخلاص)، وفي جمعية الشبان المسيحية الصينية. كانوا يقدمون للاجئين وجبات الطعام ويساعدونهم في البحث عن عمل. وحثوا المثقفين والسياسيين الصينيين على الضغط على الحكومة الألمانية للتخفيف من حدة سياساتها ضد اليهود. استحضرت السيدة صن يات صن التحالف بين زوجها الراحل وإيلي خضوري، وترأست وفداً توجه إلى القنصلية الألمانية في شانغهاي للاحتجاج على السياسات المعادية لليهود.

ولكن بحلول نهاية عام 1937 ومع وصول أكثر من مائة لاجئ في كل شهر وتشجيع النازيين لليهود على الفرار من ألمانيا، بدأ إيلي والقادة اليهود

الآخرون في طلب المساعدة للتعامل مع الأزمة الناشئة. فأرسلوا برقيات إلى المنظمات اليهودية في نيويورك ولندن للحصول على تبرعات وأرسلوا مبعوثين إلى كلتا المدينتين لطلب التبرعات شخصيًا من الوكالات اليهودية الكبيرة التي كانت تحاول التعامل مع هجرة اليهود من ألمانيا. ولكن قوبلوا بالرفض من الجميع. فقد ردت إحدى المجموعات اليهودية الأمريكية عليهم: «نحن آسفون جدًا، لا تتوفر لدينا ميزانية لهذه الأمور». عرف اليهود الأمريكيون والبريطانيون مدى ثراء رجال الأعمال اليهود في شانغهاي. فلماذا لا يطلبون تبرعات من المليونير اللعوب، فيكتور ساسون؟

قرر إيلي الذهاب لرؤية فيكتور في مكتبه في فندق كاثاي. كانت زيارة متواضعة. في السنوات التي تلت انتقاله من الهند إلى شانغهاي، استعاد فيكتور لآل ساسون مركز الصدارة في الأعمال التجارية في شانغهاي. ففندق كاثاي جعل من فندق بالاس الواقع في شارع نانجينغ والعائد لآل خضوري يبدو قزمًا بالمقارنة معه، واشترى فندق ماجيستيك ومن ثم أغلقه وهو الذي كان فندقا مرموقًا في يوم من الأيام. كانت قاعة ماربل هول في قصر إيلي خضوري لا تزال مسرحًا للحفلات الأنيقة، لكنها لم تتمكن من التنافس مع بريق وإثارة الحفلات التنكرية التي كان ينظمها فيكتور. نادرًا ما كانت قائمة المدعوين لحفلات آل خضوري موازية لما تحفل به قوائم الدعوات لحفلات فيكتور من مدعوين - فلم تكن حفلاتهم ممتعة كثيرًا. لكن إيلي أدرك أن التدفق المتزايد للاجئين إلى شانغهاي يتطلب تشكيل جبهة موحدة. كان لفيكتور تأثير في لندن وبين اليابانيين. ومهما كانت مشاعر فيكتور تجاه الحركة اليهودية، فقد احتاج إيلي واللاجئون إلى ثروته وعلاقاته. أظهرت الأخبار الواردة من ألمانيا ويأس اللاجئين الذين يتدفقون على شانغهاي أن النازيين وحلفاءهم المعادين للسامية لن يستغنوا عن اليهود الأثرياء. أرتقى إيلي مصعد الفندق وتوجه نحو جناح فيكتور وتطلع إلى أن يلعب على وتر اعتداده بنفسه وأصله اليهودي.

خاطبه إيلي قائلًا: «فيكتور، هناك حرب قائمة. أرجو أن تتوقف عن قضاء وقتك بحثًا عن التسلية والركض وراء الملذات. أنت من آل ساسون. وأنت القائد. سنكون جميعًا خلفك. فليس سواك من قائد».

وافق فيكتور على الانضمام إلى الجهود لمساعدة اللاجئين. رغم أنه لم يكن مهتمًّا بالحركة الصهيونية، فقد ولد وترعرع في بريطانيا. لكنه بات على المستوى الشخصي، مدركًا للتهديد الذي يشكله النازيون وكان قلقًا من ذلك. كانت عائلته مستقرة في إنكلترا، وقد أرعبت قوة هتلر المتنامية الكثيرين في إنكلترا، وخاصة اليهود. أما في آسيا، فإن القوة المتنامية لليابانيين باتت تهدد استقرار الصين وشنغهاي التي بنى فيها فيكتور ثروة العائلة. كان العديد من أقرب مستشاريه من اليهود، وكان بعضهم من نفس الجذور البغدادية مثل عائلته. أدرك أن صعود هتلر كان يمثل تهديدًا وجوديًا حتى لشخص غني مثل فيكتور ساسون.

في مثال بارز على الميزات التي يتمتع بها، اتصل فيكتور بتشارلي شابلن لضمه إلى جهوده الرامية لجمع الأموال للاجئين اليهود في شانغهاي في الولايات المتحدة وأوروبا. حاول إقناع نجوم هوليوود بأن يحذوا حذو «تشابلن»، ويساهموا بجزء من إيرادات أفلامهم حيث ساهم «تشابلن» ببعض من إيرادات فلمه «الدكتاتور العظيم». أنشأ فيكتور «صندوق إعادة التأهيل» لمساعدة 700 أسرة. فأصبح الأطباء قادرين على فتح عيادات ناجحة، وأسس آخرون ورش عمل وصناعات بسيطة. تعامل فيكتور مع أزمة اللاجئين بنفس الثقة والحيوية اللتين كان يتمتع بهما خلال بناء فنادقه أو التخطيط لحفلاته.

تم عقد الاجتماع الأول بين فيكتور والقبطان الياباني المعادي للسامية إينوزوكا في عام 1938. بدأ إينوزوكا الاجتماع بدعوة فيكتور لتخفيف كراهيته الصريحة لليابانيين وانتقاد غزوهم للصين. فأعاد فيكتور إلى الأذهان بالمساعدة المالية التي قدمها جاكوب شيف لليابان قبل ثلاثة عقود. ومن جديد كان لليهود واليابانيين عدو مشترك. في ذلك الوقت، كان الخطر على اليهود يأتي من المذابح التي يتعرضون لها على يد الحكومة القيصرية الروسية. والآن بات انتصار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وخطر الشيوعية الذي يهدد الصين والهند هو الذي ينشر الهجمات على الرأسمالية ويعرض إمبراطورية ساسون التجارية للخطر. اقترح إينوزوكا على فيكتور الاستثمار في المصانع اليابانية بمعدل عائد مرتفع، أكبر مما يحصل عليه فيكتور من ممتلكاته الضخمة في السندات الصينية. ويمكنه أن يبدأ باستثمار

700000 دولار في مصنع ياباني في منشوريا. كتب إينوزوكا لرؤسائه: «من أجل الاستفادة من اليهود، من الضروري أولاً معرفة رغباتهم بالتفصيل ثم توضيح المطالب من جانبنا». ووصفت سكرتيرة إينوزوكا، التي أصبحت فيما بعد زوجته، وهي تتذكر ما جرى، ذلك الهدف بشكل أكثر بساطة: «كنا نحاول إقناعه بدعمنا».

لا أحد يستطيع أن يجذب الناس مثل فيكتور ساسون. غادر إينوزوكا اجتماعات أولية مع فيكتور بوويانت. أخبر فيكتور إينوزوكا أن الضباط اليابانيين تم الترحيب بهم في حانات وغرف الطعام في كاثي، حيث سيعاملون بأدب صارم. كان ساسون «شخصية بارزة» و«على استعداد للتعاون»، حسبما أفاد إينوزوكا طوكيو. «أصبحت الطبقة القيادية من اليهود في شانغهاي مؤيدة جدًا لليابانيين». في اقتراح تبنته الحكومة اليابانية، وجه إينوزوكا اليهود الذين يصلون إلى شانغهاي أو يعيشون فيها «بمعاملة عادلة وبنفس الطريقة التي يعامل بها الرعايا الأجانب الآخرون. لن يتم بذل أي جهد خاص لطردهم».

في الواقع، لم يكن فيكتور يثق باليابانيين. ابتداءً من عام 1937، أنشأ فيكتور شبكة من الجواسيس والمخبرين وكان يتعاون مع عملاء استخبارات بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وهما دولتان كان يعتقد أن التحالف معهما أمر حاسم. بعد المعركة التي دارت بين القوات اليابانية والصينية وأدت إلى سقوط قنبلة خارج فندق كاثاي، ذكر فيكتور في مذكراته أنه أعطى 500 دولار لرجل صيني مقابل «عمل استخباراتي». بعد سنوات، عندما كان يعيش في جزر البهاما، تذكرت زوجة فيكتور في ذلك الوقت أنه أخبرها أن الولايات المتحدة عينت له حارسًا شخصيًا في شانغهاي «كإجراء احترازي»

وتتذكر ذلك قائلة، «أعتقد أنها كانت عملية سرية للغاية».

بدأ فيكتور حينها في جمع المعلومات عن معارفه اليابانيين الجدد. وكتب في مذكراته: «السفير الياباني إيتو تصرف بشكل سيئ - كان يترنح إلى حد ما [سكران]». «الليلة الماضية فهمت أنه كان يصرخ بصوت عال... من أجل امرأة».

بدأ فيكتور الذي يتسم بسرعة البديهة وفصاحة اللسان بالتصرف بحذر، للحفاظ على الوهم بأنه كان يفكر في عروض اليابانيين. في زيارة للولايات المتحدة في عام 1938، أخبر أصدقاءه في وول ستريت والمسؤولين في وزارة الخارجية أن الحظر الاقتصادي قد يدفع اليابانيين للخروج من الصين. ولكن عندما وصل إلى سان فرانسيسكو وأجرى الصحفيون مقابلة معه، فاجأهم بعبارة «لا تعليق» عندما سئل عن شانغهاي. عندما فتح جريدته في فندق سانت فرانسيس في صباح اليوم التالي، كان غاضبًا لقراءة عنوان رئيسي فيها: السير فيكتور ساسون لا يعرف شيئًا.

فألقى بها وهو يستشيط غضبًا: «كيف يمكنهم أن يتخيلوا أنني لا أعرف شيئًا!»

حتى زملاء فيكتور في اللجان التي كانت تساعد اللاجئين اليهود كانوا على علم بما يفعله من وراء الكواليس. يتذكر جاكوب ألكو، وهو زعيم يهودي، «لقد سمعنا الكثير من الحقائق وبعض التخمينات في اجتماعات لجنتنا». «رفض ساسون الكشف عن» كل محادثاته مع اليابانيين و«تجنب الإجابة على أسئلتي. ومع ذلك، لا أستطيع أن أتذكر أي طلب لليابانيين لم يستجب له».

عرف فيكتور عددًا كبيرًا من المصرفيين ورجال الصناعة، وأعضاء البرلمان في اليابان. كان يعتقد أن البلاد والجيش منقسمان، وأن هذا، في النهاية، سيبقي اليابان خارج الحرب. فقادة الجيش المتشددون «يريدون لليابان أن تكون قوة قارية وليذهب للجحيم جميع الأجانب وكل دول العالم». أما القوات البحرية، التي كان يمثلها إينوزوكا، «فكانت تعتقد أن هذا مستحيل، وأن اليابان يجب أن تظل قوة محدودة وجزيرة تعتمد على التجارة ولذا يجب أن تكون حذرة من بريطانيا العظمى التي يمكنها عزلها عن كل مكان». وحذر إيلي خضوري أن لا يصاب بالذعر. كتب لورانس إلى شقيقه: «يعتقد السير فيكتور أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يصبح اليابانيون والبريطانيون أصدقاء حميمين». «في الواقع، كان متفائلاً للغاية بشأن سير الأوضاع في هذا الجزء من العالم».

كتب فيكتور إلى صديق له عن الحوارات التي كانت تجري بينه وبين إينوزوكا. «كان يلمح إلى دفع [عدة ملايين جنيه إسترليني] والتعاطف معهم وبعد ذلك يمكنهم أن يتركونا وشأننا في المستوطنات». «فابتسمت وقلت له إنه من الخطأ دائمًا الاستسلام للابتزاز وأي قروض ندفعها يجب أن تتبع التسوية الكاملة لجميع القضايا بما في ذلك قضية الصين.

فأجابني بأنهم ليسوا معادين لبريطانيا. لكن لا يزال قادة الجيش يشكون بي لكن البقية يقولون إنني أفضل رهان لهم كحلقة وصل» مع بريطانيا العظمى.

وختم قائلًا: «الوضع خطر جدًا ويجب ان أكون حذرًا»

في 19 أكتوبر 1938، دعا إيلي رجال الأعمال اليهود الأثرياء في شانغهاي إلى اجتماع في مكتبه لتنسيق جهودهم. وكان قد وصل أكثر من 1000 لاجئ، وكانت السفن تنقل مئات آخرين كل أسبوع. في نهاية الاجتماع، قال جاكوب ألكوك، الذي كان يشرف على توزيع الأموال والسكن والطعام، إن الأموال تنفد واللاجئون لن يتلقوا قريبًا أية مساعدة. أخرج إيلي دفتر الشيكات الخاص به وكتب شيكًا بمبلغ 50 ألف دولار. وعند تسليمه الشيك صاح به: «اذهب الآن إلى فيكتور».

ذهب ألكوك إلى فندق كاثاي وتوجه إلى مكتب فيكتور. فابتسم حين رآه وقال: سأدفع بقدر ما يدفع إيلي وكتب شيكًا بالمبلغ.

كان فيكتور واثقًا من قدرته على التعامل مع اليابانيين وأن شانغهاي قادرة على التعامل مع اللاجئين. لقد افترض أن الأزمة مؤقتة. وكتب إلى أحد أصدقائه «أعتقد أنه ينبغي أن نكون قادرين على العمل تدريجيًا على رعاية ما بين 3 إلى 4 آلاف شخص، طالما لدينا الأموال، وطالما علمنا أن هؤلاء الأشخاص سيتركوننا في النهاية».

على الرغم من شجاعته، كان فيكتور قلقًا بشكل متزايد – وبدأ التخطيط لمستقبل غير مؤكد. في عام 1938، سافر إلى البرازيل واشترى 10000 ميل مربع من الأرض. ظاهريًا، قام بالشراء كاستثمار. مع صعود ألمانيا واليابان وتهديدهما آسيا وأوروبا، كان يعتقد أن المستقبل يكمن في قيام الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى باستغلال الموارد الطبيعية لأمريكا

الجنوبية وتسخيرها لمصالحهما. لكن هدفه الحقيقي كان محاولة إيجاد ملجأ لليهود. لم يكن فيكتور صهيونيًا. ولم يكن يعتقد أن الرد على أزمة اللاجئين هو إرسال اليهود إلى فلسطين. كانت أمريكا الجنوبية أكثر عملية. التقى برئيس البرازيل، جيتوليو فارغاس، واقترح إنشاء مستعمرة «يقوم فيها اليهود بكل الوظائف من الكناس إلى الرئيس». مثل أي حكومة أخرى في العالم، لم تكن الحكومة البرازيلية مهتمة بمساعدة اللاجئين اليهود.

ذكر فيكتور لاحقًا «أخبرني فارغاس أنه يريد أن يأتي النوع المناسب من الناس: جنس مثل الدنماركيين والإسكندنافيين بلا خيال ولا عقول، ولكن بقدرة كبيرة على حراثة الأرض». «لم يكن يريد إيواء أي شخص يرغب في العيش في مدنهم. لقد أرادهم في الريف ليحرثوا التربة ويبقوا هناك»

بالعودة إلى شانغهاي، وجد فيكتور أن صبر أعضاء مجلس بلدية شانغهاي، الذي كان يمثل في الواقع حكومة منطقة التسوية الدولية، ذوي التأثير القوي والذين لم يكونوا يهودًا قد نفد. أبلغ المجلس فيكتور «أنه من المستحيل استيعاب أي أعداد كبيرة من اللاجئين الأجانب. وقد تضطر المدينة إلى اتخاذ خطوات تمنع قدوم المزيد من اللاجئين».

في يوليو 1938، اجتمعت اثنتان وثلاثون دولة من بينها كندا وأستراليا ونيوزيلندا في إيفيان بفرنسا لتقرير ما يجب فعله حيال عشرات الآلاف من اليهود اليائسين الذين يحاولون الفرار من ألمانيا والنمسا وبقية أوروبا. أعلن الجميع باستثناء دولة واحدة –جمهورية الدومينيكان– أنهم يرفضون استقبالهم. في فيينا، بدأ القنصل هوو فانغ شين في إصدار المزيد من الوثائق لتمكين اليهود من مغادرة النمسا والتوجه إلى شانغهاي. في تشرين الثاني (نوفمبر) 1938، سافر إيلي وهوراس إلى هونغ كونغ لحضور حفل زفاف لورانس على موريل جيباي، ابنة عائلة يهودية بارزة تعود جذورها أيضًا إلى بغداد، التي كانت والدتها صديقة حميمة للورا والدة لورانس. كان لورانس أيضًا يحاول مساعدة اللاجئين اليهود الذين وصلوا إلى هونغ كونغ، ومنحهم وظائف في شركة الكهرباء والطاقة الصينية. حتى في خضم صعود النازيين وتزايد الحديث عن الحرب، لم يستطع رئيس شركة جاردين في هونغ كونغ، ج.ج باتيرسون لم يستطع مقاومة الاشتراك في حملة الانتقادات

المعادية للسامية التي استهدفت عائلة خضوري، فكتب إلى رئيسه ويليام كيسويك في شانغهاي أن حفل زفاف لورانس أقيم في كنيس أوهيل ليا في هونغ كونغ -وتعني «بيت ليا» بالعبرية، على اسم الأم اليهودية التوراتية- مع حفل استقبال أقيم في مركز الجالية اليهودية.

تلاعب باترسون بالكلمات فسخر من كلمة (Ohel) اسم الكنيس بالعبرية والمشابهة لكلمة hell «الجحيم» بالإنكليزية وقال إنه يأمل أن يكون آل خضوري قد استمتعوا بحفلتهم في «النادي اليهودي الليلي».

أقيم حفل زفاف لورانس في 9 نوفمبر 1938. في صباح اليوم التالي، استيقظ آل خضوري وعلموا أن في نصف العالم البعيد، حدث ما عرف بليلة الكريستال -«ليلة الزجاج المكسور»- في النمسا وألمانيا. فقام الغوغاء بإحراق ونهب المعابد والمتاجر المملوكة لليهود بينما كانت الشرطة تراقب الهجمات أو تشجعها. تحول الخوف الذي عم اليهود الألمان والنمساويين إلى ذعر واسع النطاق. أصبح تدفق اللاجئين الذين وصلوا إلى شانغهاي مثل الفيضان. كتب هوراس خضوري إلى صديق له في لندن: «سيصل خمسمائة واثنان وستون لاجئًا إضافيًا على متن السفينة البخارية يوم السبت، وعلمت أن 700 آخرين سيصلون» في غضون أسبوعين. وشنغهاي لا تستطيع تحمل مثل هذه الأعداد».

جعل فيكتور الطابق الأول من إحدى ناطحات السحاب الفاخرة الخاصة به، كمبنى إيواء وجعله مركزًا لاستقبال اللاجئين، حيث تم تزويدهم بالبطانيات والملاءات وصحن من الصفيح وكوب وملعقة لكل واحد منهم. قام بإنشاء مطبخ في الطابق السفلي يقدم 1800 وجبة طعام يوميًا، وحوّل أحد مصانعه إلى مهجع للاجئين. تحت الاسم المستعار فال سيمور Val Seymour، دفع فيكتور رسوم الدخول التي سمحت للعديد من اللاجئين بالمرور عبر الجمارك. وقد أسس صندوقًا لتزويد كل لاجئ في شانغهاي بالحليب مجانًا يوميًا. تبرع بالمال لشراء جهاز تنفس اصطناعي باهظ الثمن لأحد المستشفيات الثلاثة التي تم إنشاؤها لخدمة اللاجئين وحول أحد مبانيه على طريق شارع نانجينغ إلى متجر لبيع السلع المخفضة للمهاجرين، حيث يمكن للاجئين جمع الأموال عن طريق بيع ممتلكاتهم. وأقام معسكرًا

تدريبيًا لتقديم التدريب لـ200 رجل ليصبحوا ميكانيكيين، وبنائي بيوت خشبية ونجارين. وبدأ في توظيف اللاجئين في مشاريعه الإلكترونية الخاصة. تم تعيين أحد اللاجئين، وهو عالم نبات من حيث المهنة، تم تعيينه مسؤولاً عن ممتلكاته الريفية في ضواحي شانغهاي. وقام آخر بوضع ماكينة خياطة في مطبخ مشترك مع ثلاث عائلات أخرى وخياطة قمصان جديدة من قماش تبرع به فيكتور من مصانع النسيج الخاصة به.

غيّرت سيلفيا تشانسلور، وهي بريطانية مقيمة في شانغهاي، التي كانت قد انتقدت فيكتور لكونه مستهترًا ويتجاهل الفقر وعدم المساواة في المدينة، رأيها فيه. وأعلنت أن «الله سيغفر له كل ذنوبه بسبب الصدقة التي يقدمها» للاجئين. التقط اللاجئون لمحات من شخصية المتبرع لكنهم لم يعرفوا بشكل كامل من هو. فيتذكر إريك رايسمان أن: «الأشخاص الذين ساعدونا – كانوا مغاربة»

بالنسبة لعائلة رايسمان، التي حطت رحالها في نوفمبر 1938، كانت شانغهاي بمنزلة صدمة لها بعد التطور الذي شهدته في فيينا. في الشارع، كان إريك وهو يسير بالشوارع يحدق في العائلات الصينية التي تعيش في صناديق من الورق المقوى. ذات مرة، وهو يمشي على طول الطريق، رأى حزمة ملقاة على الأرض ملفوفة إما ببساط من القش أو بقطعة من الجريدة، وبرزت منها ساق صغيرة. أدرك منذ البداية أنه كان طفلاً ميتًا وضعه والداه على الرصيف. لقد مات الطفل اثناء الليل من الجوع.

لم يكن أي من الوافدين الجدد يتحدث الصينية؛ وكان عدد قليل فقط منهم يتحدثون الإنكليزية. على الرغم من أنهم عاشوا حياة الطبقة المتوسطة في ألمانيا والنمسا، إلا أن النازيين صادروا أموالهم وممتلكاتهم أثناء مغادرتهم. كانوا مرتبكين وخائفين. كانت عائلة إريك محظوظة. كان في الشقة المكونة من غرفة واحدة والمخصصة لهم حمام. تم إرسال معظم عائلات اللاجئين إلى منطقة هونغكيو التي تعرضت للقصف، والتي تم تسويتها بالأرض خلال القتال الذي دار خلال عامي 1932 و1937 بين الصينيين واليابانيين. تكدست العائلات في منازل من طابق واحد أو طابقين كانت تمتد على طول الأزقة قبالة الشوارع الرئيسية، بدون تهوية وكانت مظلمة، ويحتوي كل منها

على عشر غرف وحمامات بدائية - بل في كثير من الأحيان لم تكن سوى «جرار» أو دلاء كان لا بد من إفراغها عدة مرات في اليوم. كتب أحد اللاجئين الوافدين حديثًا: «بالنسبة للأشخاص الذين اعتادوا على ظروف أفضل بشكل لا يضاهى، بدا هذا الوضع ميئوسًا منه للغاية، والجو المحيط به قذر للغاية، لدرجة أن العديد من الرجال البالغين... استسلموا أمام هذا الوضع اليائس والمحبط، وجلسوا على الأرض القذرة وبدأوا يبكون مثل الأطفال».

بحلول فبراير 1939، ارتفع عدد اللاجئين متجاوزًا تقديرات فيكتور. أصبح يعيش في شانغهاي أكثر من 6000 لاجئ يهودي، وكانوا يصلون بمعدل 1000 لاجئ في الشهر.

كانت الظروف المعيشية قاتمة، لكن لم يواجه اللاجئون أي حواجز أو قيود قانونية. بدأ والد إريك في البحث عن عمل. في فيينا، كان يدير شركة لاستيراد فواكه بالجملة. عندما أصبح من الواضح أن آل رايسمان سيضطرون إلى مغادرة فيينا، بدأت والدة إريك في تلقي دروس في وكالة يهودية لتعليم خياطة القفازات. في شانغهاي أصبح هذا شريان الحياة للأسرة. مثل العديد من الرجال، واجه والد إريك مشكلة في التكيف مع فقدان وظيفته ومكانته. بدأ في بيع قفازات زوجته للاجئين الآخرين، ثم حصل هو والأخ الأكبر لإريك على وظيفة ميكانيكي سيارات في شركة حافلات في شانغهاي يملكها مهاجر ألماني. سرعان ما جمعوا ما يكفي من المال لشراء منزل صغير في هونغكيو وتأجير جزء منه لعدد من المستأجرين، وكسبوا دخلًا جانبيًا صغيرًا.

بعد بضعة أشهر، سار إريك وعائلته على بعد بضع بنايات في الشارع وفعلوا شيئًا كان مستحيلًا القيام به في فيينا أو برلين في عام 1939: أقيم لإريك حفل بار ميتسفا (هو حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 من عمره، أي عندما يُعتبر مكلفًا بأداء جميع الفرائض المفروضة عليه حسب الشريعة). بينما كان اليهود يتدفقون على شانغهاي كالفيضان ويشتكون إلى ما لا نهاية من ازدحام المساكن، وسوء الصرف الصحي، وقلة الوظائف، كانوا أحرارًا أيضًا. أحدث وصولهم إلى هونغكيو تحولًا آخر في شانغهاي.

كانت في المدينة أحياء أجنبية مثل منطقة التسوية الدولية ومنطقة الامتياز الفرنسية بجانب الأجزاء التي تسيطر عليها الصين من المدينة. والآن أضيفت لها «فيينا الصغرى»، بدأ كثير من اللاجئين غير القادرين على العثور على عمل في مهنهم بفتح المحلات التجارية والمطاعم والمقاهي في هونغكيو ورفعوا اللافتات الألمانية التي تشير إلى بيع الطعام الألماني، وأصدروا ثلاث صحف مختلفة باللغة الألمانية مدعومة بإعلانات من اللاجئين كانوا من الجزارين والخياطين. كان العديد من اللاجئين من الموسيقيين الهواة اجتمعوا معًا وأسسوا فرقة موسيقية. تأسست مجموعات مسرحية للهواة في جميع أنحاء الحي، حيث تنافس الفنانون من فيينا وبرلين لتقديم أفضل إنتاجاتهم. مثل أوبرا البنسات الثلاثة لبرتولد برخت وأعمال الكاتب أوغست ستريندبرغ، وجورج برنارد شو ونويل كوارد. انضم ما يقرب من 300 فنان إلى جمعية الفنانين اليهود الأوروبيين وبدأوا بتنظيم المعارض الفنية.

وسط جدول أعماله الاجتماعي المزدحم، كان فيكتور يمضي أوقاتًا في تناول الطعام مع اللاجئين وحضور العروض المسرحية التي تقدمها مجموعات مسرحية من الهواة اللاجئين. واصطحب السفير البريطاني للقيام بجولة في ورش عمل اللاجئين. وكتب في مذكراته اليومية «أنا حاليًا مشغول بالمساعدة في إقامة العروض المسرحية التي يخصص ريعها لصندوق حليب الأطفال والعثور على شركاء لبعض شركات اللاجئين التي تعمل بشكل جيد». «أصبح لدينا خياطات ملابس نسائية، وملابس جلدية رجالية ومصنع لإنتاج الصابون، كل ذلك يعمل بشكل جيد».

كان ثيودور ألكساندر أحد اللاجئين الذين استأجرهم فيكتور، وهو شاب فر من برلين إلى شانغهاي مع والدته القوية الإرادة، التي قامت بحشو الأوراق الرسمية التي تشير إلى كميات الذهب المودعة في المصارف لحساب العائلة وشهادات الأسهم في المفارش وخياطتها وحملت المفارش معها على متن السفينة التي نقلت العائلة إلى شانغهاي. حمل ثيودور لفافة فيها كتاب التوراة أخذه من الكنيس الذي كان بجوارهم، والذي تعرض للنهب من قبل النازيين خلال ليلة الكريستال. أثناء عبور البحر الهائج، عندما أدى انقلاب السفينة وانحرافها إلى إرسال الركاب الآخرين إلى السطح الخارجي بعد

أن شعروا بالغثيان، رفضت والدة ثيودور السماح لأطفالها الثلاثة بمغادرة الطاولة، معلنة، «لا نعرف متى سوف نأكل مع بعض مرة أخرى أو متى سنستمتع بوقتنا مع بعض مرة أخرى». وطلبت زجاجة من نبيذ الكيانتي. عند نزولها في شانغهاي، التفتت إلى ثيودور، الذي بلغ لتوه الثامنة عشرة، وقالت له، «هذه واحدة من المدن الشريرة في العالم. لا أستطيع منعك من مقابلة الفتيات، ولكن عليك أن تحرص في صباح اليوم التالي على أن تحصل على حقنة مضادة للأمراض التناسلية».

تم تعيين ثيودور، الذي درس اللغة الإنكليزية في برلين، من قبل فيكتور وكيل مشتريات، حيث اشترى تجهيزات فندق كاثاي وعقارات عائلة ساسون الأخرى. بعد الفرار من الفوضى ومشاعر معاداة السامية التي سادت برلين، اندهش ثيودور من قوة نفوذ فيكتور وآل خضوري في شانغهاي. وأصبحا يشكلان مصدر إلهامه لتحقيق حلمه الأبدي وبدأ يدرس ليصبح حاخامًا.

في فبراير 1937، عندما بدأ اللاجئون بالوصول، قرر هوراس خضوري إنشاء رابطة مجتمعية لأطفال اللاجئين اليهود، تقدم لهم الغذاء والدواء والأنشطة الرياضية والترفيهية. لم تستطع مدارس اللغة الإنكليزية في ذلك الوقت في شانغهاي استيعابهم، وتُرك العديد منهم ليتدبروا أمورهم بأنفسهم. ذكرت صحيفة كانت تصدر باللغة الإنكليزية في شانغهاي: «هؤلاء الأطفال ومنذ وصولهم إلى شانغهاي، حُرِموا من جمال الحياة». كان العديد من الأطفال يعيشون في الأزقة... «وكان كل أربعين فردًا منهم ينامون في غرفة واحدة. ولأن آباءهم وأمهاتهم كانوا مشغولين تمامًا بمحاولة العثور على عمل، فلم يكن لديهم الوقت الكافي لرعايتهم بشكل مناسب، وبالتالي تُركوا للتسكع في الشوارع دون رقابة».

بحلول ذلك الوقت، كان هوراس قد بلغ منتصف الثلاثينيات من عمره، ونشأ في ظل أخيه الأكبر. أشرف لورانس على استثمارات العائلة المتزايدة في هونغ كونغ، تاركًا هوراس للإشراف على إدارة القصر العائلي وقاعة ماربل هول ومساعدة والده في الأعمال التجارية. وبينما كان اليابانيون يقتربون من شانغهاي واللاجئون يتدفقون من سفن الرحلات البحرية التي ترسو في منطقة البوند، كان لورانس يعالج الأزمة في هونغ كونغ بأمان

وهدوء على بعد 700 ميل إلى الجنوب. كان إيلي قد عيّن هوراس مسؤولاً عن بعض استثمارات العائلة، مثل شركة شانغهاي للغاز، لكن لورانس كان يوبخ أخاه الأصغر بشكل منتظم لافتقاره إلى مهارات العمل. كتب هوراس إلى شقيقه: «الموظفون سعداء بتعييني» كرئيس لشركة شانغهاي للغاز. فكتب لورانس في هامش المذكرة، «جيد - أتمنى أن تعجبك وظيفتك الجديدة. يجب أن تتعلم شيئًا عن الغاز».

مع تفاقم الأزمة، تُرِكَ هوراس في الخلف ليعتني بوالده وليتعامل مع اليابانيين الذين يزدادون خطورة. وحين يكون هوراس غاضبًا، كان لا يظهر ذلك أبدًا. كانت أزمة اللاجئين فرصته لتأسيس هوية منفصلة له عن والده وأخيه، ولإثبات أنه رجل يستطيع إدارة الأمور بنفسه. على مدار عدة سنوات، كان هوراس يستمع إلى شتى أنواع التعليقات ويرد عليها بصمت، ودائمًا ما كان يرد بأدب على أخيه ويتمنى له وافر الصحة، ويستجيب لإرادة والده وشقيقه. أما الآن فبدأ يتكلم ويعبر عن رأيه بصراحة أمام أخيه.

لقد أدت محنة اللاجئين إلى تنشيط حركة هوراس وبث الحماس فيه بطريقة لم تفعلها الأعمال التجارية قط. كتب إلى صديق له في لندن: «لقد حلت بنا جميعًا كارثة مروعة». «لقد عشت بين هؤلاء اللاجئين الفقراء في شانغهاي وسمعت ورأيت بنفسي ما مروا به وما يمرون به». نظرًا لقلقه من أن أطفال اللاجئين الصغار الذين وصلوا مع عائلاتهم لم يكن لديهم أي مكان لممارسة الرياضة، بدأ هوراس بتأسيس جمعية شانغهاي اليهودية للشباب، التي وفرت أماكن للترفيه وممارسة الرياضة بالإضافة إلى تنظيمها الدورات المهنية في الهندسة والمحاسبة والاختزال ومسك الدفاتر للشباب. واستطاعت توظيف 300 شاب. وقامت بإجراء الفحوصات الطبية وتقديم لعب الأطفال والكتب وتنظيم دوري للعبة الهوكي وتأسيس نوادي الكشافة للصبيان والفتيات. عندما حل الصيف، قام هوراس بتمويل إقامة معسكر صيفي لمدة ثمانية عشر يومًا خارج شانغهاي مباشرة تمارس فيه السباحة والتنس وكرة الريشة وحفلات السمر في الليل وقام بتنظيم مآدب العشاء الخاصة والحفلات الراقصة في قاعة ماربل الشهيرة في القصر العائلي. كتب أحد المعلمين أن هوراس كان يزوره كل يوم مع سكرتيرته، حيث كان يتفقد

الملعب وغرفة الطعام والمطبخ ويلتقي بالأطباء والمعلمين: «لقد كانت إجازة رائعة للأطفال، الذين لم تتح الفرصة لمعظمهم أن يبتعدوا عن المدينة الحارة المزدحمة». وأشار إلى أن «متوسط الوزن المكتسب في 18 يومًا خلال المعسكر الصيفي الأول كان 3.3 رطل لكل طفل»

في نوفمبر 1939، قام هوراس بتأجير وتجديد مبنى في هونغكيو وظّف فيه معلمين من مجتمع اللاجئين ومن جمعية معلمي اللغة الإنكليزية في شانغهاي ليشكلوا كادر ما أصبح يُعرف باسم مدرسة خضوري. وقد اشتملت على فصول دراسية ومكتبة وغرف موسيقى وصالة للألعاب الرياضية. كان لورانس قد أرسل له الجيتار الذي كان يعود لوالدتهما، ليتمكن المعلمون من استخدامه في دروس الموسيقى.

أصر هوراس على أن يتم تدريس جميع الفصول باللغة الإنكليزية وباستخدام منهج بريطاني، لأن اللغة الإنكليزية كانت اللغة السائدة في مجال الأعمال والشؤون البلدية في شانغهاي وستكون أكثر فائدة للطلاب من لغتهم الأم الألمانية. التقى هوراس على متن سفينة عائدة إلى شانغهاي من أوروبا، بلاجئة يهودية، لوسي هارتويتش، التي كانت مديرة مدرسة في برلين. وعينها على الفور لتكون مديرة المدرسة. بحلول عام 1940، تم تسجيل 700 طالب في مدرسة خضوري، مع عدة مئات من الطلاب الإضافيين الذين يتلقون تدريبًا مهنيًا في المساء. التحق إريك ريسمان بالمدرسة وفي غضون ستة أشهر أصبح يجيد اللغة الإنكليزية. كان هوراس يتتبع الطلاب عن كثب. فإذا مرض طفل ما واضطر إلى دخول المستشفى -وهو أمر يحدث بشكل متكرر، نظرًا لسوء الصرف الصحي والإمـدادات الطبية المحدودة في شانغهاي- أرسل هوراس للأسرة سلة من الفاكهة والزهور. وقام بتوقيع بطاقة الإهداء المرسلة إلى المنزل. زار مراسل لصحيفة شانغهاي الناطقة بالإنكليزية المدرسة ووصفها بأنها «مؤسسة نموذجية». كان من الصعب تصديق -كما كتبت الصحيفة- أن هذه المدرسة تعود لأطفال اللاجئين.

كتب هوراس لأخيه يقول: لقد بكى العديد من اللاجئين حرفياً عندما رأوا ما نفعله لأطفالهم.

في رسالة بعثها إلى هوراس من هونغ كونغ، اشتكى لورانس من الوقت الذي كان يقضيه هوراس في المدرسة بدلاً من إدارة شركة الغاز التابعة لعائلتهم. ووبخ شقيقه قائلاً: «أشعر أن ذلك سيعود علينا بالنفع كثيرًا إذا كنت قادرًا على إيلاء اهتمامك الشخصي» لشركة العائلة. تجاهل هوراس غضب أخيه، وفي إحدى المرات رد على مذكرة مطولة كتبها له لورانس حول قضايا العمل بقوله إنه «ظل مشغولًا للغاية في رعاية اللاجئين الذين يحاولون شرح الوضع المحلي... إنه لم يكن هناك وقت للكتابة». قال هوراس إن مكتبه في شانغهاي أصبح «مركزًا غير رسمي للاجئين»، لكنها «حقًا حياة رائعة، على أي حال نحن مشغولون للغاية بحيث لا نشعر بالقلق».

في لقاءاته مع إينوزوكا واليابانيين، واصل فيكتور الاستفادة من عامل الوقت. كتب إلى صديق له: «بات يزورني الآن كل شخص يأتي من طوكيو». بالأمس زارني وزير المالية السابق وعضو مجلس النبلاء، واليوم زارني عضوان في مجلس الدايت.... يبدو أنني أحصل على بعض التأثير في تلك الأوساط وهو أمر جيد. لكن بالطبع، هناك دائمًا خطر قيام الجيش بشيء أحمق هنا إذا كانت عقولهم متعطشة للدماء». لم تنضم اليابان رسميًا إلى ألمانيا كحليف في تحالف المحور، وحاول فيكتور إقناع النقيب إينوزوكا والمسؤولين اليابانيين الآخرين الذين قابلهم أنه سيكون من الخطأ القيام بتلك الخطوة. وكتب لأحد أصدقائه كاشفًا عن سره: «كانت الخطوات التي أتخذها في نهجي كالتالي: 1) أن أسوأ شيء يمكن أن يحدث لليابان هو قيام تحالف بين ألمانيا وروسيا؛ 2) أن ثاني أسوأ شيء هو انضمام اليابان إلى المحور ودفع بريطانيا العظمى إلى التحالف مع روسيا في الشرق الأقصى ضد اليابان».

كانت مشاعر الحذر تتزايد عند إينوزوكا. وبدأ يضغط على فيكتور للتدخل لدى فرانكلين روزفلت وتوجيه الصحف الأمريكية، التي اعتقد أن اليهود يسيطرون عليها، لتحويل الرأي العام لمصلحة الأهداف اليابانية. وبعث لفيكتور رسالة يقول فيها إن اليهود كانوا مثل سمك الفوغ، وهو نوع من الأسماك اليابانية المنتفخة التي تصبح قاتلة ما لم يتم تحضيرها وتقديمها بالطريقة الصحيحة: «إنها لذيذة جدًا، ولكن ما لم يعرف المرء جيدًا كيفية طهيها، فقد تودي بحياته».

بحلول أوائل ربيع عام 1939، أصبح هناك 10000 لاجئ في شانغهاي. شعر فيكتور والزعماء اليهود بالارتباك. وناشدوا المنظمات اليهودية في أوروبا لإبطاء تدفق اللاجئين ولكن قيل لهم إن الغستابو كان يشجع اليهود على الفرار إلى شانغهاي، وكانت خطوط الرحلات البحرية الإيطالية تعلن أن شانغهاي هي المكان الوحيد الذي يمكن للاجئين الذهاب إليه دون أي إجراءات رسمية. بدأت الخلافات تدب في أوساط رجال الأعمال المشرفين على جهود اللاجئين، ولم يكن لأي منهم أي خلفية في جهود الإغاثة أو الأنشطة الاجتماعية. أرسل فيكتور محاسبه للتحقيق في كيفية إنفاق أمواله وشكل لجنته الخاصة للإشراف على الإنفاق. ناشد منظمات اللاجئين الدولية للحصول على المال. وكتب برقية جاء فيها «أن هناك حاجة لإرسال اثنين وخمسين ألف دولار للمستشفى بسبب الأوضاع السيئة للغاية وخطورة تفشي أمراض وبائية» وبعث أخرى إلى لجنة التوزيع المشتركة الأمريكية، التي كانت تشرف على الجهود العالمية لمساعدة اللاجئين اليهود الذين يحاولون الفرار من أوروبا. جاء فيها «الأمر عاجل... قد تصبح الأوضاع ميئوسًا منها».

استمر اللاجئون في الوصول. بحلول مايو 1939، كانْ هناك أكثر من 12000 لاجئ. وقد اكتظت بهم المساكن في هونغكيو، حيث كان يعيش كل ثلاثة وأربعة منهم في غرفة واحدة. تحول البعض منهم إلى ممارسة الدعارة من أجل الحصول على قوت يومهم. وكانت عائلاتهم تنتظر في طوابير للحصول على الطعام. انتشرت أمراض الدفتريا، والحمى القرمزية، والسل، والحصبة، والتيفوئيد في المهاجع التي شيدتها لجنة فيكتور الدولية ومجموعات أخرى لإيواء الأعداد الزائدة من اللاجئين. كان فيكتور يخشى أن تنتشر الأمراض إلى الأجزاء الأكثر ثراءً في شانغهاي. كان يفكر في جعل الوجبات المجانية التي كان يقدمها للاجئين تقتصر على وجبة واحدة في اليوم لمواجهة الأعداد المتزايدة منهم. واشتكى لصديقته المقربة إميلي هان من أن العديد من اليهود الذين وصلوا الآن يمثلون «من تركوا» أوروبا والفقر واليأس.

في لقاء جمعه مع فيكتور، اقترح إينوزوكا قبول المزيد من اللاجئين

وإنشاء مستعمرة لهم في منطقة بودونغ، التي تقع شرقًا في الضفة الأخرى من نهر هوانغبو ومنطقة البوند. لم تنفذ تلك الخطة، لكن آلاف اليهود الذين وصلوا إلى شانغهاي خدموا أهداف اليابان. أرسل إينو زوكا برقية إلى طوكيو جاء فيها أن إبقاء اللاجئين إليهود «تحت تأثيرنا... يعطي انطباعًا بأنهم «رهائن»، «وبالتالي ومع تطورات الحرب في أوروبا، فان الحصول على ملجأ لليهود... يصبح ضرورة ملحة ويصبح من الواضح أن الحصول على مكان آمن بأي ثمن يصبح أكثر جدية».

في طوكيو، بدأ بعض رؤساء إينوزوكا في الشك في أن فيكتور كان يخدعهم. وكان صدق آل ساسون «مشكوكًا فيه» و«نظرًا لجوهر طبيعة اليهود»، فإن الاعتماد عليه لمساعدة اليابان «أمر غير قابل للتصديق بسهولة».

ومما أثار شكوكهم، رفض فيكتور التحدث علنًا لدعم اليابان. في يوليو 1939، وكان في طريقه إلى هونغ كونغ، توقف في طوكيو، حيث أخبر مسؤول الهجرة أنه يلقي باللوم على اليابان في التوترات المتزايدة مع الغرب. وقال إنه إذا استمر اليابانيون في مضايقة مصانعه في شانغهاي، فسوف ينتقل هو وكثيرون آخرون إلى هونغ كونغ. قامت الشرطة اليابانية بمراقبته طوال بقية رحلته. وفي رحلة إلى نيويورك، قال فيكتور لبرنامج إذاعي إن الشعب الياباني يجب أن يثور قريبًا ضد الزمرة العسكرية المجنونة الموجودة في السلطة. ودعت عدة صحف في طوكيو لاعتقاله. ناشد بعض الزعماء اليهود الموجودين في منشوريا، التي كانت خاضعة للحكم الياباني المباشر، فيكتور ساسون إلى التوقف عن التحدث علانية ضد اليابان. وفي نيويورك، عين له مكتب التحقيقات الفيدرالي حارسين شخصيين، خوفًا من تعرضه للهجوم من قبل النازيين أو المتعاطفين مع اليابان.

ومع ذلك، أصر إينوزوكا في برقياته التي كان يبعثها لرؤسائه في طوكيو على أن خطته الرامية للاحتفاظ باللاجئين كرهائن - كانت هي النهج الصحيح. لقد سبق له أن اختبر فيكتور وعرف أنه مخلص. وذكر في برقياته «أن اليهود أذكياء في المساومة وهي عادة متأصلة لديهم منذ 2000 عام ولا يستخدمون مثل هذه السياسة الحمقاء لإظهار نواياهم الحقيقية على

وجوههم. كلما كانت رغبتهم أقوى، تظاهروا باتخاذ موقف أكثر برودة. هذه الحقيقة سوف يعترف بها أي شخص لديه خبرة باليهود».

في أواخر ربيع عام 1939، التقى ساسون مع إينوزوكا وقال إن الأموال التي خصصها هو وزملاؤه من رجال الأعمال للمساعدة في إطعام وإسكان اللاجئين بدأت تنفد. كانت الأعداد تتزايد. لم تظهر ألمانيا أي اهتمام بإبطاء الهجرة الجماعية. كان إينوزوكا أيضًا يتعرض لضغوط من طوكيو للسيطرة على الوضع. بعد ثلاثة أشهر، في أغسطس 1939، أعلن اليابانيون أنه لن يُسمح بدخول المزيد من اليهود إلى المدينة. كان هناك 15000 لاجئ في شانغهاي، مع 3000 آخرين في الطريق. ووافق كل من إنوزوكا والقادة اليابانيين على أن هؤلاء الثمانية عشر ألفاً ستتم حمايتهم.

في سبتمبر 1940، انضمت اليابان رسميًا إلى ألمانيا وإيطاليا لتشكيل قوى المحور، مما عزز موقف المتشددين اليابانيين الذين كانوا متشككين في مفاوضات إينوزوكا مع فيكتور. كان النازيون يوجهون انتباههم إلى يهود شانغهاي. طالب المسؤولون اليابانيون فيكتور والقادة اليهود بتزويدهم بقائمة بجميع اللاجئين اليهود – وهو نفس التكتيك الذي استخدمه النازيون قبل اعتقال اليهود في أوروبا. قال فيكتور في مذكراته: «إنهم خائفون من انضمام يهود ألمانيا القادمين من إسبانيا إلى الصينيين، ومن انضمام خبراء الغازات السامة الألمان إلى الصينيين». «إنهم يريدون من اللجنة العثور على سجلات لجميع اليهود الألمان في هونغكيو!»

بدأت الصحف الصادرة باللغة اليابانية في شانغهاي، التي يسيطر عليها الجيش، في نشر مقالات تحذر من أن انتشار التجار اليهود فيما بات يعرف بـ (فيينا الصغرى) يقوض عمل المتاجر والشركات اليابانية. دعا المسؤولون اليابانيون أعضاء الغستابو الألماني إلى شانغهاي. زار مسؤولو الغستابو (فيينا الصغرى) وأوقفوا عرض مسرحية كتبها وأداها اللاجئون وصفت معاناة اليهود بعد احتلال النازيين للنمسا. ذكرت صحيفة صادرة في شانغهاي أنه ما لم يتم إيقاف المسرحية، فإن «الأعمال الانتقامية ستُتخذ ضد اليهود الذين يعيشون في ألمانيا وضد المهاجرين اليهود هنا».

كتب فيكتور إلى صديق له: «إن الجيش الياباني» يتصرف كما كان يفعل رجال العصابات في أمريكا خلال أيام حظر بيع الكحول». «على كل فرد أن يدفع مقابل الحماية». ذات مرة اقتحمت مجموعة من الجنود اليابانيين مصنعًا للقطن جنوب شانغهاي يملكه فيكتور وأمروه ببيع القطن بنسبة 40 في المائة من قيمته. وأبلغوا الموجودين أنه إذا رفض فيكتور، فسيصدرون أمرًا بمنعه من بيع قطنه لأي شخص آخر. كتب فيكتور وهو في مكتبه في فندق كاثاي: «اليابانيون هنا غريبو الأطوار». «فقادة الجيش منزعجون جدًا مني ويتحدثون عن وجوب التصرف معي»، «وهذا يعني أن يتم اختطافي أو تصفيتي بينما أنا الآن مشهور جدًا لدى مسؤولي الحكومة الأكبر سنًا والمصرفيين والصناعيين في طوكيو الذين يقولون إن لدي عقلًا راجحًا، وأنا محق تمامًا في آرائي كبريطاني ويجب معاملتي كشخص من المحتمل أن يكون صديقًا جيدًا لليابان عندما تنتهي كل هذه المشاكل».

في فندق كاثاي، حاول فيكتور الحفاظ على الروح المعنوية للنزلاء الأجانب الذين بدأ يتضاءل عددهم من خلال عرض أفلام الجاسوسية. في برلين، ندد به هيرمان غورينغ ووصفه بأنه «صبي مستهتر من هوليوود». ظل فيكتور يأمل في ألا تشن ألمانيا الحرب وسيطر عليه شعور بالكآبة عندما غزت ألمانيا بولندا. بعد بضعة أشهر استمع إلى الراديو وهو يعلن استسلام فرنسا. وكتب في يومياته «أخبار سيئة عن الفرنسيين الذين يطلبون عقد معاهدة». في يوليو 1940، عقد إينوزوكا عدة اجتماعات مع فيكتور. وأصر على أن يستثمر فيكتور أمواله في المصانع اليابانية لإظهار حسن نيته وضمان سلامة اللاجئين. سجل فيكتور في مذكراته: «أخبرته بعدم وجود أموال عندي»

زاد إينوزوكا واليابانيون من ضغوطهم على فيكتور. واقترحوا أن يدمج ممتلكاته الضخمة مع شركة يابانية من أجل «حماية» ممتلكاته العقارية. اعترض فيكتور وأخّر إرسال الرد الرسمي على الاقتراح. أخيرًا، وصل ضابط ياباني إلى مكتب فيكتور في فندق كاثاي برفقة رقيبين مسلحين. أعطاهم فيكتور – قائمة بالممتلكات تضم المباني التي تنتشر فيها الجرذان والمنازل المهجورة. فصرخ الضابط وقد انتصب واقفًا «هذه إهانة لليابان». «لن نسامحك عليها أبدًا»

بعد بضعة أسابيع، أقام اليابانيون حفل عشاء خاص لفيكتور في فندق كاثاي. أثناء تناول البراندي، حذره ضابط ياباني من أن إمبراطورية ساسون القوية ستنهار قريبًا ما لم يصبح فيكتور أكثر تعاونًا.

ثم سأله بصوت منخفض «أخبرني يا سيد فيكتور»، «لماذا تتخذ موقفًا معاديًا لليابان؟»

فأجابه «أنا لست معاديًا لليابانيين على الإطلاق». أنا ببساطة مخلص لآل ساسون ومؤيد مخلص لبريطانيا.

عندما سمع إينوزوكا بهذه الاجتماعات، كان غير سعيد بما كان يصل إليه من اخبار عنه. «من الواضح أن فيكتور ساسون قد اختار تجاهل التعاطف والكرم الممنوحين حتى الآن للاجئين اليهود من قبل السلطات اليابانية». وكان يشارك في «أنشطة دعائية معادية لليابان».

فحذره من أنه إذا بقي في شانغهاي واستولى اليابانيون على المستوطنة الدولية فمن المحتمل أن يتم القبض عليه، صعد فيكتور على متن سفينة متجهة إلى الهند وغادر في خريف عام 1941 – قبل أسابيع فقط من الهجوم على ميناء بيرل هاربور.

بقي هوراس في المدينة لأنه كان مسؤولًا عن مدرسة خضوري. وقام بإزالة هيكل سيارة الرولز رويس الفاخر واستبدله بشكل مؤقت بهيكل حافلة منصوب على قاعدة من العجلات لنقل الأطفال إلى المدرسة. مع قدوم المزيد والمزيد من الأطفال إلى المدرسة، قلل هوراس عدد الوجبات التي يمكنه إطعامها للأطفال اللاجئين إلى وجبة واحدة في اليوم. وكتب إلى لورانس: «وفقًا للأطباء، فإن هذا الوضع الجديد سيتسبب في إصابة الكثيرين بالمرض وحتى الموت، لكن لا يمكننا مساعدتهم». «أنا قلق للغاية». وأشار إلى أن الطعام بدأ ينفد في جميع أنحاء شانغهاي، وأصبحت أعمال الشغب بسبب الطعام «حدثًا يوميًا» في جميع أنحاء المدينة. كان القانون والنظام ينهاران. وكتب هوراس إلى لورانس ليخبره: «في الخامسة من صباح اليوم، حدثت عملية اختطاف خارج النادي الصيني أمام بوابتنا». «بقدر ما تمكنت أن أحسب تم اختطاف ثلاثة أو أربعة أشخاص. مع العلم أننا نعيش في حي

لطيف وهادئ». بعد أيام قليلة أغلق اليابانيون الشارع الذي يقع أمام قاعة ماربل. وأضاف هوراس «كان صبي صغير في السادسة من عمره يبكي بشدة خارج منازلنا»؛ «لذلك، أخذناه إلى الداخل ووفرنا له مبيتًا».

في سبتمبر، اتفق هوراس ولورانس على إرسال والدهما المريض إيلي، الذي كان يبلغ من العمر السادسة والسبعين، إلى هونغ كونغ للبقاء مع لورانس، وكان الشقيقان يعتبران هونغ كونغ أكثر أمانًا. كما أرسلا طبيبه معه أيضًا وأسكناه في جناح في فندق بينينسولا المملوك للعائلة. كتب هوراس لأخيه: «في حالة إعلان الحرب، فربما سنبتعد عن بعض لفترة طويلة وسيتعين على كل منا التصرف وفقًا لتقديره الخاص».

حدث ذلك في وقت مبكر جدًا من صباح يوم الإثنين الثامن من كانون الأول (ديسمبر) عام 1941، في شانغهاي عندما هاجمت الطائرات اليابانية ميناء بيرل هاربور، مما أدى إلى شل حركة الأسطول الأمريكي. قبل الساعة الرابعة صباحًا بقليل، صعد عدد من الجنود اليبانيين وكانوا مسلحين بسيوف الساموراي إلى زورق حربي أمريكي يدعى (the USS Wak) كان يرسو عند نهر هوانغبو وأسروا الطاقم. قصف اليابانيون ودمروا السفن البريطانية المجاورة. ومن دون مقاومة تذكر، قاد الجنود اليابانيون دباباتهم وعرباتهم المدرعة في منطقة البوند. مرت الشاحنات التي تحمل مكبرات الصوت من أمام فندق كاثاي، وأعلنت عن السيطرة على شانغهاي. قام الجنود بتوزيع منشورات فيها رسم كاريكاتور يصور روزفلت وتشرشل متشبثين بعضهما ببعض في رعب فيما القنابل اليابانية تتساقط من حولهما. طُلب من المواطنين البريطانيين والأمريكيين التوجه إلى هاملتون هاوس، وهو المجمع السكني الفاخر الذي بناه فيكتور. وقد تم تحويله إلى مقر للبوليس السري الياباني. تم إصدار شارات حمراء براقة ليرتديها «الأعداء من الغرباء» علنًا. كانت الشارة «أ» تعني الأمريكيين، و«ب» تعني البريطانيين. في الميناء الواقع في منطقة البوند، رست أمام القنصلية اليابانية، سفينة حربية يابانية. كانت إيزومو وهذا اسم السفينة، إحدى السفن التي ساعدت القروض التي منحها جاكوب شيف في بنائها قبل خمسة وثلاثين عامًا.

اقتحم ضباط الجيش الياباني مدرسة خضوري. وأخبروا هوراس بمنع التدريس باللغة الإنكليزية بعد الآن بل باللغة الألمانية. طردوا هوراس من قاعة ماربل هول في القصر العائلي، ووضعوه تحت الإقامة الجبرية، واقتادوه إلى منزل خاص يملكه أجنبي آخر، حيث طُلب منه رعاية شخصين أجنبيين مريضين.

في فندق كاثاي، اتصل المسؤولون التنفيذيون لشركات ساسون بثيودور أليكس وموظفين آخرين وأمروهم بالحضور مبكرًا إلى مكاتب الشركة التجارية والبدء بتمزيق وإتلاف سجلات الأعمال التجارية، حتى لا تقع في أيدي اليابانيين. وبينما كان الموظفون يدفعون بالملفات عبر آلات تمزيق الورق، سمعوا صوت جزمات عسكرية في الرواق. كانت الأبواب مفتوحة. دخل الجنود اليابانيون واستولوا على المكاتب واحتجزوا الموظفين، وصل النقيب إينوزوكا إلى فندق كاثاي، وأخذ المصعد إلى الطابق التاسع وسار في جناح فيكتور المهجور. وبينما كان الجنود اليابانيون ينبشون أوراق فيكتور، وقف خلف مكتب فيكتور واستقر في كرسيه. وأمر المصورين اليابانيين بالتقاط صورة له.

لقد أصبح رئيس شانغهاي الآن.

الفصل السابع

الحرب

حينما احتلت القوات اليابانية فندق كاثاي في شنغهاي واحتجزت شقيقه هوراس ووضعته تحت الإقامة الجبرية، اختبأ لورانس خضوري في زورق إنقاذ عسكري مرّ من خلال ميناء هونغ كونغ. وأصبحت كولون، شبه الجزيرة الريفية المرتبطة بجنوب الصين، تقع خلفه. وكانت تقع أمامه جزيرة هونغ كونغ، بواجهتها البحرية التي تعج بمباني المكاتب وأرصفة تحميل السفن. كانت تلوح في الأفق فوق الواجهة البحرية قمة جبل فيكتوريا، بارتفاع 1800 قدم، وهي معلم بارز من معالم الجزيرة. كان ذلك في الثامن من كانون الأول (ديسمبر) 1941. بالقرب من قمة الجبل التي انبثقت من السحب، وفي أكثر الأحياء تميزًا في هونغ كونغ، كان منزل لورانس معرضًا لنيران المدفعية اليابانية والقنابل الحارقة. تجمع في الداخل زوجته وطفلاه الصغيران. في هجوم مفاجئ تم بالتنسيق مع غارة السابع من كانون الأول (ديسمبر) 1941، التي قصفت فيها ميناء بيرل هاربور في هاواي وهجومها على مستوطنة شانغهاي الدولية، كانت الطائرات اليابانية تلقي قنابلها على مطار هونغ كونغ. اجتاح الجنود والمدفعية اليابانية المستعمرة من جهة الصين عبر الحدود التي تقع على بعد أميال قليلة.

لم يكن لورانس يعتقد أن الهجوم وشيك. في أبريل 1940، حثت حكومة هونغ كونغ الاستعمارية البريطانية النساء والأطفال البريطانيين على ركوب السفن والتوجه إلى أستراليا. رفضت موريل زوجة لورانس المغادرة وقدمت التماسًا للحصول على إعفاء. كانت أماً شابة وحاملًا

بطفلها الثاني. وقررت ألا تتخلى عن زوجها. بحلول أوائل عام 1941، تمكن المراقبون المتواجدون بالقرب من الحدود مع الصين من رؤية أرتال عسكرية يابانية تنقل الذخيرة والمؤن الغذائية. وصلت تعزيزات الجيش البريطاني إلى هونغ كونغ وبدأت في الاستعداد للغزو. تم تجنيد لورانس ورجال بريطانيين آخرين لتلقي التدريبات العسكرية. لكن لورانس، مثل معظم البريطانيين، اعتبر هونغ كونغ منيعة وأن الحرب غير محتملة. على عكس شانغهاي، كانت هونغ كونغ مستعمرة بريطانية. وكانت مثل الهند، جزءًا من الإمبراطورية. ولن تسمح لها بريطانيا بالاستسلام أبدًا. على عكس فيكتور، الذي نشأ على كره اليابانيين وعدم الثقة بهم، كان آل خضوري لا يزالون معجبين باليابان. حينما كانا طفلين، كان لورانس وهوراس يقضيان إجازة في اليابان لمدة شهرين تقريبًا في كل صيف مع والديهما. وقد أعجبا بالهدوء والسكون اللذين تتمتع بهما اليابان، وروعة المناظر الطبيعية، والفن والعمارة – وهو ما تختلف فيه عن شانغهاي الصاخبة. كانت والدتهما، لورا، مندهشة من سرعة تحديث اليابان. كتبت في مذكراتها عام 1919: «الجميع متفق على أن اليابان قادمة». وقد تعاملت لورا مع شركات يابانية، واستوردت الأخشاب منها وساعدت في تجميل الحدائق حول العديد من المعابد اليابانية، مما أكسبها تقدير العائلة المالكة اليابانية. مثل العديد من البريطانيين في هونغ كونغ، اعتقد آل خضوري أن اليابان أكثر حضارة وأناقة من الصين، وحتى عندما كانوا قلقين بشأن محاولات اليابان للتوسع، فقد أعجبوا وإن كان على مضض بالطريقة التي هزمت بها اليابان روسيا في عام 1905 وغزت منشوريا.

طوال الثلاثينيات من القرن الماضي، كان آل خضوري حذرين من استثمار أموالهم في شانغهاي ونقلوا المزيد والمزيد منها إلى هونغ كونغ التي تقع على بعد 700 ميل جنوبًا. تم إعداد لورانس من قبل إيلي لتولي إدارة الأنشطة التجارية لشركاتهم، وفي سن الثانية والأربعين كان ناجحًا بجميع المقاييس. ولأكثر من عشر سنوات، منذ أن عينه والده رئيسًا لشركة الكهرباء والطاقة الصينية، عمل على جلب الكهرباء –ووسائل التحديث– إلى كولون، وهي المنطقة الواقعة شمال هونغ كونغ التي استثمر فيها إيلي

أمواله مع روبرت هوتونغ وخوسيه بيدرو براغا. بالنسبة للورانس، كانت الكهرباء -أو الطاقة كما يفضل أن يسميها- ، هي المفتاح لمستقبل هونغ كونغ. وقد أعلن في عام 1940: «هناك من سيتذكر الأيام التي تكون فيها كولون مضاءة ليلًا» وكانت الطرق مضاءة بمصابيح الكيروسين. ولكن الآن، «فإن الصناعات التي تتراوح في حجمها من تصنيع أعواد البخور إلى بناء السفن البخارية العابرة للمحيطات، تختلف في طبيعتها عن حفظ الزنجبيل وتعدين خام الرصاص، فهي تعتمد اليوم على الطاقة التي يوفرها» آل خضوري. صمم لورانس وبنى منزلاً ريفيًا على طول أحد مداخل هونغ كونغ البعيدة، وقام بتجهيزه بأحدث التقنيات المستوردة من أوروبا، بما في ذلك مكيف الهواء الذي شغل ركنًا من غرفة المعيشة وأطلق الهواء البارد في جو من الرطوبة ودرجة الحرارة البالغة 35 درجة مئوية.

إذا كان للورانس من معلم تذكاري ومحط فخر في هونغ كونغ، فلن يكون سوى محطة هوك أون للطاقة، التي كانت تمثل أكبر مولد كهربائي في آسيا. في الافتتاح الكبير للمحطة في فبراير 1940، أخبر لورانس جمهورًا من الشخصيات البارزة والمسؤولين البريطانيين أنه بنى محطة الطاقة الجديدة «بنظرة متفائلة للمستقبل».

بعد اثنين وعشرين شهرًا، غزت اليابان هونغ كونغ.

اندفعت القوات اليابانية عبر الحدود مباشرة نحو مصدر فخر لورانس: محطة الطاقة الجديدة. كان المسؤولون البريطانيون قد حذروا لورانس من أنه في حالة غزو اليابان للجزيرة، فإنه سيحتاج إلى تفجير المصنع لإبقائه بعيدًا عن أيدي اليابانيين. كان مهندسو المحطة الذين يعيشون بالقرب منها قد هرعوا إليها ووضعوا عبوة ناسفة في التوربينات ودمروها وأزالوا الأجزاء الرئيسية في المحطة وألقوا بها في الميناء لجعلها غير قابلة للتشغيل. حصل لورانس، الذي كان قد انخرط في النشاطات العسكرية وتلقى تدريبات عسكرية في الأسابيع التي سبقت الغزو، على تصاريح للخروج وقارب صغير لإنقاذ والده وكادر محطة الطاقة الصينية. عندما انتهوا من عمليتهم، نقلهم لورانس بسرعة عائدًا بهم إلى المرفأ، وقفز إلى القارب وانطلق به، وعاد إلى جزيرة هونغ كونغ هربًا من تقدم اليابانيين.

وهي تخطو على الأرض الجافة، قاد لورانس سيارته من صنع شركة سنبيم تالبوت Sunbeam–Talbot نحو منزله المتربع على قمة جبل فيكتوريا وفجأة سقطت قذيفة أمامه. اخترقت شظيتان الجزء الخلفي من السيارة بينما زاد لورانس من سرعة سيارته. ويتذكر ذلك لاحقًا بالقول «حين يرى المرء كل ذلك يحدث أمامه، ولم تكن هناك وسيلة للتوقف، فلن يفكر إلّا بالنفاذ بجلده بأي ثمن»

وصل لورانس إلى منزله، لكنه كان فارغًا. شعر بالذعر، وبدأ يطرق على أبواب المنازل المجاورة، واكتشف أخيرًا أن عائلته تختبئ في منزل عمته. استقبلته موريل عند الباب مع طفليهما الصغيرين: ريتا البالغة من العمر سنة واحدة ومايكل، الذي لا يزال يحمل بين ذراعي والدته. رفضت موريل مغادرة المنزل. انفجرت قذيفة مدفعية يابانية بالقرب من المكان. سقطت مربية الأطفال التي كانت تحمل ريتا، على الأرض، وأصيبت بشظايا في وجهها. اشتعلت النيران في ستائر المنزل. اشتعلت النيران في أحد أجهزة المنزل وامتدت لتحرق ملابس ريتا. تكدس أفراد العائلة في السيارة وهربوا عبر الطريق المؤدي إلى منزل أحد الأصدقاء. كانوا آخر عائلة غادرت قمة الجبل المكشوفة. في يوم عيد الميلاد عام 1941، استسلمت هونغ كونغ.

بعد أحد عشر يومًا، في 5 يناير 1942، أمر اليابانيون لورانس وعائلته، بالإضافة إلى جميع المواطنين البريطانيين، بالتجمع في ساحة التمثال، وهي حديقة صغيرة أمام المقر الرئيسي لبنك هونغ كونغ وشانغهاي، وهو نفس المكان، الذي جاء فيه قبل ما يقرب من خمسين عامًا، المدير التنفيذي لبنك هونغ كونغ وشنغهاي إلى إيلي البائس الذي كان يجلس على مقعد في إحدى الحدائق وأقنعه بتحويل أمواله إلى البنك الجديد مقابل منحه عرض ائتمان سخيًا من شأنه أن يسمح له بالحفاظ على إمبراطوريته التجارية واقفة على قدميها. عندما تم إخراجه من جناحه في فندق بينينسولا Peninsula، التقط إيلي معطفه الصباحي ليحميه من برد الشتاء.

وانطلاقًا من ساحة التمثال، نظم اليابانيون موكبًا لاستعراض المدنيين الأسرى في «موكب من الإذلال» ونقلهم إلى الحافلات التي ستقلهم إلى

معسكرات الاعتقال. واصطفت الأسلاك الشائكة على جانبي الطريق. كانت هناك جثث معلقة بالأسلاك، أطلق اليابانيون عليها النار. شاهدت المشهد إميلي هان، الكاتبة في مجلة النيويوركر التي كانت عشيقة فيكتور ساسون في شانغهاي. كتبت لاحقًا: «كنت أفكر فيما يحدث». أبناء النخبة البريطانية في هونغ كونغ «الذين كانوا يتصرفون مثل الملوك، جالسون كأنهم مجموعة من الخدم. يغرقون في ذكريات ماضيهم. بعد ذلك، وفجأة، ينتبهون لما يحصل لهم!» تم دفع لورانس وزوجته وطفليه ووالده لركوب إحدى الحافلات وتم اقتيادهم إلى مجموعة من المباني الجامعية التي تم تحويلها على عجل إلى معسكر اعتقال بجوار سجن هونغ كونغ في حي ستانلي، الواقع على الجانب الآخر من جزيرة هونغ كونغ. كان الفندق الفخم الآخر للعائلة ريبلاس باي، Repulse Bay، يقع على بعد ثلاثة أميال فقط.

تم تجميع أكثر من 2000 سجين في معسكر ستانلي. كانت ظروف الحياة في المعسكر بائسة. تعرضت المباني المكونة للمخيم للقصف أثناء الغزو الياباني، وفقد الكثير منها أسقفها أو كانت بها ثقوب في الجدران. في «المباني المخصصة للمتزوجين» التي سكنت فيها عائلة خضوري، كان يتشارك ثلاثون شخصًا في الاستحمام مرة واحدة. كان هناك عدد قليل من الأسرّة. يتذكر لورانس أنه في الأيام المميزة، كانت حصصهم تتكون من «سيجارة واحدة، وعلبة صغيرة من الرز الرطب، وبعض الخس المسلوق والقليل من الحساء». تعلم الأسرى، الذين كانوا يعتمدون دائمًا على الخدم، كيفية الطهي وكيف يغسلون الملابس ويرتقونها. كما عملوا في الحدائق، وأقاموا عروضًا مسرحية ونظموا الحفلات الموسيقية، وأقاموا الشعائر الدينية، ولعبوا الورق. انضم لورانس إلى مجموعة من المسؤولين الحكوميين المسجونين الذين حاولوا الحفاظ على الروح المعنوية من خلال وضع خطط لميزانية حكومة ما بعد الحرب.

بسبب كبر سن إيلي، أعفاه اليابانيون من القيام بالعديد من الأعمال المنزلية المطلوبة من السجناء الآخرين. كان يتجول في معسكر الاعتقال مرتديًا معطفه الصباحي، ويجلس أحيانًا تحت شجرة ويتحدث مع السجناء الآخرين الجالسين حوله. في أحد الأيام ركض سجين بريطاني وهو

مضطرب -وكان مفتش شرطة- نحو لورانس، صاح مفتش الشرطة «أنا لن أذهب إلى شانغهاي مع والدك». «اللعنة عليك! أنا باق هنا»

رد عليه لورانس وقد تملكته الحيرة «عن أي شيء تتحدث؟»

قال المفتش: «أنا أعلم أن والدك سيصطحب معه إلى شانغهاي جميع من في المخيم»

تقدم لورانس بخطى سريعة نحو والده الذي كان جالسًا تحت شجرة، مطالبًا بمعرفة ما يجري. وهل إنه فقد عقله؟ قال إيلي إنه كان يمزح فقط لا غير.

إذا كانوا مستعدين لتصديق أن بإمكاني القيام بذلك، حتى في ظل هذه الظروف، وفي خضم الحرب، فإن ثقة الناس بي ما زالت عالية.

الحقيقة هي أنه لم يذهب أحد إلى أي مكان، أما تلك الثقة فقد تبددت.

بالعودة إلى شانغهاي، فعلى الرغم من أن اليابانيين وضعوا هوراس خضوري قيد الاعتقال باعتباره شخصاً «أجنبيًا معاديًا»، فإنهم لم يتخذوا أي إجراء ضد اللاجئين اليهود. كانت لوسي هارتويتش، اللاجئة اليهودية الألمانية التي عينها هوراس مديرة لمدرسة خضوري، لا تزال تعتبر مواطنة ألمانية. ومن المفارقات، وحيث إن ألمانيا كانت حليفة لليابان، فإن هارتويتش استمرت في إدارة المدرسة يومًا بعد يوم. ومع ذلك، مع وجود فيكتور ساسون الآن في الهند واعتقال هوراس، احتاج اللاجئون إلى بطل آخر. تولت امرأة أمريكية من بوفالو هذا الدور، واتضح أن أهم وظيفة لها، كانت مثل وظيفة فيكتور، وهي أن تجعل النقيب إينوزوكا يقع تحت تأثير سحرها.

بعد سنوات من الالتماسات التي تقدم بها فيكتور وإيلي وآخرون، وجهود المنظمة الأمريكية لتقديم المساعدات الأجنبية في مساعدة اليهود الفارين من النازية، وافقت لجنة التوزيع المشتركة أخيرًا في ربيع عام 1941 على تقديم المساعدة لليهود في شانغهاي. قبل سبعة أشهر من حادثة بيرل هاربور، أرسلت اللجنة الأمريكية لورا مارغوليس إلى شانغهاي لتحديد ما يمكنهم فعله. كانت مارغوليس ناشطة اجتماعية ذات ميول يسارية من

بوفالو. لم يكن لديها الكثير من الوقت لتقضيه مع المحسنين الأغنياء؛ وكانت تصطدم في بوفالو، غالبًا مع مانحين أثرياء، معتقدة أنهم كانوا يقدمون المال فقط لإراحة ضميرهم ودائمًا ما يتدخلون في العمل الذي يقوم به الاختصاصيون الاجتماعيون مثلها على الأرض. كانت تعتقد أن المؤسسات الخيرية لا يمكن أن تدار مثل الأعمال التجارية. لكن رجال الأعمال لم يفهموا ذلك قط. في عام 1939، أرسلت لجنة التوزيع المشتركة مارغوليس إلى كوبا لمساعدة اللاجئين اليهود على النزول هناك. وكانت في هافانا عندما تم إبعاد سفينة سانت لويس التي كانت تحمل أكثر من 900 لاجئ يهودي من أوروبا على أمل الوصول إلى الولايات المتحدة وأجبرت على العودة إلى أوروبا، حيث قُتل العديد من اللاجئين. وكانت حادثة شهيرة عُرفت باسم «رحلة الملعونين». كان في شانغهاي ما يقرب من عشرين ضعف عدد أولئك اللاجئين – 18000. كانت مارغوليس مصممة على أن المأساة التي حلت بيهود سفينة سانت لويس لن تتكرر.

وصلت مارغوليس إلى شانغهاي في مايو 1941 بعد رحلة بحرية استغرقت أسبوعين. أفزعها منظر المدينة. وقد تذكرت مارغوليس ذلك لاحقًا: «لقد كرهتها». «كانت مليئة بالأضوية البراقة، وكانت مزدحمة، وكان الصينيون يموتون في الشوارع». كانت قد وصلت إلى شانغهاي بحقيبة وضعت فيها ملابس العمل العملية، والأحذية ذات الكعب المنخفض. طُلب منها شراء فساتين جديدة، حتى تتمكن من حضور الحفلات في قاعة ماربل هال ومقابلة آل خضوري، الذين كانوا يمولون مدرسة اللاجئين. قدم لها فيكتور ساسون غرفة في فندق كاثاي ثم غادر في رحلة عمل. وتحدثت عن عائلتي خضوري وساسون قائلة «لا شيء يمكن أن يمسهم»؛ و«لا شيء يمكن أن يحدث لهم على الإطلاق». عندما غادرت قاعة ماربل هال في إحدى الأمسيات كادت أن تدوس على رجل صيني ميت في الشارع. «كنت أذهب إلى فندقي، وأغلق الستائر، وأخلد إلى الفراش، فقط لأزيل كل ذلك الرعب من رأسي». وخلصت مارغوليس إلى أن فيكتور ساسون، وآل خضوري، ورجال الأعمال اليهود الذين حاولوا مساعدة اللاجئين تسببوا في فوضى في الأمور. فهم مثل المتبرعين الأغنياء في بوفالو، لم يعرفوا كيف

يديرون وكالة رعاية اجتماعية. كانوا «لجنة من أصحاب المليارات». وفي العديد من حفلات الكوكتيل التي أقيمت في فندق كاثاي، التقت مارغوليس بالنقيب إينوزوكا، الذي تفاجأ بهدوئها وكياستها. فوضعت مع مساعدها، خططًا لتولي جهود مساعدة اللاجئين رسميًا.

أيقظ الغزو الياباني لمستوطنة شانغهاي الدولية في 8 ديسمبر 1941 مارغوليس التي كانت نائمة في غرفتها في فندق كاثاي عند الساعة الرابعة فجرًا، ونظرت من نافذة منزلها. كان المرفأ مشتعلاً. مزقت مارغوليس بسرعة أوراقها المهمة وألقت بها في المرحاض. نزلت إلى بهو فندق كاثاي ورأت الحراس اليابانيين متسلحين بحرابهم. دفعوها إلى غرفتها. ولم يُسمح للأمريكيين بالخروج. فقد أصبحوا أسرى.

بعد بضعة أيام، علمت مارغوليس أن إينوزوكا استولى على مكتب فيكتور ونزل في فندق بينتهاوس. فطلبت رؤيته. استقبلها بحرارة وقدم لها الشاي. سلمته برقية كانت قد تلقتها قبل الغزو الياباني مباشرة من لجنة التوزيع المشتركة لإبلاغها بوجود أموال مودعة في بنك سويسري لتستخدمها في شراء الطعام والملابس للاجئين في شانغهاي. ولكون البنوك مغلقة ولكونها محتجزة في الفندق، فلم تتمكن من الحصول على المال.

قالت مارغوليس لإينوزوكا: أنتم قوة محتلة الآن وقوى الاحتلال لا تحب أن تندلع أعمال الشغب. والناس الجياع سيضطرون للقيام بأعمال الشغب. أنت وأنا وبلداننا يمكن أن نتقاتل في ساحة المعركة، لكنني أعتقد أنه سيكون من مصلحتك أن تسمح لي باستخدام الأموال التي أمتلكها». وافق إينوزوكا لكنه أخبر مارغوليس أنه لا يستطيع طلب المساعدة من فيكتور ساسون أو عائلة خضوري أو أي شخص عمل معهم. كان من الواضح لها أن إينوزوكا كان «غاضبًا» من فيكتور الآن بعد أن تم الكشف عن خيانته. كان قد اعتقل بالفعل أحد مساعدي فيكتور الذين مكثوا في شانغهاي. وفيما كانت مارغوليس تتهيأ لمغادرة الاجتماع، قدم النقيب إينوزوكا طلبًا آخر، مما يعكس إيمانه الراسخ بأن اللاجئين في شانغهاي، واليهود الذين يحاول مساعدتهم، كان لهم تأثير على الحكومة الأمريكية. سأل مارغوليس فيما إذا كانت يهودية. فقالت إنها كانت. فأخبرها أن تتصل بروبرت مورغنثو،

وزير الخزانة الأمريكي اليهودي، والطلب منه تخفيف اللوائح التي كانت تجمد الأموال اليابانية في الولايات المتحدة. قالت له مارغوليس إنها لا تعرف مورغنثو. وأضافت أنها تقدر المساعدة الإنسانية التي قدمها وغادرت جناحه بسرعة.

بحلول صيف عام 1942، انقضت على وجود لورانس وعائلته في معتقل هونغ كونغ خمسة أشهر. التفت إليه زملاؤه الأسرى لتشجيعه، وكان يفتخر أنه ساهم في الحفاظ على معنويات الجميع، والتركيز على المستقبل عندما كان متأكدًا من هزيمة اليابانيين. لكن الحرب كان لها أثرها. كان يفقد الوزن. وكانت صحة إيلي تتدهور. أخبر طبيب بريطاني متدرب لورانس أن من المحتمل أن يكون إيلي مصابًا بسرطان البروستاتا. جلس لورانس مع والده وساعده في كتابة رسالة إلى قائد المعسكر الياباني. مستشهداً بـ «سنه المتقدمة» فقد كان في الثامنة والسبعين و«حالته الضعيفة»، طلب إيلي السماح له وعائلته بالعودة إلى شانغهاي وقصره العائلي وقضاء بقية سنوات الحرب هناك. وسرد «العديد من علاقاته التجارية المهمة مع المصالح اليابانية المهمة في كل من شانغهاي وهونغ كونغ» وأشار إلى أنه زار اليابان عدة مرات. وعدد التكريمات التي نالها والأشخاص الذين عرفهم، بمن فيهم الملك فيصل ملك العراق وهيلاسيلاسي إمبراطور إثيوبيا. بعد أيام قليلة، تم استدعاء لورانس إلى مكتب قائد المعسكر وقيل له إنه سيطلق سراحه. كان عليه أن يتخفى بهيئة «صحفي كندي». وكان عليه أن يشتري تذاكر له ولعائلته على متن سفينة متوجهة إلى شانغهاي.

وبسبب عدم وجود نقود، وكون البنوك تحت السيطرة اليابانية، اقترض لورانس المال من صديق هندي واشترى تذاكر لمقاعد على متن سفينة صغيرة تقل دبلوماسيين وعائلاتهم ورعايا أجانب آخرين إلى تايوان ثم شانغهاي. كانت السفينة تتسع لـ 600 راكب؛ وكان أكثر من 3000 مسافر محشورين على متنها. تم حشر أفراد عائلة خضوري الخمسة -ثلاثة بالغين وطفلين صغيرين- في حجرة واحدة. أعطي إيلي، الذي كانت حالته الصحية تزداد تدهورًا، سريرًا واحدًا. والرحلة التي كان من المفترض أن تتم في ثلاثة أيام استغرقت تسعة أيام، حيث كانت السفينة تسير في مسارات متعرجة لتتجنب

الغواصات الأمريكية. لم يُسمح للركاب بالصعود على سطح السفينة إلا في المساء. غيّر لورانس حفاضات ابنه في الخارج عند سطح السفينة وغسلها بماء البحر.

والآن وبعد أن أصبح اليابانيون في حالة حرب، بدأوا بإقامة حواجز ونقاط تفتيش عبر شانغهاي. في البداية، اعتقد الصينيون والأجانب على حد سواء أن الاحتلال سيكون قصير الأجل. فلن يكون اليابانيون نداً لجبروت أمريكا ولكن مع استمرار الحرب وتحقيق اليابان سلسلة من الانتصارات، أحكم اليابانيون قبضتهم على الأوضاع. أصدر اليابانيون للرعايا الغربيين بطاقات تموينية. كان الطعام مكلفًا، وبدأت تنتعش السوق السوداء. كان بمقدور الأجانب الأغنياء مثل هوراس الحصول على الطعام الذي يحتاجونه. وكان اليابانيون قاسين بشكل خاص على الصينيين عند نقاط التفتيش. فقد جعلوا الصينيين يركعون على ركبهم ويمدون أيديهم أمامهم ويحتفظون بهذا الوضع لساعات قبل أن يسمحوا لهم بالمرور – سواء كانوا في طريقهم إلى المنزل أو الذهاب إلى العمل.

اتضح أن «إطلاق سراح» لورانس المأمول هو خدعة. عندما وصل آل خضوري إلى شانغهاي، تم نقل إيلي إلى القصر العائلي –الذي استولى عليه اليابانيون– وتم حجزه مع هوراس في الإسطبلات الموجودة خلف القصر. تم سجن لورانس وزوجته وطفليه الرضيعين في معسكر اعتقال تشابي الدولي، المؤلف من مبنيين آخذين بالتوسع مكونين من ثلاثة طوابق في جامعة مهجورة بجوار مصنع كيماويات، على بعد سبعة أميال من منطقة البوند. تم وضع المعتقلين غير المتزوجين في أحد المبنيين، والأسر المتزوجة ولديها أطفال في المبنى الآخر. تم وضع عائلة خضوري في صالة نوم مشتركة مع عائلة أخرى، وتم حشر ثمانية أشخاص في مساحة مصممة لطالبين. كان ماء المطر ينفذ من خلال ألواح النوافذ المكسورة. وقامت العائلات بجمع ثمانية أسرّة كانت تتقاسمها في الليل، وتضعها على الجدران أثناء النهار. كان النزلاء يصطفون كل صباح ومساء لغرض حضور التعداد اليومي في الردهة. كانت زخات المطر الباردة تتساقط على القاعة عند غرفة الاستحمام المشتركة. في غرفة كبيرة غير مدفأة، كان الحراس اليابانيون يوزعون أجزاء

صغيرة من الأرز -بحجم علبة السجائر- والخضروات الفاسدة. قام النزلاء بغلي حشرات السوس التي كانوا يجدونها في الرز ويأكلونها للحصول على البروتين. وذكر أحد السجناء أن والده «جلب وعاء يحوي قشور الطماطم وقشور البيض المكسور والأرز» وقدمها لأطفاله لتناول العشاء. بالنسبة للحوم، كان اليابانيون يبحثون عن الكلاب التي تتبع جثث الكلاب التي ماتت أو العاجزة عن الركض بسبب كبر سنها. قام طهاة السجن بتحويل لحوم الكلاب إلى يخنة، ومزجها مع الثوم، وتوزيعها في الغداء، انخفض وزن إحدى النساء اللواتي كن يتشاركن الزنزانة مع عائلة خضوري من 135 إلى 85 رطلاً. كانت هناك لافتة مكتوبة بخط اليد على جدار غرفة الطعام تقول إذا كنت لا تريد أن تأكل الطعام، فلا تأكله، ولكن اتركه لأولئك الذين يجب أن يظلوا على قيد الحياة.

كانت موريل قدوري، زوجة لورانس، في السادسة والعشرين من عمرها عندما سُجنت. وكانت فردًا من الطبقة العليا في هونغ كونغ، وهي ابنة أحد أفراد عائلة ساسون الممتدة وكان والده عالِمًا معروفًا. كانت تعزف على البيانو وتحب الموسيقى. بينما كانت هي ولورانس يتبادلان الغزل في الثلاثينيات من القرن الماضي، سافرت، وقد كانت جميلة وحيوية بشكل لافت للنظر، كثيرًا إلى شانغهاي، وأقامت في القصر العائلي، وكانت تركب الخيل في الصباح وترقص مع لورانس في الحفلات والنوادي الليلية في الليل. التقت برجال الأعمال البريطانيين الذين أداروا شانغهاي، بمن فيهم رجل كان لديه طريقة غريبة في تنظيم خزانة ملابسه. فكان كل صباح يسأل خادمه عن درجة الحرارة. فإذا أجاب خادمه بأنها «23» درجة مئوية، يفتح درجًا في خزانة ملابسه يحمل هذا الرقم، وسيجد هناك مجموعة كاملة من الملابس المناسبة لدرجة الحرارة هذه. وكان قادرًا من دون تأخير، على ارتداء البدلة والقميص وربطة العنق والقبعة.

كانت موريل في الثالثة والعشرين من عمرها عندما تزوجت من لورانس عام 1938؛ وكان في التاسعة والثلاثين من عمره. رفضت مغادرة هونغ كونغ والتخلي عن زوجها عندما أمر البريطانيون بإجلاء النساء والأطفال عشية قصف بيرل هاربور. توفيت والدتها، التي أصبحت ممرضة، في حي ستانلي

أثناء رعايتها لمعتقلين آخرين. كانت تشارك حصصها الغذائية الضئيلة مع المرضى، وكانت تعتقد أن سوء تغذية والدتها قد عجل بوفاتها. كانت تقول للسجينات الأخريات إن جميع الطموحات التي كانت تحملها عندما كانت أصغر سناً قد قضت عليها الحرب. لقد أدركت ما عليها من واجبات بشدة: (الاعتناء بأطفالك، وفعل كل ما في وسعك ومحاولة العيش بشكل طبيعي قدر الإمكان).

كثيراً ما عاقب اليابانيون عائلة خضوري وغيرهم من السجناء بحرمانهم من الماء لمدة يومين - وهي عقوبة كانت قاسية بشكل خاص للرضيعين مايكل وريتا. فرض الحراس اليابانيون المتسلطون عقوبات مخيفة على المخالفات الطفيفة. ألقي القبض على رجل صيني تسلل إلى المعسكر لبيع طعام للسجناء، وتم ربطه بشجرة، وضرب هناك لمدة ثلاثة أيام على مرأى من سجناء المعسكر. لم يستطع النزلاء النوم لأن الرجل كان يئن طوال الليل.

أصبح لورانس زعيمًا للسجناء، حيث نظم اجتماعات لمناقشة مستقبل هونغ كونغ للحفاظ على الروح المعنوية للسجناء. تعلم بنفسه الاختزال، حتى يتمكن من تدوين الملاحظات في الاجتماعات. كان لورانس ينضم عدة مرات في الأسبوع إلى السجينات في فناء جناح الأسر في السجن لغسل ملابس عائلته، وتثبيت علبة فارغة مثقبة في أعلى مقبض الممسحة واستخدامها كغطاس لغسل -حفاضات ابنه المتسخة في دلو من الماء والصابون. كان الرجل الوحيد الذي يتولى واجب الغسيل. أخبر موريل أن هذه طريقة جيدة لسماع الأقاويل والإشاعات وأخبار المعسكر.

في يوليو 1942، التقى العديد من اللاجئين الذين يعيشون خارج مخيم تشابي بلورا مارغوليس وكانوا في حالة من الذعر. وأخبروها أن أعضاء قوات الأمن الخاصة الألمان وصلوا إلى شانغهاي. وأنهم كانوا يخططون لإبادة اليهود.

كان خوفهم مبررًا. تم نقل النقيب إينوزوكا فجأة من شانغهاي إلى مانيلا، في إشارة إلى أن المتشددين في الجيش الياباني قد اكتسبوا الصدارة وكانوا يستعدون لتشديد معاملة لاجئي شانغهاي. تم إرسال العقيد جوزيف

مايسينجر، الذي حصل على لقب «جزار وارسو» لكونه أرسل آلاف إليهود إلى حتفهم في بولندا، إلى شانغهاي بصحبة عدد من ضباط الأمن الألمان، في شهر آب التقى مايسينجر بالمسؤولين اليابانيين في مقر البحرية اليابانية في شانغهاي ووضع عدة خيارات «للتعامل» مع «مشكلة» 18000 لاجئ من شانغهاي. كان بإمكان اليابانيين إرسال اليهود إلى منشوريا وأماكن أخرى لأداء الأشغال الشاقة لمساعدة المجهود الحربي الياباني. ويمكنهم إقامة معسكر اعتقال «للتجارب الطبية» على جزيرة قريبة في نهر اليانغتسي. في النهاية، نشر مايسينجر خريطة كبيرة لشنغهاي وعرض خطته المفضلة. في غضون أسابيع قليلة، وفي الليلة الأولى من رأس السنة اليهودية الجديدة، تقوم وحدات الأمن الخاصة الألمانية باعتقال اللاجئين اليهود الذين كانوا يقيمون الشعائر الدينية مع زوجاتهم وأطفالهم في المعابد اليهودية في شانغهاي. وتعتقل من بقي في منزله. ثم تقوم باقتياد اليهود إلى الشوارع والسير بهم إلى الميناء، حتى يتم تحميلهم على السفن المقرر تدميرها، وتتجه إلى المحيط ويتم إغراقها وهم على متنها.

ارتاع المسؤولون اليابانيون من هذه الخطة. بعد نقاش داخلي عرضوا على حلفائهم النازيين حلًا وسطًا. كان اللاجئون لا يزالون رهائن ثمينين، لكنهم كانوا بحاجة إلى أن يظلوا تحت سيطرة أشد. قرروا إنشاء حي يهودي في حي هونغكوي -الحي الفقير والمزدحم بمنازله المتراصة والمراحيض الخارجية والأزقة القذرة، الذي أصبح يعرف باسم فيينا الصغرى- حيث استقر 10000 لاجئ يبحثون عن سكن رخيص. أعلن اليابانيون عن الخطة عبر الراديو وعلى الصفحات الأولى للصحف. «بسبب الضرورة العسكرية»، أُمر جميع اليهود بالانتقال إلى منطقة تبلغ مساحتها ميلًا مربعًا واحدًا في هونغكيو. لم يتم استخدام المصطلحين «يهودي» و«غيتو». تمت الإشارة إلى اليهود على أنهم «لاجئون عديمو الجنسية» وأطلق على الغيتو عبارة «منطقة محددة». تم وضع لورا مارغوليس في معسكر للاعتقال؛ وانتهت فجأة جميع جهودها لمساعدة اللاجئين.

تم ابلاغ إريك رايسمان وعائلته، الذين اشتروا منزلاً خارج (المنطقة المحددة)، بأنه يتعين عليهم الانتقال منه وأنه تمت مصادرة منزلهم وتسليمه

إلى جنرال ياباني. كان إيريك يذهب إلى مدرسة خضوري، ويتلقى دروسًا في الملاكمة. انتقل هو وشقيقه ووالدته ووالده إلى غرفة واحدة في الحي اليهودي الجديد. كان يعيش حينها أكثر من 18000 لاجئ يهودي في هونغكو إلى جانب 100000 صيني. وكان اللاجئون يقولون مازحين إن المساحات الخضراء الوحيدة كانت المقاعد المطلية باللون الأخضر على الرصيف. تم قطع حصص الإعاشة؛ وتم تقليص كميات الطعام والحليب المقدمة من قبل عائلتي خضوري وساسون، وفيما بعد من قبل مارغوليس ولجنة التوزيع المشتركة. قام الحراس اليابانيون بمدّ الأسلاك الشائكة عبر الشوارع وحراسة مداخل ومخارج الحي اليهودي. كان اللاجئون يحتاجون إلى بطاقة مرور مختومة بشكل صحيح للدخول والمغادرة. مع ذهاب إينوزوكا، انتقلت السيطرة على اللاجئين إلى ضابط ياباني آخر معاد للسامية، هو الرقيب كانو غويا. كان غويا يصف نفسه بأنه «ملك اليهود» وتمتع بجعل اللاجئين ينتظرون في طابور تحت أشعة الشمس الحارقة لساعات لتقديم طلب للحصول على تصريح مرور. كان يحضر مباريات كرة القدم التي يقيمها اللاجئون في مدرسة خضوري وكان يجعل اللاعبين يستعرضون أمامه. وكان يصفع اللاجئين الذين يزعجه سلوكهم. يتذكر أحد اللاجئين: «كان لئيمًا للغاية، وإذا أمسك بأي شخص يخالف حتى أصغر القواعد، كان يقوم بمعاقبته بقسوة».

للمساعدة في إطعام أسرته، فتح والد إريك كشكًا لبيع الخضروات في الحي اليهودي وأرسل إريك وشقيقه للانتظار في طابور كل يوم للحصول على تصاريح حتى يتمكنوا من شراء الخضار من الأسواق الصينية خارج نطاق الحي اليهودي والعودة بها لإعادة بيعها. ظلت مدرسة خضوري مفتوحة. تخرج إريك وحصل على وظيفة في صيدلية، حيث قام بتلبية طلبات الزبائن وتقديم الأدوية لهم. وكان هذا المال الذي كسبه هو الذي أبقى عائلته على قيد الحياة. لم يكن أحد يعرف ما هو المصير الذي ينتظره.

على الرغم من أنهم فقدوا معظم ممتلكاتهم وتم حشرهم الآن في غرف صغيرة في الحي اليهودي في شانغهاي، فإن اللاجئين كانوا أفضل حالًا من جيرانهم الصينيين، الذين كان بعضهم أيضًا لاجئين من مناطق الحرب الواقعة في أقصى الشمال. لم يستطع الصينيون واليهود التواصل بعضهم

بعض بشكل جيّد. فقلة من اللاجئين لم يتعلموا أكثر من بضع كلمات من اللغة الصينية، ولم يكن الصينيون يعرفون لا الألمانية ولا الإنكليزية. لكن الحقيقة البسيطة المتمثلة في أنهم يستطيعون العيش بكل حرية وانطلاق أذهلت العديد من اللاجئين. يتذكر جيرهارد موسى، وهو لاجئ من فيينا، ما يلي: «في أوروبا، إذا هرب يهودي، كان عليه أو عليها أن يختبئ، وهنا في شانغهاي يمكننا الرقص والصلاة والقيام بأعمال تجارية». لقد اندهش من «كيف أن الناس الذين كانوا في وضع أسوأ مما كنت أشعر به يمكن أن يشعروا بالأسف من أجلي». جوزيف روسباخ، لاجئ آخر، كان يحتفظ بعربة يد من الخيزران كان يلعب بها. وكان شخص يجر عربة ريكاشا يأتي بها من شانغهاي إلى منزل جوزيف عدة ليالٍ في الأسبوع، ويجمعه هو وأطفاله في عربته، ويسحبهم في الشوارع وهم يضحكون. وقال لاجئ مندهش، اسمه ليو روث، لعائلته: «إنهم لا يعرفون شيئًا اسمه معاداة السامية».

كان فيكتور ساسون في الهند، بعيدًا عن متناول الجيش الياباني. وكان يجمع الأموال لمساعدة الجنود البريطانيين الجرحى ويسافر حول العالم للتحدث نيابة عن قضية الحلفاء. ذات مرة قابلته هان سوين، وهي كاتبة يسارية متعاطفة مع الشيوعيين، على متن سفينة تبحر من بومباي إلى نيويورك ووصفته بأنه شخص متكبر ومتعجرف. وكتبت عنه «لقد صعد على متن السفينة وهو يعرج، بنظارته وحيدة العدسة، وبتلك الغطرسة التي يتميز بها أثرياء شانغهاي والتي أصبحت الآن شيئًا يثير السخرية». وكتبت لاحقًا. «وبنظرة متغطرسة من وراء نظارته أحادية العدسة» أعلن لها، «سترين أننا سنعود إلى شانغهاي في العام المقبل».

في خطاب ألقاه في بوسطن، كان فيكتور أكثر واقعية، حيث سرد سلسلة الهزائم التي عانى منها الحلفاء في آسيا منذ حادثة بيرل هاربور، والطريقة التي استهان بها البريطانيون والأمريكيون بالجيش الياباني، واستسلام سنغافورة وهونغ كونغ. «يبدو أنهم يعرفون بالضبط ما كان يجري في أراضينا، وما كنا نفعله، وما اقترحنا القيام به وما هي المشاكل التي يتعين عليهم حلها. من ناحية أخرى، بدا أننا نعرف القليل جدًا، إن كان هناك أي شيء نعرفه على الإطلاق، عما كانوا يفعلونه».

توقع فيكتور أن ينتصر الحلفاء في نهاية المطاف في الحرب وأن العالم سيُحكم من قبل «إمبراطورية روسية»، وأن أوروبا ستهيمن عليها الولايات المتحدة، وإمبراطورية آسيوية «من المحتمل أن يديرها الصينيون». جادل فيكتور بأن الصينيين، بعد أن شهدوا نجاح اليابان، سيقولون لأنفسهم، «إذا كان تعلم بعض الحيل الغربية مكّن اليابان تقريبًا من التغلب على الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، يا لها من فرصة للصين التي يبلغ عدد سكانها 400 مليون نسمة. لقد اعتدنا أن نحكم العالم فلماذا لا نحكمه مرة أخرى؟»

وختم بالقول (أعتقد أن عقلية الصينيين تتغير وأعتقد أنهم استيقظوا، وأنهم سيعتمدون على الأساليب اليابانية).

لكن في الوقت الحالي، سيطر اليابانيون على شانغهاي وسجنوا النائب الأول لفيكتور ومستشاره السياسي، إليس حاييم، وهو أحد اليهود البغداديين المهاجرين، الذين جلبهم آل ساسون إلى شانغهاي منذ القرن التاسع عشر. لعب حاييم دورًا مهمًا في إطعام وإسكان اللاجئين. وهو الآن معتقل في إمبانكمينت هاوس وهو المبنى الذي كان ذات يوم تحفة فنية من صنع فيكتور، مستلق على فراشه ومريض دون عناية. تم إطلاق سراح الصحفي الأمريكي الذي كان مسجونًا مع حاييم فكتب رسالة إلى فيكتور يشرح فيها معاناة حاييم. ونقل عن حاييم قوله: «لقد صمدت في وجه هذه المصاعب لمدة ستين يومًا، لكنني الآن منهك بعد مرور اثنين وثمانين يومًا. منذ أيام كنت أحاول أن أطلب طبيبًا يأتيني لعلاج الحمى التي أصابتني، لكن مسؤولي السجن لم يحركوا ساكنًا. لقد كنت أعتقد ان أموالي ستفيدني. لم أحلم قط أنني سأعيش مثل أقذر الحمقى». كان حاييم ضعيفًا لدرجة أنه كان لا بد من مساعدته في استخدام المرحاض وبمرافقة سجناء آخرين. كتب الصحفي إلى فيكتور: «لقد كان مصابًا بما يعتقد أنه الملاريا وكانت أطرافه متشنجة بسبب الاستلقاء في ركنه لفترة طويلة». «كان يميل إلى إلقاء اللوم عليك فيما يلقاه من مصير بائس». في غضون ذلك، كتب الصحفي، «لقد كان اليابانيون يمتعون أنفسهم بمحتويات الإستوديو الخاص بك، وهم يتأملون الأشياء التي تركتها وراءك».

كان فيكتور، وهو يقرأ الرسالة في مكانه الآمن في الهند، محرجًا جدًا.

وقد نما يأسه من المستقبل. سأل مديريه التنفيذيين الآخرين الذين انضموا إليه في الهند عن ثروته. فبدأوا يحصون الأموال التي لا تزال آمنة في البنوك، والملايين المستثمرة في سوق الأوراق المالية الأمريكية، والمصانع في الهند، وممتلكاته العقارية الضخمة واستثماراته في شانغهاي.

قال لهم فيكتور بنبرة من الحزن. «انسوا أمر الصين فقد ضاعت منا»

بحلول عام 1944، كان قد مضى عامان على سجن آل خضوري داخل معسكر الاعتقال تشابي في شانغهاي.

تدهورت حالة إيلي الصحية أكثر فأكثر. عثر لورانس على آلة كاتبة قديمة وكتب رسالة إلى القائد الياباني، يطلب فيها السماح لوالده بالموت في منزله، محاطًا بالعائلة. «والدي، البالغ من العمر 80 عامًا، يحتضر، ورؤية ابنه الأكبر وأحفاده سيجعله سعيدًا للغاية». طلب لورانس أن يُسمح لعائلة خضوري بالعودة إلى القصر العائلي و«السماح لي بالعيش مع والدي خلال الأيام الأخيرة من حياته حتى نعتني به ونريحه».

منح لورانس الإذن بالعودة إلى المنزل، حيث رأى والده للمرة الأخيرة في غرفة صغيرة فوق الإسطبلات، إلى جانب خدمهم السابقين. في أغسطس 1944، توفي إيلي. سُمح للورانس بإحضار جثة والده إلى المنزل قبل الدفن. بعد ذلك بوقت قصير، سمح اليابانيون للعائلة بمغادرة مخيم تشابي والعيش تحت الإقامة الجبرية في الإسطبلات بينما كان القصر العائلي يجهز ليصبح مقر إقامة الحاكم الدمية لشنغهاي.

قبل الغزو الياباني، كان هوراس قد اشترى قطعة أثاث كبيرة فيها راديو يعمل على الموجات القصيرة. بعد العودة إلى القصر العائلي، كان لورانس يتسلل إلى غرفة الرسم في وقت متأخر من الليل، ويستمع إلى إذاعة القوات المسلحة الأمريكية بعيدًا عن مرمى سمع الحراس اليابانيين. وكان يتابع تقدم القوات الأمريكية، وفي أغسطس 1945، علم بإلقاء القنبلة الذرية التي قال المذيع الأمريكي إنها «ستغير مجرى البشرية».

بعد بضعة أسابيع، في 20 أغسطس 1945 –الذي يصادف عيد ميلاد موريل زوجة لورانس– ظهر الجنود الأمريكيون عند مدخل القصر العائلي.

لأول مرة منذ ما يقرب من أربع سنوات، أضاء لورانس الأنوار في القصر. لقد انتهت الحرب.

في حي هونغكيو اليهودي، أدرك إريك رايسمان أن الحرب قد انتهت لأن الحراس اليابانيين الذين يحرسون البوابات اختفوا فجأة، تاركين البوابات المحاطة بالأسلاك الشائكة مفتوحة. تدفق اللاجئون والمدنيون الصينيون إلى شوارع هونغكيو للاحتفال. يتذكر أحد اللاجئين قائلاً: «كان الأمر أشبه بالأميرة النائمة التي استيقظت من نومها». ركض إيريك واللاجئون الآخرون في الشوارع، وقاموا بتمزيق اللافتات التي تميز حدود «المنطقة المحددة»، وهم يرقصون جنبًا إلى جنب مع الصينيين المبتهجين. زحف الجيش الأمريكي إلى المدينة ورفع الأعلام الأمريكية فوق المباني المصطفة على طول منطقة البوند.

عندما توجه الجنود الأمريكيون شمالًا إلى ما قيل لهم إنه الحي اليهودي، كانوا يهيئون أنفسهم لرؤية الفظائع التي سمعوا أنها ارتكبت في الأحياء اليهودية ومعسكرات الاعتقال في أوروبا. لكنهم في شانغهاي، شعروا بالدهشة، فقد وجدوا أكثر من 18000 يهودي قد نجوا بحياتهم. لقد عاشوا في ظروف قذرة وأكلوا طعامًا سيئًا، لكن لم يُقتل أي واحد منهم عمدًا. وبسبب انقطاع المعلومات عنهم على مدى السنوات الأربع والنصف الماضية، حاصر اللاجئون الجنود الأمريكان، مطالبينهم بمعرفة أخبار أقاربهم في النمسا وألمانيا. لم يسمع معظم اللاجئين عن عائلاتهم منذ استيلاء اليابان على شانغهاي في عام 1941. ويتذكر أحد اللاجئين «بعد أن غزت ألمانيا بولندا... كانت الرسائل الواردة من عائلتي أقل تواترًا. آخر اتصال تلقيته كان رسالة من الصليب الأحمر من أختي بتاريخ 8 نوفمبر 1942»

بات اللاجئون في شانغهاي يعلمون من خلال متابعة الإذاعات، ونشرات الأخبار السينمائية، ومن مسؤولي الصليب الأحمر، مصير يهود أوروبا. كانت الصحف تنشر قوائم بأسماء الناجين حسب الحروف الأبجدية كل أسبوع، وكان يأخذها اللاجئون وينشرونها في جميع أنحاء هونغكيو. كان اللاجئون يتجمعون كل أسبوع لفحص القوائم، على أمل ظهور الأسماء التي يبحثون عنها. كتب أحدهم «جلسنا ضائعين مع أفكارنا، وحزننا». مع انتشار الأخبار

الكئيبة، علم أحد جيران رايسمان في هونغكيو أن كل فرد من أقاربه تقريبًا على جانبي عائلته، وعددهم أكثر من أربعين شخصًا، قد قُتلوا. فقدت امرأتان أخريان كل أفراد أسرتيهما. كتب أحد اللاجئين «كل شيء مررنا به فجأة أصبح باهتًا بالمقارنة مع الموت» فلم يعد الجوع، والمرض والفقر، مهمًا. كنا محظوظين. لم يقتلنا أحد بالغاز. لقد كنا نمتلك حياتنا، لكن هذا لم يكن سببًا للاحتفال.

بعد إصدار أكثر من 4000 تأشيرة لليهود من مكتبه في فيينا، تم استدعاء هوو فنغ شان من قبل رئيسه، السفير الصيني في برلين، في مايو 1940. ومع محاولة الصين القومية الحفاظ على العلاقات مع ألمانيا وشراء الأسلحة لمحاربة اليابانيين، خشي السفير الصيني من أن هوو كان يعادي النازيين. واتهم هوو بجني الأموال عن طريق بيع التأشيرات. لكنه نفى التهمة. لم يتم إثبات أي شيء على الإطلاق. واتهم هوو «بالعصيان». عندما استولى الشيوعيون على الصين وهربت الحكومة القومية إلى تايوان، ظل هو مخلصًا للقوميين وشغل بعد ذلك منصب سفير تايوان في مصر والمكسيك وبوليفيا وكولومبيا. لم يتحدث علنًا عن اليهود الذين أنقذهم. بعد وفاته في عام 1997، جمعت ابنته القصة وأقنعت ياد فاشيم[1]، بتكريمه كواحد من «الأشخاص الصالحين بين الأمم» لشجاعته وإنسانيته.

غادر إريك رايسمان وعائلته شانغهاي بعد الحرب واستقروا في الولايات المتحدة، حيث تزوج وعمل ميكانيكي طائرات. تزوج شقيقه بول من لاجئة يهودية التقى بها في شانغهاي واستقر في إسرائيل، ثم في أمريكا الجنوبية.

بعد إلقاء القبض عليها واحتجازها في سجن شانغهاي، أعيدت لورا مارغوليس إلى الولايات المتحدة في عملية تبادل لأسرى الحرب في سبتمبر 1943. كتبت تقريرًا لاذعًا للجنة التوزيع المشتركة تنتقد فيه جهود فيكتور ساسون، وآل خضوري، و«لجنة المليارديرات». بعد سنوات اعترفت بأنها كانت قاسية جدًا في احكامها بحقهم وأنهم بذلوا قصارى جهدهم تحت ضغط هائل.

1- مؤسسة إسرائيلية رسمية أقيمت في 1953 بموجب قرار الكنيست الإسرائيلي كمركز أبحاث في أحداث الهولوكوست ولتخليد ذكرى ضحاياها-م

أرسل فيكتور ساسون لجميع موظفيه اليهود شيكات برواتبهم لثلاث سنوات – السنوات الثلاث التي كانوا فيها عاطلين عن العمل وأجبروا على العيش في الحي اليهودي. على الرغم من إجباره على الانتقال إلى شقة صغيرة في الحي اليهودي، أكمل ثيودور ألكسندر دراسته الحاخامية ونصب حاخامًا من قبل لجنة من حاخامات اللاجئين اليهود في شانغهاي. تزوج من لاجئة التقى بها في شانغهاي، وأقام الزوجان حفل زفافهما في مدرسة خضوري بحضور فرقة موسيقية وراقصة. في عام 1947، استخدم ثيودور المبلغ المفاجئ الذي أرسله له فيكتور لحجز مقاعد على متن سفينة كانت متوجهة إلى كاليفورنيا. أخذ معه إلى سان فرانسيسكو التوراة التي أنقذها من كنيسه في برلين الذي تم تدميره وجلبها معه إلى شانغهاي.

تم اعتقال النقيب إينوزوكا من قبل الجيش الأمريكي في مانيلا وبدأت الاستعدادات لمحاكمته كمجرم حرب. لكن اللاجئين في شانغهاي واليهود في منشوريا تقدموا للدفاع عنه، قائلين إنه قام بحمايتهم من جهود ضباط الجيش الياباني المتطرفين والنازيين لإلحاق الأذى بهم، ووفر ملاذًا لـ 18000 يهودي فروا من النازيين. في دفاعه، أخرج إينوزوكا ولاعة سجائر فيها عبارة كتبتها مجموعة من اليهود في منشوريا أثناء الحرب، يشكرونه فيها على مساعدته لهم. قرر الأمريكيون عدم محاكمته. تزوج إينوزوكا من سكرتيرته اليابانية، التي رافقته إلى شانغهاي وعند لقاءاته مع فيكتور، وعاش الخمسة عشر عامًا التالية في شقة في طوكيو. في ردهة الشقة، بالقرب من المدخل، احتفظ بصورة مؤطرة التقطها فيكتور ساسون لاينوزوكا وزملائه العسكريين اليابانيين وهم يهرجون ويضحكون في فندق كاثاي.

الفصل الثامن

تخليت عن الهند والصين تخلت عني

عندما بدأت الحرب العالمية الثانية، كان البريطانيون هم الذين يديرون منطقة التسوية الدولية في شانغهاي. أما الآن، وكما هو الحال في جميع أنحاء أوروبا، أصبح الأمريكيون هم المسؤولين. انتقل الجنرال ألبرت سي ويديمير، القائد الأمريكي في الصين، إلى جناح فيكتور ساسون في فندق كاثاي. ظهرت مجموعة مؤلفة من عشرين جنديًا أمريكيًا في قاعة القصر العائلي وطلبوا من آل خضوري توفير سكن لهم. في القصر العائلي، كان مايكل ابن لورانس البالغ من العمر أربع سنوات يقود دراجته ذات الثلاث عجلات على طول شرفة القصر التي يبلغ ارتفاعها 220 قدمًا محدثًا ضجيجًا يشبه صوت الطائرات. حمله جندي أمريكي على كتفه إلى الفراش، صارخًا به، «أنا طائرتك البي 29!» عندما ذهب الخدم العاملون لدى آل خضوري إلى المستودعات الواقعة حول شانغهاي لاستعادة الأثاث الذي وضعه اليابانيون في المخزن، كان آل خضوري يتناولون الطعام مع الجنود الأمريكيين[1] بينما كانت موريل زوجة لورانس تعزف على البيانو ووعدتهم بـأن تطهو لهم «وجبة غداء هندي» بمجرد عودة الأمور إلى طبيعتها. كان أحد الأقرباء ينقر على البارومتر الذي يُظهر حالة الطقس في الخارج، وينظر إلى السماء الصافية، ويعلن، «الآن، أيها الأولاد، حان الوقت لممارسة تدريبات طائراتكم!» في الثامن والعشرين من سبتمبر 1945، الذي صادف عيد ميلاد

1- كان الطعام عبارة عن حصة غذائية قتالية فردية تم تقديمها من قبل جيش الولايات المتحدة للجنود خلال الحرب العالمية الثانية–م

هوراس الثالث والأربعين، أرسل الأمريكيون 200 طائرة حلقت فوق القصر العائلي لتقديم التحية، وهي طريقة لتقديم الشكر لهوراس على كرم ضيافته، والتذكير بأنه كان أمرًا متوقعًا منه. قال لورانس لهوراس: «أشعر أنه من المهم للغاية التعاون مع الأمريكيين بأي طريقة ممكنة، فكلما زاد اهتمامهم بالصين، زاد فهمهم للمشاكل التي تواجه جميع رجال الأعمال هنا».

احتج القنصل العام البريطاني على أنه هو ورفاقه البريطانيين كانوا يشعرون بالإهانة، لذلك دعا هوراس ولورانس العديد من أفراد سلاح الجو الملكي للإقامة في القصر العائلي أيضًا وسلموا جناحًا في القصر إلى القنصلية البريطانية لاستضافة زوارها من كبار الشخصيات. وقاموا بتخصيص منزل آخر يملكه آل خضوري ليكون مقر إقامة القنصل البريطاني. طلب القائد العام البريطاني من لورانس أن يريه معسكر اعتقال تشابي، حيث كان لورانس مسجونًا، ودعاه ليشهد مراسم توقيع الاستسلام الرسمي للقوات اليابانية في شانغهاي.

خلال مأدبة عشاء امتدت حتى الثالثة صباحًا جمعت لورانس مع الضباط يشربون ويتبادلون قصص الحرب في قاعة الطعام الضخمة في القصر العائلي، سألهم عما إذا كان بإمكانه ركوب طائرة عسكرية بريطانية تتوجه به إلى هونغ كونغ. كان بحاجة لمعرفة ما حدث لمحطة الطاقة الخاصة به ومنازل آل خضوري هناك. وافق القائد البريطاني على طلبه في حالة ما إذا كان مستعدًا للمغادرة في غضون ثلاث ساعات، في الساعة السادسة صباحًا. أيقظ لورانس موريل من نومها، وطلب منها أن تعتني بالأطفال والمنزل، وتوجه إلى هونغ كونغ، تاركًا هوراس مرة أخرى للتعامل مع الأوضاع القلقة في شانغهاي.

على مدار العامين التاليين، تواصل الشقيقان بشكل شبه يومي من خلال المذكرات والرسائل التي كانا يتبادلانها بين شانغهاي وهونغ كونغ، وكانت تعليقاتهما المكتوبة على الهامش ونبرة الإلحاح المتزايدة فيها تعكس حالة الذعر التي سادت عندما غزا الشيوعيون الصين.

تمكن الأمريكان من تحرير شانغهاي لكنهم سرعان ما سلموا إدارة

شؤونها اليومية إلى شيانغ كاي شيك والقوميين الصينيين. كان هوراس مصممًا على أن يكون مضيفًا لبقًا وذكيًا سياسياً، لكنه وضع حدودًا لإيواء القوات الصينية. عندما ظهر ثمانون جنديًا صينيًا في قاعة القصر العائلي مطالبين بتزويدهم بأسّرة للمبيت، قام هو وموريل بإبعادهم، ثم عرض عليهم توظيف نصفهم كحراس ومراقبين للتخفيف من أي مشاعر مؤلمة قد تنتابهم. لقد كان ذلك استمرارًا للعقلية الاستعمارية التي لطالما تميزت بها شانغهاي. لكن المدينة كانت تتغير. لم يلاحظ سوى القليل في دراما الحرب، وافق الأمريكيون والبريطانيون في عام 1943 على إنهاء الحصانة الدبلوماسية، وهي القاعدة التي تضع جميع الأجانب والشركات الأجنبية فوق القانون الصيني. لم تعد منطقة التسوية الدولية -بمجلسها البلدي الذي يسيطر عليه آل ساسون ورجال الأعمال الآخرون، ومحاكمها وقوات الشرطة التابعة لها، والقوة العسكرية البريطانية المرابطة لحمايتها- موجودة بمجرد انتهاء الحرب. اختفت الفقاعة التي عاش فيها آل خضوري وآل ساسون منذ أربعينيات القرن التاسع عشر. أصبحت عائلة خضوري جزءًا من شانغهاي الآن، ولأول مرة منذ أكثر من مائة عام، سيطر الصينيون على المدينة بأكملها. لقد أصبح الصينيون «معادين للغاية للأجانب»، كما أبلغ هوراس شقيقه لورانس بنبرة قلقة.

في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم 23 سبتمبر 1945، غادر هوراس القصر العائلي متوجهاً إلى شركة شانغهاي للغاز للمرة الأولى منذ نهاية الحرب. كان لا يزال مدرجًا كرئيس لها. كل ما تبقى كان بعض المكاتب المتعفنة. كان اليابانيون قد نهبوا المكتب أثناء انسحابهم. تصدى له موظفوه الصينيون. ومنعوه من ركوب سيارة شركته، قائلين إنه لم يعد يحق له الحصول على سيارة بسبب أن وسائل النقل شحيحة. استدعى هوراس كبار المديرين التنفيذيين الصينين إلى مكتبه. وقد رفضوا المجيء. لذلك، ذهب هوراس إلى مكتب الإدارة التنفيذية. وخاطبهم قائلًا: «أنا لست كبيرًا جدًا على دخول غرفتكم». «إذا كنتم لا ترغبون في الدخول إلى غرفتي، فأنا كبير بما يكفي للمجيء إليكم». ذكّر هوراس الصينيين «بأننا خضنا جميعًا الحرب معًا ويجب أن نصحح مشاكل ما بعد الحرب معًا». أدت إشارته هذه

إلى إخماد الخلاف، واستعاد سيارته. عند عودته إلى مكتبه، جلس وكتب وهو يعتريه القلق رسالة إلى لورانس في هونغ كونغ: موظفو شركات عائلة خضوري الصينيون «يتخلون عن احترامهم لزملائهم الأجانب». «ولن يحترمونا قريبًا».

حث لورانس شقيقه هوراس على كسب إعجاب الصينيين من خلال التواصل معهم في القصر العائلي. ونصح شقيقه «بتنمية علاقات الصداقة مع جميع فئات المسؤولين ورجال الأعمال الصينيين الذين تتواصل معهم». اطلب منهم أن يتناولوا طعام الغداء معك وقدم لهم الأكلات البغدادية. قام والدنا بتكوين صداقات جيدة مع الصينيين وغيرهم من خلال دعواته لهم إلى القصر العائلي.

على الرغم من تأكيداتها الجديدة، لم تكن الحكومة القومية الصينية قادرة على حكم المدينة. كان هناك نقص شديد في الوقود. وتعطل نظام السكك الحديدية. وكانت معدلات التضخم في ارتفاع. كتب هوراس إلى لورانس، يطلب منه إرسال صناديق من المربى والزبدة التي لم يكن من الممكن الحصول عليها في شانغهاي. وكانت مساعدات الولايات المتحدة التي تتدفق إلى الصين عبر شيانغ كاي تشيك والحكومة القومية تتسرب من خلال المسؤولين القوميين الفاسدين ولا تصل إلى مستحقيها. كتب هوراس إلى صديق له: «الصين بلد ليس فيه أمان: حروب مستمرة، والحكومة غير نزيهة، والفساد مستشر من القمة إلى القاع». «أنا أدعو الجميع للتفاؤل، لكن في بعض الأحيان أتساءل عما إذا كان عليّ أن أصدق نفسي».

في فبراير 1946، ذكر هوراس أن المعارك بين القوميين والشيوعيين كانت تدور رحاها على بعد ستين ميلاً فقط من شانغهاي. وانتشرت الشائعات حول أن البريطانيين قد يجبرون على إعادة هونغ كونغ إلى الصين، وأن الأمريكيين سوف يتخلون عن قضية القوميين. خلال الحرب العالمية الثانية وأثناء الاحتلال الياباني، وافق الشيوعيون والقوميون على وقف إطلاق النار في الحرب الأهلية التي بدأت في عام 1927 في شانغهاي. كانت هزيمة اليابان بمنزلة إشارة لاستئناف تلك الحرب. سيطرت القوات القومية على المدن الرئيسية بما في ذلك بكين وشانغهاي. وسيطر الشيوعيون على جزء

كبير من الريف. حثت الولايات المتحدة الجانبين على التفاوض، ولكن بحلول خريف عام 1945، بعد بضعة أشهر فقط من استسلام اليابان، كانت القوات القومية والشيوعية تتقاتل في جميع أنحاء البلاد. لم يكن الخطر الحقيقي على شانغهاي وآل خضوري هم الصينيين القوميين المتحمسين حديثًا الذين يتجادلون مع هوراس حول من يجب أن يستحوذ على سيارة الشركة. بل كانوا الشيوعيين بقيادة ماو تسي تونغ. كان هوراس -الخجول واللطيف- في الجانب الخطأ من التاريخ.

كان لدى فيكتور ساسون أوهام أقل من هوراس حول ما ينتظره في شانغهاي. بعد هبوطه في هونغ كونغ بعد فترة وجيزة من استسلام اليابان، أخبر فيكتور الصحف أنه في حين أن الحكومات الصينية ستأتي وتذهب -الأباطرة والجمهوريين والقوميين والشيوعيين- فإنهم جميعًا بحاجة إلى رجال أعمال أجانب مثل آل ساسون للبقاء على قيد الحياة. وصرح فيكتور للصحفيين بأن «الصينيين هم أناس صعاب المراس وعلى دراية بتجربتهم المحدودة في الأعمال التجارية الدولية». وقال إنه يتعين على شيانغ كاي شيك والقوميين الآن «أخذ زمام المبادرة من المصالح التجارية الأجنبية» وضمان «الاستثمارات الآمنة للمشاريع والأعمال الأجنبية».

لم يكن لدى الشيوعيين، بالطبع، أي نية للتعامل مع أمثال فيكتور ساسون. وكان فيكتور يعلم هذا. أخبر هوراس في انتظار رؤية «إلى أين سيكون اتجاه الريح قبل أن يقرر ما إذا كان سيعود إلى شانغهاي أم لا. لم يكن يخطط لزيارة شانغهاي لمدة ستة أشهر قادمة ولن يضع أي خطط حول ما إذا كان سيستثمر لمدة عام أو عامين».

في الواقع، قرر فيكتور بالفعل التخلي عن شانغهاي. أرسل ابن عمه وساعده الأيمن لوسيان أوفاديا إلى شانغهاي للبدء بتصفية ممتلكاته. كان المشترون قليلين. كان فندق كاثاي خرابًا. وكان اليابانيون قد مزقوا السجاد وتركيبات الغرف أثناء انسحابهم. كان الفندق يتطلب ما لا يقل عن عام من الإصلاحات قبل إعادة افتتاحه. باع أوفاديا مبنى مكاتب واحدًا، ورتب صفقة لبيع شركة الجعة التي يملكها فيكتور لبنك الصين، لكنه انسحب في اللحظة الأخيرة. باع العديد من العقارات الأخرى مقابل جزء بسيط من

قيمتها المقدرة. عندما عاد فيكتور أخيرًا إلى شانغهاي، بدأ في البحث عن طرق لتهريب العملات الأجنبية خارج البلاد والتهرب من وكلاء الجمارك الذين كانت الحكومة القومية قد نشرتهم في المطارات والموانئ. ذات ليلة، تم القبض على صديق له وهو يحاول تهريب 31000 دولار بالطائرة من شانغهاي. فكتب غاضبًا في مذكراته «لم يكن ذلك ضروريًا، إنه تصرف غبي لا مبرر له». أدى ارتفاع معدلات التضخم إلى تدمير الاقتصاد وثقة العمال الصينيين بالحكومة القومية. في عام 1944، كان عشرون دولارًا صينيًا تشتري دولارًا أمريكيًا واحدًا. بحلول مارس 1946، كانت النسبة 2000 إلى واحد. بعد عام، أصبحت النسبة 12000 إلى واحد. بعد أربعة أشهر، كان سعر السوق السوداء هو مليون إلى واحد. رفض موظفو فيكتور الصينيون، بمن فيهم موظفو فندق كاثاي، استلام رواتبهم نقدًا، وأصروا بدلاً من ذلك على دفع رواتبهم بالرز أو قطع القماش أو أي شيء آخر صالح للأكل أو يمكن ارتداؤه. أولئك الذين قبلوا استلام أجورهم نقدًا طالبوا بدفعها كل ثلاثة أيام.

في يوم من أيام الدفع، كان فيكتور يفتقر إلى حزم الأوراق النقدية التي كان يحتاجها لدفع رواتب الموظفين، فطالب العمال الغاضبون بعقد اجتماع طارئ معه في قاعة فندق كاثاي. دخل فيكتور إلى القاعة التي كانت مليئة بمئات الموظفين ذوي الوجوه الكئيبة. مرتديًا بذلة فاتحة اللون، وصعد إلى المنصة. وقد أحاط به طهاة مسلحون بسواطير لحمايته. وقف خلف طاولة صينية خشبية، معلقًا عصاه من الحافة. استند إلى كلتي يديه وكور قبضتيه ووقف بشكل مستقيم لمخاطبة الحشد الذي ملأ المكان. وأكد لهم أنه سيتم الدفع لهم في غضون ساعات قليلة. تفرق العمال. وحصل فيكتور على الأموال اللازمة وقام بتوزيعها على الموظفين الصينيين؛ وبذلك تم تفادي أزمة أخرى.

شن الشيوعيون هجومهم الرئيسي في أوائل عام 1947 بعد فترة وجيزة من عودة فيكتور إلى المدينة. اعتبر الجيش الأمريكي أن الشيوعيين يمتلكون العزيمة للانتصار. في تقريره أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني، أعلن ماو بنبرة مليئة بالتفاؤل، «إن هذا الهجوم يمثل نقطة تحول في التاريخ».

هزت أخبار تقدم الشيوعيين القصر العائلي لعائلة خضوري. كتب هوراس إلى لورانس: «الأوضاع في شانغهاي تتدهور». بدأ جامعو القمامة إضرابًا عن العمل لمدة ثلاثة أيام، ثم ترك العمال وظائفهم في شركة الكهرباء في شانغهاي. توقفت عربات الترام في المدينة عن العمل. واندلعت أعمال الشغب والنهب عندما رفض رجال شرطة شانغهاي الالتحاق بواجباتهم لمدة يومين. أفاد هوراس أن العمال اقتحموا مكاتب شركة جاردين وماثيسون، المنافس العتيد لآل ساسون، ورفضوا السماح للموظفين بالمغادرة حتى يتلقوا وعودًا بأجور أعلى لتعويضهم عن معدلات التضخم المتسارعة. دعا هوراس أفراد السفارة البريطانية للبقاء في القصر العائلي لتوفير «حماية مناسبة»، حيث وفرت السفارة حراسًا مسلحين خارج المنزل. وقام بتوزيع مليوني دولار صيني يوميًا على شكل «إكرامية» لخدم العائلة لتعويضهم عن انهيار العملة الصينية. كتب إلى لورانس يقول: نحن في وضع مالي سيئ للغاية. «لقد سئمت هذا المكان». وبدأ هوراس يحمل معه مسدسًا أينما ذهب.

وجاءت ضربة أخرى عندما علم هوراس أن آل ساسون، وعلى عكس ما أخبره فيكتور، كانوا يبيعون ممتلكاتهم. في الواقع، باع فيكتور المبنى الذي كان يضم مكتب شركات آل خضوري – وهو شيء اكتشفه هوراس وطاقمه فقط عندما قيل لهم إنه سيتعين عليهم المغادرة. فأخبر لورانس: «يحاول آل ساسون بذل قصارى جهدهم للتخلص من أكبر قدر ممكن من مصالحهم في شانغهاي»

أدى الذعر الذي اجتاح شانغهاي إلى زيادة التوترات بين الأخوين. من هونغ كونغ، ألقى لورانس محاضرة على أخيه الأصغر حول إدارة أعمالهم في شانغهاي بشكل أفضل فكتب إليه: «إذا نظمت يومك بشكل صحيح ورفضت مقابلة الناس إلا في أوقات محددة، أعتقد أنك ستجد أنه يمكنك إنجاز العمل بشكل أسرع ومع أقل جهد مما لو سمحت للناس بالدخول في أي وقت، كما فعلوا مؤخرًا». وفي رسالة أخرى، انتقد كرم هوراس وقلق من تعرضه للخداع. عندما ذكرت صحيفة محلية أن إحدى ضيفات هوراس أقامت في القصر العائلي لفترة طويلة لدرجة أنها كانت تخبر الناس أنها

المالك الجديد، انفجر لورانس غاضباً: «لا أحب فكرة وجود امرأة هستيرية وسخيفة من هذا النوع في بيتي... مما يجعلنا أضحوكة». في الرسالة نفسها، انتقد هوراس، الذي كان يحلم ذات مرة بأن يصبح مهندسًا معماريًا وأولى اهتمامًا كبيرًا بممتلكات العائلة في هونغ كونغ وكذلك شانغهاي، لإنفاقه الكثير على منزل العائلة الريفي في هونغ كونغ وعلى تجديد فندق بالاس في شانغهاي. «طلبت منك عدم ترك الأشياء في حالة من الفوضى ولكنك للأسف فعلت ذلك». حث لورانس شقيقه هوراس على البدء في بيع الأسهم والممتلكات. وافق هوراس على ذلك ولكنه تحرك بحذر ليتجنب جذب انتباه القوميين أو خلق حالة من الذعر في بورصة شانغهاي.

كان الضغط على هوراس واضحًا. وبسبب حالة الرعب المتزايدة التي كان يشعر بها لورانس، بدأ هوراس، الذي سهر على رعاية والدهما في شهور احتضاره حين كان تحت الإقامة الجبرية التي فرضها اليابانيون، يقضي عدة ساعات يوميًا في البحث عن شاهد لقبر إيلي. وبحث عن شواهد القبور التي يمكن استيرادها من إسكتلندا والولايات المتحدة وبدأ يبعث للورانس رسومًا تخطيطية الواحد تلو الآخر لما يمكن أن يبدو عليه الشاهد وتصميمه وما سيكتب عليه من عباراته. مع تقدم الشيوعيين، أخبر لورانس -الذي كان دائمًا أقل عاطفية من أخيه- هوراس بالتخلي عن البحث والطلب بدلاً من ذلك من موظفي القصر بشراء شاهد قبر محلي في شانغهاي ووضعه على القبر. شعر هوراس بالصدمة واستمر في إرسال الرسومات التخطيطية حتى أصبح واضحًا أنه لن يكون قادرًا على استيراد شاهد قبر وسلم المهمة إلى طاقم موظفيه الصينيين. بدأ يقلق بشأن ما سيحدث لمنزل شانغهاي الذي كان يعيش فيه مع والده وشقيقه منذ عشرينيات القرن الماضي.

كان الموقف العسكري للقوميين ينهار. انشق الآلاف من أفراد القوات الصينية القومية وانضموا إلى الشيوعيين. استسلم مئات الآلاف، وصادر الشيوعيون بنادقهم وشاحناتهم الأمريكية. بحلول نهاية عام 1948، كان الشيوعيون يحتشدون في شمال الصين، ويستعدون للتحرك جنوبًا عبر نهر اليانغتسي، إلى شانغهاي. حول هوراس انتباهه من مصير شركات آل خضوري إلى المخاطر التي تواجه القصر العائلي وممتلكات متحف آل

خضوري الثمينة. امتلك هوراس واحدة من أكثر مجموعات العاج قيمة في العالم، وعهد بها، قبل اندلاع الأعمال العدائية، إلى قاضٍ فرنسي يعيش في منطقة الامتياز التي تديرها حكومة فيشي الفرنسية. بالقرب من نهاية الحرب ذهب هذا القاضي، خفية في منتصف الليل وتحت جنح الظلام إلى لورانس وطلب منه إخفاء سبيكة ذهبية نيابة عنه. دفن لورانس الذهب في الحديقة. بعد انتهاء الحرب، تم استرداد الذهب وإعادته إلى القاضي. سأل هوراس عن مقتنياته من العاج. بدا القاضي الفرنسي غير مرتاح وقال إنه سيكون من الصعب للغاية العثور عليها. بعد فترة ظهرت تلك المقتنيات في متجر للتحف. عرض هوراس إعادة شراء المجموعة ولكن طلبه قوبل بالرفض.

ومع ذلك، يبدو أنه من المحتمل أن يكون للخدم الصينيين التابعين لعائلة خضوري اتصالات مع العالم السفلي القوي في شانغهاي. عندما زار لورانس شانغهاي، جاء إليه أحد الخدم الصينيين، مضطربًا، وأخبره أن رجلاً غريباً عند البوابة الأمامية يسأل عن السيد خضوري. عندما خرج لورانس ليرى من يكون هذا، واجهه رجل صيني ضخم ذو عضلات مع ندوب على رأسه ووجهه وصاح بصوت عال «هل أنت خضوري؟»

أومأ لورانس برأسه.

«لديك مجموعة من مقتنيات العاج في المدينة ولان عائلتك تعاملت بشكل ممتاز مع الصين. فسوف تعاد إليك في الصباح وسنقتل الرجل الذي أخذها».

قال لورانس إن مثل هذا الإجراء المتطرف غير ضروري. في صباح اليوم التالي، ظهرت مجموعة من ستمائة قطعة عاج كانت تنقصها ست قطع على الشرفة الأرضية. عرض أدميرال بحري أمريكي كان يقيم في قاعة القصر العائلي أن يأخذ المجموعة من شانغهاي على متن سفينته الرئيسية.

قالت سكرتيرة هوراس، نقلاً عن «مصادرها الاستخباراتية»، للورانس إن شيانغ كاي شيك والقوميين «ليس لديهم أي سيطرة على الشعب بأي شكل من الأشكال» و«لقد سيطر الشيوعيون على الكثير من الأراضي في الصين، وأصبح احتمال سقوط شانغهاي في أيديهم في وقت مبكر أكثر من

الممكنْ». وحيث لم يتبق على دخول القوات الشيوعية إلى المدينة سوى ساعات قليلة، أمر لورانس شقيقه بإتلاف مراسلاتهم وجميع سجلات أعمالهم خوفًا من وقوعها في أيدي الشيوعيين.

حضر هوراس كلمة ألقاها فيكتور ساسون في نادي روتاري في شانغهاي. كان فيكتور منزعجًا للغاية. لم يكن الشيوعيون على وشك الانتصار في الصين فحسب، كما أعلن فيكتور، ولكن السوفييت كانوا يتطلعون إلى التوجه إلى أراضي منشوريا التي تحد الاتحاد السوفيتي والصين من أجل استيلاء محتمل عليها. تنبأ فيكتور قائلًا «إذا أعلنت روسيا الحرب على منشوريا اليوم، فإنها ستحتلها» لأن الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى لا تستطيعان الرد بالسرعة الكافية.

قال هوراس لشقيقه، الذي عاد إلى هونغ كونغ: كان خطاب السير فيكتور ممتازًا، لكنني شخصيًا شعرت أنه كان من الأفضل عدم القيام بذلك.

بعد أسابيع قليلة من سماع خطاب فيكتور المتشائم، غادر هوراس شانغهاي على متن طائرة متوجهة إلى هونغ كونغ. أحضر خادمه الصيني معه. كتب إلى لورانس عشية رحيله: «أحتاج إلى بعض الملابس الصيفية لأنني لا أملك شيئًا». «من فضلك اختر شيئًا لطيفًا حتى أتمكن من ارتدائه على الفور ولا تجعلني أغلي في ملابسي الشتوية». وأكد للورانس أن خادمه الشخصي يمكن أن يعود بسرعة إلى شانغهاي عندما يحين الوقت لاستضافة الحفلات مرة أخرى في القصر العائلي.

لكن هوراس لم يعد إلى شانغهاي مرة أخرى قط.

بقي فيكتور، وتصاعدت المرارة التي شعر بها مع اقتراب الشيوعيين. قال فيكتور لأحد المراسلين: «الصينيون لا يحبون الأجانب ولم يفعلوا ذلك قط». «سوف يتعاملون معنا ولكن فقط بالقدر الذي يناسب غرضهم». وأضاف، «الصينيون مثل المرأة». «كلما أعطيتها أكثر توقعت منك أكثر». وإذا فعلت أي شيء مخالف لنصيحتك وتبين أنه خاطئ، تقول لك «لماذا لم توقفني عن فعله؟»

في تلك الفترة، سئم العديد من الصينيين من فيكتور أيضًا. فقد جاء في

رسالة نشرتها إحدى الصحف في شانغهاي وكتبها رجل أعمال أمريكي صيني: «لقد جنى الكثير من المال في الصين. وبدلاً من أن يعرب عن امتنانه للشعب الصيني، فإنه يلعننا جميعًا.... إذا كنا لا نحب الأجانب، كما قال، فكيف أمكنه البقاء في الصين معظم حياته؟ أكثر الأشخاص الذين لا يحظون بشعبية في الصين ليس الأمريكي، بل هو الشخص الذي لا يقدر أبدًا لطف الآخرين.

في 28 نوفمبر 1948، غادر فيكتور شانغهاي حاملاً تذكرة ذهاب وعودة للخطوط الجوية الأمريكية بان أمريكان، وكان من المقرر أن تتم رحلة العودة في ربيع عام 1950. أخبر المراسلين أنه يتوقع أن يسيطر الشيوعيون على شانغهاي بحلول ذلك الوقت، لكنه أصر، «على أن الشيوعيين سوف يتعاملون مع الولايات المتحدة ودول الكومنولث البريطاني» لأنهم سيحتاجون إلى المنتجات الغربية. وقال لأحد المراسلين إنه بالطبع يود تصفية ممتلكاته. لكن من الذي سيشتريها بوجود الدولة التي تحكم الصين اليوم؟ إذا كان بإمكانك بيع أي من أصولي هناك، فسأدفع لك عمولة ضخمة.

من هونغ كونغ، تابع هوراس الوضع المتدهور في شانغهاي وتقدم الشيوعيين من خلال الرسائل التي كانت تصله يوميًا من سكرتيرته في شانغهاي والمشرف على القصر العائلي. بعد بضعة أشهر من مغادرته، كتبت له سكرتيرته تخبره أن شاهد القبر الذي كان يقلق بشأنه لفترة طويلة قد وُضع فوق قبري والديه. نظرًا لعدم وجود هوراس ولا لورانس لحضور مراسم العزاء، قام بعض الموظفين الصينيين وموظفي مكاتب الشركات بوضع الزهور على القبر.

عدا ذلك كانت الأخبار كئيبة. قام الخدم الصينيون بتوضيب الأثاث والسجاد والأواني الفضية بحماس، على أمل شحنها إلى هونغ كونغ. شن جيش التحرير الشعبي الشيوعي هجومه المدفعي على المدينة. في رسالة بعث بها المشرف على القصر إلى هوراس أخبره انه «كان يمكن سماع دوي المدافع في جميع أنحاء المدينة». وقد أصابت شظيتان القصر العائلي.

كتب هوراس مرة أخرى إلى أخيه قائلًا: قد تأتي فترة، قبل وبعد وصول

نظام جديد إلى السلطة مباشرة، يصبح فيها الطعام شحيحًا للغاية، «بالنا مشغول بكم كثيرًا وأنتم في شانغهاي.... أشك كثيرًا فيما إذا كانت هذه الرسالة ستصل إليك ولكن على أي حال يمكنني المحاولة».

في منطقة البوند، اقتحمت قوات الحكومة القومية الصينية فندق كاثاي ونصبت مدافع رشاشة في الغرف المطلة على الشارع، متعهدة بالدفاع عن شانغهاي «حتى الموت». بعد ثلاثة أسابيع، دخلت القوات الشيوعية المدينة دون مقاومة تذكر. أطلق القوميون بضع رصاصات من نوافذ الفندق، ثم استسلموا. دخل أفراد القوات الشيوعية –وكان معظمهم من الفلاحين المجندين من الريف– إلى الردهة وبدأوا يحدقون بدهشة بالجدران الرخامية والأثاث الفخم.

كان فيكتور، المقيم آنذاك في فندق ريتز بلندن، جالسًا في مكتب محاميه في تلك المدينة عندما وردت أنباء مفادها أن شانغهاي سقطت في أيدي الشيوعيين.

فقال بهدوء: حسنًا هكذا سارت الأمور، لقد تخليت عن الهند والصين تخلت عني.

بعد أيام قليلة، كان فيكتور يحضر عرضًا مسرحيًا في لندن عندما اقترب منه رجل في بهو المسرح أثناء الاستراحة.

قال له الرجل: «لقد نزلت في فندقك كاثي خلال زيارتي الأخيرة إلى شانغهاي».

ابتسم السير فيكتور بحزن وصحح له: «تقصد فندقي السابق».

بدأت شانغهاي فترة تحولها التالية. على عكس توقع فيكتور بأن الشيوعيين سيعملون معه ومع رجال الأعمال الأجانب الآخرين، بدأ الحكام الجدد لشنغهاي عملية استيلاء بطيئة ولكن مستمرة على جميع الأعمال والأنشطة التجارية لعائلتي ساسون وخضوري. وقاموا بالسيطرة الفورية على الشركات ذات الأهمية الحاسمة لسير العمل في المدينة، مثل شركة الغاز التابعة لآل خضوري في شانغهاي. بعدها وبدلاً من الاستيلاء الفوري على الممتلكات الخاصة وطرد الأجانب، قرر الشيوعيون الضغط قدر

المستطاع على الشركات الأجنبية. وقدموا لها سلسلة لا تنتهي من فواتير الضرائب، واللوائح، ومطالب العمال. ورفضوا السماح للمديرين التنفيذيين الأجانب بمغادرة الصين حتى تلبية المطالب. لقد مرت الصين بـ «قرن من الإذلال» على أيدي الرأسماليين مثل آل خضوري وآل ساسون. والآن جاء دور الأجانب في الإذلال.

وكما فعل عندما كان اليابانيون يقتربون من شانغهاي، هرب فيكتور ساسون من المدينة وترك المسؤولية لأحد مرؤوسيه – وكان هذه المرة ابن عمه لوسيان أوفاديا، الذي كان يحاول بأقل قدر من النجاح منذ عام 1945 بيع ممتلكات آل ساسون. بعد فترة وجيزة من إعلان الشيوعيين تأسيس جمهورية الصين الشعبية، أبلغت الشرطة الشيوعية أوفاديا أنه على الرغم من أنه مواطن بريطاني، فإنه لا يمكنه مغادرة الصين بدون تصريح من الشرطة. ولم يكن من الممكن إصدار ذلك حتى يقوم فندق كاثي وجميع شركات فيكتور بدفع جميع التزاماتها عن أنشطتها التجارية وأعمالها، بما في ذلك الضرائب والأجور والمعاشات التقاعدية. أصبح أوفاديا أسيرًا لديهم.

جاءت أولاً فواتير الضرائب. بالنسبة للمباني التي شيدها فيكتور والتي مثلت واجهة شانغهاي – مثل فنادق كاثاي وهاملتون هاوس وإمبانكمنت هاوس. فقد تم تقييم فواتير ضريبية جديدة عليها بمئات الآلاف من الجنيهات البريطانية (تساوي عدة ملايين من الدولارات من أموال اليوم)، وكان يجب أن تدفع على الفور، بفائدة 1 في المائة عن كل يوم تأخير. أخبر أوفاديا السلطات أنه لا يستطيع الدفع. فقال له الشيوعيون إنه يجب أن يطلب عملة أجنبية من الخارج. أخبر أوفاديا فيكتور بعدم الامتثال لأوامرهم. أصر أوفاديا على أن إرسال الأموال أمر «غير وارد». لقد كانت «مجرد مسألة وقت قبل الاستيلاء على جميع الأصول الأجنبية». اقترح أوفاديا أن يحل محله مسؤول تنفيذي صيني أو أجنبي آخر، حتى يتمكن من مغادرة شانغهاي. رفض الصينيون اقتراحه.

بعد ذلك جاءت مطالب العمال. وظفت شركات ساسون 1400 شخص -عمل 1100 في فندق كاثي وفي العديد من المباني السكنية الفاخرة في فيكتور. وقد عمل معه 300 آخرون كعاملين في المكاتب. في الأسابيع

القليلة الأولى بعد تولي الشيوعيين السلطة، فقد فندق كاثاي معظم نزلائه. في غضون بضعة أشهر، غادر المستأجرون أيضًا الشقق الكبيرة ومباني المكاتب- وكان معظمهم من الأجانب. لم يكن لدى الشركة أي مبالغ إيجار لكي تدفع رواتب عمالها. بموجب اللوائح الجديدة، تم منع شركات ساسون من تسريح أي عامل. عرض أوفاديا تسليم جميع ممتلكات فيكتور إلى الحكومة الشيوعية، والتخلي عنها بشكل أساسي حتى يتمكن من المغادرة. رفِض الشيوعيون طلبه مرة أخرى.

استمر الجمود. وعاش رجال الأعمال الأجانب الذين استولوا على شانغهاي ذات مرة في خوف. تم وضع ماثيسون، وهو مسؤول تنفيذي بريطاني في شركة جاردين، في السجن لمدة ستة أيام دون أن ينبس ببنت شفة. زار اثنان من رجال الشرطة السرية الشيوعية أوفاديا في شقته في منتصف الليل وطلبوا منه ملء استبيان مفصل حول خلفيته وتاريخ عمله. أُجبر أوفاديا على مقابلة محاميه الصيني سرًا لأن المحامي كان يخشى أن يراه أحد معه.

في الأسابيع التي سبقت سقوط شانغهاي، ظل القائمون على رعاية القصر العائلي يؤكدون لهوراس على ولاء موظفي منزله والمستأجرين الصينيين لممتلكاتهم الأخرى. لكنها كانت مثل ادعاءات شيانغ كاي تشيك باقتراب النصر، مجرد أوهام. بعد فترة وجيزة من زحف الشيوعيين إلى شانغهاي، قام اثنان وعشرون من خدم عائلة خضوري -طهاة وبستانيون وخادمات وخادمون- بتشكيل نقابة وطرحوا مطالبهم التي تضمنت الحصول على أجور أعلى. رفض المستأجرون في العديد من ممتلكات آل خضوري الخروج منها. انتقل أكثر من أربعين من أقارب خدم آل خضوري إلى القصر العائلي. كتب المشرف على القصر رسالة إلى هوراس الذي كان في هونغ كونغ: «الأحوال ليست على ما يرام أبدًا، ولا يقابل المرء سوى التشاؤم من جميع الناس، الصينيين والأجانب». استولى الصينيون على المبنى الذي كان يضم مدرسة خضوري القريبة إلى قلب هوراس وسلموه إلى شركة نسيج صينية، وأزالوا اسم خضوري من الواجهة.

تقاطر مفتشو الحكومة الشيوعية على الفنادق المتبقية من أملاك آل

خضوري -بالاس وأستور هاوس- وأصدروا قوائم بـ«الإصلاحات» و«التجديدات» التي يجب إجراؤها لتجنب الغرامات. كانت فاتورة الضرائب الجديدة على القصر العائلي أكبر بخمس مرات مما كانت عليه في ظل القوميين. وبّخ المدير الصيني لفندق أستور هاوس مالكه هوراس في عدة رسائل بعثها إليه، طالبًا منه أن يرسل إليه أموالًا لدفع أجور المطاليب المتزايدة للحكومة الشيوعية - التي أمرت بالإصلاحات والغرامات والمطالبات بضرائب متأخرة ثم أرسل المدير رسالة عبر وسيط إلى لورانس خضوري في هونغ كونغ يعتذر فيها عن «برقياته وخطاباته الوقحة». وقال إنه «أُجبر على القيام بذلك، وإلا فسيتم اتهامه» بالتعاطف مع الأجانب.

وحذر لورانس قائلًا: «لا تدفع لهم المال، لأنها ستكون نقوداً ضائعة. سيحاولون الضغط عليك للحصول على المزيد من الأموال. وفي النهاية سوف يصادرون ممتلكاتك».

حافظ آل خضوري على إدامة التواصل مع مدام صن يات صن عندما سيطر الشيوعيون على شانغهاي. كانت متعاطفة مع الشيوعيين، وكان لورانس يعتقد أنها يمكن أن تكون مفيدة في عملية الاستحواذ على ممتلكاتهم. وقد أعلنت نفسها «عضوًا في الثورة الصينية» ونددت بالقوميين والأمريكيين ووصفتهم بـ«الرجعيين». وبينما كان هوراس يهرع لحزم أمتعته في القصر العائلي، جاءت مدام صن إلى أسرة خضوري، وسألتهم عما إذا كان بإمكانها إقامة حدث خيري في القصر. أمر لورانس شقيقه هوراس أن يوافق على طلبها. وشعر أنه من المهم إبقاء قنوات الاتصال مع مدام صن مفتوحة حتى يتضح مع أي جانب تقف.

أصبح ذلك واضحًا في أكتوبر 1949 عندما ظهر ماو على شرفة القصر الإمبراطوري ليعلن تأسيس جمهورية الصين الشعبية للجماهير المتجمعة في الأسفل. وقفت مدام صن إلى جانبه. وبعد عامين تبخر أي أمل في أن تنظر بلطف إلى علاقتها التي استمرت ثلاثة عقود مع عائلة خضوري عندما ظهرت امرأة تمثل مدام صن عند الباب الأمامي للقصر العائلي.

أعلنت ممثلة مدام صن في عام 1951، عن رغبتها في «استئجار» قاعة القصر

العائلي لتكون مقرًّا لصندوق رعاية الأطفال. وكانت تريد تحويله إلى مسرح وعيادة للأطفال. وسيغطي مبلغ الإيجار بشكل ملائم الزيادة في الضرائب التي بلغت خمسة أضعاف السابقة، والتي كانت حكومة شانغهاي تخطط لفرضها على القصر. أرسل المشرف على القصر خبر الطلب إلى هوراس ولورانس في هونغ كونغ. بعد خمسة أيام، عادت ممثلة مدام صن مطالبة بالإجابة. في نفس الأسبوع، طُلب من جميع الأجانب في شارع قريب التحرك على الفور ومنحهم بضع ساعات لإخلاء المكان. وفي جزء آخر من المدينة، تم الاستيلاء على مجموعة من الممتلكات الألمانية. كتب المشرف على القصر في رسالته: «أنا كلي أمل في أن تكونوا قد توصلتم إلى قرار»، مشيرًا إلى أن مدام صن كانت «تستحوذ على العديد من العقارات القيمة في شانغهاي وحولها، وأخشى أنكم ما لم تتطوعوا وتؤجروه لها ستجدونه مصادرًا بطريقة أو بأخرى».

رفض هوراس العرض. وكتب للمشرف «بالتأكيد أنا ضد اتخاذ مثل هذه الخطوة». «نظرًا للارتباط الطويل بين عائلتنا وشنغهاي، يجب أن نحافظ على المبنى لأطول فترة ممكنة. إذا تغيرت الظروف للأفضل وعدنا إلى شانغهاي، فسيكون المبنى لا يقدر بثمن بالنسبة لنا».

لم يكن لدى فيكتور ساسون مثل هذه الأوهام. بعد ما يقرب من عامين من المضايقات والمنع من مغادرة البلاد، سلم أوفاديا جميع المباني التي بناها فيكتور ساسون للحكومة الشيوعية –وتقدر بما يقرب من نصف مليار دولار– دون تعويض. حصل على تصريح خروج وتذكرة قطار إلى هونغ كونغ وأمر بمغادرة البلاد في غضون ثمان وأربعين ساعة.

تم محو الوجود اليهودي الذي كان قد شكل جزءًا من شانغهاي وأعاد حيويتها. في حي هونغكيو القديم، زحفت القوات الشيوعية إلى المعبد حيث كان اللاجئون اليهود يتعبدون أثناء الحرب، وحيث أقيم حفل ديني لإريك رايسمان لبلوغ الثالثة عشرة من عمره. لم يكن هناك سوى عدد قليل من اليهود المسنين في شانغهاي بأكملها؛ أما البقية فقد غادروا إلى إسرائيل أو الولايات المتحدة أو أستراليا. أزال الجنود كتاب التوراة الموضوع في خزانة على الحائط المواجه للشرق باتجاه القدس، وعلقوا بعناية صورة ماو على الحائط. تم تحويل المبنى إلى مستشفى للأمراض العقلية.

كان آل خضوري يؤخرون فقط الأمر الذي لا مفر منه. كانت مدام صن، التي تقف الآن بقوة إلى جانب الشيوعيين، مصممة على تلقين أبناء خضوري درسًا. وأعلنت في خطاب لها: «أن عيون الأمة على شانغهاي». «لقد أصبحنا رمزًا للنضال ضد جبروت الإمبريالية» والرأسمالية التي مزقت بسياطها ظهور عمالنا ومواطنينا. في عام 1954، بعد سنوات من مقاومة مطالب مدام صن، أقر لورانس بأن الكفاح لإنقاذ القصر العائلي قد انتهى. وافق على «التبرع» بالممتلكات لمدام صن يات صن وصندوقها الخيري لرعاية الأطفال. قالت مدام صن إنها لن تحتاج إلى أي من الموظفين أو المفروشات التي كانت في القصر. وضع الشيوعيون أثاث عائلة خضوري في المخزن وفرضوا رسوم تخزين على عائلة خضوري أكثر بكثير مما تستحقه ممتلكاتهم.

كتب لورانس مذكرة إلى شقيقه: «أشعر أنه يجب علينا اعتبار كل ممتلكاتنا في شانغهاي قد أصبحت في عداد المفقودات».

الفصل التاسع

تصفية الحسابات

كان لورانس خضوري يراقب انهيار شانغهاي وإمبراطورية عائلته التجارية من مقر إقامته الآمن في هونغ كونغ.

في سبتمبر 1945، بعد أسابيع قليلة من تحرير الأمريكيين للمدينة، غادر لورانس شانغهاي وسافر جواً إلى هونغ كونغ على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني. انتابته مشاعر اليأس وهو يرى ما حدث من دمار لمنزله ومنشآت شركة الطاقة والكهرباء الصينية. أمضى أسابيع في شانغهاي في مناشدة ضباط عسكريين بريطانيين وأمريكيين لنقله جواً إلى هونغ كونغ. وصل إلى مدينة كونمينغ في جنوب الصين وكان يستقل سيارة جيب تابعة للجيش البريطاني متوجهًا إلى القنصلية البريطانية عندما علق بنطاله على مسمار خارج من وسادة المقعد. رصدته مجموعة من الجنود الأمريكيين كانوا يقودون سيارتهم الجيب في الجوار وهو يقف على درج القنصلية ممسكًا بنطاله، ويبدو محرجًا وغير مرتاح.

فصاح عليه أحدهم «أخبرني يا صديقي، ما الأمر؟».

فأجابه لورانس بصوت مرتفع: «إذا كان لديك بنطال واحد فقط، فستعرف ما هو الأمر».

«أوه، هيا، اصعد في سيارتنا الجيب».

بعد ثلاثة أرباع الساعة، كان لورانس يرتدي البزة القتالية البنية اللون التي يرتديها أفراد الجيش الأمريكي. شق طريقه إلى قاعدة القوات الجوية

البريطانية. كان القادة متشبثين برأيهم. فقد كان لورانس برأيهم شخصًا مدنيًا سواء تم إقراضه البزة القتالية أم لا، وهم لم يكونوا ينقلون ركابًا مدنيين إلى هونغ كونغ.

سألهم لورانس «هل يمكن تصنيفي كشحنة حمولة؟».

لذلك، أجلسوه في مؤخرة الطائرة، بزيه العسكري الأمريكي، فوق أكوام من العملة الجديدة النظيفة لهونغ كونغ التي سيتم استخدامها لتحل محل الأوراق النقدية اليابانية. لقد كان مدخلًا مناسبًا للرجل الذي سيساعد في إعادة بناء اقتصاد هونغ كونغ.

قبل الحرب، عندما كانوا صغارًا وعزابًا، كان لورانس خضوري وأصدقاؤه يمزحون أنه مقارنة بشنغهاي، مع نواديها الليلية وقاعات رقصها التي تبقى تعمل حتى الفجر وجولات الحفلات الباهظة، كانت هونغ كونغ «أفضل مقبرة مضاءة في العالم». في سبتمبر 1945، كتب لورانس إلى زوجته موريل، أن هونغ كونغ أصبحت الآن «المدينة الأكثر نهبًا في العالم». كان اليابانيون قد قطعوا الأشجار وأحرقوا كل الأخشاب لأجل الوقود. وتناثرت أكوام القمامة في الشوارع. كانت المباني مجردة من إطارات النوافذ والأبواب والأرضيات. سار لورانس من أمام بيانو كبير مهجور مرميّ على الطريق، وقد اختفى غطاؤه الخشبي، ولم يتبق سوى خيوطه المعدنية وأجزائه الداخلية. عندما جاء الليل، أخبر زوجته، أن هونغ كونغ تحولت إلى «بقعة مظلمة» – فالأضواء لا تشتعل إلا في عدد قليل من المباني، كان أحدها فندق بينينسولا الذي يملكه آل خضوري، والذي استخدمه اليابانيون كمقر لقيادتهم وتم استخدام المقر التجاري لعائلة خضوري في مبنى سانت جورج المطل على الميناء من قبل الكامبيتاي، وهي الشرطة السرية اليابانية. كان الفناء به ثقوب من أثر الرصاص حيث قام اليابانيون بإعدام السجناء هناك. تجولت الكلاب الضالة في الشوارع. وكانت هونغ كونغ مليئة بـ (الناس النحيفين والمتعبين). كانت آلاف المنازل غير صالحة للسكن. في عام 1941، قبل الاحتلال الياباني، كان يعيش في هونغ كونغ مليون وربع المليون شخص. تقلص عدد السكان إلى ستمئة ألف فقط.

وقد سببت الحرب الكثير من الأذى للورانس أيضًا - فقد قضى أربع سنوات من السجن في معسكرين للأسرى، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في غرفة واحدة فوق إسطبلات القصر العائلي، وكان يشاهد والده وهو يموت دون أن تقدم له رعاية طبية. أثناء حضوره حفل زفاف في هونغ كونغ استضافه رجل أعمال هندي، أخبر موريل أنه لم ير «مثل هذه الكمية الكبيرة من الطعام منذ سنوات عديدة».

ومع ذلك، حررت الحرب لورانس أيضًا من بعض الأعباء. فهو الآن يبلغ من العمر ستة وأربعين عامًا، متزوج ولديه طفلان، عاش حياته في ظل رجال آخرين: والده، إيلي، الذي عرقل مساره المهني عندما كان يريد أن يصبح محاميًا، فأحضره إلى شانغهاي، ثم أرسله إلى هونغ كونغ ليدير شركاته. وفيكتور ساسون، الذي خيّم بظله على عالم الأعمال في شانغهاي بثروته وعلاقاته وحفلاته. أما الآن، وفي أعقاب الحرب، مات إيلي. تضاءل نفوذ فيكتور، ولم يكن قادرًا على بيع ممتلكاته في شانغهاي، وشعر بالمرارة بالطريقة التي انقلبت ضده الصين والتاريخ.

لكن لورانس كان لا يزال يمتلك أصولًا. فبفضل بصيرة والده، امتلك حصة كبيرة في، شركة الكهرباء الرئيسية في كولون. لم ينهب اليابانيون بنوك هونغ كونغ، لذا ظلت أموال عائلة خضوري في تلك البنوك بأمان. وقد تصرف لورانس بشكل بطولي في الدفاع عن هونغ كونغ. وبات يدرك الآن أن عائلته كانت مخطئة بشأن شانغهاي. فلم ينتبهوا مثل غيرهم من الأجانب إلى حالات الظلم واللامساواة، وتقدم اليابانيين، وصعود الشيوعيين، وكيف يمكن أن تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه. فإذا كان لورانس يريد إنجاح العمل في هونغ كونغ، فسيحتاج إلى أن يكون مختلفًا عن والده، ومختلفًا عن فيكتور ساسون، ومختلفًا عما كان عليه هو نفسه في شانغهاي.

قدم فيكتور نموذجًا للنجاح في شانغهاي -تمثل في الشخص المتهور والمتحمس وذي الشخصية اللافتة للنظر. عندما كان شابًا، استمتع لورانس بهذه الحياة أيضًا، حيث كان يستمتع بالحفلات في قاعة القصر العائلي وزيارة النوادي الليلية وركوب الخيل. لقد استفادت عائلته بشكل كبير من الاستعمار. في تلك الأيام في شانغهاي، لم يكن الصينيون بالنسبة لمعظم

الأجانب، مهمين حقًا. كان المهم هو النجاح. أما الآن فبات الوضع مختلفًا. فلم تعد الصين تركع للآخرين. كانت الصين الشيوعية الجديدة والموحدة تظهر عبر الحدود، قادرة على إرسال القوات والسيطرة على هونغ كونغ متى شاءت. كانت الإمبراطورية البريطانية في حالة تراجع. وكان المستقبل غير مؤكد. والبقاء في هونغ كونغ، بالقرب من الصين، سيتطلب ثباتًا. فهرب فيكتور. وتخلت عائلة خضوري أيضًا عن قصرها الكبير وقاعته الرخامية التي استولت عليها امرأة، هي مدام صن يات صن، التي كانوا يعتبرونها في يوم من الأيام حليفة لهم. وقد جعلت محنة اللاجئين اليهود- الذين كان العديد منهم يقيمون الآن في مهجع مؤقت في قاعة رقص فندق بينينسولا أثناء استعدادهم للإبحار إلى فلسطين أو أستراليا - وسنوات السجن، لورانس يتذكر مدى ضعف عائلته.

وقد أدرك لورانس إذا كان لديه أي أمل في إعادة بناء ثروة عائلته وأنه ذات يوم سيعود إلى شانغهاي، فقد كان عليه أن يعمل بشكل مختلف -وأن يكون أكثر بساطة، وأكثر وعيًا بالسياسات التي دمرت عائلته تقريبًا. في شانغهاي، عاش لورانس مع والده وشقيقه في قصر يعمل فيه اثنان وأربعون موظفًا. وهنا في هونغ كونغ، عليه أن يفوت فرصة بناء قصر على القمة والانتقال بدلاً من ذلك إلى منزل متواضع في كولون- وإن كان محاطًا بالمنازل والمباني السكنية التي يمتلكها أيضًا. وسوف يخصص ما يفيض لديه من أموال في شانغهاي لبناء منزل الأسرة الريفي المخفي بعيدًا عن الأنظار في الأقاليم الجديدة النائية، وهو منزل كبير جدًا لدرجة أنه عندما زاره ابن صديق للعائلة، صرخ قائلًا، «ما هذا - هل هو فندق؟»

كتب لورانس رسالة بعثها إلى هوراس في منتصف عام 1946 بعد عدة أشهر من وجوده في هونغ كونغ قال فيها «إذا جلسنا وقلقنا فقط، فلن نحرز أي تقدم، بل إن كل شيء سيزداد سوءًا». «إذا تقدمنا بتفاؤل، واعتقادًا منا بأن هونغ كونغ أمامها مستقبل عظيم، فقد نكون مخطئين ونخسر. ولكن من ناحية أخرى، إذا سرنا في المسار الصحيح، وأعتقد أن هناك احتمال أننا سنسير فيه، فسنعوض خسائرنا ونتقدم إلى الأمام». أعلن لورانس أنه بالنسبة لابنيّ إيلي خضوري كليهما، فإن هونغ كونغ «قد تصبح شانغهاي أخرى»

بعد رحلته إلى هونغ كونغ على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني، انتقل لورانس إلى الغرفة 444 في فندق بينينسولا الخاص بالعائلة. عشية عيد الميلاد لعام 1945، جلس في مكتبه في غرفته وكتب مذكرة إلى السلطات الاستعمارية البريطانية تتضمن اقتراحات حول كيفية إعادة بناء هونغ كونغ، بدأها بكيفية تجديد النظام الضريبي. لقد تذكر كيف قاوم الملل في معسكرات الاعتقال خلال الحرب من خلال وضع خطط لهونغ كونغ بعد الحرب مع مجموعة من المسؤولين الاستعماريين ورجال الأعمال المسجونين. وكتب بشعور من الانزعاج: «أثناء فترة الاعتقال، قمت بإعداد مذكرة حول هذا الموضوع ولكن للأسف استجدت ظروف جعلت من المستحسن إتلافها».

تبنت الحكومة الاستعمارية البريطانية عرض لورانس للمساعدة في إعادة بناء المدينة. وشرعوا معًا في القيام بمجموعة مذهلة من المشاريع لإعادة المدينة وجعلها تقف على قدميها. تم تعيين لورانس رئيسًا للجنة الأعمال الحكومية التي تصنف حالات الدمار في هونغ كونغ وما تحتاجه لإعادة البناء: كم قدماً مطلوباً من الخشب، وكم هو طول الأسلاك، وصولاً إلى الآلاف من مقابض الأبواب المفقودة –وقد كانت تلك أكبر قائمة تسوق في العالم. أحصى لورانس أحواض الاستحمام وأنابيب المياه التي دمرت وتحتاج إلى استبدال. وذكر أن 160 ألف صيني– 10 في المائة من السكان الصينيين – تشردوا وفقدوا منازلهم، إلى جانب 7000 أوروبي، بمن في ذلك لورانس، الذي دمر منزله الواقع في القمة المطلة على الميناء بنيران المدفعية اليابانية.

أحدثت السنوات الثلاث والنصف التي قضاها لورانس في معسكر الاعتقال الياباني والتقدم السريع المذهل للشيوعيين في البر الرئيسي للصين تغييرًا في طريقة تفكيره. وخلص إلى أن أصحاب الملايين الأجانب الأقوياء في شانغهاي أخطأوا في تجاهل معاناة سكان المدينة الصينيين والتفاوت الاقتصادي الهائل الذي كان يغذي الثورة. ربما كان الإدراك أنه هو نفسه خسر الكثير، وأن جزءًا كبيرًا من ثروة الأسرة أصبح الآن في خطر مع تقدم الشيوعيين في شانغهاي. لقد أفسحت النظرة الراديكالية للسوق

الحرة التي تبناها لورانس في شانغهاي المجال إلى تلك النظرة التي بدت في بعض الأحيان أشبه ببرامج الصفقة الجديدة[1]، والتي تتضمن تدخل الحكومة لإصلاح المدينة وإعادة بنائها. وقد دعم ضوابط الإيجارات التي أصدرتها الحكومة لمنع مالكي العقارات في هونغ كونغ من التربح، وترأس لجنة وضعت خططًا لبناء محطة إطفاء جديدة لكولون، ومقر جديد للشرطة، ومكتب للهجرة، ومكتب بريد جديد ومركز لفرز البريد، ومسلخ جديد لذبح الخنازير، ومستشفى جديد للأمراض العقلية. بعد ذلك، تناول موضوع النقل. وأشرف على توزيع 300000 استبيان لمواطني هونغ كونغ الصينيين يسألهم عن كيفية تحسين خدمة العبارات – وهي المرة الأولى التي سُئل فيها السكان الصينيون عن رأيهم. وقام بالضغط من أجل بناء جسر لربط جزيرة هونغ كونغ مع كولون. وجمع الأموال لبناء كلية إدارة أعمال جديدة في جامعة هونغ كونغ. وضغط لتوظيف موظفين مدنيين أفضل، ودفع أجورًا أعلى مما كانت عليه قبل الحرب لتجنب الفساد الذي أدى إلى تآكل دعم القوميين في الصين. ولم تفته سوى القليل من التفاصيل. عندما استأنفت المدارس فصولها الدراسية واجهت نقصًا في الأثاث، عثر لورانس على مصنع يديره مالكون صينيون يمكنه تصنيع 200 إلى 300 رحلة مدرسية وتفاخر قائلاً: «لقد تم إنجاز الكثير في ستة أشهر وهو ما يوازي عمل ست سنوات».

أشادت صحيفة ساوث تشاينا مورنينغ بوست، وهي الصحيفة المحلية التي كانت ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمؤسسة البريطانية والحكومة الاستعمارية، باستعداد الإداريين البريطانيين «لجلب أشخاص من خلفيات ومواهب مختلفة» مثل لورانس. لم يعد لورانس يعتبر غريبًا، «فقد ولد في هونغ كونغ ويجب أن يكون مرتبطًا بشكل أكثر إيجابية بالرجال المحليين»... «والسكان المسؤولين من جميع الأجناس والمذاهب... الذين يعتبرون هونغ كونغ وطنهم». ربت مسؤول بريطاني كبير على ظهر لورانس وصرح بنبرة ودية: «من الجيد أن نعرف أن لدينا شخصًا مثلك تسنم منصبًا عاليًا في الدولة».

1- مجموعة من البرامج الاقتصادية التي أطلقت في الولايات المتحدة بين عامي 1933 و1936م

انتقلت موريل والأطفال من شانغهاي للانضمام إلى لورانس. وانتقلوا إلى منزل بني على أرض اشتروها في الثلاثينيات من القرن الماضي حيث قاموا بتحويل الأموال من شانغهاي. كان عنوانهم الجديد: شارع خضوري.

بينما كان لورانس يجعل من هونغ كونغ موطنًا جديدًا له، كان يؤكد أن ثروتهم المتبقية لن تتعرض أبدًا للخطر مرة أخرى. التقى بمسؤول أسترالي كان يتطلع إلى قبول بعض اللاجئين اليهود من شانغهاي في الصين. أخذ لورانس المسؤول جانبًا. وقال له: «أستراليا بلد يافع وواعد». «وأود القيام ببعض الاستثمارات المتواضعة فيه». ثم سلم المسؤول، أليكس ميزل، طردًا من الأوراق النقدية الأسترالية. وسأله «هل تستثمر هذا المبلغ من أجلي؟» حث لورانس ميزل على شراء أسهم في الشركات النامية والعقارات التي تقع بالقرب من مراكز المدن وتسجيل المشتريات باسم خضوري. ثم أخبر ميزل أنه مغرم بشكل خاص بالمجمعات السكنية في زوايا الشوارع والمتاجر الصغيرة التي توجد شقق فوقها. كان يعتقد أن أصحاب المتاجر المثابرين سيؤجرون المكاتب والشقق معاً حتى يتمكنوا من إغلاق متاجرهم في الليل والذهاب مباشرة إلى الفراش وفتحها في الصباح الباكر.

لم يقرر لورانس بشكل نهائي، ما إذا كان آل خضوري سيبقون على نصف أصولهم في الصين أو هونغ كونغ. فإذا هدد الشيوعيون هونغ كونغ بالطريقة التي كانوا يهددون بها شانغهاي، فإن لورانس أراد أن يكون قادرًا على «قطع الحبل السري» الذي يربط الأسرة بالصين والبدء من جديد في مكان آخر.

لم يكن آل ساسون وخضوري رجال الأعمال الوحيدين الذين أدركوا أن شانغهاي على وشك الانهيار. فعلى غرارهم انتاب الذعر الصينيين الأثرياء الذين حققوا ثرواتهم في شانغهاي. بينما كانت الصين في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي تكافح من أجل هزيمة الأجانب الذين احتلوا أجزاء من مدنها الكبرى وسيطروا على اقتصادها، حوّل هؤلاء الشباب الصينيون الطموحون غضبهم إلى الداخل نحو الصين نفسها بدلاً من الخارج تجاه الأجانب. لقد شعروا بركود الصين التقليدية ورأوا في شانغهاي ونجاح العائلات الأجنبية مثل آل ساسون وخضوري خارطة طريق لصعودهم.

كانت عائلة رونغ، أباطرة صناعة الدقيق والنسيج، نموذجًا لهذه المجموعة من رجال الأعمال. لقد جعلتهم ثرواتهم أهدافًا للقوميين واليابانيين، لكنهم كانوا يعلمون أن ظروفهم يمكن أن تزداد سوءًا في ظل الشيوعيين.

كانت العائلة في الأصل من مدينة ووشي، الواقعة على بعد 75 ميلاً إلى الغرب من شانغهاي. في القرن التاسع عشر، امتلكوا شركة تعمل في التجارة التقليدية لشرانق الحرير. قرر رونغ زونغينغ ابن العائلة، الانتقال إلى شانغهاي في عام 1887، ومن المصادفات أن ذلك حدث بعد سنوات قليلة من إرسال آل ساسون إيلي خضوري إلى الصين. ومثل إيلي، كان رونغ شابًا في الرابعة عشرة من عمره عندما غادر المنزل. كانت شانغهاي بالنسبة له، كما هو الحال مع إيلي، مدينة الفرص الاقتصادية والتجارية. اتبع رونغ المسار المتوقع منه باعتباره الابن الأكبر لرجل أعمال صيني ناجح. تدرب في بنوك محلية في شانغهاي وأرسل الأموال إلى عائلته. ثم افتتح بنكه الخاص في شانغهاي بالشراكة مع والده وشقيقه الأصغر. بعد أربعة أشهر، توفي والده. في تلك اللحظة، خرج رونغ، البالغ من العمر 23 عامًا، عن المسار المطروق. وبدلاً من العودة إلى مدينة ووشي لتولي أعمال العائلة، أصر على البقاء في شانغهاي، حيث كان يعتقد أن آفاق عمله فيها كانت أكبر. كان أحد أقاربه يعمل كمبرادور مع تلك الشركة البريطانية الجديدة آنذاك، جاردين وماثيسون. أسس رونغ مشروعًا تجاريًا معها وبدأ بالتعرف على التكنولوجيا الغربية وأساليب العمل التجاري. ووسع من أعماله في مطاحن الدقيق وتصنيع القطن. في عام 1921، نقل شركة العائلة إلى شانغهاي.

حثه شقيقه على اختيار موقع الشركة وفقًا لفلسفة «فنغ شوي»، وهي التي تعتقد بوجوب تشييد المبنى وتحديد موقعه بطريقة تنسجم مع البيئة المحيطة به لأن ذلك يجلب الحظ السعيد. رفض رونغ، واختار بدلاً من ذلك أن يكون مقر الشركة في منطقة التسوية الدولية بالقرب من البنوك والشركات الغربية التي تصطف على جانبي منطقة البوند. في مكان آخر، أخبر رونغ شقيقه «قد تكون فلسفة فنغ شوي محقة في اختيار مكان معين ينسجم مع البيئة المحيطة،

لكن خدمة الهاتف قد تكون في ذلك المكان غير جيدة». بدأ في الحصول على قروض من بنك هونغ كونغ وشنغهاي، وهو البنك الذي أسسه آل ساسون والمصرفيون التابعون لعائلة خضوري، واستمر في التوسع. ولأجل شحن منتجاته إلى داخل الصين، تفاوض على أسعار الشحن مع شركة الصين للنقل التجاري، التي تأسست بمساعدة إلياس ساسون. وتشبهًا بما فعله آل ساسون، فتح مدرسة في مسقط رأسه مدينة ووشي لتدريب الأولاد على العمل في مكاتبه ومصانعه، وتزويدهم بالتدريب المهني ثم التلمذة الصناعية في شانغهاي. بعد عقد من بدء عمله في شانغهاي، أصبح رونغ أغنى رجل أعمال صيني في المدينة. أطلقت عليه الصحف لقب «ملك الطحين» و«ملك القطن» ضمت إمبراطوريته الصناعية عشرة مصانع نسيج وستة عشر مطحنة دقيق. كان يعمل فيها 31000 عامل. وللإشارة إلى وصوله، انتقل إلى قصر كبير مشيد على الطراز الأوروبي بناه في البداية رجل أعمال غربي وبدأ في الاختلاط بنخبة رجال الأعمال الغربيين. على أرضية الردهة في منزلهم الجديد، لاحظ آل رونغز زخرفة من بلاط الفسيفساء قام بتركيبها المالك الأوروبي السابق. لم تكن تشبه أي شيء رأوه من قبل إنها: نجمة داود اليهودية.

مع تقدم الشيوعيين في المدينة، انقسمت عائلة رونغ - كما فعلت العديد من العائلات الصينية. خطط العديد من أفرادها للفرار من البلاد بما عندهم من أموال وبدء أعمال تجارية في تايلاند والبرازيل. لكن رونغ ييرين، البالغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا الذي كان يستعد لتولي أعمال العائلة، قرر البقاء. كان يعتقد أن الشيوعيين سيحتاجون إلى رجال أعمال لإعادة بناء الصين. وانه سيكون وطنيًا.

توصل أحد أقارب رونغ إلى خطة ثالثة. يمكنه أن يقود نزوحًا جماعيًا إلى هونغ كونغ ويؤسس نشاطًا تجاريًا هناك. على الرغم من أنها كانت مستعمرة بريطانية تحت الحكم البريطاني، فإنها كانت بجوار الصين وستوفر فرصة للعودة إذا تبين أن الشيوعيين عقلانيون. كانت هونغ كونغ في حالة خراب بالطبع. كانت الكهرباء شحيحة للغاية فيها. لكن آل رونغ كانوا يعرفون لورانس خضوري.

اصطحب ممثل عن آل رونغ مجموعة من رجال الأعمال الصينيين من

شانغهاي إلى هونغ كونغ وتوجهوا إلى لورانس لعقد اجتماع معه. وأوضحوا له كيف أن الذعر والفوضى يجتاحان مجتمع رجال الأعمال في شانغهاي.

كان آل رونغ وأصحاب مصانع النسيج الآخرون قد حاولوا استيراد معدات جديدة من أوروبا في الأيام المتفائلة التي سادت بعد استسلام اليابان. والآن هم على استعداد لتحويل معداتهم إلى هونغ كونغ وبناء صناعة نسيج جديدة هناك. وقد واجهوا مشكلتين. أن هونغ كونغ أكثر رطوبة من شانغهاي، وأن مصانع غزل القطن بحاجة إلى كهرباء مؤمنة وموثوقة لتشغيل أجهزة التكييف التي تساهم في تقليل الرطوبة التي يمكن أن تدمر خيوط القطن. كما أعرب رجال الأعمال الصينيون عن قلقهم بشأن ما إذا كانت شركة الكهرباء والطاقة، التي كانت لا تزال تتعافى من آثار الدمار الذي أحدثه اليابانيون فيها، قادرة على توفير طاقة كافية لتشغيل المطاحن. علمًا أنهم كانوا قد تخلوا للتو عن خطط الانتقال إلى تايوان لأن تايوان لم يكن لديها طاقة كهربائية كافية.

سأل أصحاب مصنع النسيج في شانغهاي لورانس.هل ستعطينا الكهرباء إذا أتينا إلى هونغ كونغ؟

فأجابهم لورانس «بالتأكيد».

كان لورانس يخادع. لم يكن لديه ما يكفي من التوربينات لتزويد زبائنه الحاليين بالكهرباء. فقد دمر مهندسو لورانس العديد من المولدات أثناء الغزو الياباني؛ وتم التخلي عن المباني التي تؤويها واكتظت بالفئران. لكن لورانس أدرك الفائدة التي يمثلها جلب صناعة النسيج لهونغ كونغ ولميزانيتها العمومية. اتصل بمصنع للصناعات الثقيلة في لندن وأقنعه بتحويل التوربينات التي باعتها إلى شركة في جنوب إفريقيا إليه بدلاً من ذلك. في غضون ثلاثة أيام، أقنع لورانس الحكومة العسكرية البريطانية التي كانت لا تزال تدير هونغ كونغ بالتبرع بعدة مواقع في كولون لمصانع النسيج. وأسس مشروعًا مشتركًا مع عائلة رونغ. كان لورانس بمنزلة رئيس مجلس إدارة ما سيعرف باسم مصنع قطن نانيانغ، مما يمنح الشركة شريكًا بريطانيًا وإمكانية الوصول إلى البنوك والائتمان. كان لورانس يراهن على اتصالاته

في شانغهاي في وقت لم يكن من الواضح فيه كيف ستتغلب هونغ كونغ على التقدم الشيوعي في البر الرئيسي. وبدأ الرهان يؤتي ثماره. بحلول عام 1949، كان لورانس يزود 249 مصنعًا بالكهرباء. في العام التالي، أضاف 367 أخرى، ووضع شركة الكهرباء والطاقة الصينية على السكة لتصبح الشركة المسيطرة والأكثر ربحية في مجال إنتاج الطاقة الكهربائية في هونغ كونغ. وصل مئة ألف شخص من شانغهاي إلى هونغ كونغ، حيث عرضوا -جنبًا إلى جنب مع سكان المدينة الصينيين- مهاراتهم وأسسوا البنية التحتية الاقتصادية التي من شأنها دفع المدينة إلى الأمام.

في شانغهاي، كان رونغ يرين، سليل العائلة الثرية التي تمتلك مصانع الطحين والمنسوجات، يراقب، وهو بلا حول ولا قوة، الشيوعيين وهم يستولون على مصانع عائلته وممتلكاتها. كان قد قرر البقاء في الصين بينما ذهب شقيقه الأكبر إلى هونغ كونغ وانضم إلى عائلة خضوري. كتب له شقيقه الأكبر «من الأفضل أن يبقى واحد منا في الصين؛ ويذهب الآخر إلى الخارج. فإذا لم تكن هناك مشاكل، عندئذ يمكنني العودة». لكن بعد فترة وجيزة من الاستيلاء على المدينة، بدأ الشيوعيون سلسلة من الحملات السياسية ضد رجال الأعمال الصينيين. لقد استهدفوا أصحاب الأعمال بسبب «الشرور الخمسة» - الرشوة والتهرب الضريبي وسرقة أصول الدولة والغش وسرقة المعلومات الاقتصادية. في الأشهر الأربعة الأولى من عام 1952، انتحر أكثر من 200 من أصحاب المصانع ورجال الأعمال السابقين.

بعد ظهر أحد أيام الربيع، وقف رونغ يرين في صف طويل امتد على طول الردهة المزخرفة لفندق كاثاي القديم الذي بناه فيكتور ساسون مع العشرات من رجال الأعمال الآخرين الذين كانوا يمسكون بمظاريف سميكة تحمل اعترافاتهم بارتكاب جرائم اقتصادية. امتد ذلك الصف من الرجال الواقفين عبر الردهة إلى البار حيث كان فيكتور في يوم ما يلفت الأنظار إليه وهو يقدم مشروبات الكوكتيلات المميزة الخاصة به. وبدلاً من النوادل الذين يرتدون ملابس بيضاء ويقدمون المشروبات، وقف خلف البار جنود يرتدون

بدلات الجيش البيجية اللون ومسؤولون شيوعيون يرتدون «سترات ماو» الزرقاء. وكانت تعلوه لافتة كتب عليها: التساهل مع من يدلي باعترافات كاملة ويفضح الآخرين! عقاب شديد لمن يطرد العمال ويهددهم!

يتذكر كاتب صيني شهد ذلك المنظر وهو طفل في وقت لاحق: «كان ينتاب الناس الواقفين في هذا الصف خوف شديد، مثلما كان حال اليهود في الحرب العالمية الأولى» - كانت صورة المشهد مرعبة بالنظر إلى العمل الذي قام به فيكتور لإنقاذ اللاجئين اليهود.

كان الشيوعيون مصممين على محو الوجود الأجنبي الذي أذل الكثير من الصينيين وأنتج مثل هذا الفقر وعدم المساواة. تم تدمير مضمار سباق الخيل الذي بناه البريطانيون، حيث كان فيكتور يسابق خيوله ويرفه عن أصدقائه، وتحول إلى حديقة الشعب حيث كان العمال يجدفون بالقوارب في بحيرة من صنع الإنسان. باتت المباني الواقعة على طول البوند، التي وصفت بأنها «نقطة انطلاق للإمبريالية الاقتصادية»، مشغولة من قبل المسؤولين والبيروقراطيين الصينيين. لم يعد السائحون يرقصون على أحدث صيحات الموسيقى من نيويورك أو لندن في ملهى فيكتور الليلي الرائع (سيرو)؛ بل يستمعون إلى القصائد الصينية التقليدية والأغاني الفولكلورية. تم إرسال ما يقرب من مئتي ألف من سكان شانغهاي إلى الريف لمساعدة المزارعين -وتطهير أنفسهم من رائحة النفوذ الأجنبي والرأسمالي. تقلص عدد الأجانب الذين يعيشون في شانغهاي إلى أقل من 3000- كان معظمهم من الطلاب الأفارقة أو الآسيويين أو طلاب أمريكا اللاتينية من الأنظمة المتعاطفة مع الشيوعيين.

في فندق كاثاي، اعترف رونغ بالتربح غير القانوني وتعهد بمساعدة الشيوعيين في بناء الاشتراكية. دعاه ماو إلى اجتماع في بكين وقدم له شعارًا مكتوبًا بخط ماو نفسه: إذا طبقت قانون التقدم الاجتماعي؛ ستملك مصيرك بيدك. تم تعيين رونغ نائبًا لعمدة شانغهاي والمسؤول عن الصناعة. لقد تخلى عن ثروة العائلة لكنه نجا ليبدأ من جديد في الصين الشيوعية. يتذكر كاتب صيني: «كان مثل باخرة مضاءة بشكل ساطع في الظلام وسط بحر هائج يتلمس طريقه نحو وجهته المختارة». لو كان فيكتور ساسون لا

يزال في شانغهاي، كما تكهن الكاتب، لكان قدّر غريزة رونغ للبقاء على قيد الحياة، ولكان قد رغب في أن يكون صديقًا له.

بحلول الوقت الذي وصل فيه هوراس المرهق والرث الثياب إلى هونغ كونغ من شانغهاي في عام 1948 هربًا من الشيوعيين، أدت الإصلاحات المتلاحقة التي قام بها لورانس والمجموعات الدراسية التي أسسها إلى تغيير وجه المدينة. أعلنت مجلة أمريكية أنه على عكس ما تشهده شانغهاي والبر الرئيسي للصين من تضخم ونقص في الطعام والوقود واندلاع الحرب الأهلية، فإن هونغ كونغ باتت الآن (مدينة مزدهرة).

بعد سفره من شانغهاي إلى هونغ كونغ مصطحبًا معه رئيس الخدم وبعض الملابس، استقر هوراس بأمان في Boulder Lodge بولدر لوج، المنزل الذي كانت عائلة خضوري تقضي فيه عطلة نهاية الأسبوع مستمتعًا بعزلته النسبية كونه يقع في الأقاليم الجديدة، بدلاً من الذهاب إلى المنازل الواقعة في شارع خضوري في مدينة كولون. عين لورانس شقيقه رئيسًا لفندقي بينينسولا وريبلاس باي، حيث يمكن الاستفادة من خبرته في الإشراف على فنادق العائلة في شانغهاي وولعه بالتصميم والطعام الجيد. كان العقد الأخير الذي قضاه هوراس في شانغهاي قد أنهكه. من الواضح أن لورانس كان زعيم العائلة وكان يستمتع بتسليط الأضواء عليه. اعتقد المسؤولون الحكوميون الذين التقوا بالأخوين أن هوراس لم يكن ذكيًا مثل لورانس. ومع ذلك، أصر لورانس على أنه لم يتخذ قط قرارًا يخص عملهم دون استشارة شقيقه، وكان الاثنان يتقاسمان دفتر شيكات واحدًا ويتناولان الإفطار معًا في صباح معظم الأيام، عندما كان هوراس يقود سيارته من منزله للقاء لورانس في منزله في شارع خضوري.

في صباح أحد الأيام من عام 1949، خرج هوراس من منزله ورأى بستانيًا لم يره من قبل يقوم بترتيب الزهور. فنادى على خادمته الصينية.

فسألها: «من هذا؟» بلغته الصينية التي تعلمها لتوه.

إنه ابن أخي، ردت الخادمة بعصبية. «وهو لاجئ من الصين». بينما كان الشيوعيون يعززون سلطتهم في جميع أنحاء الصين، كان يتدفق إلى

هونغ كونغ أكثر من 10000 لاجئ شهريًا من جنوب الصين هربًا من سيطرة الشيوعيين وكان من بينهم: رجال الأعمال وملاك الأراضي والرأسماليون الأثرياء وأنصار القوميين. وتحولت هونغ كونغ من كونها «المدينة الأكثر نهبًا في العالم»، إلى واحدة من أكثر المدن ازدحامًا. وتكدس اللاجئون في أكواخ عشوائية في الريف وسفوح التلال تفتقر إلى خدمات الماء والكهرباء والمجاري. وكانوا يلحون على أقاربهم ويزعجونهم من أجل إخفائهم وحمايتهم.

كان اسم البستاني الجديد الذي كان يعمل في ترتيب الزهور في منزل هوراس ليونغ تشيك. كان قد وصل في اليوم السابق مع زوجته وطفليه مع بعض الأرانب الموضوعة في قفص. كانت عمتهم -خادمة هوراس- تخبئهم في مرأب هوراس. كان ليونغ مزارعًا في جنوب الصين ويمتلك عدة قطع صغيرة من الأرض، وكان قد فر مع عائلته من الجيوش الشيوعية المتقدمة وفي جيبه ستة دولارات نقدًا. نظر ليونغ تشيك بقلق إلى الأجنبي الخجول الطويل الواقف أمامه - هوراس الذي كان يرتدي سروالًا قصيرًا للمشي مربوطًا بحزام فوق الخصر، وجلده الأبيض الشاحب يظهر فوق الركبتين السوداوين، والحذاء الأسود.

خطا هوراس خطوة واحدة نحوه وأشار إلى خادمته لتترجم ما سيقوله: «أنا مثلك لاجئ أيضًا».

وكما أدت محنة اللاجئين اليهود في شانغهاي إلى تنشيط هوراس، كذلك كشفت محنة هذه المجموعة الجديدة من اللاجئين الفارين من الصين عن وجود هدف لديهم يطابق دافع لورانس لنجاح الأعمال. كانت حكومة هونغ كونغ، وخوفًا من تسلل العملاء الشيوعيين إلى هونغ كونغ مع اللاجئين، ترسل الشرطة إلى المنازل المحيطة بمنزل هوراس للتأكد من أن العائلات الصينية في تلك المنطقة لا تؤوي اللاجئين سراً. عندما توقف رجال الشرطة عند منزل هوراس خلال إحدى حملات البحث الروتينية الخاصة بهم وسألوه عما إذا كان قد رأى أي لاجئين، أنكر ذلك بشكل مطلق قائلًا: «لا، لا أحد يأتي إلى هنا على الإطلاق». انتقل ليونغ تشيك من مرأب هوراس إلى كوخ قريب. وكان يجوب الحقول المحيطة بحثًا عن خضروات متروكة

لإطعام أسرته. كان يهيئ نفسه لأن يصبح مزارعًا مستأجرًا، حيث استأجر قطعة أرض لمدة عشر سنوات حتى يتمكن من زراعة الخضروات بمفرده. عندما سمع هوراس بهذا، استدعى ليونغ تشيك وعمته وسألهما لماذا لا يشتري ليونغ شيك بعض الأراضي. أشار ليونغ تشيك إلى أنه لا يملك المال. عرض هوراس أن يقرضه المال. وقال له: «يمكنك سداده ببطء، وبالتدريج، ليس الأمر مهمًا عندي». أثناء زيارته لمزرعة ليونغ تشيك، وبخه هوراس لاستخدامه الفحم للتدفئة، قائلاً إنه قذر للغاية. ثم أمر منتسبي شركة الطاقة والكهرباء الصينية بتوصيل الكهرباء إلى منزل ليونغ تشيك. وأعطاه طاولة مهملة كانت في فندق بينينسولا، لكي يدرس عليها أطفاله الأربعة.

بدأ ليونغ شيك بإحضار مزارعين آخرين من اللاجئين يطلبون المساعدة من هوراس. منحهم هوراس المال حتى يتمكنوا من شراء أدوات الزراعة والبذور. عشية عيد الميلاد، كان هوراس يقود سيارته على طول الطرق الريفية عندما اكتشف أن حريقًا دمر مزرعة قريبة. في اليوم التالي زار المزرعة وعرض على المالك الذي كان يدعى فو منحه قرضًا بدون فوائد لبناء منزل جديد. ورتب له شراء الخنازير والدجاج ودفع أجور العمال لبناء طريق يؤدي إلى القرية، حتى يتمكن فو من المشي أو ركوب الدراجة هناك لبيع خضرواته. بدأ فو تقليدًا يتمثل في زيارة هوراس في يوم عيد الميلاد للحديث عن أحداث العام الذي مضى وللتعبير عن تقديره واحترامه له، كما كان يفعل مع أقاربه من الصينيين.

بدأ هوراس يبعث الرسائل للمسؤولين البريطانيين حول المشاكل الريفية وكان مثابرًا في هذا الموضوع لدرجة أنهم عينوه في لجنة لمعالجة القضايا التي تواجه المزارعين في الأقاليم الجديدة. وقد كشفت رسائله عن إرادة فولاذية لم يكن يظهرها في الأماكن العامة بسبب سلوكه الخجول. وخلف الكواليس، أصبح هوراس مدافعًا شرسًا عن المزارعين واللاجئين في الأراضي الجديدة. وكان يتابع الاجتماعات التي تعقد بين المسؤولين الحكوميين ومنظمات المزارعين ووبخ الحكومة عندما ألغت تلك الاجتماعات. ورفض أن يكون مجرد أداة طيعة لا يعترض على أي قرار يخص السياسة الزراعية.. كان يذهب إلى المسؤولين الحكوميين لمناقشة

أي موضوع مهما كان تافهًا مثل الإغراق الذي كان يراه في الأراضي الريفية، والتلوث الناتج عن النفايات الصناعية، والسيارات التي تسير بسرعة كبيرة على الطرق الريفية.

في عام 1951، ذهب هوراس إلى لورانس قائلاً إنه يريد فعل المزيد لمساعدة عشرات الآلاف من اللاجئين الذين يحاولون كسب لقمة العيش في الأراضي الجديدة. فاقترح مشروعًا لدعم الزراعة. لم يكن لورانس يعرف أي شيء عن الزراعة، لكنه كان يعلم أن هوراس كان دائمًا مفتونًا بعلم الزراعة وأنه يفضل الحياة في الهواء الطلق على الحياة المكتبية. وافق لورانس على البدء باستثمار مليون دولار في عملة هونغ كونغ – حوالي 170 ألف دولار بأسعار اليوم. وقال لورانس لأصدقائه: «إذا كان هذا يجعله سعيدًا، فأنا بخير».

أسس هوراس جمعية خضوري لتقديم المساعدات الزراعية (KAAA) واعتمادًا على نموذج التمويل الأولي، عرض هوراس على حكومة هونغ كونغ الاستعمارية نموذجًا معروفًا باسم القروض الصغيرة، وهو الذي سيصبح شائعًا بعد عقود. كان آل خضوري يمنحون المزارعين بضع مئات من الدولارات، وهو ما يكفي لشراء قطعة أرض وبذور وأدوات زراعية، بالإضافة إلى اثنين من الخنازير والحجارة لبناء حظيرة خنازير. وتعهدت الحكومة الاستعمارية بتوفير خبراء لتعليم المزارعين تقنيات الزراعة الفعالة مثل الزراعة على المدرجات التي حولت التربة الصخرية التي تمتد على سفوح التلال إلى أرض منتجة. كان المزارعون يستخدمون الأموال التي أقرضها لهم آل خضوري لزراعة منتجاتهم وبيعها، ثم يسددون القرض من بعض أرباحهم أو على شكل بذور أو طعام. أصرّ هوراس على أن هذا النهج لم يكن صدقة. فقد كان المزارعون يساعدون أنفسهم. كان آل خضوري يمنحون كل مزارع ما يكفي من المال لبدء العمل. وأخذت الحكومة على عاتقها توفير المعرفة المتخصصة. فيما يقوم المزارعون بهذا العمل.

غذت السياسة الحاجة الملحة من وراء البرنامج. كان الشيوعيون قد أوقفوا تقدمهم عند حدود هونغ كونغ لكن كان يمكنهم السيطرة عليها في أي وقت يرغبون فيه. أدى تدفق اللاجئين إلى أن أصبحت العائلات

والعشائر تعيش حينها على جانبي الحدود، مما يعني أن الأقاليم الجديدة التي تسيطر عليها هونغ كونغ أصبحت جاهزة للتسلل أو التجسس أو تغذية مشاعر السخط السياسي. ويمكن أن تؤدي مساعدة المزارعين في تحسين الاستقرار السياسي في هونغ كونغ. بعد أن تم تكليف الحكومة بإعادة بناء وسط المدينة، لم يتبق للحكومة أي موارد للمساعدة. وكما فعل في شانغهاي خلال الحرب، تدخل هوراس لمد يد العون. وسرعان ما انتشرت لافتات عبر الأقاليم الجديدة تعلن عن الطرق التي أقامها آل خضوري، حتى يتمكن المزارعون من الانتقال إلى القرى لبيع منتجاتهم ويمكن للأطفال الذهاب إلى المدرسة سيرًا على الأقدام. قامت جمعية خضوري لتقديم المساعدات الزراعية KAAA ببناء السدود وخزانات المياه في عشرات القرى. وقام هوراس بتمويل عمليات زراعة البساتين وشجع المزارعين على تنويع نشاطهم من خلال حثهم على تربية الدجاج.

كانت عائلة تسانغ نموذجًا للعائلات التي كان هوراس يساعدها. كان أفرادها يعيشون في جزيرة لانتاو النائية، على بعد أميال من أماكن تطوير الأعمال التجارية ومناطق المصانع في هونغ كونغ. كانت والدتهم تستيقظ في الساعة الرابعة صباحًا لتمشي لمدة ساعة لجلب المياه من البئر والعودة بها إلى المنزل لغرض الاستحمام بها وتحضير الإفطار. قبل ذهابهم إلى المدرسة، كان الأطفال يقومون بنفس الرحلة لنقل المياه لغرض ري الحقول. زعم أفراد عائلة تسانغ أنهم لا يهتمون بالسياسة – لكنهم في الحقيقة كانوا متعاطفين مع الشيوعيين وأخفوا في بيتهم المتمردين الشيوعيين أثناء الاحتلال الياباني لهونغ كونغ. في السنوات التي أعقبت سيطرة الشيوعيين، لم يخبر تسانغ السلطات البريطانية بأي شيء حين كان الشيوعيون يتحركون ذهابًا وإيابًا عبر حقولهم، متسللين إلى هونغ كونغ عبر الحدود. فقد تبنوا موقف الحياد المدروس. وقال جد العائلة لعشيرته «كلنا نشرب من نفس كوب الشاي»

في أحد الأيام من خمسينيات القرن الماضي، ظهر هوراس في مزرعة تسانغ وسألهم برفقة موظف صيني قام بالترجمة له: «ماذا تحتاجون؟ هل تحتاجون إلى خنازير؟»

أجابه الجد: «كلا». وكانت تقف حفيدته إلى جانبه بخجل.

ثم سألهم «هل تحتاجون إلى دجاج؟»

فجاءه الرد «كلا».

«هل تحتاجون إلى بقرة؟»

وجاء الجواب مرة أخرى، «كلا».

قاطع مساعد هوراس الجد تسانغ متكلمًا معه باللهجة الكانتونية (الصينية) وسأله عن الأمر ولماذا هو عدائي هكذا.

أجاب تسانغ: «نحن لا نعرف هذا الشخص الأبيض [هذا الأجنبي]». «أنا لا أثق به. ماذا يريد منا؟»

«إنه لا يريد أي شيء»، تابع المساعد حديثه باللهجة الكانتونية بينما كان هوراس ينظر إليه. «إنه رجل ثري للغاية. يمتلك الكثير من الأشياء – الترام الذي يصعد إلى أعلى وأسفل الجبل، وشركة أسمنت. ويريد مساعدتك».

قال تسانغ: «حسنًا». «سنأخذ بعض الأسمنت» ثم توقف لبرهة من الزمن وقال. «وبعض أنابيب المياه حتى نتمكن من ربط النهر بحقولنا»

أعطى هوراس خطابًا لعائلة تسانغ يأذن لهم بالحصول على الأسمنت من شركة الأسمنت التابعة لعائلة خضوري وشيكًا بعدة مئات من الدولارات حتى يتمكنوا من شراء أنابيب لتحويل المياه من النهر إلى حقولهم. على مدى السنوات القليلة التالية، اقترضت عائلة تسانغ المال بدون فوائد من جمعية المساعدات الزراعية KAAA التابعة لهوراس لشراء الأسمدة والبذور، وسداد القرض بدون فوائد في ستة أشهر بأموال باتوا يكسبونها من بيع الخضروات. واتفقوا على السماح لـجمعية المساعدات الزراعية ببناء سد لتحسين ري حقولهم. وبدأوا في تربية الدجاج. في السابق، كان عليهم في كثير من الأحيان إطعام أطفالهم البطاطا الحلوة لأنهم لا يستطيعون شراء ما يكفي من الأرز. الآن لديهم ما يكفي وانضموا إلى جمعية تعاونية أسسها آل خضوري كانت تشحن خضرواتهم على متن قوارب إلى السوق لبيعها. زار الأطباء البيطريون من مجموعة شركات آل خضوري مزرعتهم لفحص دجاجهم وتقديم المشورة والمضادات

الحيوية لزيادة محصولهم. قالت الحفيدة التي شهدت زيارات هوراس: «لقد غيرت عائلة خضوري حياتنا».

ثم جاء دور الخنازير. كان لحم الخنزير هو النظام الغذائي الأساسي لشعب هونغ كونغ، وأصبحت له سوق مزدهرة مع نمو السكان. اعتقد هوراس وخبراؤه الزراعيون أن تربية الخنازير هي أسرع طريقة للازدهار. إذا تم إعطاء كل مزارع أربعة خنازير عمرها ستة أشهر واحتفظ بها لمدة ثمانية إلى تسعة أشهر، فسيكون لديه عدة خنازير صغار قريبًا ويمكن أن يبدأ في بيع الخنازير للحصول على اللحوم، وكسب دخل ثابت. كان هوراس يعتقد أن المزارعين كانوا أذكياء بما يكفي لإدارة مزارعهم وكسب المال إذا تم منحهم الدعم الفني والحصول على الأسمدة والبذور والحيوانات ذات الجودة الأفضل. رأى هوراس أن تربية الخنازير سمحت حرفياً للمزارعين برؤية استثماراتهم تنمو.

أطلق هوراس أيضًا بحوثًا في كيفية القضاء على ظاهرة «الخنازير المتقوصة». أدت عقود من سوء التغذية وعادات التغذية السيئة إلى إصابة خنازير هونغ كونغ بتشوه يسمى التقوص –وهو ارتداد في الظهر أدى إلى تقليل كمية اللحوم وجعل الخنازير تموت قبل الأوان. قام هوراس بتمويل إجراء بحوث أدت إلى إنتاج سلالة جديدة من خنازير هونغ كونغ أنتجت المزيد من اللحوم. بحلول عام 1962، ساعدت جمعية KAAA التابعة لهوراس 300000 لاجئ ومنحت قروضًا بقيمة 60 مليون دولار، تم سدادها جميعًا من قبل المزارعين على أساس ثابت وإقراضهم مرة أخرى قروضًا صغيرة. أسس ليونغ تشيك شركة تنتج 20 ألف خنزير في السنة. ثم افتتح مطعمًا صينيًا على الطريق المار بمزرعته يقدم مجموعة متنوعة من الأطباق– بما في ذلك أطباق لحم الخنزير المأخوذ من خنازيره –وأطلق عليه اسم هوراس. قال ليونغ تشيك لعائلته «هوراس لا يأكل الخنزير– إنه يهودي». «لكنه ذكي جدًا حينما يتعلق الأمر بتربية الخنازير».

ومنذ ذلك اليوم تداول المزارعون مقولة مفادها: «إن آل خضوري يعرفون كل شيء عن الخنازير ما عدا طعمها».

لقد فهم آل خضوري كيف تغيرت السياسات في عالمهم. كانت الإمبراطورية البريطانية في حالة تراجع. وحصلت الهند على الاستقلال. ولم يكن أمام هونغ كونغ من خيار. فقد أوضح الشيوعيون أنهم يعتزمون استعادتها. أما الصين فكان لديها ما يكفي من المتاعب وكانت تحاول القضاء على الفوضى في بلدها... فلم ترغب بالمطالبة بعودة هونغ كونغ، أعلن ماو حين غزا الشيوعيون البر الرئيسي. «ربما بعد عشر أو عشرين أو ثلاثين عامًا من الآن قد نطلب مناقشة مسألة عودتها». جعلت الحرب الباردة هونغ كونغ تعلق بين الشيوعية والرأسمالية، وبين «العالم الحر» و«الصين الشيوعية». أظهرت الحرب الكورية، التي دفعت القوات الأمريكية والصينية لمواجهة بعضها بعضًا، كيف يمكن أن تكون أوضاع المنطقة متقلبة.

كان حل هونغ كونغ هو تبني سياسة الحياد الحذر عندما يتعلق الأمر بالبر الرئيسي. أعلن حاكم هونغ كونغ أن «قوة موقفنا في هونغ كونغ تعتمد إلى حد كبير على عدم المشاركة في القضايا السياسية». لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال الحفاظ على الشرعية الصارمة والحياد في أي قضايا ذات صبغة سياسية.

في الوقت نفسه، كانت هناك معركة تتكشف من أجل كسب قلوب وعقول سكان هونغ كونغ الصينيين. هرب الكثيرون، مثل اللاجئ ليونغ شيك الذي كان هوراس صديقًا له، من الشيوعية. وقد عرضت عليهم جمعية (KAAA) بديلاً رأسماليًا لعملية إعادة توزيع الأراضي والاضطهاد الذي تعرضوا له في موطنهم السابق. لم ترغب الحكومة الاستعمارية البريطانية في استفزاز الصين. لكن كان بمقدور المسؤولين العمل بهدوء مع عائلة خضوري لكي تدفع إلى الواجهة البرامج التي أظهرت فوائد الرأسمالية وتحسين اعتماد هونغ كونغ على ذاتها. أعلن لورانس أن «أفضل حماية من الشيوعية هي توفير ظروف معيشية أفضل من تلك الموجودة في الصين».

أصبحت الكهرباء ساحة لمعركة أخرى، وهنا تولى لورانس زمام الأمور. مع تعافي اقتصاد هونغ كونغ ثم بدء نموه في الخمسينيات من القرن الماضي، كان لا يزال مئات الآلاف من السكان الصينيين يعيشون حياة تجعل المرء يشعر في كثير من الأحيان كأنهم لم يتغيروا منذ خمسين عامًا. كان عمال

المصانع يعودون إلى منازلهم في القرى والأحياء حين يحل الظلام مع غروب الشمس. وكانت الكهرباء موجودة فقط على طول الطرق الرئيسية. كان يجب نقل المياه يدويًا لأغراض الغسيل والطبخ وأواني مجاري الغرف. أدى نقص الكهرباء إلى تقصير اليوم، وزيادة خطر نشوب الحرائق، وزيادة صعوبة الحصول على المياه، وتقليص ساعات الدراسة التي يمكن للأطفال التعلم فيها، وعزل الناس عن الأخبار أو حتى التعرض للعالم الخارجي. كان العدد القليل من مصابيح الشوارع يضاء بالغاز، في كل مساء في الساعة 5 أو 6 مساءً. كان يسير رجال يرتدون أعمدة طويلة من الخيزران مع ألسنة اللهب في الأعلى على طول الشوارع لإضاءة مصابيح الغاز، ويعيدون في الصباح لإطفائها، مثلما كان يحدث عندما انتقل لورانس لأول مرة إلى هونغ كونغ مع والديه في مطلع القرن. كان العرافون يتسكعون في الشوارع ويخبرون الناس عن حظهم بواسطة مصابيح الكيروسين. وكان الأطفال يتجمعون حول مصابيح الكيروسين للدراسة. كان السبب الرئيسي لحرائق المنازل هو انقلاب فوانيس الكيروسين. كان الناس يائسين للغاية للحصول على الكهرباء لدرجة أنهم كانوا يسرقونها باستمرار، ويقومون بمد الأسلاك من خطوط الكهرباء الرئيسية إلى منازلهم. كانت الكهرباء باهظة الثمن لدرجة أن أولئك الذين امتلكوها غالبًا ما كان لديهم سوى لمبة واحدة بقدرة 5 وات لا يتم تشغيلها إلا عند الضرورة. كان الطبيب الصيني كووك كيونج يدير صيدلية عشبية شهيرة في حي ياو ما تي في كولون كانت فسيحة ولكنها قاتمة؛ كانت المنطقة المضيئة الوحيدة تقع تحت مصباح واحد عار حيث يقوم بفحص المرضى وعلاجهم. أدى تدفق اللاجئين إلى تفاقم المشاكل الناجمة عن نقص الكهرباء. في عام 1953، اندلع حريق بمصباح كيروسين عبر مستوطنة عشوائية ضخمة، مما أدى إلى تشريد 50 ألف شخص في ليلة واحدة.

كان لورانس قد قام بتوصيل الأسلاك الكهربائية وجلب الكهرباء إلى المصانع التي كانت تملأ شوارع كولون وتحول اقتصاد هونغ كونغ، وتنتج المنسوجات ولعب الأطفال والإلكترونيات الرخيصة. وهكذا فقد جلب الكهرباء إلى الأحياء والقرى السكنية التي امتدت من المناطق

الصناعية المزدحمة شمالًا إلى الحدود مع الصين. في ظل الشيوعيين، كانت الصين تعمل بقوة على إنجاز برنامج كهربة الريف. كان الربط مع الشبكة الكهربائية في هونغ كونغ يعني أن سكانها يمكنهم استخدام المراوح الكهربائية والمصابيح الأفضل والثلاجات والأجهزة الأخرى مثل طباخات الأرز الكهربائية. كانت عائلة تسانغ، التي ساعد هوراس في إنشاء مزرعتها النائية قبل عقد من الزمن، تضخ المياه يدويًا كل صباح من البئر لتستخدمها في ري الحقول والطهي والتنظيف. وكان يتجمع أطفالها التسعة حول مصباح كيروسين واحد ليلاً للدراسة. بعد قيام لورانس وشركة الطاقة والكهرباء الصينية بتوصيل الكهرباء إلى جزيرة لانتاو، بات بإمكان أطفال تسانغ الدراسة في أي مكان، ووسعت الأسرة من عمليات تربية الخنازير. وتوجه أربعة من أطفال تسانغ التسعة إلى العاصمة للحصول على شهادات جامعية؛ وأصبحت الأسرة تضم طبيبين ومعلمًا وثلاثة مزارعين ورجلي أعمال. أدى قرار لورانس في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي إلى زيادة توليد الطاقة وتوزيعها بلا هوادة إلى تمهيد الطريق أمام بناء دور السينما المكيفة ومراكز التسوق والمصاعد والسلالم المتحركة المضاءة جيدًا التي تتسلق المباني الشاهقة في المدينة، وإنارة سماء المدينة والشوارع المزدحمة بأضواء براقة بشكل مذهل. وحولت المدينة المحطمة والمنهوبة التي عاد إليها لورانس بعد الحرب العالمية الثانية إلى «بؤرة أمامية مزخرفة بالنيون تمثل الحداثة الرأسمالية التي تتواجد على طرف الصين التي كانت أحادية اللون».

أعلن ناشر أسترالي بعد لقاء جمعه مع هوراس ولورانس خضوري، أن آسيا لم تعرف قط شخصين يعاديان الشيوعية بقوة مثلهما.

أطلق لورانس على نفسه لقب آخر رجال العصر الفيكتوري، ولد عام 1899، في السنوات الأخيرة من حكم الملكة فيكتوريا. شارك الفيكتوريين تفاؤلهم بمستقبل الإمبراطورية –فقد كان يعرف ما هو الأفضل لهونغ كونغ وللصينيين. ربما كان الاستعمار قد تراجع وفقد مصداقيته– تاركًا إرثًا من الصراع العرقي والحرب في الهند والشرق الأوسط وأفريقيا – ولكنه يختلف هنا في هونغ كونغ، فقد اعتقد لورانس أن آخر بؤرة استيطانية

للإمبراطورية البريطانية كانت ناجحة. وقد قال لمراسل إحدى المجلات: «هناك الكثير من الفوائد في الاستعمار. فقد جلب التعليم، ومكاتب البريد والبنوك. وجلب القانون وفرض النظام. خذ الهند على سبيل المثال: أيهما أفضل، الجميع يتقاتلون فيما بينهم؟» كان لورانس شخصًا منضبطًا ودمثًا. وغالبًا ما كان يوصف بأنه متسلط ومتغطرس. فكان الاستعمار يناسبه. وقد صرح لورانس «ليس هناك شك في أن هونغ كونغ تدار من قبل أشخاص من النخبة. وأنا أؤمن بهذه النخبة، وأعتقد أنها أفضل بكثير من الديمقراطية الغربية». عندما انضم إلى الصناعيين في شانغهاي الذين ساعدهم مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية جيل جديد من رواد الأعمال في هونغ كونغ وبدأوا يشتكون من أن لورانس كان يستخدم موقعه الاحتكاري لفرض رسوم أعلى من المدن الأخرى، رد على تلك الشكاوي بتأميم شركته للكهرباء. كان العديد من المسؤولين الاستعماريين في هونغ كونغ متعاطفين مع الاحتجاجات. لقد اشتكوا من أن لورانس كان يربح، وأنه كان يلح عليهم بطلباته ويضغط عليهم للحصول على امتيازات لا تعود بالنفع إلا على نفسه وشركاته. وأشاروا إلى أن المزارعين الذين ساعدهم هوراس في الأقاليم الجديدة سرعان ما أصبحوا زبائن لدى شركة الطاقة والكهرباء الصينية التي يملكها. كتب أحد المسؤولين الاستعماريين أن عائلة خضوري تتصرف كأن، «جميع أفراد شعب شانغهاي يملكون سيارات الليموزين الكبيرة» التي تعمل من خلال «صرخات الموسرين». تفاوض لورانس على حل وسط سمح للحكومة ببعض التنظيم لأسعار الكهرباء مقابل معدل ربح مضمون. بالنسبة للعديد من الذين زاروا هونغ كونغ، كان لورانس، مثل المدينة، يمثل تحولًا تاريخيًا. لكنه كان تحولًا ناجحًا.

وإدراكًا لتأثير لورانس، فإن بنك هونغ كونغ وشنغهاي، الذي كان أقوى مؤسسة في هونغ كونغ، وينافس الحكومة الاستعمارية نفسها، قرر تعيينه في مجلس الإدارة. وكان ذلك المنصب قد شغله آل ساسون على مدار عدة أجيال. مثّل تعيين لورانس صعود عائلة خضوري على حساب منافسيهم القدامى. فقد لورانس خضوري أيضًا ثروة في شانغهاي. ولكن في هونغ كونغ، كان يعمل على استعادة كل ما فقده – وقد استعاد بعضه.

أما في الصين، فقد كان الأمر على النقيض من ذلك، بعد عقد من النمو السريع بعد استيلائهم على السلطة، شرع الشيوعيون في سلسلة من التجارب الاقتصادية ذات الدوافع السياسية المصممة لدفع الاقتصاد الصيني إلى ما وراء بريطانيا العظمى والدول الرأسمالية المنافسة. كانت القفزة العظيمة للأمام، التي بدأها ماو في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، تهدف إلى تحويل كل سقيفة في الفناء الخلفي وبناء متروك إلى مصنع وزيادة إنتاج الحبوب بشكل كبير من خلال التخطيط المركزي. تسببت تلك الخطوة في حدوث مجاعة في جميع أنحاء البلاد أودت بحياة الملايين. لم يتم الكشف عن المدى الكامل لتلك الكارثة الا بعد عقود، لكن اللاجئين الذين فروا من الصين إلى هونغ كونغ رووا قصصًا مروعة عن الجوع والفقر للأصدقاء والأقارب الصينيين الذين كانت أوضاعهم الاقتصادية تتحسن.

لم يستخدم فيكتور ساسون قط جزء الإياب من تذكرته للعودة إلى شانغهاي.

عندما سقطت الصين تحت سيطرة الشيوعيين، سافر فيكتور حول العالم مقيمًا في عدة فنادق وفي مقره الجديد في ناسو في جزر الباهاما، حيث لم تكن هناك ضرائب شخصية أو ضرائب على الشركات وحيث كان يأمل أن الجو المعتدل، يمكن أن يخفف من الألم الذي بات يعاني منه في وركيه. كان في يوم من الأيام أحد أغنى الرجال في العالم، وقد تخسر ما يقدر بنحو نصف مليار دولار في المباني والشركات العائدة له عندما استولى الشيوعيون على شانغهاي. شهد ابن عمه لوسيان النجاح الذي حققه لورانس في هونغ كونغ ونصح فيكتور بالاحتفاظ بممتلكات ساسون المربحة التي كان يمتلكها في هونغ كونغ وشراء المزيد. لكن فيكتور رفض وباع ممتلكاته. لكنه قرر أن ينهي كل تعامل له في الصين. لاحظ موريس جرين، الذي كان يعمل لمصلحة فيكتور في شانغهاي وانتقل إلى هونغ كونغ لبدء مشروعه الخاص: «أن فيكتور كان دائمًا يتخذ القرار الخاطئ في الوقت الخطأ وفي المكان الخطأ».

في جزر الباهاما، بنى فيكتور نسخة استوائية مصغرة من إمبراطوريته التي بناها في شانغهاي في يوم من الأيام. اشترى مبنى وردي اللون يضم

عددًا من المكاتب مؤلفًا من خمسة طوابق سماه «ساسون هاوس». وأسس شركة تأمين ووسائل استثمارية أخرى كما فعل في شانغهاي. واستقر العديد من موظفيه السابقين في جزر البهاما للعمل لديه. غالبًا ما كان يزور متجرًا للكاميرات في دالاس، تكساس، حيث انغمس في افتتانه بأحدث أدوات ومعدات التصوير. وأنفق عشرات الآلاف من الدولارات في زيارة مزارع الخيول، وحضور مزادات بيع الخيول، ودراسة سلالاتها. واحتفظ بإسطبلات سباق الخيل والمدربين في لندن وأيرلندا وقضى موسم السباقات الممتد من مايو إلى سبتمبر في إنجلترا. الآن وهو في السبعينيات من عمره، ظل على اتصال بأختي سونغ اللتين وقفتا مع القوميين. وكان يلتقي بحبيبته القديمة إميلي هان لتناول طعام الغداء عندما يكون في نيويورك، في نادي 21 أو فور سيزونز. كانا يتحدثان عن التغييرات التي كانا يقرآن عنها في الصين. وكتب لها: «إن الصينيين يكرهون الشيوعيين أكثر في كل يوم».

في إحدى رحلاته إلى نيويورك، أصيب بانزلاق غضروفي وتم نقله إلى المستشفى، ثم أُجبر على استخدام كرسي متحرك. أقنع الممرضة الأمريكية التي اعتنت به في نيويورك بالانتقال إلى جزر الباهاما. كان اسمها إيفلين بارنز. وهي في الأصل من دالاس، كانت في الثلاثين من عمرها، فتاة شقراء وصغيرة أثرت كفاءتها السريعة في أن تنال إعجابه. وكانت تصف نفسها بأنها «امرأة قروية من الجنوب» ووصفت فيكتور لأصدقائها بأنه أصغر من سنوات عمره. ثم أصبحا زوجين وكانا يقيمان حفلات للأصدقاء. كان فيكتور يجلس على شرفة منزله الضخمة في ناسو، حيث تؤدي نصف دزينة من السلالم إلى الشاطئ والمسبح، وكان يقوم شخصيًا بخلط كوكتيلات المشروبات وبدا دائمًا في حالة معنوية عالية.

نادرًا ما تحدث فيكتور عن الصين، وعندما كان يفعل ذلك كان ينتابه شعور بالمرارة والخسارة. استغلت إحدى بنات أخت بارنز، واسمها إيفلين كوكس، عطلتها الدراسية لمدة عام قبل التحاقها بالكلية لقضاء بعض الوقت مع خالتها وفيكتور. قال لكوكس إن الصينيين وضعوا مكافأة لمن يأتيهم برأسه. فلا يمكنه العودة أبدًا. تحدث عن معاداة السامية التي واجهها. وقال إنه كان يقيم أفضل الحفلات، لكن لم تتم دعوته دائمًا إلى الحفلات التي

أقامها الآخرون. خلال العشاء، تحدث عن أصدقائه الذين فروا عند استيلاء الشيوعيين على السلطة بأحد الزوارق، وكيف أطلق الجنود النار عليهم من مدافع رشاشة. كان فيكتور قد هرب قبل وصول الشيوعيين، لكن الشيوعيين استولوا على ممتلكاته، وحتى تلك التي باعها لم يبعها بما تستحق من قيمتها. شعرت كوكس بحالة الحزن التي يعيشها فيكتور. وتتذكر كوكس قائلة «لقد تغير عالمه كثيرًا» «لم يكن لديه ذلك التأثير الذي كان يتمتع به. لا أستطيع أن أتخيل كيف شعر وهو يغادر شانغهاي للمرة الأخيرة.... ويترك جميع آماله وأحلامه، وكل ما تعب في بنائه، وكل ما أفنى حياته من أجله».

في أواخر السبعينيات من عمره، تزوج فيكتور من ممرضته إيفلين بارنز. اعتقدت عائلتها أن هذه كانت طريقته في شكرها على رعايتها له والتأكد من أنها ستكون آمنة ماليًا. ومازحها قائلا: «كان علي أن أخيب آمال الكثير من النساء الأخريات»

قبل وفاته بفترة وجيزة، زار فيكتور محاميه في نيويورك لتعديل وصيته. أثناء خروجه، قال لابنة أخته، «عزيزتي، أريد أن أخبرك شيئًا، لقد تركت لك بعض المال، لكنني أريدك أن تقدمي لي وعدين. أولاً، لا تضعي كل بيضك في سلة واحدة. ثانيًا، لا تستثمري أبدًا في أي صفقات سريعة لتحقيق الثراء».

ثم أضاف لاحقًا عبارة ثالثة: «وأن تعديني بأنك لن تذهبي إلى الصين أبدًا».

في أغسطس 1961، أصيب فيكتور بنوبة قلبية وتوفي في الثمانين من عمره. كان في طور بناء منزل جديد في دالاس. وكان يحتوي على قاعة للوحات الفنية يطل على قاعة المدخل الأمامي، على غرار القاعة التي بناها ذات مرة في منزله الصيفي في شانغهاي.

قام والد لورانس، إيلي، ببناء القصر العائلي لتأكيد قوته ومكانته في شانغهاي. وقد امتلك لورانس بالفعل أفضل فندقين في هونغ كونغ -بينينسولا الفخم وريبلاس باي- إضافة إلى قطعة أرض صغيرة فيما يعرف بتلة خضوري وقصر ريفي له شاطئه الخاص. بالنسبة إلى المعلم المميز الذي أراد أن يشيده، فقد خطط بشكل مناسب لبناء مبنى يضم

مكاتب إدارية (ناطحة سحاب). يحل محل المبنى الاستعماري القديم المكون من أربعة طوابق بشرفات تطل على الواجهة البحرية لهونغ كونغ، حيث بدأ والده العمل قبل سبعين عامًا، وكان مقرًا لآل خضوري منذ ذلك الحين. ستكون ناطحة السحاب الجديدة أطول مبنى في هونغ كونغ ومغلفة بالبرونز العاكس. وسيكون بها متحف خاص لمجموعات التحف المصنوعة من اليشم والعاج التي كانت تمتلكها عائلة خضوري وشقة في الطابق العلوي تحوي سقيفة لابن لورانس، مايكل، الذي عاد إلى هونغ كونغ بعد إرساله إلى أوروبا لإنهاء تعليمه، ليتم إعداده لتولي إدارة أعمال العائلة.

بدأ البناء في منتصف الستينيات – حين كانت الفوضى قد بدأت تعم الصين لتوها.

كان الرأسمالي المليونير في شانغهاي رونغ يرين في وضع جيد بعد اعترافه «بجرائمه» الاقتصادية في بهو فندق كاثاي في الخمسينيات. كان الشيوعيون قد عينوه نائبًا لرئيس البلدية ولكن ابتداءً من أواخر الخمسينيات من القرن الماضي، أطاح ماو برونغ وآخرين عندما شن هجومًا ساحقًا على خصومه وجميع من تبقى من «الصين القديمة». تمت معاقبة الملاك؛ وإذلال المثقفين. وأصبحت شانغهاي نفسها هدفًا له. على الرغم من أنها كانت أغنى مدينة في الصين وأن مصانعها تنتج أكثر من نصف الناتج المحلي الإجمالي للبلاد، إلا أن القادة الشيوعيين ظلوا متشككين في الأشخاص الذين نشأوا في ظل حفلات القصر العائلي لعائلة خضوري وفندق كاثاي. حتى إنهم ناقشوا في مرحلة ما نقل جميع السكان إلى الريف من أجل «إعادة التعليم». عندما أطلق ماو القفزة العظيمة للأمام، كانت كارثة أدت إلى حدوث مجاعة واسعة النطاق. نجا العديد من الصينيين في الجنوب فقط لأن أقاربهم في هونغ كونغ كانوا يهربون لهم طرود الطعام. اعترف المسؤولون الشيوعيون في وقت لاحق أن 100 مليون شخص عانوا من شكل من أشكال الاضطهاد في العقود الثلاثة الأولى من الحكم الشيوعي.

... كانت الثورة الثقافية أسوأ من ذلك. في أعقاب كارثة القفزة العظيمة إلى الأمام، همش قادة الصين الآخرون ماو وبدأوا في إدخال إصلاحات

اقتصادية. قرر ماو الرد عليهم، وأطلق العنان للثورة الثقافية، التي كانت مصممة للإطاحة بخصومه من خلال تعبئة الشباب المتطرف. ومن المفارقات أنه اختار شانغهاي لتكون مقراً لحملته الجديدة. كانت بعيدة عن منافسيه في بكين. أسست زوجته، جيانغ كينغ، قاعدة قوية هناك مع العديد من المتطرفين الذين دعموا ماو. وقد أبعدوا رونغ يرين جانبًا ونفوه وشمل ذلك حتى الشخصيات السياسية القريبة منه مثل مدام صن يات صن.

شن شباب الثورة الثقافية حملة لتغيير أسماء الشوارع والمباني. فشارع نانجينغ، الذي بناه سيلاس هاردون وكان موطنًا لأفضل أماكن التسوق في الصين، أطلقت عليه تسمية شارع مناهضة الإمبريالية. وأطلق على نهر هوانغبو، الذي جلب السفن التي حملت آل ساسون وغيرهم من الأجانب إلى منطقة البوند، تسمية النهر المناهض للإمبريالية. قام الحرس الأحمر المتطرف بإزالة الشعار الذي يشير إلى اسم كاثاي من أمام الفندق. وقام أفراده بسرقة مقابر المدينة، بما في ذلك المقبرة اليهودية حيث دفن إيلي ولورا، ودمروا شاهد القبر الذي قضى هوراس شهوراً في تصميمه. هاجم المتظاهرون القنصلية البريطانية في منطقة البوند على بعد بنايات قليلة من فندق كاثاي، واقتحموا المجمع ورسموا شعارات معادية لبريطانيا ومؤيدة لماو على الجدران وفوق صورة الملكة. وهاجمت أسراب من الحرس الأحمر، وكانت مؤلفة غالبًا من طلاب المدارس الإعدادية والثانوية، سكان المناطق المحيطة بشنغهاي وضربت أكثر من 10000 شخص، توفي 11 منهم. وانتحر 707 آخرون.

انتشرت الثورة الثقافية إلى هونغ كونغ. بدأ الأمر بإضراب في مصنع للزهور الاصطناعية. أحاط المتظاهرون بمبنى الإدارة الحكومية وقرأوا فقرات من كتاب ماو الأحمر الصغير. بدأ إضراب عام في يونيو. واندلعت أعمال الشغب. في المجموع، قتل واحد وخمسون شخصًا. حدثت 250 هجمة بالقنابل وتم إبطال مفعول 1500 عبوة أخرى.

انحاز لورانس خضوري بشكل طبيعي إلى المؤسسة البريطانية والحكومة الاستعمارية في هونغ كونغ. عندما دعا اليساريون إلى القيام بإضراب في شركة الكهرباء والطاقة الصينية لشل المدينة، أبقى لورانس محطات الطاقة

مفتوحة وأطلق النار على المضربين. واستمر العمل في بناء محطة كهرباء جديدة دون انقطاع.

كان منزل عائلة خضوري في مدينة كولون يتربع على التل قرب مدرسة كان معلموها يدعمون الحرس الأحمر. كان لورانس وعائلته يسمعون التظاهرات والهتافات التي يرددها الطلاب كل صباح. كان الحي يعتبر خطيرًا لدرجة أن أفراد السفارة الأمريكية الذين يعيشون في الجوار تم نقلهم عبر الميناء إلى جزيرة هونغ كونغ. وكان الناس يراقبون بقلق حدود هونغ كونغ مع الصين، متسائلين عما إذا كان الحرس الأحمر سيعبر الحدود ويستولي على المستَعمرة. مع تصاعد أعمال الشغب، حشدت بريطانيا قوات جيشها. وحذر المسؤولون البريطانيون لورانس من أنه إذا عبرت القوات الصينية الحدود، فلن تتمكن القوات البريطانية من الدفاع عن هونغ كونغ لأكثر من ثماني ساعات. غادر هوراس مكتبه ذات يوم في سيارته الرولز رويس، واصطدم بحشد غاضب من المتظاهرين المؤيدين للشيوعية الذين أغلقوا الشارع وكانوا يلوحون بالأعلام. أخرج هوراس رأسه من النافذة وفي لفتة ذكية عرض شراء بعض الأعلام. وافق المتظاهرون وسمحوا له بالمرور.

هل كان التاريخ يعيد نفسه؟ وهل إن هونغ كونغ، مثل شانغهاي، على وشك السقوط في أيدي الشيوعيين؟

عقد لورانس اجتماعًا مع أفراد العائلة، بمن فيهم ابنه مايكل، الذي جاء من أوروبا. تم الاجتماع في المكاتب المؤقتة للعائلة بجوار ناطحة سحاب لم تنته بعد وتطل على المرفأ، وكان مقررًا لها أن تصبح مقر شركات خضوري. كان يبلغ ارتفاعها 24 طابقًا، وكان يمكن رؤيتها في جميع أنحاء المدينة. وقفت طائرتان من طراز بوينج 707 على استعداد لإحضار ألواح الألمنيوم البرونزية إلى هونغ كونغ التي من شأنها أن تغلف السطح الخارجي للمبنى. ولكن مع اندلاع أعمال الشغب في جميع أنحاء هونغ كونغ والصين، تساءل لورانس عما إذا كان ينبغي مواصلة البناء. كان يحلق فوقهم شبح هروب عائلة خضوري من شانغهاي والملايين التي فقدوها. يمكن إلغاء مسألة تغليف المبنى الباهظة الثمن، وإكماله بالحديد والخرسانة مثل باقي المباني الأخرى.

قال لورانس: «يمكننا استخدام مبنى يكون مغلقًا بطريقة عادية وبتكلفة منخفضة للغاية». «انظروا، لا أستطيع التنبؤ بالمستقبل، ونحن لا نعرفه أكثر من غيرنا. لدي ثقة بهذا المكان. لكن لا يكفي أن أحظى بالثقة فقط». يجب أن يكون القرار بالإجماع.

وافق أفراد الأسرة على المضي قدمًا بالمشروع. قال لورانس: «هونغ كونغ مثل كرة مطاطية». «كلما سقطت من مكان أعلى، زاد ارتدادها أكثر». كانت أعمال البناء تجري خلال النهار. أمر لورانس باستمرارها في الليل. كان يجب أن يتم لحام الغلاف، مما يعني أن أقواس الشرر ستتطاير من المبنى والسقف طوال الليل. أعلن لورانس أن كل هونغ كونغ سترى أن «آل خضوري لا يزالون يبنون».

بعد أسابيع قليلة، علم لورانس أن الأمريكيين التقطوا صورًا عبر الأقمار الصناعية للحدود مع الصين وشاهدوا جيش التحرير الشعبي الصيني يتقدم نحو هونغ كونغ. توقف الجنود عند الحدود. اجتاحت الشائعات هونغ كونغ بأن الصين كانت تستعد للغزو. اتصل مايكل بصديق له في السفارة الأمريكية وألقى نظرة فاحصة على الصور. أبلغ والده بسرعة. كان الشيوعيون يبنون منشآت عسكرية، لكنهم كانوا يواجهون طريقًا خاطئًا – ليس باتجاه هونغ كونغ، للتحضير لغزو، ولكن بعيدًا عن هونغ كونغ، لمنع القوات المارقة أو الحرس الأحمر من محاولة غزو المدينة.

كانت هونغ كونغ آمنة في الوقت الحالي.

الفصل العاشر

آخر رواد الأعمال الأجانب

بينما كانت الصين تتراجع كانت هونغ كونغ تتقدم.

في كل يوم من أيام الأسبوع عند الساعة الثامنة صباحًا، كانت هناك سيارتان أجنبيتان فاخرتان تخترقان الشارع انطلاقا من منزل لورانس في شارع خضوري. بعد قيادة سيارته الجاكوار من منزله في بولدر لودج لتناول الإفطار مع شقيقه، كان هوراس يتوجه إلى المكان الأثير إلى قلبه جمعية خضوري لتقديم المساعدات الزراعية الواقعة في تلال الأراضي الجديدة المطلة على الصين أو إلى مكتبه في فندق بينينسولا، حيث يتفحص المفروشات والديكورات الجديدة والإضافات على قائمة المشتريات العالمية التي تمت مناقشتها في اجتماع العائلة. قاد السائق الشخصي للورانس (التايبان أو رائد الأعمال الأجنبي) سيارته الرياضية ام جي MG إلى الرصيف حيث سيستقل لورانس عبارة سياحية. عبر الميناء وتوجه إلى مبنى سانت جورج المكسو بالبرونز، وهو منارة الاستقرار التي باتت مكتملة الآن والتي طمأنت سكان هونغ كونغ خلال أعمال الشغب عام 1967. من ركنه المكسو بالسجاد الأخضر المطل على الميناء، ترأس إمبراطورية العائلة المكونة من شركة الكهرباء والعقارات والمصانع وأنشطة التجارة والتمويل. كانت عائلة خضوري من أوائل العوائل التي تمتلك المليارات في هونغ كونغ. كانت حزم الأموال التي أرسلتها إلى الخارج في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي مع اللاجئين للاستثمار في أستراليا والولايات المتحدة وجنوب إفريقيا قد تضاعفت في المباني الإدارية ومراكز التسوق في الخارج. في

هونغ كونغ، وسع لورانس شبكة الكهرباء في المدينة وأسس مشاريع متنوعة مثل نفق الميناء، وبحث هوراس، على استيراد سلالة أقوى من الخنازير. كتبت صحيفة وول ستريت جورنال في عام 1977. «تضاء الشقق بواسطة شركة الكهرباء التي يملكها آل خضوري وغالبًا ما تكون مفروشة بالسجاد المصنوع في معاملهم». كان بناء النفق أسفل ميناء هونغ كونغ (الذي يربط جزيرة هونغ كونغ مع كولون والأراضي الجديدة) هو فكرة من أفكار آل خضوري. ومن خلال برنامج زراعي ممول من آل خضوري، فإن الكثير من لحم الخنزير والدجاج هنا يحمل علامة شركاتهم. ازدهرت هونغ كونغ بدعم من شركة الكهرباء التي يمتلكها لورانس، وجنبتها المزيد من الاضطرابات السياسية. انضمت هونغ كونغ إلى مجموعة «النمور الآسيوية» التي حققت نموًا اقتصاديًا عاليًا، واحتضنت مزيجًا من اقتصاديات السوق الحرة والحكم الاستعماري الذي أدى إلى تحسين التعليم، وتوسيع الإسكان، وإبقاء البطالة منخفضة. بحلول سبعينيات القرن الماضي، كان دخل الفرد في هونغ كونغ أعلى بعشر مرات من دخل الفرد في الصين. وكان لديها خامس أكثر الموانئ ازدحامًا في العالم؛ ولو كانت دولة، لكانت في المرتبة الخامسة والعشرين على مستوى العالم بين الاقتصادات التجارية. غذى التلفزيون والراديو والصحافة النابضة بالحياة تطلعات سكانها المبدعين والمعولمين بشكل متزايد، وشهدت صناعة سياحية مزدهرة، وأصبحت رائدة في صيحات الموضة وإنتاج الأفلام العالمية. تفاخر لورانس بأنه يسيطر فعليًا على 10 في المائة من اقتصاد هونغ كونغ، حيث اعتمد كل مصنع تقريبًا عليه في مسألة الحصول على الكهرباء، كما هو حال ملايين العملاء المقيمين فيها.

طوال الاضطرابات التي شهدتها الصين، وحتى أثناء أعمال الشغب التي يحث عليها الشيوعيون في هونغ كونغ، كان لورانس حريصًا على عدم قول كلمة سيئة عن الصين. رفضت الصين الاعتراف بـ«المعاهدات غير القانونية» التي أعقبت حروب الأفيون والتي سلمت بموجبها هونغ كونغ إلى البريطانيين، تاركة تهديدها مفتوحًا بأنه يمكن أن تسيطر على هونغ كونغ في أي وقت. لكنها لم تفعل، لأن هونغ كونغ كانت مفيدة. ومثلما كانت شانغهاي في وقت سابق من هذا القرن، أصبحت هونغ كونغ نافذة

الصين على الغرب. لقد مثلت وسيلة الصين للقيام بأعمال تجارية مع الشركات الغربية والحصول على العملة الأجنبية دون أن تجعل الصين تتأثر بالرأسمالية. كانت الصين بحاجة إلى مكان تستطيع فيه «القيام بأشياء لا تسمح لمواطنيها القيام بها»، كما يعتقد لورانس، مثل التعامل مع المصرفيين الغربيين والاستثمار في العقارات. «مستقبلنا يعتمد على كوننا مفيدين للصين وهذا هو السبب الوحيد لوجودنا هنا». وحذر زملاءه من رواد الأعمال الأجانب من الغطرسة التي أظهرها رجال الأعمال في الأربعينيات. كان هذا النوع من المواقف في شانغهاي هو الذي «أسقط ستار البامبو[1]».

حرص لورانس على إدامة ما يمكنه من الاتصالات مع الصين. واستمر في إرسال الأموال إلى الخدم المسنين في شانغهاي الذين سبق لهم أن خدموا في القصر العائلي لآل خضوري. كما أرسل ممثلين عنه لعقد اجتماعات غير رسمية مع مسؤولين في وكالة أنباء الصين الجديدة، التي كانت تمثل السفارة الصينية غير الرسمية في هونغ كونغ. وكان يعبر علنًا، عن تفاؤله المستمر بشأن مستقبل هونغ كونغ وإيمانه بأنه سيعود يومًا ما إلى شانغهاي. أمام الأصدقاء والأشخاص الذين يزورونه في عطلات نهاية الأسبوع في منزله، كان أحيانًا يتحدث عن سنوات الحرب، والموت المهين لوالده فوق إسطبلات قصر العائلة. كانت مقطوعة لورانس الموسيقية المفضلة تعود إلى سنوات الحرب التي قضاها في السجن في شانغهاي وهي: السيمفونية الخامسة لبيتهوفن، مع نغمة افتتاحيتها الشهيرة «دا دا دوم». كان لورانس يستمع إلى تلك النغمة كل ليلة تقريبًا في الأيام الأخيرة من الحرب، ويتسلل من الغرفة الواقعة فوق الإسطبلات إلى صالة الاستقبال في قاعة القصر العائلي. كانت تلك النغمات هي التي استخدمتها هيئة الإذاعة البريطانية للإعلان عن بثها كل ساعة. كان لورانس يعتقد أن النغمات والموسيقى القوية التي تلتها كانت صوت ضربات القدر. وكان يعتقد أن الحرب كانت مصيره وأنها علّمته كم هو قليل الحيلة. في عام 1970، سألت إحدى الصحف لورانس عما إذا كان صحيحًا أنه يمتلك جهاز كمبيوتر بحجم غرفة، وأنه بعد إدخال

1- حد سياسي في الحرب الباردة بين الدول الشيوعية في شرق آسيا خصوصًا الصين وبين الدول الرأسمالية وغير الشيوعية في شرق وجنوب وجنوب شرق آسيا-م

جميع البيانات التاريخية والسياسية ذات الصلة فيه، كان يعرف بالفعل الشهر الذي ستستعيد فيه الصين هونغ كونغ - أو فيما إذا كان ذلك سيحدث. أجاب: «أخشى أن تكون قد تلقيت معلومات مضللة عن قدراتي وقصة الكمبيوتر». «لا أحد منا يعرف ما يخبّئ له القدر».

أما في الصين، فقد كانت البلاد في حالة من الذعر بعد قيام الثورة الثقافية. كان متوسط دخل الفرد للفلاحين الصينيين، الذين يشكلون 80 في المائة من السكان، 40 دولارًا في السنة. أصبح إنتاج الفرد من الحبوب أقل مما كان عليه في عام 1957. لم يتم تحديث التكنولوجيا في المصانع منذ الخمسينيات. وتم إغلاق الكليات لمدة عقد كامل. من وسط هذا الخراب والركام، ظهر رجل ضئيل الجسم في الستينيات من عمره -أصغر بسنوات قليلة من لورانس خضوري- كان يعاني من صعوبة في السمع ومدخنًا شرهًا يدعى: دينغ هسياو بينغ. كان ثوريًا شيوعيًا مخضرمًا وقاسيًا، وقد صعد دينغ إلى قمة القيادة الصينية بعد عام 1949 ثم تم استبعاده أثناء حملات التطهير التي رافقت الثورة الثقافية وتم طرده إلى الريف. وهناك بدأ يرعى ابنه الذي أصيب بالشلل بعد أن ألقى به الحرس الأحمر من النافذة. كان عاقدًا العزم على النهوض بالصين مرة أخرى، فكان يرى أن «نمور» آسيا الاقتصادية مثل اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وحتى هونغ كونغ تتفوق على الصين. كان دينغ وحلفاؤه مصممين على إطلاق العنان لإمكانات الصين وإنهاء عزلة بلادهم من خلال تطوير علاقات جيدة مع الدول الأخرى التي من شأنها مشاركة التكنولوجيا والخبرة مع الصين. بدأ ذوبان الجليد في عام 1972، عندما زار الرئيس ريتشارد نيكسون الصين وبدأ في استعادة العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية. في نهاية زيارته، بحث الصينيون عن مكان للتوقيع على إعلان شانغهاي لتطبيع العلاقات بين الولايات المتحدة والصين. اختاروا أحد الأماكن القليلة الأنيقة المتبقية في شانغهاي - قاعة رقص في مبنى هاملتون هاوس القديم، وهو مبنى سكني فاخر بناه فيكتور ساسون في ثلاثينيات القرن الماضي.

بحلول عام 1973، عاد دينغ إلى السلطة وبدأ في إعادة تأهيل العديد من الرأسماليين القدامى في شانغهاي الذين تم تطهيرهم وإرسالهم إلى المنفى بعيدًا عن شانغهاي خلال الثورة الثقافية - بمن في ذلك رونغ يرين، سليل

عائلة رونغ، الذي ظل في شانغهاي.، حيث صعد إلى مناصب عليا في الحكومة، ثم تم تطهيره من قبل الراديكاليين. في غضون ذلك، فر أفراد عائلة رونغ إلى هونغ كونغ وأسسوا أعمالاً مشتركة مع عائلة خضوري. استغل دينغ رونغ لقيادة جهود الصين لجذب الاستثمار الأجنبي وإعادة تأهيل الصناعة الصينية. أصبح معروفًا باسم «الرأسمالي الشيوعي» المفضل لدينغ. كما عادت مدام صن يات صن إلى الظهور أيضًا، وكانت تمثل رابطًا حيًا لماضي شانغهاي العالمي حين كانت تقيم الحفلات الخيرية في قاعة القصر العائلي ثم استولت على القصر عندما تولى الشيوعيون زمام الأمور. وأشارت باستحسان إلى أن لورانس قد وافق على تسليم القصر دون قتال قانوني أو معركة عامة وكان دائمًا لا يقبل انتقاد الصين حين كان الأجانب الآخرون يستنكرون تصرفات الحكومة الشيوعية. وفجأة أصبح لعائلة خضوري صديقان في مراكز السلطة في بكين.

بعد فترة وجيزة من زيارة نيكسون المفاجئة إلى الصين، اتصل ممثل الحكومة الصينية بلورانس وسأله عما إذا كان سيساعدهم في التفاوض بشأن شراء وبناء مفاعلين نوويين لأول محطة طاقة نووية تجارية في الصين. قال الممثل للورانس: «أنت معتاد على بناء محطات الطاقة من خلال عملك في هونغ كونغ». «ونحن نقدر مساعدتك». بعد سنوات قليلة، كشف دينغ النقاب عن برنامج «التحديثات الأربعة»، وهو برنامج طموح بشكل مذهل لتجديد شباب الاقتصاد الصيني بمساعدة أجنبية وتحديث الزراعة والصناعة والدفاع الوطني والعلوم والتكنولوجيا.

لطالما حلم لورانس ببيع الكهرباء إلى الصين. في الثلاثينيات من القرن الماضي، اقترح هو ووالده صنع أسلاك كهربائية عالية الجهد تمتد من هونغ كونغ إلى كانتون، لكن عدم الاستقرار السياسي في الصين وغزو اليابانيين قضيا على الخطة. تواجه الصين الآن واقعًا صارخًا. لم يكن لديها القوة الكافية لتشغيل جميع المصانع التي خططت لبنائها. فتحت المكالمة الهاتفية من بكين الباب أمام لورانس. في فبراير 1974، عقد اجتماعًا سريًا مع الحاكم البريطاني لهونغ كونغ، السير موراي ماكليهوز. وكشف النقاب عن خطته. إن عائلة خضوري، التي قدمت لأول مرة إلى الصين على متن

البواخر وجلبت الكهرباء إلى الأقاليم الريفية الجديدة، ستنقل الصين الآن إلى العصر النووي.

بالنسبة للورانس، كان هذا يعني ان الحظ يطرق أبوابه. على الرغم من ولائه لبريطانيا العظمى وحياته في الصين، لم يشعر لورانس قط بأنه في وطنه سواء في شانغهاي أو لندن. وبطبيعة الحال، طرده الشيوعيون من الصين. كان يعتقد أنه وجد قبولًا في هونغ كونغ في الخمسينيات من القرن الماضي حين جعلها موطنًا له وساعد في إعادة بناء المدينة وتم تعيينه في مجلس إدارة بنك هونغ كونغ وشنغهاي، قمة المؤسسة التجارية والاجتماعية في المستعمرة. لم يكن أي رجل أعمال بريطاني في هونغ كونغ ثريًا مثل لورانس أو يمتلك شركة ذات نفوذ مثل شركة الطاقة والكهرباء الصينية.

لكنه كان مخطئاً.

في عام 1967، عندما اندلعت أعمال الشغب التي كان وراءها الشيوعيون في هونغ كونغ وعرّضت مستقبلها للخطر، قرر بنك هونغ كونغ وشنغهاي تنويع وتوسيع قاعدته من خلال شراء بنك عربي، هو بنك الشرق الأوسط. كان الشرق الأوسط في حالة اضطراب أيضًا. أطلق انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة العنان لظهور مشاعر معادية لإسرائيل ومعاداة لليهود بين الحكومات ورجال الأعمال العرب. مدفوعًا بهذا العداء المتزايد للسامية، طالب بنك الشرق الأوسط بإزالة لورانس –رجل الأعمال اليهودي البارز– من عضوية مجلس إدارة أصحابه الجدد. تم تأسيس بنك هونغ كونغ وشنغهاي من قبل عائلة ساسون، وكان آل خضوري عملاء ومستشارين فيه منذ فترة طويلة، وبلغوا ذروة نفوذهم بتعيين لورانس في مجلس الإدارة. لكن البعض في البنك لم يتوقف قط عن السخرية من يهودية آل خضوري والتنفيس عن ذلك من خلال التعليقات المعادية للسامية.

عندما التقى رئيس البنك مع لورانس، الذي كان عضوًا بارزًا في مجلس الإدارة، وافق على تقديم استقالته، قائلاً إنه لا يريد أن يصبح عائقًا أمام أعمال البنك. كان بعض المسؤولين في البنك يتهامسون سرًا فيما بينهم ويشيرون إلى خضوري على أنه «ذلك اليهودي القذر».

على الرغم من أن موظفيه حثوه على الانتقام من خلال وقف جميع أعماله التجارية مع البنك، إلا أن لورانس أغلق بعض الحسابات فقط. بدأ التعامل مع بنك منافس، لكنه استمر في الحفاظ على اتصالات شركة الطاقة والكهرباء الصينية مع البنك، بحجة أنه إذا انتقل إلى بنك آخر، فسيؤدي ذلك إلى إزعاج ملايين العملاء الذين لم يكونوا طرفًا في النزاع.

والآن مع انفتاح الصين، رأى أن هناك فرصة لإثبات جدارته، وتوسيع سلطته، واستعادة دور آل خضوري كجسر يوصل بين الصين والغرب.

وهو يقترب من الثمانين، استعد الأسد العجوز للقيام بنشاطه الأخير.

في 26 مايو 1978، قبل خمسة أيام فقط من بلوغه التاسعة والسبعين من عمره، جلس لورانس في غرفته في فندق بكين -أفضل فندق للضيوف الأجانب- وكتب على ورق الفندق نصًا كانت كلماته تتدفق بسلاسة بعثه إلى رئيس الوزراء البريطاني جيمس كالاهان. فقد عاد إلى الصين بعد أكثر من ثلاثين عامًا: -

«في الفترة القصيرة التي قضيتها هنا، وبصفتي أمتلك خبرة طويلة في التعامل مع الصين، فإنني معجب بالتحسن الذي طرأ على مستوى المعيشة. «يشعر المرء أنه بات لدى الناس هدف وغاية في الحياة. وبالطبع، بالنظر إلى عدد سكان الصين الهائل، لا يمكن للمرء أن يتوقع حدوث تغيير سريع للغاية من اقتصاد الدراجات الهوائية الحالي إلى عصر الطائرات النفاثة». ومع ذلك، توقع لورانس أن هناك «فرصة جيدة» لأن يحقق الصينيون أهدافهم بحلول عام 2000 وأنهم على وشك أن يصبحوا اقتصادًا عالميًا رئيسيًا.

ثم شق لورانس طريقه إلى شانغهاي. كان عصبيًا بشكل غير معهود. استمر في إرسال الأموال إلى العديد من خدم عائلته، حتى بعد سقوط شانغهاي، على الرغم من أنه لم يكن من الواضح ما إذا كانوا قد تلقوا الأموال خلال الثورة الثقافية. كان قد سمع أن العديد منهم قد عوملوا معاملة سيئة لأنهم عملوا لدى «مستعمرين أجانب». طلب لورانس رؤية لينغ ينغ، الخادم الذي كان الأقرب إليه عندما كان شابًا، والذي عمل كمسؤول صيني عن القصر العائلي بعد أن غادر هوراس. أحضر الصينيون لينغ ينغ، الذي

أصبح الآن رجلًا عجوزًا أيضًا، لمقابلة لورانس، ووقع الاثنان بعضهما في أحضان بعض. كان لينغ ينغ حذرًا. كان يمكن أن يجتمع الاثنان على انفراد، لكن الجميع افترض أن الاجتماع تم تسجيله سراً. قال لورانس لابنه مايكل في وقت لاحق: «الجميع يغني نفس اللحن». كان لينغ ينغ خائفًا جدًا من التحدث بصراحة.

ثم تم اصطحاب لورانس لرؤية قبور والديه، إيلي ولورا. كان يعلم أن المقبرة اليهودية القديمة في شانغهاي التي دفن فيها إيلي عام 1944 لم تعد موجودة. قام الحرس الأحمر بنهبها وتدميرها خلال الثورة الثقافية. وبدلاً من ذلك، نُقل لورانس إلى مقبرة «أجانب» جديدة. كان هناك القبر الذي صممه هوراس عندما كان الشيوعيون يحاصرون شانغهاي – أو ربما كان نسخة طبق الأصل منه. لم يشاهد هوراس ولا لورانس القبر من قبل، لأن هوراس هرب من شانغهاي قبل تشييده. وسواء كان ذلك صحيحًا أم لا، فقد أظهر شاهد القبر أن شخصًا ما في الحكومة الصينية، حتى أثناء الثورة الثقافية، وبالتأكيد الآن في عهد دينغ شياو بينغ، كان يهتم بما يكفي للحفاظ على قبر خضوري، معتقدًا أن العلاقة التي كانت قائمة مع آل خضوري كانت تستحق الحفاظ عليه أيضًا. ومثلما ان أمْر لورانس بمواصلة البناء في مبنى سانت جورج في عام 1967 قد أرسل وابلًا من الشرر المرئي عبر هونغ كونغ، أرسل شاهد القبر إشارة أيضًا.

عاد لورانس إلى هونغ كونغ ممتلئًا بالخطط والأفكار. كتب إلى رئيس الوزراء كالاهان يجدد مناشدته من أجل تنفيذ خطة طموحة لبيع الكهرباء لمقاطعة كوانغدونغ، المنطقة الصينية المتاخمة لهونغ كونغ، والحصول على عقود للشركات البريطانية لتسيير خطوط للنقل. كان السكرتير الخاص لكالاهان حذرًا، فكتب إلى رئيسه أن لورانس «أثبت أنه صديق لا يقدر بثمن لهذا البلد.... ومع ذلك، نحتاج أيضًا إلى تجنب منحه تفويضًا مطلقًا لإلزام المملكة المتحدة بمخططات من ابتكاره بالكامل». وافق مسؤول آخر على الأمر، في رسالة مفادها أن «أي شيء يتعلق بالصين يبدو أنه يطور زخمًا لا يقاوم». لكن الصين كانت تتحرك بسرعة لاستعادة علاقاتها مع الغرب. فأعادت خدمة القطارات من كانتون إلى هونغ كونغ وبدأت خدمة

الرحلات الجوية المباشرة وتسيير القارب المحلق بين المدينتين. تمت دعوة دينغ ماكليهوز، حاكم هونغ كونغ، لزيارة بكين. وطمأنه إلى أن الصين ملتزمة بالإصلاح وفتح الاقتصاد أمام الاستثمار الأجنبي، وأن مستثمري هونغ كونغ يجب أن «يريحوا عقولهم». ارتفعت سوق الأسهم. ربما كان المسؤولون البريطانيون متشككين. لكن لورانس، «الخبير المخضرم بأمور الصين»، كان واثقًا بالمستقبل. إذ أعلن: «إذا كان السيد دينغ قادرًا على إبقاء البلاد في مسارها الحالي على مدى السنوات الخمس المقبلة، فأنا على ثقة من أن الزخم الذي تم إنشاؤه سيجعل برنامج التحديث الصيني قادرًا على الاستمرار في ظل زخمه الخاص».

لكن كانت هناك قضية أكبر تلوح في الأفق. فمع انفتاح الصين على الغرب وسعيها للانضمام إلى الاقتصاد العالمي، بدا يقترب كثيرًا وبشكل مفاجئ موعد انتهاء عقد إيجار الأقاليم الجديدة[1] في عام 1997. ولا يمكن أن تصبح هونغ كونغ تهديدًا أجنبيًا كبيرًا -أو مجرد «بثرة رأسمالية على مؤخرة الصين»، كما كان الشيوعيون يسمونها- بل إنها تشكل بدلاً من ذلك إضافة مربحة إلى قوة اقتصادية عظمى. يمكن للصين أن تستولي على هونغ كونغ بسلام ودون ضجة بمجرد الانتظار حتى عام 1997 عندما ينتهي عقد الإيجار وكان على بريطانيا -بشكل قانوني- إعادتها إلى الصين. كان من المستحيل تخيل إعادة 4 ملايين شخص يعيشون هناك إلى الصين، والأرض التي تمثل 80 في المائة من أراضي هونغ كونغ، وجميع البنية التحتية التي بناها آل خضوري وغيرهم، وأن تتمكن بقية أراضي هونغ كونغ من العيش. كان الوقت يمضي سريعًا على هونغ كونغ، تمامًا كما كان يمضي على شانغهاي.

وكما كان لورانس يرسم الخطط في بكين وهونغ كونغ، فإن مارغريت تاتشر كانت ترسم الخطط لتقود حزب المحافظين الذي تتزعمه إلى النصر وقد نجحت في ذلك وانتُخبت رئيسة للوزراء.

1- واحدة من المناطق الرئيسية الثلاث من هونغ كونغ، إلى جانب جزيرة هونغ كونغ وشبه جزيرة كولون-م

لقد كان تحولًا مفاجئًا للأحداث بالنسبة للورانس. لقد كان نوعًا من رجال الأعمال الذين يشبهون تاتشر -فقد كان صريحًا، وعمليًا، ورجلًا أجنبيًا يحب التفكير بشكل كبير. بعد لقائها بالرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف، أعلنت تاتشر أن غورباتشوف كان شخصًا يمكنها «التعامل» معه. كان لورانس شخصًا يمكنها التعامل معه أيضًا. أعجبت تاتشر بسياسات السوق الحرة الاقتصادية التي قادت هونغ كونغ إلى النجاح. زارتها لأول مرة قبل عامين؛ وكانت نموذجًا لما أرادت أن تكون عليه بريطانيا- فالقيود على النشاط التجاري فيها منخفضة، والضرائب منخفضة، والأنشطة التجارية مضمونة بسيادة القانون، ويديرها إداريون بريطانيون صادقون وفعالون. كتب لورانس رسالة تهنئة إلى تاتشر بعد فترة وجيزة من انتخابها، وخططا لإجراء لقاء بعد ثلاثة أشهر في مكتبها في 10 داونينغ ستريت. أعدها مساعدوها للاجتماع من خلال وصف لورانس بأنه «شخص ثمانيني رائع ويُعتقد أنه أحد أغنى الرجال في العالم... عاشق للغة الإنكليزية ومراقب عظيم لأحوال الصين.. وأنه استراتيجي كبير.... ويرى أن الصين أصبحت قوة سياسية واقتصادية عالمية كبرى». كانت خطة لورانس بالفعل استراتيجية كبرى. لقد أراد من بريطانيا العظمى أن تدعم بناء محطة نووية توفر الطاقة لكل من هونغ كونغ وجنوب الصين. وحيث لم يتبقّ سوى ثمانية عشر عامًا على تسليم هونغ كونغ، ستبدأ الخطة في ربط الاثنين وتظهر قيمة هونغ كونغ الصين. سيستمر العقد المقترح حتى القرن المقبل، بعد فترة طويلة من انتهاء عقد الإيجار. وسيُظهر بشكل ملموس أن هونغ كونغ يمكن أن تكون «جزءًا من الصين تحت الإدارة البريطانية» تمامًا كما كانت منطقة التسوية الدولية في شانغهاي ذات يوم منطقة تجارية مزدهرة في الصين يديرها البريطانيون. وإذا كانت دبلوماسية كرة الطاولة قد استطاعت إحداث تقارب بين جمهورية الصين الشعبية والولايات المتحدة، فلماذا لا تستطيع محطة طاقة نووية... أن تكون عاملاً رئيسياً في حل مشكلة هونغ كونغ، هكذا كان يأمل لورانس.

ردت تاتشر على لورانس بحماس. على العكس من الحذر الذي كان يتسم به رد فعل كالاهان، وحذفت بقلمها مسودة رسالة كتبها مساعدوها، واستبدلت لغتها المهذبة وغير الملتزمة بالدعم الحماسي. ثم قامت

بشطب جملة تصف المناقشة بأنها «مفيدة للغاية» وكتبت بدلًا عن ذلك أنها «استمتعت» بها. واستبدلت عبارة «كما قلت من قبل، ستواصل وزارة الصناعة التزامها بدعم جهودك» إلى «أن الآفاق المثيرة... والفرص التي تتيحها لنا الصين يجب اغتنامها. أنت تمتلك فهمًا واسعًا لأوضاع الصين الداخلية وأنا أعلم أنك لن تفقد زمام المبادرة». في غضون أشهر، كان لورانس في مدينة غوانغتشو، كانتون سابقًا، التي كان والده يحلم بإيصال الطاقة الكهربائية إليها في الجزء الأول من القرن. خلال المفاوضات، أحضر الصينيون سجلات الاجتماعات التي عقدها المسؤولون الصينيون مع إيلي في عشرينيات القرن الماضي. وقع لورانس اتفاقًا، يسمح للصين بالاستفادة من الكهرباء التي تنتجها شركة الكهرباء والطاقة الصينية. في غضون ثلاثة أشهر، كانت الكهرباء تتدفق عبر الحدود. أعلن لورانس «لطالما كنت أتوق إلى تنفيذ هذه الفكرة على مدار الخمسين عامًا الماضية، ويسعدني بشكل خاص تحقيق ذلك وقد دخلت عامي الثمانين».

من بعض النواحي، لا يمكن أن يكون هناك توقيت أسوأ من ذلك الذي قدم فيه لورانس فكرته عن بناء محطة نووية. كان المحققون الأمريكيون يجرون تحقيقاتهم في الحادث الذي وقع في جزيرة الثلاثة أميال، والمقصود به الانهيار الجزئي لمفاعل في محطة للطاقة النووية في ولاية بنسلفانيا عام 1979، وأوقف بناء المحطات النووية. وقع مليون شخص من سكان هونغ كونغ في نهاية المطاف على عريضة تعارض بناء محطة نووية بالقرب من هونغ كونغ لأسباب تتعلق بالسلامة. ورفض لورانس تلك المخاوف. وكتب ردًا على ذلك: «يشعر بعض الناس أن وجود محطة للطاقة النووية أمر خطير، وأنه لا ينبغي استخدامها بالقرب من المدن». وأنا أختلف مع هذا الطرح. ستكون المحطة النووية المقترحة الواقعة على طول خليج دايا في الصين، الممتد على الحدود مع هونغ كونغ، أكبر استثمار أجنبي على الإطلاق في الصين الشيوعية، وتشجيعًا قويًا لإبقاء الصين على مسار التحديث. بعدها قامت تاتشر بدعوة لورانس إلى لندن لحضور مأدبة عشاء رسمية تكريمًا لخليفة ماو المختار بعناية، هوا جوفينغ، الذي كان يزور أوروبا لأول مرة. كان لورانس «معجبًا جدًا» بلقائه بالزعيم الصيني الفخري، على الرغم من

أن دينغ شياو بينغ كان يناور بالفعل ليحل محله. وجد لورانس أن هوا «على دراية جيدة بما يحدث في العالم» ومتشوق «للحفاظ على الازدهار الذي نتمتع به الآن والحفاظ عليه، وتوسيعه ومساعدته على النمو». في اجتماع خاص مع زعيم صيني رفيع المستوى في غوانغدونغ، تم ابلاغ لورانس أن القيادة الصينية بأكملها، بما في ذلك دينغ شياو بينغ، حريصة على نجاح المشروع. قال لورانس لتاتشر: «قد يحدد ذلك مستقبل هونغ كونغ الذي كنا نتحدث عنه».

في عام 1981، بدأ النقاش الرسمي بين الصين وبريطانيا حول ما سيحدث في عام 1997 عندما ينتهي عقد الإيجار الخاص بمنطقة الأقاليم الجديدة في هونغ كونغ. كان ماكليهوز، الحاكم الاستعماري لهونغ كونغ، يعتقد أن هونغ كونغ بحاجة إلى تمثيل أقوى في لندن. واقترح على تاتشر أن تسمي لورانس، الذي يحمل لقب سير، ليصبح أول عضو يمثل هونغ كونغ في مجلس اللوردات. رغم أن المجلس كان ذا تأثير محدود. لكن تعيين لورانس سيمنحه مكانة رفيعة في نظر سكان هونغ كونغ والحكومة الصينية، ومنبرًا للدفاع عن هونغ كونغ مع اقتراب موعد التسليم في عام 1997. كان لورانس قد كسب تأييد تاتشر من خلال تقديم طلبات ضخمة للمعدات الكهربائية إلى المصانع البريطانية. وافقت تاتشر على الفكرة، وفي عام 1981 أنعمت الملكة إليزابيث على لورانس بلقب «البارون خضوري ممثل كولون وهونغ كونغ». في الوقت نفسه، عينت الحكومة الصينية لورانس في «اللجنة الاستشارية» التي ستضع القوانين التي ستحكم هونغ كونغ بعد عام 1997. أصبح لورانس هو من يترأس اجتماعات الحكومتين الصينية والبريطانية أثناء تفاوضهما بشأن مصير هونغ كونغ. أعلن لورانس: «كل ما أعمله من أجل مصلحتي، سيصب في مصلحة هونغ كونغ لأنه إذا أخطأت هونغ كونغ فلن أستطيع البقاء». «لذلك أنا أعمل من أجل هونغ كونغ للحفاظ على الظروف التي جعلت من مصلحتي البقاء هنا». أطلقت إحدى الصحف الصينية في هونغ كونغ على لورانس لقب «ملك كولون»

مع انفتاح الصين، بدأ المزيد والمزيد من تاريخ شانغهاي يعيد نفسه.

في عام 1979، فاجأ وزير الخزانة الأمريكي مايكل بلومنتال المسؤولين

الذين كان يلتقي بهم في بكين عندما بدأ في التحدث إليهم باللغة الصينية - وبلهجة شانغهاي.

اندفع مسؤول صيني قائلًا: نحن نعلم أنك يهودي. لكن هذه مفاجأة.

أوضح بلومنتال الأمر له من أنه كان لاجئًا في شانغهاي خلال الحرب العالمية الثانية. وكان قد التحق بمدرسة خضوري وتعلم اللغة الصينية من الجيران ومن خلال الوظائف البسيطة التي كان يعمل بها عندما كان مراهقًا.

ثم أخبر بلومنتال مضيفيه بلهجة شانغهاي: أستطيع أن أتذكر كلمات شانغهاي القديمة أكثر منكما.

اتصل مسؤولو بكين بسرعة بالمسؤولين في شانغهاي. أحاط الشيوعيون بالكتمان قصة لاجئي شانغهاي وحي اليهود (الغيتو) في هونغكيو. تحولت مدرسة خضوري إلى مصنع، والمعابد اليهودية تحولت إلى مستشفيات للأمراض العقلية أو مستودعات. انتقلت العائلات الصينية إلى الشقق التي كان يسكنها آل رايسمان وآخرون. كانت لا تزال بعض مقابض الأبواب تحتوي على آثار للمزوزاه[1] التي علقها اللاجئون هناك-. لكن هذه كانت العلامة الوحيدة لما حدث قبل أربعين عامًا. أخبر بلومنتال المسؤولين الصينيين في بكين أنه يريد زيارة منزله القديم في شانغهاي. قال الصينيون إن ذلك سيكون مستحيلاً. لم يكن الصينيون يعرفون مكانه. حتى إن معظم المباني في منطقة البوند كانت لا تزال مغلقة أمام الزوار الأجانب. فأخبرهم بلومنتال: «سأريكم مكانه». وهكذا، اصطحب بلومنتال في رحلة جانبية إلى شانغهاي، مجموعة من مسؤولي شانغهاي على طريق تشوسان إلى رقم 59، عبر ممر مظلم، وخرجوا إلى فناء معتم. وأشار إلى الطابق الثاني، الذي كان يحوي شقة من غرفتين كان قد تقاسمها مع والده وشقيقته من عام 1943 إلى عام 1945. ثم قال: «لقد كان الطريق طويلاً من هنا». عندما خرجوا من المبنى اصطحب المسؤولين الصينيين إلى موقع سينمائي قديم قريب. وأخبرهم قائلًا: «كنت أذهب إلى السينما كثيرًا، وأحلم»

حين عاد الرسام الأمريكي بيتر ماكس إلى شانغهاي قال إنه كان يأمل في

1- تميمة أو رقية تعلق على أبواب الأسر اليهودية-م

العثور على «amah» وهو لقب خادمته الصينية، التي كانت أول من علمه الرسم. وأعلن مايكل ميدافوي، الذي كان حينها مخرجًا في هوليوود، عن رغبته في صنع فيلم عن لاجئي شانغهاي.

بدأ اللاجئون الآخرون وأطفالهم بالعودة أيضًا، واشتركوا في جولات رسمية منظمة بشكل صارم في الصين ويتسللون خفية لزيارة شققهم السكنية القديمة في حي هونغكيو. وكجزء من برنامج «التحديثات الأربعة»، كان لدى مخططي مدينة شانغهاي طموحات لإعادة تطوير المدينة وكانوا يفكرون في إزالة حي هونغكوي واستبداله بناطحات سحاب ومساكن جديدة. ولكن مع قدوم المزيد والمزيد من اللاجئين والسائحين والمطالبة برؤية الحي، أدرك الصينيون قيمته التاريخية ووضعوا خططًا لوضع علامات تاريخية في منزل بلومنتال وبناء متحف للاجئين اليهود في كنيس هونغكيو القديم.

أما وراء الكواليس، فكانت الصين تستخدم اللاجئين أيضًا لبناء علاقة عسكرية مهمة. في عام 1979، عندما كانت الصين تنفتح على العالم، اندلعت حرب حدودية استمرت سبعة وعشرين يومًا مع فيتنام حول حدود متنازع عليها. على الرغم من امتلاكها جيشًا أكبر بكثير من جيش فيتنام، فإن الصين تعرضت للهزيمة والإذلال. أدرك الصينيون أنهم بحاجة إلى تحسين قدرتهم على تدمير الدبابات الفيتنامية الروسية الصنع. وفي لقاءاتهم مع وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر، أثار الصينيون إمكانية شراء أسلحة أمريكية مضادة للدبابات. فأبلغهم كيسنجر أن ذلك مستحيل. لكنه أشار إلى أن هناك دولة أخرى حققت نجاحًا كبيرًا في هزيمة الدبابات السوفيتية –وهي إسرائيل، التي هزمت العرب ودباباتهم الروسية مرارًا وتكرارًا في حروب في الشرق الأوسط في عام 1967 وهزمتهم مرة أخرى في عام 1973. وبينما كان الصينيون يبحثون في تاريخ اللاجئين، علموا أن شاؤول أيزنبرغ، الملياردير ورئيس إحدى أكبر الشركات الإسرائيلية وتاجر الأسلحة الدولي، كان لاجئًا في شانغهاي. وفي وقت متأخر من إحدى ليالي شهر فبراير 1979، أقلعت طائرة من طراز بوينغ 707 لا تحمل أي علامات من مطار بن غوريون في تل أبيب متجهة إلى مدينة غوانزو في الصين، ثم إلى قاعدة عسكرية في ضواحي بكين. وكانت تحمل على متنها وفدًا من مسؤولي وزارة الدفاع الإسرائيلية

وعددًا من الصناعيين بقيادة أيزنبرغ. بعد سلسلة من الاجتماعات الأولية مع الصينيين، عاد أيزنبرغ إلى إسرائيل وفي جعبته قائمة من المشتريات التي طلبتها الصين وكانت تتضمن- صواريخ، ورادارات، وقذائف مدفعية، ومدرعات. وغالبًا ما كان يسافر على متن طائرات سلاح الجو الإسرائيلي، التي تمت إزالة شارات نجمة داود الزرقاء منها لإبقاء مهامها سرية. على مدى العقود التالية، أصبحت إسرائيل واحدة من أكبر موردي الأسلحة للصين، وأصبحت الصين أكبر شريك تجاري لإسرائيل في آسيا.

واصل لورانس وهو في مناصبه الجديدة في لندن وبكين، الدفع باتجاه تحقيق رؤيته في بقاء هونغ كونغ تحت السيطرة البريطانية حتى لو تولى الصينيون السيادة رسميًا. كان حريصًا على مدح قادة الصين، مبديًا تفضيله لوجود رجال أقوياء يمكنهم تحقيق الاستقرار الذي من شأنه أن يكون مفيدًا للاستثمار الأجنبي والنمو. قال لورانس في عام 1983. «أعتقد أن الطريقة التي تمكنوا بها من السيطرة على البلاد كانت رائعة. يجب أن يتم التحكم في هذه الكتلة من الناس من قبل يد صارمة للغاية حتى لا تنقسم إلى شتى أنواع الطوائف». وجادل بأن هونغ كونغ يمكن أن تكون مفيدة للصين الجديدة الناشئة. وقال للصينيين: «إن الصين في تلك الفترة من التطور في التاريخ عندما تريد أن يكون الغرب قريبًا منها». «قد لا تحتاجها في غضون 50 عامًا ولكنها الآن بحاجة إليها وستظل بحاجة إليها لبعض الوقت». في إظهار للولاء لهونغ كونغ، واصل لورانس الاستثمار فيها حتى مع وصول المفاوضات بين الصين وبريطانيا العظمى بشأن مستقبلها إلى طريق مسدود وحيث بدأت العديد من الشركات في تحويل مقارها من هونغ كونغ. دفع ذلك إلى تراجع سوق الأوراق المالية وقيمة عملة هونغ كونغ إلى الانخفاض. استثمرت شركته المليارات في بناء محطة طاقة جديدة في هونغ كونغ وواصلت المفاوضات لبناء محطة دايا باي النووية. وكان يلتقي بانتظام مع لي بينغ، وهو مهندس ووزير في الحكومة والذي سيعين قريبًا رئيس وزراء الصين، وقادة كبار آخرين. ومثل أي رائد أعمال أجنبي آخر، ضغط لورانس من أجل إنجاح قضيته السياسية المتمثلة في إبقاء هونغ كونغ تحت السيطرة البريطانية حتى أثناء تفاوضه على شروط أكبر استثمار أجنبي عرفته الصين في تاريخها على الإطلاق.

لكن دينغ هسياو بينغ كانت لديه أفكار أخرى، وكذلك الأمر مع البريطانيين.

كان دينغ مرنًا بشأن الإصلاح الاقتصادي وكان حريصًا على أن تتعامل بلاده مع لورانس. لكنه كان مصرًا على أن الصين ستستعيد هونغ كونغ بحلول عام 1997. واستعدادًا لاجتماع حاسم مع دينغ حول مستقبل هونغ كونغ، تلقت تاتشر نصيحة من لورانس وكبار رجال الأعمال الآخرين. لكن عندما التقت تاتشر مع دينغ في بكين وطرحت فكرة استمرار هونغ كونغ تحت الإدارة البريطانية، رفض دينغ ذلك على الفور. وأخبرها بصراحة أنه إذا أرادت الصين، يمكنها الاستيلاء على هونغ كونغ في وقت لاحق من ذلك اليوم. بعد مغادرتها المحادثات، تعثرت تاتشر التي كانت تتصف عادة بالهدوء على السلالم – وهي إشارة اعتبرها الكثيرون في هونغ كونغ أنها عبرت عن شعورها بالانزعاج والاضطراب بسبب عناد دينغ. وهوت سوق الأسهم في هونغ كونغ وانخفضت قيمة دولار هونغ كونغ، الذي يشكل حجر الأساس لاقتصاد المدينة. في النهاية، فرض الصينيون خطة كانوا قد طرحوها لتطبق على تايوان قبل سنوات. وحافظت، الخطة المعروفة باسم «دولة واحدة ونظامان»، على القواعد القانونية والاقتصادية البريطانية لمدة خمسين عامًا، كما أراد لورانس، لكنها أوضحت أن هونغ كونغ ستحكمها الصين. في الواقع، بينما كان البريطانيون يستشيرون لورانس بانتظام حول كيفية التعامل مع الصين، لم يعينه الصينيون، كشخص أجنبي، إلا في اللجنة «الاستشارية» التي كانت تصوغ الوثيقة الرسمية التي ستحكم هونغ كونغ. أما الصياغة الفعلية للوثيقة فقد تمت من قبل رجال الأعمال الصينيين الموالين لبكين الذين اعتبرهم الصينيون يمثلون مستقبل المدينة. شعر الصينيون أن لورانس كان يمثل قناة اتصال مفيدة للشركات البريطانية في هونغ كونغ، واعتمد الصينيون عليه لتمرير مخاوف مجتمع رجال الأعمال الأجانب. لكن السلطة كانت ممسوكة بحزم بأيدي القادة في بكين وفي أيدي السياسيين والمسؤولين ورجال الأعمال الصينيين الذين سيديرون هونغ كونغ بعد عام 1997.

في لندن، واجه لورانس الهزيمة أيضًا. خوفًا من تدفق الصينيين من هونغ كونغ بعد تسليم السلطة للصين في عام 1997، أقر البرلمان البريطاني مشروع

قانون يقيد قدرة سكان هونغ كونغ على الهجرة إلى بريطانيا. كان السكان الصينيون فيها يعتبرون تقليديًا رعايا بريطانيين، حين كانت المدينة مستعمرة. لكن في عام 1981، حولهم البرلمان فعليًا إلى مواطنين من الدرجة الثانية، وأصبحوا في عام 1997 مواطنين صينيين. كانت جوازات السفر البريطانية التي كان يحملها الملايين من سكان هونغ كونغ أثناء سفرهم مختومة في مقدمتها بأحرف ذهبية عبارة «هونغ كونغ»؛ فتم تقليص حقوقهم في الهجرة إلى بريطانيا أو حتى طلب المساعدة من السفارات البريطانية في الخارج بشكل حاد. لقد أصبحت قضية باتت تشكل أهمية كبرى للمقيمين الصينيين في هونغ كونغ أكثر بكثير من أهميتها بالنسبة للمقيمين البريطانيين مثل لورانس الذين لديهم بالفعل الجنسية البريطانية. لكن لورانس -الذي واجه والده معارضة عندما حاول الحصول على الجنسية البريطانية في عشرينيات القرن الماضي- غضب من تلك التعديلات التي أدخلها القانون.

مرتديًا عباءته الرسمية المزينة بفرو حيوان القاقم كونه عضوًا في مجلس اللوردات، صعد «ملك كولون» العضو الجديد في البرلمان في لندن وتحدث بحماس ضد تلك القواعد الجديدة. إنها تعطي «انطباعًا بالرفض؛ والشعور بأن بريطانيا» -في هذه المرحلة المهمة من تاريخنا- «تنأى بنفسها» عن هونغ كونغ - وبأننا نفقد «هويتنا البريطانية». وخاطب أعضاء مجلس اللوردات قائلًا: إن السكان الصينيين في هونغ كونغ «لا يبحثون عن ملاذ أو الحق في العيش والمنافسة مع السكان العاملين لديكم». الشيء الوحيد الذي كان يسعى إليه مواطنو هونغ كونغ هو «التأكد من أن بريطانيا العظمى، البلد الذي يثقون به، لن تخذلهم».

قدم لورانس قائمة بجميع شركات هونغ كونغ التي أقامت مشاريع مشتركة مع الصين. وأكد أنه هو نفسه، عند بناء أكبر محطة كهرباء في هونغ كونغ، أوجد 7000 وظيفة للبريطانيين من خلال طلب معدات بريطانية. وحذر لورانس من أنه «يجب توخي الحذر الشديد»، وإلا فإن هونغ كونغ ستصبح «مدينة ميتة مدفونة في صفحات التاريخ».

بالرغم من دعوات لورانس تم تمرير مشروع القانون.

كما حدث في عام 1949 عندما فقد كل شيء في شانغهاي، ومرة أخرى في عام 1967 عندما تعرضت هونغ كونغ للتهديد من قبل الثورة الثقافية، واجه لورانس خيارًا واحدًا: إما البقاء أو المغادرة. قرر البقاء والتكيف مع الأوضاع المستجدة. مع استمرار قلق الكثيرين من اتفاقية تسليم هونغ كونغ إلى الصين، رحب لورانس بزيارة مسؤول صيني كبير إلى محطة كاسل بيك للطاقة التي أقامها ورفع فيها العلم الصيني. لقد تخلى عن إيمانه الذي طالما اعتز به بالأهمية الفريدة لهونغ كونغ كجسر يوصل بين الغرب المتقدم والصين النامية. وبدلاً من ذلك، تبنى لورانس الصورة الذاتية الناشئة للصين في خطاب كان من الممكن كتابته في بكين: «لقد وصلت أوروبا إلى مرحلة من الاستقرار. والولايات المتحدة وروسيا تواجهان بعضهما بعضًا بصواريخ باليستية طويلة المدى». وعلى النقيض من ذلك، فإن الصين «تقدم حقلاً جديدًا للتنمية، وتمثل قوة عالمية في طور التكوين». يمكن اعتبار هونغ كونغ «طفلة الصين، أو الابن الذي يرسل إلى مدرسة غربية لاستيعاب المعارف الأجنبية». والآن، كما قال، «يعود هذا الابن إلى والديه حاملًا المعارف التي جمعها من خلال احتكاكه بالغرب. إنه ابن صالح ويرغب في مساعدة والده وقد أصبح والده يمتلك الفهم الضروري واللازم لسد الفجوة الثقافية القائمة بين الحضارتين».

كان لورانس يؤمن أنه كان يتبع إستراتيجية عمل حكيمة، لا يختلف فيها عن العديد من الأجانب الآخرين الذين كانوا يرغبون بإرضاء الصين على أمل الحصول على جزء من المشاريع فيها. عندما عاد لورانس إلى شانغهاي في عام 1978 بعد ثلاثين عامًا، كان اقتصاد الصين وثروتها متأخرين كثيرًا عن اقتصاد وثروة هونغ كونغ والغرب. وكان عليها اللحاق بالركب. وسرعان ما سيتجاوز حجم اقتصادها بريطانيا العظمى وسيحتل المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة. بالنسبة للصينيين، يشير تغيير لورانس لنبرة صوته معهم إلى ما سعوا إليه منذ فترة طويلة – وهو معاملتهم كأنداد، وتجاهل أكثر من قرن من الاستعمار والإذلال الذي أصاب العلاقات بين الصين والعالم. بعد الخطاب، عاد لورانس إلى مكتبه، حيث احتفظ بدمية محشوة وكانت ممزقة يطلق عليها هامبتي دمبتي باللونين البني والأبيض على كرسي جلدي

خلف مكتبه البيضاوي الواسع. لقد تركها له ابنه قبل عدة سنوات. وجعلها قريبة منه (لتذكيري بأن دمية هامبتي دمبتي تعرضت لأذى كبير).

بعد مرور شهر على إلقاء خطابه، تمت دعوة لورانس إلى بكين للقاء دينغ هسياو بينغ. كانت هذه هي المرة الثانية فقط التي يوافق فيها دينغ على مقابلة رجل أعمال أجنبي.

تبادل الرجلان المزاح عن أعمارهما. قال لورانس: «نحن نحمل أكثر من 160 عامًا من الحكمة». فيجب أن يستمع سكان هونغ كونغ إلينا. بحث دينغ عن نجل لورانس، مايكل -الذي يبلغ من العمر أربعة وأربعين عامًا والذي يمثل الجيل التالي في سلالة عائلة خضوري- وصافحه بقوة.

خلال الجزء الرسمي من الاجتماع، أشاد دينغ باستثمار لورانس مبلغ مليار دولار في محطة الطاقة النووية. وقال الزعيم الصيني للورانس: «كانت لديك الشجاعة للمجيء والاستثمار في الصين، وتحمل المخاطر عندما كان المستثمرون الآخرون خائفين ومترددين».

إنها بادرة لطيفة. ونحن نقدر ذلك.

رد عليه لورانس بحماس. وقال: «أنا سعيد للغاية لأن أفعل شيئًا من أجل الصين». «آمل أن يستمر تعاوننا على طول الطريق الذي أنشأناه».

التفت دينغ إلى مساعديه الجالسين بجانبه. «عندما قابلت اللورد خضوري، كان الأمر أشبه بلقاء صديق قديم على الرغم من أننا لم نلتقِ من قبل»

قال دينغ إن مشروع خليج دايا «شيء رائع.... سيكون رابطًا اقتصاديًا بين البر الرئيسي وهونغ كونغ ويساهم في الاستقرار والازدهار في هونغ كونغ ويمنح الثقة للشعب في هونغ كونغ».

توقف دينغ ومال برأسه نحو لورانس. «متى سيتم تشغيل المصنع؟»

أجاب لورانس: «من المقرر بدء تشغيل الوحدة الأولى في أكتوبر 1992، والثانية في يوليو 1993».

سأل دينغ لورانس «كم يبلغ عمرك؟»

أجاب لورانس: «أنا في السادسة والثمانين»

قال دينغ. أنا في الثمانين «أنت أكبر مني بست سنوات». قام دينغ بحساب سريع. «بحلول الوقت الذي يتم فيه تشغيل المشروع، ستكون في الثالثة والتسعين وسأكون في الثامنة والثمانين. آمل أن نقيم حينها حفلة للاحتفال معًا»

ابتسم لورانس قائلا: «بالتأكيد!»

ومع ذلك، وعلى الرغم من ثروة لورانس ومكانته، بدأت اهتزازات صعود الصين وعـودة ظهورها تؤثر عليه. بحلول عام 1989، بدأت إصلاحات دينغ هسياو بينغ التي أجراها بعد وفاة ماو تتراجع. فقد نتج عنها ارتفاع شديد في معدلات البطالة، ومعدلات التضخم، وتفاوتات واضحة في الثروات، ومطالبات بإجراء تغييرات سياسية. بدأ طلاب الجامعات في الاحتجاج، وتجمع مئات الآلاف في ميدان تيانانمين وانضم إليهم مواطنون عاديون يطالبون بوضع حد للفساد ومزيد من الديمقراطية. باتت القيادة الشيوعية مشلولة.

لقد تعلم لورانس ألا يقلل من شأن الشيوعيين أو تصميمهم، وأظهر رده على مذبحة تيانانمين عام 1989 وما تلاها ذكاءه السياسي وتنازلاته الأخلاقية – وهي معضلة ستواجهها المزيد والمزيد من الشركات الغربية مع نمو قوة الصين. واحتفاظها بسيطرة مشددة على شعبها. التقى لورانس بان غوانغ، وهو أكاديمي مؤثر له علاقات وثيقة بالحكومة الصينية، وسأله بصراحة: «إذا استثمرت أموالي، وكان هناك طلاب في الشوارع، فهل تستطيع الحكومة السيطرة على الوضع؟» فأكد له بأن الحكومة لن تفقد سيطرتها.

عندما أمر دينغ قوات الجيش بالدخول إلى ميدان تيانانمين لسحق الانتفاضة وفرض الأحكام العرفية، سار مئات الآلاف من الصينيين في هونغ كونغ للاحتجاج على الحملة القمعية. بينما انتقدت الحكومات الغربية والعديد من الشركات الحملة وأوقفت التجارة والاستثمار مع الصين، التزم لورانس الصمت بشكل غير معهود. كان لي بينغ، رئيس الوزراء الصيني، الذي شجع حملة القمع وكان يُلقى عليه باللوم فيها ويوصف بأنه «جزار بكين»، حليفًا رئيسيًا له في الموافقة على المشروع النووي لخليج دايا. استمر

العمل في المشروع. عندما تحدث لورانس أخيرًا، دافع عن دينغ والقيادة الصينية. وقال «الكثير من الديمقراطية ليس أفضل شيء لهذه المنطقة من العالم». «يجب أن تكون هناك ضوابط». عندما حاول كريستوفر باتن، آخر حاكم بريطاني لهونغ كونغ، إدخال إصلاح سياسي في هونغ كونغ من شأنه أن يترك المستعمرة بنظام أكثر ديمقراطية قبل أن يتولى الصينيون السلطة رسميًا في عام 1997، انتقده لورانس: «في بلد كبير، أنت يجب أن يكون لديك قائد قوي. ورجل واحد، وصوت واحد، وإلا فإن الديمقراطية على النمط الغربي لن تنجح. لا يمكنك إدارة دولة أو شركة بأخذ آراء الجميع، فيتجادلون فيما بينهم «هذه فكرتي وفكرتك ليست جيدة». كان هذا ما أرادت الحكومة الصينية سماعه.

في بعض الأحيان، كان لورانس يطلب من ابنه، مايكل، أن يصطحبه في طائرة هليكوبتر ويطير فوق كولون ومنطقة الأقاليم الجديدة، فوق محطات الطاقة التي بناها، وخطوط النقل المؤدية حينها إلى الصين، والأضواء في القرى والمزارع وهي تتسرب من نوافذ المنازل السكنية ومن المصانع، ومن منزل عائلة تسانغ في جزيرة لانتاو، الذي أصبح مزودًا بالكهرباء الآن، ومن مطعم ليونغ تشيك للدجاج، ومن حظائر حيوانات المزارع فو، الذي كان شقيقه صديقًا له - كان يمتد بساط من الضوء الساطع.

كان لورانس يقول وهو ينظر إلى الأسفل: «لقد فعلت كل ذلك». ومن حين لآخر، كان يوجه ابنه للهبوط بالمروحية في إحدى القرى حيث يخرج السكان الصينيون لتحيته.

الفصل الحادي عشر

العودة إلى منطقة البوند

لم يعد لورانس قط إلى الصين.

مع دخوله التسعينيات من عمره، أمضى لورانس معظم أيامه على كرسي متحرك مصابًا بالتهاب المفاصل الحاد. كانت يداه ترتجفان وكانت مشيته غير ثابتة عندما يمشي. وظل يواظب على حضور اجتماعات مجلس إدارة شركة الطاقة والكهرباء الصينية. كتب إلى أحد الأصدقاء: «أحافظ على معنوياتي من خلال الذهاب إلى المكتب بانتظام، والاهتمام بالعديد من التغييرات التي تحدث في هذه المنطقة من العالم، وأشعر بالامتنان للعديد من النعم التي منحني إياها الله». عندما تم تأجيل افتتاح محطة خليج دايا النووية لعدة أشهر لأسباب فنية، بعث لورانس رسالة إلى دينغ هسياو بينغ كتب فيها: «على الرغم من أنني يؤسفني أن أقول إنني الآن أجلس على كرسي متحرك بسبب التهاب المفاصل، ما زلت آمل أن أراك في خليج دايا عند افتتاح محطة الطاقة النووية» في غضون ستة أشهر.

بعد مرور شهر على تلك الرسالة، كان لورانس متوجهًا بسيارته إلى منزله لتناول غدائه المعتاد يوم الأحد مع زوجته موريل وشقيقه هوراس وعدد من الأصدقاء. قرأ الصحف وتحدث عن المستقبل الذي ينتظر هونغ كونغ بعد عام 1997. وفي يوم الإثنين التالي، حضر اجتماعًا لمجلس إدارة شركة الطاقة والكهرباء الصينية. في اليوم التالي، زار أحد مكاتب الشركة، واشتكى بشكل عابر أنه يعتقد أنه مصاب بنزلة برد. في يوم الأربعاء الموافق 25 أغسطس 1993، توفي لورانس خضوري عن عمر ناهز أربعة وتسعين عامًا.

بعد عامين، توفي هوراس أيضًا. لقد كان مريضًا لعدة سنوات، ولكن عندما كان في الثمانينيات من عمره، تمكن من حضور لقاء في سان فرانسيسكو لبعض اللاجئين من شانغهاي الذين ساعد في إنقاذهم وخريجي مدرسة خضوري في شانغهاي في زمن الحرب. حضر اللقاء أكثر من 1000 لاجئ، وكان من ضمنهم مايكل بلومنتال، وزير الخزانة الأمريكي السابق الذي تعلم اللغة الإنكليزية في مدرسة خضوري، ولوسي هارتويتش، المعلمة في برلين التي التقى بها هوراس على متن سفينة وهو في طريقه إلى شانغهاي وقام بتوظيفها على الفور لإدارة المدرسة. تقابل اللاجئون، الذين لم ير بعضهم بعضًا منذ أربعين عامًا، في قاعة فندق كبيرة مزينة بعلامات تدل على متاجر الحي اليهودي في شانغهاي. كانوا يرتدون بطاقات تحمل صورًا لهم وهم أطفال. في حفل استقبال أقيم في كنيس يهودي محلي أسسه لاجئو شانغهاي، تم تخصيص نافذة من الزجاج الملون لهوراس، وشكروه على إنقاذهم. حضر القداس تيودور ألكسندر، اللاجئ من برلين الذي عمل مع فيكتور ساسون، وأصبح حاخامًا في شانغهاي، وتزوج في مدرسة خضوري. بعد خمسة وثلاثين عامًا من آخر مرة شاهد فيها هوراس، صعد على المنبر وخطب يقول «اليوم نحن مواطنون محترمون – يهود قدموا مساهمة قيمة لمصلحة تلك البلدان التي بنينا فيها بيوتنا»، بينما كان هوراس ينظر مبتهجًا. «كم كنا محظوظين... من حيث إن التعليم الذي قدمناه لجيلنا الأصغر كان عظيمًا لدرجة مكنهم فيها من أخذ مكانهم في العالم. لقد ألهمونا جميعًا في وقت اليأس للاستعداد لمستقبل أفضل». فيما رقدت التوراة التي حملها ألكسندر عندما كان مراهقًا من برلين إلى شانغهاي، وعندما كان شابًا حملها من شانغهاي إلى سان فرانسيسكو في الخزانة المخصصة له التي كانت بجانبه.

تم دفن الأخوين خضوري على بعد بضعة أقدام بعضهما من بعض في المقبرة اليهودية في هونغ كونغ. أرسلت الحكومة الصينية تعازيها الرسمية لوفاة لورانس. جاء وفد حكومي من بكين لتقديم العزاء للأسرة في منزل لورانس. تناول المسؤولون الصينيون العشاء مع مايكل نجل لورانس، وتحدثوا عن أهمية الأسرة وتربية الأطفال وفق قيم ومبادئ عالية. علم

الصينيون أن مايكل، البالغ من العمر الآن خمسين عامًا، وشقيقته، ريتا، سيرثان الشركة وأن مايكل سيتولى زمام الأمور. أراد الصينيون الاستمرار في التعامل مع سلالة عائلة خضوري.

وُلد مايكل وريتا قبل الغزو الياباني لهونغ كونغ وتم احتجازهما مع والدهما ووالدتهما في هونغ كونغ ثم في شانغهاي. كانت إحدى ذكريات مايكل المبكرة في الأيام التي أعقبت تحرير الأمريكيين لشنغهاي أنه حمل إلى الفراش على أكتاف عريضة لجنود أميركيين. كان لورانس في الثانية والأربعين عندما ولد مايكل. يتذكر مايكل لاحقًا: «كان من الممكن أن يكون جدي تقريبًا». وتمامًا مثلما ركز إيلي على عمله وترك إدارة شؤون عائلته لزوجته، ترك لورانس تربية الأطفال لموريل، وهي امرأة صغيرة الحجم وذات أسلوب لطيف في الكلام ومع ذلك كانت واحدة من الأشخاص القلائل الذين يمكنهم التأثير والسيطرة على لورانس. كان يساعدها طاقم من الخدم. أصبح هوراس، الذي لم يتزوج ولم ينجب أطفالًا، يشكل جزءًا كبيرًا من حياتهم، حيث كان يصطحبهم إلى مطبخ فندق بينينسولا، ويقدم لهم الحلوى خلسة، وفي عطلات نهاية الأسبوع يصطحبهم في سيارته لزيارة منطقة الأقاليم الجديدة والمزارعين الذين كان يساعدهم.

قلة من الناس توقعوا أن يقدم مايكل شيئًا. كانت تطارده سمعة نشأته كفتى مستهتر ولعوب وثري يستمتع بقيادة السيارات السريعة، ويستخدم طائرات الهليكوبتر، ونادراً ما كان يعمل بعد الساعة السابعة مساءً. في عام 1977 نقلت صحيفة وول ستريت جورنال عن أحد أصدقائه وصفه لمايكل خضوري بأنه «يتحمس كثيرًا لعدد من الأشياء. ولكن لسوء الحظ لم تكن الأعمال التجارية واحدة منها، وتوقعت الصحيفة أنه لن يخلف والده. عاد إلى هونغ كونغ في الثانية والعشرين من عمره بعد أن التحق بمدرسة داخلية خاصة في سويسرا وعمل في العديد من مراكز التدريب المالية في لندن. كان السبب الأساسي الذي جعل لورانس يعينه في مجلس إدارة شركة فنادق خضوري لأن مايكل وهوراس كانا على علاقة دائمًا. كان مايكل أيضًا يعتبر العمل في شركة الكهرباء والطاقة الصينية، التي كان يديرها لورانس، والتي ساهمت بأكبر قدر من أرباح عائلة خضوري، «مملاً». وكان يستمتع

بالحديث عن تفاصيل أثاث الفندق، بما في ذلك تباعد الشماعات في خزائنه، وكان يستمتع بإضافة أحدث التقنيات والأدوات.

الآن، بعد وفاة لورانس، تبين أن الرئيس الجديد لسلالة خضوري كان بارعًا في التفاوض مع قادة الصين والعمل معهم. لقد ترك الإدارة اليومية لعمليات الشركة للمديرين المحترفين، لكنه رعى بعناية علاقة آل خضوري المتنامية مع الحكومة الصينية. حضر مايكل حفل افتتاح محطة خليج دايا النووية ثم فاز بعقود لبناء محطات كهربائية أخرى في جميع أنحاء الصين. مع صعود جيل جديد من القادة الصينيين، سافر مايكل إلى بكين لمقابلتهم، وسحرهم بطريقته في الكلام التي غالبًا ما يتجاهل فيها الخطابات المعدة سلفًا ويتحدث بشكل غير رسمي. عندما سمع زعيم الحزب الشيوعي الصيني والرئيس الصيني جيانغ زيمين عن ولعه بطائرات الهليكوبتر وقيادة السيارات السريعة، أذهله حين سأله في أحد الاجتماعات، عن أيهما أكثر أمانًا. أجابه مايكل برد دبلوماسي: «كلاهما آمن». تحت قيادته، زادت القيمة السوقية لأسهم شركة الطاقة والكهرباء الصينية، التي تمثل أكبر استثمار للعائلة، بمقدار عشرة أضعاف، وتضاعفت قيمة مجموعة فنادق المملوكة لعائلة خضوري ثلاث مرات. احتلت عائلة خضوري المرتبة العاشرة بين أغنى العائلات في آسيا، حيث تجاوزت ثروتها 18 مليار دولار.

مع اقتراب موعد تسليم هونغ كونغ إلى الصين عام 1997، وسع مايكل تحالفه مع عائلة رونغ القوية، التي ازدهرت أعمالها في شانغهاي في ثلاثينيات القرن الماضي والتي ساعدها لورانس على الانتقال والتوسع في هونغ كونغ بعد أن استولى الشيوعيون على السلطة. أصبح رونغ يرين، «الرأسمالي الأحمر» الذي أقام في الصين لمساعدة الشيوعيين، مسؤولاً عن شركة جديدة، وهي مؤسسة الصين الدولية للاستثمار والائتمان، مهمتها شراء حصص في الشركات الأجنبية الموجودة في الخارج. أرسل رونغ ابنه إلى هونغ كونغ، حيث بدأ، بدعم من الحكومة الصينية ورأسمالييها، أعمالًا تجارية جديدة وبدأ في شراء حصص في العديد من الشركات الشهيرة في هونغ كونغ كعلامة على اقتراب استيلاء الصين على هونغ كونغ. وجه مايكل دعوة لنجل رونغ لشراء 25٪ من أسهم شركة الطاقة والكهرباء الصينية. كان

ذلك شكلاً من أشكال التأمين لحماية الشركة حين تسيطر الصين على هونغ كونغ. عندما أصبح واضحًا بعد بضع سنوات أن الصينيين يقدرون عائلة خضوري ويريدون الاستمرار في التعامل معهم، عاد مايكل واشترى تلك الأسهم من جديد.

عاش مايكل في شانغهاي لفترة وجيزة فقط عندما كان طفلاً صغيرًا، ولكن منذ أن فتحت الصين أبوابها للعالم من جديد واستأنف آل خضوري ممارسة الأعمال التجارية هناك، بات يزورها بانتظام. بحث عن خادمه القديم الذي كان يعتني به عندما كان رضيعًا. جمع الاثنان لقاء تغلبت عليه العواطف الجياشة والدموع. التقى مايكل بالمديرين التنفيذيين في شركته الفندقية وأخبرهم أنه يريد العودة إلى شانغهاي وبناء فندق هناك. أصبح فندق بينينسولا المملوك لآل خضوري الآن واحدًا من أشهر العلامات التجارية للفنادق الفاخرة في العالم، إضافة إلى امتلاك آل خضوري فنادق جديدة في بانكوك ومانيلا كانوا يخططون لبناء فنادق في بيفرلي هيلز ونيويورك وباريس ولندن. شكلت شركة الطاقة والكهرباء الصينية الجزء الأكبر من ثروة مايكل الشخصية، ولكن خارج هونغ كونغ، لم يسمع بها سوى القليل من الناس. ومع ذلك، فإن معظم الناس –وخاصة بين الدائرة الغنية وذات العلاقات الوثيقة التي كان مايكل يتنقل في أوساطها، والتي كانت الصين تحاول جذبها للاستثمار والسياحة– قد سمعوا بفندق بينينسولا

على طول منطقة البوند في شانغهاي، كان هناك مكان واحد تسعى إلى الحصول عليه كل شركات العالم – مبنى بنك هونغ كونغ وشنغهاي القديم الذي يوجد في مقدمته تمثال الأسود البرونزية الملكية. لكن أصبح من الواضح أن البنك الصيني الذي يمتلك المبنى الآن ليس لديه نية لبيع المبنى لمستثمر أجنبي. حوَّل مايكل انتباهه إلى قطعة أرض أخرى، بعيدًا عن منطقة البوند. وهو مبنى القنصلية البريطانية القديم. كانت مارغريت تاتشر قد طلبت استرجاعه في الثمانينيات عندما التقت بدينغ هسياو بينغ ولكن طلبها رُفض. أما جاردين، المنافس القديم لعائلة خضوري، فقد كان يأمل أن يقوم بالبناء هناك، وتلك كانت نية روكفلر أيضًا بالشراكة مع اليابانيين. انقض عليها مايكل، مدعومًا من الحكومة الصينية، وتمكن من الظفر بها. كانت

فخامة فندق بينينسولا جزءًا من سبب موافقة الحكومة الصينية على البيع لمايكل. لكن آل خضوري كانوا يعرفون العوامل الأخرى التي كانت وراء الموافقة: قرار لورانس بتسليم قاعة القصر العائلي إلى مدام صن يات صن، وعدم التحدث بالسوء أبدًا عن الحكومة الصينية حتى أثناء الثورة الثقافية وأحداث ساحة تيانانمين، واستثماره لأكثر من مليار دولار في الصين في وقت كان فيه الكثير من المستثمرين لا يزالون غير متأكدين من مدى موثوقية الصين كشريكة تجارية.

من سطح فندقه الجديد، كان يمكن لمايكل أن ينظر إلى أسفل النهر ويرى المكان الذي نزل فيه إيلي لأول مرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر عندما كان شابًا. كان بإمكانه أن ينظر من على طول منطقة البوند إلى فندق بالاس الذي يملكه آل خضوري، حيث أقام شيانغ كاي تشيك حفل زفافه، وكان المهاجرون البغداديون قد قبلوا ظهر يد إيلي الممدودة طلباً لمعونته. وعلى الجانب الآخر، كان بإمكانه أن ينظر إلى هونغكيو، الحي اليهودي القديم حيث بنى هوراس مدرسته، وجسر الحديقة الذي سار عليه أولاً الجنود اليابانيون ثم الشيوعيون، منهين بذلك الحكم البريطاني. وعهد آل خضوري في شانغهاي.

خلال حفل الافتتاح الكبير لفندق بينينسولا الجديد في منطقة البوند، استأجر مايكل مجموعة من لاعبي السيرك وقد ارتدوا زي خدم الفندق ليصطفوا عند الواجهة. قرع الطبالون الصينيون الذين كانوا يرتدون أزياءهم التقليدية طبولًا كبيرة عند المدخل بينما احتشد نجوم السينما الصينية والبريطانية والمسؤولون وعدد قليل من أفراد العائلة المالكة في الردهة الرخامية لالتقاط الصور الفوتوغرافية واحتساء الشمبانيا. أعلن مايكل: «نحن فخورون بعودتنا إلى الوطن». كانت حفلة رائعة وكان سيستمتع بها فيكتور ساسون لو كان حاضرًا فيها.

على مدار قرن من الزمان، التقى آل خضوري وقدموا المشورة لكل زعيم صيني باستثناء ماو. والآن بات مايكل يلتقي بانتظام مع خلفاء دينغ هسياو بنغ ومع شي جين بينغ، رئيس الصين الجديد القوي. في اجتماع عقده شي جين بينغ مع عشرين من كبار رجال الأعمال في هونغ كونغ، كان مايكل هو

الشخصية الغربية الوحيدة الحاضرة. توقف شي لبرهة من الزمن ثم أرسل أحد مساعديه لمصافحته وإيصال رسالة شخصية له مفادها: «لطالما كانت عائلتك صديقة للصين».

في عام 1979، عندما زرت شانغهاي لأول مرة، كانت الصين منفتحة على العالم. لم يكن هناك من يعرف آل ساسون أو آل خضوري. كانت الصين لا تزال غارقة في الشيوعية. وكانت باردة ومبرمجة على الطاعة. ومع ذلك، كانت هناك شرارة لحدث ما في شانغهاي: لاعب السيرك العجوز في فندق كاثاي القديم الذي يتحدث الفرنسية، والشباب الذين يتوجهون بجرأة إلى السياح للتدرب على اللغة الإنكليزية، والأزواج المسنون الذين يرقصون عند الفجر في منطقة البوند. في أحد الشوارع المتاخمة لمنطقة البوند، كانت أغطية فتحات المجاري لا تزال تحمل الأحرف الإنكليزية smc –التي تعني مجلس بلدية شانغهاي، وهو المجلس الذي كان يهيمن عليه البريطانيون وكان يدير منطقة التسوية الدولية حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. على طول الطريق، في بهو المبنى الذي يضم مكاتب عدة شركات ويعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين– علمت لاحقًا أن فيكتور ساسون قد بناه – حجب ملصق صيني ممزق زجاج نافذة مبنى وضعت عليه قائمة بمستأجري المكاتب الأوروبيين منذ عام 1949، أي قبل وصول الشيوعيين مباشرة.

في السنوات التالية، بدأ العمال في كشط الطلاء من سقف القبة رقم 12 للمبنى الواقع في منطقة البوند –وهو المبنى السابق لبنك هونغ كونغ وشنغهاي. اكتشف العمال ثماني جداريات تصور المباني التاريخية في هونغ كونغ وطوكيو ولندن ونيويورك وبانكوك وباريس وكلكتا– وهي المدن التي بدأت شانغهاي التجارة معها في القرن التاسع عشر. كانت شانغهاي تعيد اكتشاف نفسها كمدينة عالمية وكوزموبوليتية. لكنها لم تكن تريد أن تكون مجرد حاضنة للحنين إلى الماضي. مع تسارع نمو الاقتصاد الصيني، تغلب الشيوعيون على شكوكهم في شانغهاي وأنفقوا الأموال لإعادة بناء المدينة؛ وسمحوا لمواطنيها بدخول عالم الأعمال والتمويل وتحويل شانغهاي إلى مركز أعمال ينافس هونغ كونغ ثم تجاوزها، ثم حددوا طموحاتهم بأن تصبح

بمرتبة طوكيو ونيويورك ولندن. والآن، في القرن الحادي والعشرين، تم الاحتفال والاحتفاء بآل خضوري وآل ساسون. تم تكريم فيكتور ساسون، الذي كان خائفًا جدًا من إلقاء القبض عليه حتى وطئت قدماه شانغهاي بعد عام 1949، بوضع صورة له في جناح القصر الذي تم ترميمه والذي كان يعقد فيه صفقات تجارية، ويقوم فيه بالترفيه عن السياسيين القوميين، ويغازل إميلي هان، ويتفوق بدهائه على النقيب إينوزوكا. على بعد بضع بنايات، افتتح آل خضوري فندق بينينسولا الجديد الفخم، وعادت مباني العائلتين الكبيرتين تشرفان على النهر مرة أخرى. إلى الشمال من منطقة البوند، وعبر منطقة غاردن بريدج، تم تحويل حي هونغكوي في شانغهاي، حيث قام آل ساسون وآل خضوري بإيواء وحماية 18000 لاجئ يهودي وهو الحي الذي خطط الصينيون ذات مرة لهدمه، إلى مدينة ألعاب شبيهة بديزني لاند للعائلات اليهودية، مع متحف جديد يروي سيرة حياة اللاجئين ومقهى أعيد بناؤه يعود عمره إلى الثلاثينيات. حيث كان رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو يحتسي القهوة فيه وكانت تحيط به كاميرات التلفزيون الصيني.

يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه في الصين. عندما زرت شانغهاي لأول مرة، كان بإمكان المؤرخين التحدث عن «القبيلة المفقودة» ويعنون بها يهود الكايفنغ الذين استقروا في الصين منذ ألف عام وأبقوا بعض التقاليد اليهودية حية - ولكن ليس عن آل ساسون أو آل خضوري وتأثيرهم الأحدث الذي غير معالم شانغهاي إلى حد كبير. كانت الرأسمالية في عام 1979 موضوعًا محظورًا. بعد أربعين عامًا، صار بإمكانك الحديث عن فيكتور ساسون وآل خضوري، ولكن ليس عن يهود الكايفنغ؛ كان الصينيون يتخذون إجراءات صارمة ضد الدين. في متحف اللاجئين في شانغهاي، تم تخصيص لوحة لهوو فينغ شان، الذي أصدر تأشيرات لعائلة إيريك رايسمان وآلاف اللاجئين الآخرين على الرغم من أن هوو فينغ كان قوميًا ومعارضًا للشيوعية. بعد بضعة أسابيع، اختفى معرض لوحات فنية يشيد بالدبلوماسي الياباني كيون سوغيهارا، الذي أصدر تأشيرات خروج تسمح لليهود من ليتوانيا بالهروب من النازيين. كانت الصين في نزاع دبلوماسي مع اليابان. لم يكن الأبطال اليابانيون موضع ترحيب.

في فندق بينينسولا الجديد في شانغهاي، افتتح آل خضوري حانة على السطح أطلقوا عليها اسم حانة السير إيلي «Sir Elly's Bar»، مع إطلالة شاملة على منطقة البوند وأبراجها المبنية على طراز فن الآرت ديكو، وهي نفس الأبراج التي استقبلت المسافرين لما يقرب من 100 عام. كما كانت تتمتع بإطلالة أخاذة، عبر النهر، للأبراج المبتكرة لمنطقة بودونغ -الصين الجديدة المبنية من الفولاذ والزجاج. بالنظر إلى الأسفل من حانة السير إيلي، يشعر المرء أن منطقة البوند لم تعد تذكيرًا بالماضي المنفصل ولكنها طريق يربط بين شانغهاي الجديدة والقديمة. إذا نظرنا إليها من منظور تاريخي، فإن شانغهاي اليوم حققت كل ما كان يتوقعه المرء. كانت شانغهاي في الثلاثينيات من القرن الماضي تحتوي على ناطحات سحاب أكثر من معظم المدن الأمريكية. واليوم فإن أفقها المبتكر يضم ثلاثة من أعلى عشرة مبانٍ في العالم. كان هناك مطاران يربطان شانغهاي بالعالم كما اعتادت سفن الركاب والبضائع التحرك فوق النهر وإنزال الركاب والبضائع أمام فندق كاثاي. كان آل ساسون وخضوري هم أصحاب المليارات الأوائل في شانغهاي. الآن يوجد أكثر من 100000 مليونير في شانغهاي وأكثر من ثلاثين ملياردير- جميعهم صينيون. أطلق لورانس خضوري على شانغهاي في ثلاثينيات القرن الماضي لقب «باريس الشرق». والآن بات يفضل مقارنتها مع نيويورك ولندن.

عادت شانغهاي العالمية المتطورة إلى الحضور بقوة في المشهد العالمي. عندما عادت موريل، زوجة لورانس خضوري، إلى شانغهاي بعد وفاة زوجها، اشتكت من أنها كانت تعيش في فوضى باستمرار. أما الآن فكل شيء تغير. حلّ متحف شانغهاي الجديد محل مضمار السباق. وتم تطويق القصر العائلي بالطرق السريعة. كان من الصعب التعرف على النادي الفرنسي حيث كانت تحب الرقص في ثلاثينيات القرن الماضي. كانت تحاول دائمًا الحصول على مكان لها وسط كل ذلك.

كانت تلك هي الشكاوي الشائعة من قبل زوار شانغهاي، حتى أولئك الذين زاروا المدينة بشكل متكرر. تغيرت شانغهاي بوتيرة مذهلة. قضت ناطحات السحاب ومراكز التسوق على الأحياء القديمة. ازدحمت المتاجر

والمطاعم الجديدة بالطرق الرئيسية. اندهش زوار شانغهاي من حيوية المدينة: الصينيون يحتشدون في المتاجر الباهظة الثمن، ويصطفون في مقاهي ستاربكس لتناول القهوة، ويسارعون إلى العمل وحضور الحفلات. كانت هذه هي شانغهاي التي احتضنها رجال الأعمال الغربيون والسياح، وفي بعض الأحيان أصبحوا قلقين منها، شانغهاي التي كانت تزخر بالطاقة والتطور والثقة بالنفس. لن يفاجأ بعض سكانها السابقين على الإطلاق بشنغهاي الجديدة هذه: إيلي خضوري، وهوراس خضوري، ولورانس خضوري، وبالتأكيد فيكتور ساسون. فهم سيشعرون كأنهم في موطنهم في المدينة التي ساعدوا في إنشائها.

ما الذي كان يعنيه آل خضوري وآل ساسون للصين؟ وماذا يخبرنا ماضي شانغهاي عن مستقبل الصين؟

بالتأكيد، كانت كلتا العائلتين مستفيدة من الإمبراطورية البريطانية وحقبة الاستعمار. لقد دمرت تجارة الأفيون التي كانت أساس ثروة ساسون حياة الملايين. وتم بناء ثروات آل ساسون وآل خضوري من خلال الاستفادة من الأجور المنخفضة والمنافسة غير العادلة. لقد فاقموا من حالات عدم المساواة التي تركت الصينيين يموتون في شوارع شانغهاي في حين كان آل خضوري في نفس الوقت يقيمون الحفلات ويرقصون في القصر العائلي وكان فيكتور ساسون يشرف على إقامة الحفلات الباذخة في فندق كاثاي. وكل ذلك كان من العوامل التي ساهمت في صعود الحزب الشيوعي الصيني وانتصاره. استغل آل ساسون وآل خضوري سكان شانغهاي، لكنهم وضعوا الأساس أيضًا للطفرة الاقتصادية التي جذبت رونغ وملايين آخرين وجدوا في المدينة مكانًا لمتابعة أحلامهم في ريادة الأعمال، بينما كانت الصين تخلص نفسها من مجتمع إقطاعي متحجر لتتحول إلى مجتمع صناعي حديث.. كان الصينيون هم من غيروا وجه شانغهاي والصين. ساعد آل ساسون وآل خضوري على إشعال الفتيل. في الوقت الذي كانت فيه معظم دول العالم، بما في ذلك الصين، تبني جدرانًا مادية وسياسية وسيبرانية للحد من الهجرة والتدفق الحر للأشخاص والأفكار والمعلومات، كانت شانغهاي تمثل نموذجًا لكل ذلك. كان آل ساسون ومن نواحٍ عديدة من

أول دعاة العولمة. لقد أنذرت تجربتهم بالمشاكل والغضب الذي ستجلبه العولمة في العقود اللاحقة. كان عدم المساواة في شانغهاي كارثة أدت إلى تطرف الصينيين، وساعدت على وصول الشيوعيين إلى السلطة، وأهلكت ثروات -ومصداقية- العائلتين. لطالما كانت عائلة خضوري ناشطة في الأعمال الخيرية. في أعقاب الثورة الشيوعية، أدرك لورانس وهوراس بشكل أكبر أهمية التعليم والرعاية الصحية والإسكان ومساعدة اللاجئين، حتى عندما حجبت مشاعرهم الشوفينية وتصرفاتهم المتغطرسة عن الكثيرين التأثير التدريجي لما كانوا يفعلونه.

كان آل ساسون وآل خضوري رجال أعمال جيدين لكنهم كانوا يفتقرون للحنكة السياسية في الغالب. توقع فيكتور ساسون صعود غاندي في الهند، لكنه أخطأ في الحكم على سيطرة القوميين على الصين. كانت جهوده الرائعة لصد اليابانيين وحماية 18000 لاجئ يهودي هي أرفع عمل أخلاقي قام به في حياته. ومع ذلك، لم يستطع قط أن يبدي نفس التعاطف تجاه الصينيين. كانت عائلة خضوري أكثر انسجامًا مع سياسات الصين واحتياجاتها، ابتداء من دعم لورا خضوري المبكر للأعمال الخيرية إلى إنشاء هوراس لجمعية خضوري للمساعدات الزراعية. رفض لورانس وهوراس التخلي عن الصين تمامًا، وقد أتى التزامهما ثماره بالنسبة لهم كأسرة واحدة وبالنسبة لشنغهاي وهونغ كونغ. ومع ذلك، عندما نهضت الصين وطالبت بعودة هونغ كونغ، تشبث لورانس بفكرة استمرار شكل من أشكال الحكم الاستعماري على المدينة. وعندما بات نهوض الصين واضحًا، لم يدن لورانس وابنه علانية مذبحة تيانانمين. وعارضًا الجهود المبذولة لتحقيق المزيد من الديمقراطية في هونغ كونغ. لقد اختاروا الوقوف إلى جانب أرباحهم التجارية على حساب مبادئ الحرية السياسية والأخلاق - وهي معضلة يتعين على العديد من الشركات الأجنبية من غوغل إلى فيسبوك إلى آبل مواجهتها بشكل متزايد.

أنشأ آل ساسون وخضوري خيوطًا أساسية لهوية شانغهاي. ترك فيكتور ساسون لشنغهاي المباني الأكثر تميزًا -الفنادق والمباني المكتبية التي صمدت أمام الحرب وعقودًا من الإهمال الشيوعي حتى تمكنت من الظهور

مرة أخرى كمحطات لتاريخ شانغهاي وانبعاثها الاقتصادي. منح فيكتور شانغهاي بريقها وإثارتها وغموضها. لقد خلق آل ساسون وخضوري أيضًا فرصًا- لزملائهم الأجانب، ولكن الأهم من ذلك، لأولئك الذين تدفقوا إلى شانغهاي بحثًا عن حياة أفضل. ليس من المستغرب، عندما قررت الصين تبني تحولاتها الكبرى في عام 1978 وقررت فتح أبوابها أمام العديد من المؤسسات الرأسمالية واحتضانها، لجأت إلى شانغهاي لتأسيس بورصة جديدة (التي أنشأها آل ساسون وآل خضوري لأول مرة في تسعينيات القرن التاسع عشر) وبورصة للذهب، وتزويد العديد من الوزارات الاقتصادية بالكوادر المؤهلة. جاء العديد من القادة السياسيين الصينيين الأكثر إبداعًا وذكاءً من الناحية الاقتصادية من شانغهاي - مثل رئيس الوزراء تشو رونغجي، الذي قاد الصين في مفاوضات منظمة التجارة العالمية، والرئيس جيانغ زيمين.

منذ أن ارتدى إلياس ساسون رداء عالم صيني وتجول حول مجمعه المحاط بالأسوار، وحثت لورا موكاتا الأجانب على المساهمة في الجمعيات الخيرية الصينية ودعمت تعليم الفتيات الصينيات، أظهر آل خضوري وآل ساسون أنهم يحملون مشاعر ود واهتمام بالصين. من الواضح أن رؤساء الشركات العالمية مثل شركات النفط وشركات التكنولوجيا والمصنعين -الذين تدفقوا على الصين بعد عام 1978- كانوا يفتقرون لها. فالصين كانت بالنسبة لهم، مجرد موقع لممارسة النشاط التجاري.

كانت عائلتا خضوري وساسون تشعران بوجود علاقة عاطفية تربطهما مع الصين وأنهما تدينان للصين ثقافيًا. فقد اقتنى أفرادها روائع الفن الصيني، وقاموا بجمع بعض من أكثر المجموعات الفنية قيمة في العالم. كسر فيكتور ساسون الحواجز الاجتماعية، ودعا الصينيين إلى حفلاته ومقصورته في مضمار السباق، ولم يغادر شانغهاي إلا عندما غزا الشيوعيون المدينة. على الرغم من أنه كان من الممكن لهم أن يعيشوا في أي مكان، إلا أن عائلة خضوري عادوا مرارًا وتكرارًا إلى شانغهاي، ثم هونغ كونغ لاحقًا. وجعلوا من الصين وطنًا لهم.

ضرب آل ساسون وآل خضوري أمثلة متناقضة في تصميمهم على

بناء سلالة عائلية. قام ديفيد ساسون، رب الأسرة، بجمع أفراد أسرته معًا حتى عندما أرسلهم حول العالم لبناء إمبراطورية ساسون. فقد أرسل أبناءه واحدًا تلو الآخر إلى الخارج، وجعلهم يتنقلون من مدينة إلى أخرى، ومنحهم فرصًا لتكوين ثروات فردية مع جعل الحفاظ على أهداف الأسرة في المقدمة. وفي اللحظة التي مات فيها، قامت قوى الطرد المركزي في المجتمع اللندني، والتنافس بين الأشقاء، والاندماج مع المحيط بفصل أفراد الأسرة بعضهم عن بعض. ارتقى آل ساسون إلى قمة كل مهنة اختاروها وكل مدينة استقروا فيها. لكن أفراد العائلة تشاجروا أيضًا بسبب المال والمعتقد الديني وانقسموا إلى فئات متفرقة. لم يستطع آل ساسون قط استعادة التماسك الذي كانت تتميز به عائلة داود وأبنائه الثمانية. على النقيض من ذلك، ربما أخذ إيلي خضوري العبرة مما حدث لعائلة ساسون، ولم يسمح لأبنائه قط بالابتعاد عن أعمال العائلة أو توجيهاته الصارمة. بعد وفاة زوجته، أجبر لورانس وهوراس على التخلي عن دراستهما في لندن والعمل معه في شانغهاي. وقام بإعدادهما على مدى العقدين التاليين. وفقط بعد وفاة إيلي، بدأ لورانس وهوراس وقد أصبحا في الأربعينيات من العمر مشاريعهما الخاصة. لكنهما استمرا في العمل جنبًا إلى جنب. وكرر لورانس نفس النمط مع ابنه مايكل، حيث جعله مسؤولًا عن أعمال العائلة وكانت النتيجة: عائلة تملك 11 مليار دولار اليوم.

رغم تجاهل التاريخ لهن وتصادمهن في بعض الأحيان مع أقاربهن من الذكور فإن النساء في سلالتي ساسون وخضوري لعبن دورًا محوريًا من خلال نجاحهن في الأعمال التجارية وفي الصين. فقد كانت لورا موكاتا هي التي أسهمت في إقامة علاقات إيلي مع النخبة اليهودية البريطانية وكانت تتمتع بإدراك لكيفية تغير الصين. وفتحت له الأبواب ليحتك بالصينيين من خلال مساهماتها الخيرية في المستشفيات في الصين والمدارس التي تدرس اللغة الإنكليزية ومكنت الطلاب الصينيين من الحصول على وظائف أفضل. أصبح قرارها بالعودة لإنقاذ مربية صينية من حريق المنزل جزءًا من أسطورة آل خضوري في الصين. من يدري كيف سيكون تأثيرها في دور إيلي خضوري في الحرب الأهلية بين الشيوعيين والقوميين، والغزو

الياباني للصين، وأزمة اللاجئين، والحرب العالمية الثانية، واستيلاء الحزب الشيوعي على السلطة؟ تمت مكافأة فلورا ساسون على فطنتها التجارية من خلال الإطاحة بها من قبل أعضاء مجلس الإدارة. أما راشيل ساسون، محررة الصحف الأكثر نفوذاً في بريطانيا، فقد أنهت حياتها وحيدة وأصبحت مجنونة. في الثلاثينيات من القرن الماضي، كانت هناك شائعات بأن فيكتور ساسون سيتزوج إميلي هان، الكاتبة في مجلة النيويوركر المغامرة وذات البصيرة. يا ترى كيف سيكون تأثيرها عليه؟

أصبحت الصين في القرن الحادي والعشرين تلك الدولة التي كان قادتها وشعبها يتوقون إليها منذ وصول البريطانيين لأول مرة وهزيمتهم في حروب الأفيون: دولة فخورة بنفسها وقوية عسكريًا وأصبحت من جديد قوة عالمية. لكن شانغهاي وإرث عائلتي خضوري وساسون يسلطان الضوء على نقاش مستمر: ما هو تأثير التنافس بين شانغهاي وبكين ومساريهما المختلفين للتقدم للأمام بالنسبة للصين. يشعر كل زائر للصين بالفرق بين شانغهاي وبكين: شانغهاي منفتحة ومتنوعة وعالمية. تحتضن الابتكار. على الرغم من أن بكين مدينة كبيرة، فإن تاريخها مختلف. إنه يتطلع إلى الداخل أكثر وذو صبغة وطنية، حيث كانت في السابق موطنًا للإمبراطور وأصبحت الآن مقرًا للقيادة الشيوعية. الصينيون في شانغهاي يسخرون من مواطنيهم في بكين لأنهم يرونهم غير متطورين وضيقي الأفق ويرتابون من العالم. أولئك الذين يعيشون في بكين يحتقرون أهل شانغهاي لأنهم يهتمون فقط بالمال والأزياء ولا يزالون عبيدًا لكل شيء أجنبي. ولديهم مقولة شائعة، تحدث إلى سكان شانغهاي عن المال، لكن لا يمكنك الوثوق بهم في السياسة. فهم ما زالوا يحبون الأجانب كثيرًا.

مع نمو قوة ونفوذ الصين على الصعيد العالمي، فإن مثل هذه الفروق مهمة. فهي سوف تشكل الموقف الذي تتخذه الصين تجاه العالم. فما الذي ستختاره الصين؟

وهي تتطلع إلى عدة بنايات من بينها فندق بينينسولا الجديد في منطقة البوند، جلست إيفلين كوكس ابنة أخي فيكتور ساسون في الحافلة السياحية أثناء مرورها في شوارع شانغهاي. لم تكن تريد أن يعرف السياح الآخرون

من هي. كانت لا تزال تتذكر تحذير عمها فيكتور لها قبل عقود: حين قال لها عديني بأنك لن تذهبي إلى الصين أبدًا. هو نفسه لم يعد قط بعد أن تولى الشيوعيون السلطة، خوفًا من اعتقاله بتهمة ملفقة، وأن يحتجز مثلما حدث لابن عمه لوسيان أوفاديا، الذي احتجزه الشيوعيون في البلاد لأكثر من عامين بينما كانوا يطالبون بالمزيد والمزيد من المال لدفع رواتب عمال فيكتور الصينيين وإصلاح المباني التي صادروها.

في عام 2007، تم التعاقد مع شركة أجنبية لترميم وإدارة فندق كاثاي القديم، حيث أنفقت الملايين لإعادته إلى فخامته السابقة في شانغهاي المزدهرة الجديدة. سأل المديرون الجدد كوكس عن تفاصيل وصفات أطعمة فندق كاثاي المفضلة لدى فيكتور، تلك التي دونها في مذكراته الضخمة: طبق ستيك ديان، والدجاج المتبل، والدجاج الحار المصنوع من خردل كولمان. وما هي الأطعمة الأخرى التي طلب من مطبخ فندق كاثاي استخدامها لتحويلها إلى الحساء أو اليخنة؟

والآن تمت دعوة إيفلين كوكس، التي أمضت السنوات الأخيرة من حياة فيكتور في زيارته بشكل متكرر والسفر معه إلى دالاس ولندن ونيويورك، إلى شانغهاي لرؤية الفندق الذي تم ترميمه. قدم المقهى الذي أعيدت تسميته إلى مقهى السير فيكتور وصفاته القديمة. عرض متحف صغير خارج الردهة صورًا لفيكتور وقوائم طعام وأواني فضية من الثلاثينيات. واحتشد السياح الصينيون في الشوارع خارج الفندق لالتقاط صور سيلفي أمام الواجهة. مع حلول المساء، توهج المبنى المزخرف بفن الآرت ديكو، مغمورًا بأضواء كاشفة. قال سائق سيارة أجرة وهو يمر من أمامه: «هذا ما تركه لنا الغربيون». «أليس جميلًا؟»

أحضرت كوكس معها لوحة زيتية لفيكتور وزوجته «بارنسي» التي اقترن بها في أواخر سني حياته - بدا فيكتور في اللوحة متميزًا ورجل دولة على عكس الصور السابقة التي تُظهر الشاب الصغير الفخم النابض بالحياة مع وميض في عينيه، والذي كان دائمًا على استعداد للصفقة التالية، والحفلة التالية، والمنعطف التالي في السياسة الصينية. في احتفال حضره مسؤولون صينيون وعُرض على التلفزيون الصيني، قام الفندق بتركيب الصور في

جناح فيكتور الذي تم تجديده، والذي يمكن للضيوف الآن حجزه مقابل 1100 دولار في الليلة. واعتقدت كوكس أن الصينيين أعلنوا أخيرًا عن رضاهم عن فيكتور بسبب الأشياء الإيجابية التي قام بها من أجل شانغهاي، لم يعودوا يصورونه باعتباره «ذلك الشخص الغني الرهيب الذي عاش على دم الفقراء». وهكذا عاد فيكتور إلى الوطن أيضاً.

فرق الشتات اليهودي الذي انتشر بعد وفاة ديفيد ساسون في عام 1864 بين أفراد الأسرة فتفرقوا بين جميع أنحاء العالم، في لندن والقدس وواشنطن العاصمة ونيويورك، وفي مهن تنوعت بين الأعمال المصرفية والوظائف الحكومية وفي مجال الفنون والدراسات اليهودية. (على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يجربوا صالونات الحلاقة؛ فلم يكن لفيدال ساسون علاقة بها). تضاءلت ثروة العائلة وتبددت. كان قسم كبير من ثروة فيكتور، التي جعلته أحد أغنى الرجال في العالم في ثلاثينيات القرن الماضي، مرتبطًا بفندق كاثاي وعشرات المباني الأخرى التي كان يمتلكها في شانغهاي، والتي استولى عليها الشيوعيون. على مر السنين، بذل أفراد الأسرة جهودًا من حين لآخر لحمل الحكومة الصينية على تعويضهم. لكنها قوبلت بالرفض دائمًا. على النقيض من ذلك، هرب آل خضوري من شانغهاي إلى هونغ كونغ، وظلوا ملتزمين بأن يساهموا في نهضة الصين، وجنوا الفوائد. بالنسبة لعائلة ساسون، كانت شانغهاي قد أصبحت لا تمثل إلا حنينًا لتقاليد العائلة وذاكرتها. في إحدى المرات جرت مقابلة لهيو ساسون، وهو مصرفي في لندن ومن نسل فلورا ساسون التي كانت تحظى باحترام كبير، للتحقق من خلفيته قبل السماح له بالدخول في إحدى الصفقات. وكجزء من الاستجواب الروتيني، سُئل عما إذا كان قد شارك في غسيل الأموال. فقهقه ضاحكًا. قال: «لقد كانت عائلتي تعمل في تجارة المخدرات».

كان جيمس ساسون، ابن هيو، أحد أبناء آل ساسون الذين حافظوا على صلة العائلة بشنغهاي، والذي سافر كثيرًا إلى الصين للعمل وأصبح رئيسًا لمجموعة الأعمال البريطانية الرائدة التي دعت إلى التجارة مع الصين. في عام 2013، أصبح مديرًا تنفيذيًا كبيرًا في شركة جاردين وماثيسون،

وهي نفس الشركة التي نافست عائلته وتغلبت عليها في تجارة الأفيون في سبعينيات القرن التاسع عشر.

في عام 2002، تم تعيين جيمس ساسون مسؤولًا كبيرًا في الخزانة البريطانية. وتم إرساله إلى بكين لإجراء محادثات اقتصادية والتقى بوزير المالية الصيني لو جيوي. كما كان يحدث كثيرًا في مثل هذه الرحلات، كان يسبقه اسم ساسون وتاريخه.

قال له وزير المالية: «اسم عائلتك معروف جدًا في الصين».

اعترف جيمس ساسون بذلك، وتحدثا قليلاً عن تاريخ عائلته وممتلكات فيكتور الضخمة. ثم أضاف ساسون، بشكل ضمني، «إنه لأمر مخز أن الصين لم تطبق السياسة التي اعتمدتها العديد من الدول في أوروبا الشرقية حيث سمحت للمالكين السابقين بالعودة واستعادة ممتلكاتهم. إذا فعلت الصين ذلك، فستكون عائلتنا أفضل حالًا».

نظر لو إليه وابتسم. وتحول إلى الحديث باللغة الإنكليزية وانحنى إلى الأمام. قائلًا «دعنا نطوي صفحة الماضي».

شكر وتقدير

لقد تلقيت المساعدة والدعم من أشخاص ومؤسسات عديدة في جميع أنحاء العالم خلال إجرائي البحوث الخاصة بهذا الكتاب وخلال تأليفه.

أوجه شكري في البداية لأفراد عائلتي خضوري وساسون الذين شاركوني ذكرياتهم وأرشيفهم وربطوني بالعائلة والأصدقاء وشركاء العمل. أسس آل خضوري مشروع تراث هونغ كونغ الذي يحتوي على العديد من أوراقهم العائلية وسجلاتهم التجارية جنبًا إلى جنب مع التاريخ الشفوي للعديد من الأشخاص الآخرين في هونغ كونغ. بتوجيه من أميليا ألسوب، وهي مؤرخة ممتازة، كانت مصدرًا للمعلومات لا يقدر بثمن، استفدت من مساعدة كليمان تشيونغ وميلاني هو وباقي موظفيها. قام أفراد من عائلتي خضوري وساسون بمراجعة مسودة هذا الكتاب للتأكد من دقتها مع إدراك أن مسائل التفسير والتحليل -وأي خطأ- ستكون من مسؤوليتي. أنا أشكرهم على منحي وقتهم وعلى سخاء تعاونهم.

وبالمثل، شاركني العديد من أفراد عائلة ساسون ذكرياتهم وأوراقهم العائلية: إسحاق ساسون في نيويورك، وناثان ساسون في القدس، وجوزيف ساسون في واشنطن العاصمة، وهيو ساسون وجيمس ساسون في لندن. شاركتني إيفلين كوكس ذكرياتها مع فيكتور، وكذلك فعل شقيقها كريستوفر. راجع جيمس ساسون المخطوطات وصحح الحقائق مع الاعتراف بأن تفسير الأسرة للأحداث قد يختلف أحيانًا عن تفسيراتي.

كما أدين للملاحظات التي أخذتها من المصادر التي يزيد عددها على 300 والتي تتضمن التقارير الإخبارية والأبحاث والدراسات في شانغهاي

وهونغ كونغ والصين. تستحق أعمال العديد من المؤرخين تنويهًا وشكرًا خاصين. كانت مايسي ماير رائدة في دراسة حياة اليهود البغداديين في شانغهاي، وقدمت كتبها ومحادثاتها صورة ثرية عن حياتهم في شانغهاي. قام كل من ستانلي جاكسون وسيسيل روث بتوثيق حياة فيكتور ساسون في الأربعينيات والستينيات. أجرى إتش باركر جيمس بحثًا عن حياة فيكتور ساسون على نطاق واسع وشاركني أفكاره العديدة بسخاء. استحوذ تاراس جريسكو على عالم فندق كاثاي والعلاقة بين فيكتور ساسون وإميلي هان في كتابه Shanghai Grand شانغهاي غراند. أطلعني بيتر هيبارد على مواده البحثية والأفكار التي كانت وراء كتبه عن فندق كاثاي وفنادق آل خضوري. قام روبرت بيكرز من جامعة بريستول باستذكار عالم منطقة التسوية الدولية بشكل واضح ووثق الدور المتغير لشنغهاي ومكانتها في نظرة الصين للعالم على مر العقود. قام فرانك ديكوتر بتحليل مقنع لعالم شانغهاي الفريد في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي ودوره في تحديث الصين. أعطاني ليو جودشتات نظرة ثاقبة لتطور هونغ كونغ بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم. تشكلت آرائي أيضًا من خلال أحاديثي مع عزرا فوغل، ورودريك ماكفاركوهار، وجوناثان غولدشتاين، ومارفن توكاير، وإليزابيث سين، وستيف تسانغ، وباتريك كرانلي، وستيف هوشستادت، وجيمس روس، وبارون بن نيه، ومانلي هو، وميرون ميدزيني، وكيارا بيتا، وهارييت سيرجنت ودفير بارغال ويوك تشوي كونغ.

أود أن أشكر العديد من الأشخاص في هونغ كونغ الذين، بالإضافة إلى أولئك الذين ذكرتهم، شاركوني ذكرياتهم وأفكارهم حول آل خضوري والصين وهم: وليام موكاتا، واي بي لي، وسوزان تورنر، ومايكل غرين، وروبرت دورفمان، وإيلين فورسغيت ماردن، وديفيد زويج، وريتشارد مارغوليس، وإس جيه تشان، وديفيد أكيرز - جونز، وليو أو فان لي، وفودين إنجلاند، وإليزابيث سين، وإدموند كووك، وجون دولفين، وآندي براون، وزوي يونج، وكوني يوين، وتسانغ فان كوونج، ودينيس ليفينثال.

فتحت المكتبات ودور الأرشيف في جميع أنحاء العالم مجموعاتها أمامي. شكري للقائمين على أرشيف شركة جاردين في مكتبة جامعة

كامبريدج، والمجموعات الخاصة في مكتبة جامعة هونغ كونغ، والمجموعات الموجودة في المكتبة البريطانية وأرشيفات الحكومة البريطانية في كيو، ومركز هوارد غوتليب لأبحاث المحفوظات في جامعة بوسطن. شكر خاص لآن بيترسون، التي تشرف على يوميات فيكتور ساسون في مكتبة دي غلوير في جامعة ساوثرن ميثوديست في دالاس. استجابت مكتبة جامعة نورث إيسترن لجميع طلباتي العديدة على الفور، وساعدت سوزان كونوفر في الحفاظ على أن تسير مسؤولياتي البحثية والإدارية على المسار الصحيح.

في شانغهاي، ساعدتني هيلين يو في البحث وساعدتني في إجراء العديد من المقابلات، وشاركتني انطباعاتها الخاصة عن عائلتي خضوري وساسون. قدم بان غوانغ وزملاؤه في أكاديمية شانغهاي للعلوم الاجتماعية قدرًا كبيرًا من البصيرة في الاجتماعات وفي أبحاثهم على مر السنين، كما فعل شو شين وزملاؤه في جامعة نانجينغ.

عند تأليف الكتاب، استفدت من علاقة الصداقة (وغالبًا ما تكون الإقامة معهم) مع ديف أرنولد وآن موريتز، ودوج تيفت وبوني ماك آدم، وجون تاجليابو، وباولا بوتوريني، وليلى لو، وجلين ماكاي، وستيف سانت إيككلو ولوري هايز وهارولد فارموس وكوني كيسي ودان جولدن.

قرأ العديد من الزملاء مسودات هذا الكتاب وقدموا انتقادات واقتراحات مفيدة، كنت ذكيًا بما يكفي لأخذها. شكري لتيموثي تشيك، ومارك كليفورد، ولوري ليفكوفيتز، وإيثان برونر، وأميليا ألسوب، ومي فونج، وديفيد ويسيل، وتوم أشبروك، ودوج تيفت، ومايكل كارلايل ومايكل مونجيلو. كانت جولي ليبكين هي من قامت بتحرير الكتاب في صيغته الاخيرة بدقة متناهية بعد مراجعتها للعديد من مسوداته.

قدمت أندريا شولتز وفريقها في فايكنغ دعمًا حماسيًا منذ بداية هذا المشروع. قرأت جورجيا بودنار المسودات بتمعن. أدت أسئلتها الاستقصائية ووجهة نظرها التحريرية إلى تحسين محتوى الكتاب في عدة نقاط رئيسية. كانت تيريزيا سيسيل محررة بارعة، تحذف التكرارات والعبارات المحرجة

وتوضح ما قصدت قوله. وقد أدى حسها الفكاهي وتقديرها الجيد لأن يخرج الكتاب بصيغة أفضل. كما أود أن أشكر عمل التدقيق الدقيق لكاثي ديكستر. في لندن، كما استفدت من دعم ناشري البريطاني، بيل هاميلتون، وآرائه، وناشري ريتشارد بيسويك، وفريقه في دار ليتل براون للنشر.

كان وكيل أعمالي، مايكل كارلايل، كما هو الحال دائمًا، متحمسًا عندما يكون الأمر مهمًا، وحكيمًا عند احتسابه، ومحررًا ثاقبًا، وصديقًا جيدًا. كنت رائعًا!

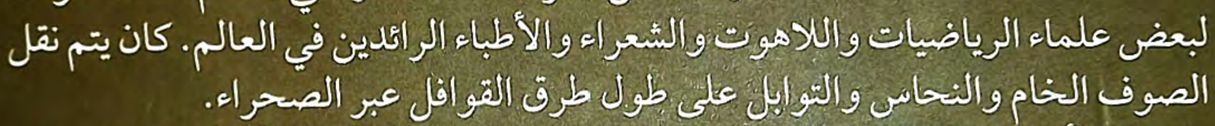
زرت شانغهاي لأول مرة عندما كنت في العشرينيات من عمري، قبل سنوات عديدة من لقائي بزوجتي، باربرا هوارد، وكانت لدينا عائلتنا. كانت تقول إنها كانت تعلم دائمًا أننا سنعود إلى الصين. عندما فعلنا ذلك، كان معنا أطفالنا الثلاثة. هم أيضًا وقعوا في حب شانغهاي. هذا الكتاب مهدى لباربرا ومولي وبن ونيك. لا يمكنني أن أكون أكثر حظًا أو سعادة كوني أعيش معهم.

المحتويات

عبر الشوارع المظلمة، هرب أغنى رجل في بغداد لينجو بحياته. قبل ذلك بساعات فقط، قام والد ديفيد ساسون بدفع فدية لإخراجه من السجن حيث قام الحاكم التركي والي بغداد بإيداعه هناك، وهدَّد بشنقه إذا لم تدفع الأسرة فاتورة ضريبية باهظة. وهناك الآن قارب يرسو في انتظار أن يأخذ ديفيد البالغ من العمر 37 عاماً إلى برِّ الأمان. ربط حزام نقود حول خصره وارتدى عباءة، وقام الخدم بوضع اللؤلؤ داخل بطانة العباءة وشرعوا بخياطتها. كتب مؤرخ العائلة واصفاً الموقف: «لم تظهر سوى عينيه اللتين كانتا تفصلان بين العمامة والعباءة الملفوفة حول جسمه وهو يتسلل عبر بوابات المدينة التي عاش فيها أجيال من أقاربه وكانت محط تقدير واحترام. كان ذلك عام 1829 حيث عاشت عائلته في بغداد مثل الملوك لأكثر من ثمانمائة عام».

كان فرار اليهود من الحكام القمعيين حدثاً تاريخياً شمل اليهود في مناطق متعددة من العالم حتى حلول القرن التاسع عشر. فقد طُردوا من بريطانيا عام1290، ومن إسبانيا عام1492. وكانت مدينة البندقية قد أمرت باحتجازهم في الأحياء اليهودية ابتداء من العام 1516. علماً أن أهوال الإبادة الجماعية (الهولوكوست) لم تكن قد حدثت بعد.

كانت رحلة ديفيد ساسون مختلفة. عاش اليهود دائماً على هامش المجتمع في أوروبا. ولكن لأكثر من ألف عام، ازدهرت حياة اليهود في بغداد، المعروفة في الكتاب المقدس باسم بابل. وكانت بغداد تُعدّ أكثر من أي مدينة في أوروبا، بل وأكثر من القدس مفترق طرق للثقافات منذ سنة 70 إلى 1400 . عندما كانت أوروبا غارقة في ظلام العصور الوسطى، كانت بغداد واحدة من أكثر المدن حضارةً في العالم. كانت موطناً



لبعض علماء الرياضيات واللاهوت والشعراء والأطباء الرائدين في العالم. كان يتم نقل الصوف الخام والنحاس والتوابل على طول طرق القوافل عبر الصحراء.

وكانت الأسواق مليئة باللآلئ والفضيات. وكان يجتمع التجار والأطباء والفنانون في مقاهي بغداد. كان قصر الحاكم محاطاً بثلاثة أميال مربعة من الحدائق المشجرة، مع نوافير وبحيرات مليئة بالأسماك.

